جوزيبي كونتي

الأسطورة اليونانية وصيانة النفس

وصايا من جبال الأولمب للحفاظ على النفس والجسد



ترجمة: مينا شحاتة

جوزيبى كونتى

الأسطورة اليونانية وصيانة النفس

وصايا من جبال الأولمب للحفاظ على النفس والجسد



ترجمة: **مينا شحاتة**

الأسطورة اليونانية

جوزيبّى كونتى

- المؤلف: جوزيبي كونتي
- العنوان: الأسطورة اليونانية وصيانة النفس
- ترجمة: مينا شحاتة
- الطبعة: الأولى 2024
- تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- مستشار النشر: سوسن بشير
- المدير العام: مصطفى الشيخ



رقم الإيداع:
٢٩٦١٨ / ٢٠٢٣
الترقيم الدولي: ISBN
978 - 977 - 765 - 404 - 3

Afaq for Publishing & Distribution

17 Mahmoud Basiony St, 6th floor, from Tallat Harb Sq, Cairo – Egypt
Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail: afaqbooks@yahoo.com

١٧ شارع محمود بسيوني – الدور السادس – متفرع من ميدان طلعت حرب – القاهرة – جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ – ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ – موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

afaqcairo afaqcairo afaqcairopblsh

جوزيبّى كونتى

الأسطورة اليونانية
وصيانة النفس

وصايا من جبال الأولمب
للحفاظ على النفس والجسد

ترجمة

مينا شحاتة

آفاق للنشر والتوزيع

هذه ترجمة كتاب:
IL MITO GRECO E LA MANUTENZIONE DELL'ANIMA
by Giuseppe Conte

www.giunti.it

تمت ترجمة هذا الكتاب بتمويل من SEPS
SEGRETARIATO EUROPEO PER LE PUBBLICAZIONI SCIENTIFICHE



Via Val d'Aposa 7 - 40123 Bologna - Italy
seps@seps.it - www.seps.it

إهداء

أهدي هذا الكتاب إلى جيمس هيلمان بمناسبة الذكرى العاشرة لوفاته.

في ريعان شبابي، بعد أن قرأتُ له بعض كتبه بحماسةٍ شديدة، راسلته في دالاس، في العنوان الذي أعطاني إياه معلمي جيلّو دورفلس، أصابتني دهشة عارمة ما إن تلقَّيتُ ردَّه. تلقَّيتُ خطابًا مكتوبًا باليد بقلمٍ أحمر، أكد لي من خلاله أنه يرى أن عقلنا لا يمتلك أي أسسٍ جسدية أو لغوية أو أيديولوجية أو نفسية وإنما «شاعرية».

التقيتُ به بصورة شخصية للمرة الأولى خلال معرض الكتاب في تورينو، حيث انعقد ضمن فاعلياته مؤتمرٌ يدور حول الأسطورة نظَّمه ماريو باودينو، أراد الإطلاع على مداخلتي في الليلة السابقة. عندما أعادها إليَّ سألني باسمًا مندهشًا من أين حصلت على كتاب موراي شتاين في منتصف العمر، الذي ذكر هرمس بين صفحاته. في الواقع، كانت بداخله ما يُشبه «حلقات الأسطورة». أدين لصديقتي المدعوة أنَّا ميدا التي تُدرِّس في جنوب إفريقيا لأنها هي التي أهدتني إياه. مرَّت سنوات عديدة حتى بعثت لي سيلفيا رونشي، كاتبة العديد من المحادثات الثمينة مع هيلمان، بصورةٍ للكتب الموضوعة بجانب فراش هيلمان في الأشهر الأخيرة من حياته؛ لاحظتُ وجود النسخة الأمريكية من كتابي المحيط والصبي مع مقدمة بقلم إيتالو كالفينو.

أهدي هذا الكتاب أيضًا في ذكرى كالفينو، كنوعٍ من الامتنان والعاطفة التي تنامت بيننا باستمرارٍ، ولم تضعف رغم صداقتنا القصيرة المدى.

لم نلتق قط في ليجوريا على الرغم من إيماني بأن أصولنا المشتركة في ريفييرا دي بوننتي لم تكن غريبة عن العلاقة التي نشأت بيننا (كحبنا للارتحال إلى فرنسا أو الولايات المتحدة). التقيتُ به في كاستليون ديلا بيسكايا برفقة بيترو شيتاتي، وفي روما في منزله بالقرب من البانثيون.

لا أعرف، ولا أحد يستطيع أن يعرف، كيف كان من الممكن أن يتصوَّر فكر كالفينو بعد المحاضرات الأمريكية -التي سعدتُ بقراءة مخطوطاتها- التي أشار في طيَّاتها إلى عطارد(1) وفولكان(2) بأنهما بمنزلة قطبي ذهنه، كما لا أعرف ما إذا كان بعد التناغم «الخارق للطبيعة» (هكذا وصفه بسخريةٍ بارعة في الإهداء الذي أهداني إياه على نسخة السيد بالومار) بين وصفه

ووصفي لحب السلحفتين، أن يكون من الوارد ظهور تناغمات أخرى بيننا، أحب دائمًا أن أفكر وأؤمن بهذا.

1) إله رشيق بقدمين مجنَّحتين.

2) إله حدّاد يقبع في فوهة البراكين.

الجزء الأول

النفس والأسطورة

ما يُشبه المقدمة

كان أبي، فرنسيس كونتى (1986 - 1920)، هو مَن أوضح لي مغزى اللمحة الأسطورية الخاصة باللوحة الجدارية المرسومة على دائرة سقف الغرفة حيث كنت أنام، في تلك الشقة غير المحدودة المتهالكة حيث أمضيتُ طفولتي في بلدة صغيرة من مقاطعة ليجوريا في ميناء مارتسيو. كان أبي من صقلية، وقد أجرى العديد من الدراسات الكلاسيكية رغم أن جميع أقاربنا الليجوريين كانوا بمنأى عن تلك الدراسات بشكلٍ صارم تمامًا.

ارتسمت عربة هيليوس على اللوحة، إله الشمس، يجرُّها حصانان، ينطلقان عبر الغيوم، وينفثان النيران من أنفهما. أما عن قيادة العربة، فكان هناك السائق الشاب فايثون الذي لم يفلح في التحكُّم بزمامها آنذاك. كان ابن هيليوس، وفي ذلك اليوم رغب أن يحل محل والده بأي ثمنٍ، ولم يتبع أيًّا من نصائحه؛ بل عصاه، وحمل عربة الشمس بعيدًا جدًّا عن الأرض، مما تسبَّب في إحداث عواصف جليدية مميتة، ثم عاد وقرَّبها جدًّا منها، الأمر الذي أدى إلى اندلاع حرائق مروعة. أُلقي بفايثون بقسوةٍ إلى الأرض، وكانت هذه هي الطريقة المثلى حتى يستعيد الكون توازنه. كانت قصة هيمنت على ما يُعرف ربما بالاضطرابات الكونية البدائية آنذاك، وفي الوقت نفسه تُخلِّد أبدية عصيان الأبناء لأبيهم.

أنا أيضًا، في مستهل شبابي، كنت أتمرد على أبي، على الآباء كافة، على تقاليد الحضارة التي وُلدتُ في جنباتها، ابتعدتُ عن الأسطورة حتى أصبح في صفوف المعاصرين. كنت مثل اللوح الفارغ(3)؛ وجدتُ نفسي فارغًا، خاملًا، عاجزًا عن تحسُّس دربي، مُخاطرًا بالاحتفاء بأحلامي إلى الأبد، مثَّلت تلك المرحلة رحلتي القصيرة من العدمية وخيبة الأمل. عندما أعدتُ اكتشاف الأسطورة، أو بالأحرى عندما عادت الأسطورة تتسلَّل بهيمنةٍ داخل نفسي وتملأ الفراغ الكامن بي تمامًا كما يسري الأمر وفقًا لقاعدة الأواني المستطرقة(4)، وبالمقارنة بتلك الأساطير اليونانية، صرت متيَّمًا أكثر بالشعوب المندثرة كشعوب الآزتك(5)، والمنهزمة كالأمريكيين الأصليين، وشبه المختفية كالقلط(6)، والبعيدين مثل الهنود التابعين للهندوسية.

3) الصفحة البيضاء باللاتينية (Tabula Rasa) أو اللوح الفارغ، تشير إلى الفكرة في نظرية المعرفة القائلة إن الأفراد يولدون من دون محتوى أو معرفة عقلية سابقة، ولذلك فإن كل المعرفة تأتي عن طريق التجربة أو الإدراك.

4) الأواني المستطرقة هو الاسم الذي يُطلَق على مجموعة من الحاويات المتصلة التي تحتوي على سائلٍ متجانسٍ، وعندما يستقر ذلك السائل، فإنه يتوازن في كل الحاويات عند نفس المستوى أو المنسوب بغض النظر عن شكل وحجم الحاوية.

5) من الشعوب الأصلية في الأمريكتين، أطلقوا على أنفسهم مكسيكا، أو تينوشكا، وبوجه أعم كانت ضمن المجموعات العرقية الناطقة بلغة ناهواتل، التي كانت تعيش في منطقة وادي المكسيك في وقت الغزو الأسباني.

6) مجموعة من الشعوب الهندية الأوروبية عاشت في مناطق واسعة من أوروبا والأناضول، وامتازت باستعمالها اللغات القلطية وبعناصر ثقافية أخرى متشابهة.

بدت لي أوروبا بلدًا عقيمة، بلا روحٍ، فهربتُ إلى حدودها وإلى قاراتٍ أخرى كي أعثر على طاقة روحية فقدتُها، والتي أسكنت بداخلي فجأةً الوعي والولع بالأسطورة من جديدٍ، وبعيدًا، أزاحت الظلمة والمادية وتسطيح الحاضر.

كنت أسافر كثيرًا جدًّا وقتذاك، وأبحث عن أماكن تتجسد من خلالها أكثر الأساطير التي أحبها في مناظر الطبيعة والألوان والأصوات والأضواء والذكريات والمعابد، وتنحدر من الجغرافيا والتاريخ، كنت أسافر بدفترٍ وقلم حبر من دون حاجةٍ إلى أي شيء آخر.

اختبرتُ سعادة الحرية المطلقة في أثناء الانتقالات، في أثناء هروبي من ذاتي. كنتُ أجوب جزر آران على القدمين، وجزر أوركادي بالدراجة، واستأجرتُ فلوكة في نهر النيل ذات الطاقم العربي حتى أصل إلى جزيرة فيلة، وتجولتُ بالسيارة عبر التاميل نادو(7)، وبوركتُ من أحد البراهمة(8) في كانتشيبورام(9). بلغتُ تاوس(10) ومحمية تاوس بويبلو (11)بعربةٍ دودج قديمة ذات ناقل حركة يدوي ثم انطلقت بعدها إلى الجبال الصخرية(12). في تلك الآونة، كانت إحدى شركات الطيران التي لم تَعُد موجودة الآن، TWA، تبيع تذاكر ذهاب وعودة يمكنك من خلالها (13) الانتقال من مدينة إلى أخرى داخل الولايات المتحدة الأمريكية. حدث أنني كنت أحرك عقارب الساعة مرتين في اليوم الواحد، تارة إلى الأمام، وأخرى إلى الخلف، وكم من مناطق زمنية كنت أغيرها بدءًا من كاليفورنيا وحتى ميزوري ونيو مكسيكو.

7) إحدى ولايات الهند البالغ عددها 28 ولاية، وعاصمة هذه الولاية هي مدينة تشينايي، وتقع ولاية تامل نادو في أقصى جنوب شبه القارة الهندية.

8) اسم يُطلق على أفراد الطبقة العليا، وهي طبقة الكهنوت أو رجال الدين عند الهندوس، حيث إن المجتمع الهندي ينقسم إلى أربع طبقات: البراهمة، والنبلاء، والبرجوازيون، والحرفيون، وتُعَد البراهمة من أرفع هذه الطوائف، ولهم منَاسِك وطرق معيشة خاصة بهم.

9) مدينة هندية تقع بولاية تامل نادو حيث تبعد قرابة 60 كيلومترًا باتجاه جنوب الغرب عن تشيناي عاصمة الولاية.

10) بلدة تقع بولاية نيو مكسيكو في الولايات المتحدة.

11) بويبلو (قرية بالإسبانية) قديمة تعود لقبيلة تاوس الأمريكية، وتقع شمال مدينة تاوس، نيو مكسيكو بالولايات المتحدة.

12) مجموعة من السلاسل الجبلية تقع غربي قارة أمريكا الشمالية، وتمتد على مسافة 4.800 كيلومتر من الأطراف الشمالية لولاية بريتيش كولومبيا الكندية إلى ولاية نيو مكسيكو في الجنوب الغربي للولايات المتحدة الأميركية.

13) شركة طيران أمريكية تأسست عام 1925 حتى تم شراؤها ودمجها مع الخطوط الجوية الأمريكية في عام 2001.

وُلد كتابي أراضي الأسطورة من تلك الخبرة؛ ذلك الذي صدرت نسخته الأولى عام 1991. تشابك شغفي بالأسطورة بذلك الشغف نحو الترحال، هربًا من عالم بلا آلهة وبحثًا عن آلهة جديدة. بدا لي أن الطبيعة؛ المرأة العظيمة المريضة لحضارتنا الحالية، يُمكن أن تُشفى وتُبعَث مجددًا فقط إذا ما عاد اللاهوت إلى سكناها بإحساسٍ جديدٍ مفعمٍ بالقداسة؛ كل هذا وجدته في الأسطورة، في أساطير العالم.

هذا الكتاب الذي تنضم إلى قراءته، عزيزتي القارئة وعزيزي القارئ، وُلِد في حالة تكاد تكون فريدة من نوعها من العزل والحبس القسري داخل المنزل وداخل نفوسنا بينما تنتشر جائحة مجهولة في الخارج تجلب الموت والقلق والخوف. وسط هذا الظرف الجديد القمعي المفعم بالريبة، بات من الضروري بالنسبة إليَّ العودة إلى الأصول، إلى الأسطورة التي نقشت صورها سابقًا في مخيلتي وفي روحي وغذَّت بنفسها الحضارة التي وُلدت فيها لقرونٍ عديدة.

شعرتُ بحاجة إلى العودة إلى ذلك الطفل الذي كان وهو في السادسة أو السابعة من عمره يستمع إلى أبيه يحدِّثه عن عربة الشمس وعن فايثون، الطفل الذي يخشى النظر من أسفل، يسترجع برقبة موضوعة على الوسادة تلك الحوافر، والشعر الكثيف، والخياشيم النارية، وربما كان يعي بالفعل حجم صعوبة اتِّباع رغباته من دون أذى. كنت في حاجة إلى العودة إلى ذلك الطالب الذي وهو في عمره الحادي عشر فتح للمرة الأولى الإلياذة لهوميروس وافتتن بلا حدودٍ بأخيل، وأظهر نفوره العميق حيال أجاممنون مدركًا سحره الشرير والقاتل.

في أثناء كتابتي هذا الكتاب، أظهرت لي الأسطورة أكثر فأكثر ارتباطها غير المنفصم مع النفس. بواسطة نفس كل فرد منَّا، تلك الأنفس التي ضلَّت سبيلها في القرن الحادي والعشرين، فقاموا بأعنف هجوم على الطبيعة، وسمَّموا الهواء، وكسوا البحار بالبلاستيك(14)، وحرقوا الغابات، وأذابوا الأنهار الجليدية، وأفسدوا المناخ، وفي الوقت نفسه بدوا كأنهم يرغبون في محو كل ملمحٍ إنساني، بل ومحو الجوهر الإنساني ذاته في مقابل واقع يستمد قيمته من التكنولوجيا والاقتصاد والمال والربح في المقام الأول مهما كانت التكلفة؛ فصاروا كالزومبي، والعبيد، أشبه بآلات بشرية، كشعوبٍ سحقها الفقر والتعاسة والهذيان.

(14) استخدم الكاتب بالإيطالية الفعل من كلمة بلاستيك ليوحي بكثرة انتشار الأكياس والمخلفات البلاستيكية الضارة الملقاة في البحار.

ومع ذلك، ورغم أن النفس ما زالت تتعرَّض لهجومٍ مماثلٍ لهجوم الطبيعة تمامًا، ورغم مقدار الظلمة الفاسدة التي نجحت في التسلل إليها، ما زالت تنبض بالحياة بجانب دوافعها وعواطفها ومحفزاتها وذكرياتها ورغباتها. وجدتُ أن دانتي(15)؛ الوريث المسيحي ورائي هوميروس وفيرجيل، في أنشودته الثالثة والثلاثين من الفردوس أطلق عليهم بتعبيرٍ أذهلني كثيرًا حتى اعتمدته في حديثي: «النزعات البشرية». ومع كل هذه النزعات البشرية، جوهر شعورنا وحياتنا، فإن الأسطورة اليونانية التي اتجه إليها دانتي من خلال فيرجيل وأوفيد أكثر بكثيرٍ مما نزعم، فبواسطتها تمَّت تسمية الربات والآلهة، والبطلات والأبطال، بل والوحوش أيضًا في بعض الأحيان.

(15) من أعظم شعراء إيطاليا، ولد في فلورنسا، ومن أهم أعماله: «الكوميديا الإلهية» المكونة من ثلاثة أقسام: الجحيم، المطهر والفردوس التي سيتردد صداها كثيرًا في فصول الكتاب.

رويدًا رويدًا صار لي تجسيم صور الأساطير اليونانية بمنزلة تجسيم لنفس الإنسان التي لا تزال رفيعة حتى يومنا هذا، وخصوصًا بالنسبة إلى الإنسان ذي الحضارة الفريدة على سطح الكوكب التي وضعت في مركزها الإنسان والحرية، وبزغ خيالها من بين جذور الأسطورة اليونانية حتى قبل الكتاب المقدس والمسيحية على حدٍّ سواء، ومنذ تعدد الآلهة في الشهوات والطبيعة وحتى التوحيد بالله في الشريعة والأخلاقيات.

من هذا الصدد، جاءت فكرة أن عناصر أنفسنا الأسطورية -تلك التي تحدد المستوى العاطفي لوجودنا- يمكن أن تكون موضوع «صيانة»؛ أي سلسلة من العمليات التي تهدف إلى إبقائها «في حالة سليمة». إنها فكرة عرض سلسلة أيضًا من أقوالٍ مأثورة مستوحاة من لاروشفوكو(16) وجوته، بل وأجزاء من الإنجيل المحرف لبورخيس(17)، بهدف إحداث عملية صيانة يومية من الصباح وحتى ظُلمة الليل.

(16) مؤلِّف أقوال وكاتب مذكّرات فرنسي شهير. قيل إنه نظر إلى العالم بشكلٍ واضحٍ ومتحضِّر، وأنه لم يُدِن السلوك البشري ولم يحتفِ به بشكلٍ عاطفي. وُلد في مدينة باريس الفرنسية في الفترة الزمنية التي كان فيها البلاط الملكي متذبذبًا بين مساعدة النبلاء وتهديدهم، اعتُبر فرانسوا نموذجًا مثاليًّا للرجل النبيل البارع في القرن السابع عشر.

(17) كاتب أرجنتيني يعتبر من أبرز كتَّاب القرن العشرين.

تُعَد الأسطورة نبعًا لطاقة تنتشر من دون أن تنضب أو تتوقف أبدًا عن التدفق، وبينما تحدثنا عن أنفسنا، تحدثنا عن مصائرنا أيضًا.

وجدتُ في طيات أحد المجلدات إهداءً في أثناء الاحتفال بيوم القديس(18)، عام 1962، وقد أرفق أبي الهدية بآلة كاتبة من طراز أوليفتّي ليتّيرا 22. ما أثار عاطفتي هو ملاحظتي أن الإهداء المكتوب بواسطة آلة كاتبة على ورقة شبه شفافة كُتِب بطريقة شعرية ومُطعَّمًا بمصطلحاتٍ كلاسيكية تبدو مأخوذة من ترجمة الإلياذة لفينشنزو مونتي. كُتب عليها «merto»: أي ورق الغار، وترمز إلى المجد الشعري. كان أبي المسكين، رجل الفعل «lauro»أي الفضل، و والقول، صار كريمًا معي حتى تمنى لي، في أبياتٍ شعرية مقفية، أن أكون كاتبًا في المستقبل.

18) تقليد في بعض بلدان أوروبا وأمريكا، وفي بلدان الروم الكاثوليك والأرثوذكسية الشرقية عمومًا، حيث يكون الاحتفال بيومٍ من السنة يرتبط بقديس مسمى باسمه الشخص ويكون الاحتفال مشابهًا ليوم الميلاد.

لم يعُد هناك أي متسع الآن سواء لفضلٍ أو لمجدٍ، لكن يبقى الإخلاص للكتابة، والولع بالأدب، والأسطورة الغريبة الحتمية لأولئك الذين كرسوا حياتهم لها بدءًا من الآلة الكاتبة أوليفتّي ليتّيرا 22 وحتى انقضت قرابة الستين عامًا، إلى أن وصلنا إلى هذا الكمبيوتر الذي أكتب عليه الآن في منفى مُعدٍّ من جرعاتٍ متساوية مختلطة بمعاناةٍ دفينة، وفرحة لا توصف، وتحدٍّ للمصير وقبوله في آنٍ واحد.

في البدء كانت الأسطورة، وما زالت إلى الآن

عزيزتي القارئة، عزيزي القارئ، إذا ما نظرنا إلى الأمر بنظرة سطحية سيبدو لنا أن الأسطورة شيء بعيدٌ، مجردٌ، قديمٌ، تمتزج بالخرافات الجميلة والدموية، لكنها تتحدث عنَّا حتى يومنا هذا. حقًّا إنها تكمن داخلنا، حتى وإن كانت عالقة في بعضٍ من مناحي وجودنا المخبأة عن المعرفة المعاصرة والعلوم والتكنولوجيا والطب. إنها بمنزلة جزء منَّا يقبع في الظلام، إنها مملكة ظلامية معزولة من دون أن تختفي أبدًا، مليئة بالآلهة المدهشة، والأبطال طيبي الأعراق، بل وأيضًا الوحوش الضارية، وفي هذه المملكة سوف نجوب الصفحات صفحةً تلو الأخرى.

عزيزتي القارئة، عزيزي القارئ، في اللغة المعاصرة قد يتناهى إلى مسمعك مصطلح «أسطورة» ويتردد كثيرًا ليوحي بشيءٍ يستحيل حدوثه، زائف، بلا جدوى، منافٍ للمنطق، أو درب من دروب اليوتوبيا العبثية غير المجدية. لكن في عصرنا هذا شاع استخدام المصطلح لتجسيد شخصيات من النظام النجمي؛ أي المطربين ولاعبي الكرة والممثلين، أو أشياء ثمينة ذات قيمة كبيرة يصعب إدراكها.

إن كبار ممثلي الأفلام في هوليوود، أو إبَّان العصر الذهبي لمدينة السينما(19)، كان يُطلَق عليهم «النجوم» و«النجمات»، تلك المسميات التي تمثِّل شكلًا عتيقًا وأدبيًّا للربات والآلهة، أو ببساطة «ستار»؛ نجوم، مع التنبيه على أنني لا أعرف بشكلٍ واضح نهاية العديد من المغامرات الأسطورية التي تحولت فيها البطلات والأبطال إلى نجومٍ وأبراج فلكية في جَلَد السماء. وإلى الآن، ما زال يُخَلّد اسم أي نجم أمريكي أو عالمي في صورة نجمة مرجانية وردية اللون وذات إطار نحاسي توضع على ممشى المشاهير في هوليوود.(20)

(19) Cinecittà وهي أكبر أستوديو أفلام في العاصمة الإيطالية روما.

(20) ممر في لوس أنجلوس يُعنى بتكريم المشاهير من البشر وغير البشر في صورة نجوم توضع به، ويوجد الآن أكثر من 2640 نجمة منذ بدايته عام 1959.

بصورة أو بأخرى، فإن الموت المبكر المأسوي العنيف الغامض ساهم بطريقة حاسمة في تدعيم الشخصية الأسطورية التي جسَّدتها بعضٌ من شخصيات الأفلام. على سبيل المثال دعونا نذكر جيمس دين الذي جسَّد صورة جديدة عن الشباب في «متمردون بلا سببٍ» الذي كان عنوانه الأصلي «الشباب الضائع»، فيلم لنيقولاس راي عام 1955، وذلك قبل بزوغ حركة جيل بيت(21) وظاهرة الهيبيز(22) التي بات من خلالها لتمرد الأجيال الجديدة صوتًا ومعنى.

(21) حركة أدبية نشأت من مجموعة من الكُتَّاب الأمريكيين أثرت كتاباتهم في الثقافة بالولايات المتحدة الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية. اعتمدت ثقافة «البيّت» على أشكال جديدة للجنس، اهتمام بالديانات الشرقية، رفض الاقتصاد المادي، رفض التمجيد وغيرها من وسائل التعبير المعاصر.

(22) ظاهرة اجتماعية كانت في الأصل حركة شبابية نشأت في الولايات المتحدة في ستينيات وسبعينيات القرن العشرين، ثم ما لبثت أن انتشرت في سائر الدول الغربية. تُعد هذه الحركة مناهضة للقيم الرأسمالية؛ حيث ظهرت بين طلاب بعض الجامعات في الولايات المتحدة كظاهرة احتجاجٍ وتمردٍ على قيادة الكبار ومظاهر المادية والنفعية وثقافة الاستهلاك، ووصل الحدّ ببعض الشباب المتذمر إلى التمرد على هذه القيم والدعوة إلى عالم تسوده الحرية والمساواة والحب والسلام، وميزوا أنفسهم بإطالة الشعر ولبس الملابس الفضفاضة والتجول والتنقل حسب أهوائهم في مختلف الأنحاء كتعبيرٍ عن قربهم من الطبيعة وحبهم لها.

أذكر مارلين مونرو التي كانت بمنزلة معشوقة وحلمٍ جنسيٍّ بريء لدى جميع المراهقين من جيلي على سطح هذا الكوكب. تلك التي انتهى بها الأمر وحيدة في غرفة بمنزلها في لوس أنجلوس، تتشبَّث بهاتفها بلا جدوى أملًا في كلمة مواساة أو حب، بعد أن ابتلعت جرعة قاتلة من الباربتيورات(23) (ربما كانت ضحيةً، كما تردد بعض الشائعات، لبعض مؤامرات دنيئة لا ترحم). مَن لم يسمع قط وصف بيليه أو دييجو أرماندو مارادونا بالأسطورة حتى إن معجبيهما أكدوا ظهورهما في السماء بعد موتهما؟

(23) أدوية مثبطة للجهاز العصبي المركزي، تقوم بإنتاج مفعول واسع المدى، من مهدئ خفيف المفعول إلى مخدرٍ كاملٍ.

أسطورة: شيء استثنائي يظهر كحلمٍ لا يُدرَك. لا تقتصر صورتها على الأبطال الخارقين أو النجوم اللامعين في عالم الإعلام، وإنما تمتد حتى رولز رويس وفيراري، ورداء من شانل أو فالنتينو، وجلنفدّش[24] من عام 1937، أو لويس روديرير كريستال بروت من عام 1990.

[24] من أشهر أنواع الخمور.

الآن عزيزتي القارئة، عزيزي القارئ، ستفهم على الفور أنك فتحت للتوِّ هذا الكتاب وأنت على وشك السفر بين صفحاته، وسوف تستمع إلى حديثٍ عن الأسطورة بطريقةٍ مغايرة تمامًا.

ستظهر لك الأسطورة كدربٍ من دروب المعرفة، كجهازٍ عظيمٍ من المعرفة الخيالية وعصور ما قبل التاريخ التي تتعلق بأصول الكون والطبيعة والإنسان. تحكي لك، في قصصٍ رمزية عظيمة، مليئة بالدهشة والرعب أيضًا، كيف تكون العالم من الفوضى، ما هي تيارات الطاقة الحيوية التي تمر عبر البحر، العشب، الأشجار، الغابات، وأي نماذج إلهية تجمَّعت في كيانك، وتتحكَّم في أهوائك، ودوافعك، ومحفزاتك الخفية، وكل ما لا يتحكم به عقلك أو يفسره.

يمكن أن تندثر، هذا صحيح، ويمكن استهلاك الأسطورة الأصيلة ونفوذها بصورة كاملة، ويمكن أن يصيبها زيف الحياة اليومية وعبثها. أما في الدعايا والإعلان، فيمكن تحويلها إلى سلعة ذات ثمن كسائر الأشياء في عصر الهيمنة المطلقة لمنظومة الاقتصاد. رغم كل ذلك، لا يمكن أن تُدَمَّر بأي صورة؛ فهي تبقى في أعماق نفوسنا كحاجةٍ أصيلة لا تُمحى، كحشرةٍ ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ كامنة في العنبر.

دعونا نضرب هذا المثال: جميعنا على دراية بأن أي عطلة اليوم في إحدى الجزر الاستوائية تهدف بشكل أساسي وبصورة عبثية إلى الحصول على بشرة سمراء، ولعب كرة الطائرة الشاطئية، والبوفيه المعد بجانب البحر، حقًّا، لا يمكن أن ننكر تلك الصورة التي صرنا إليها الآن. لا يعلم الجميع أن الرغبة في عطلة على إحدى الجزر النائية هي أساس البقايا الكامنة في وجداننا لتلك الأسطورة التي تظهر أن الإنسان يُبحر نحو اكتشاف أو إعادة العثور على مواضع كالتي في عدن[25]، أو جزر مسحورة تسكنها الحوريات مثل كاليبسو[26]، جزر وفيرة بزهورٍ ذات ألف لون وأشجار ذات أغصان فضية حيث توجد منابع الشباب الأبدي.

[25] جنة عدن هي اسم عبري معناه «بهجة» أو «فرح»، حيث غرس الله في الأرض شجرًا شهيًّا للنظر وجيدًا للأكل وعمل حديقة سميت بجنة عدن، من أجل آدم ليسكن فيها قبل الخطيئة، وبها نهر يسقيها ويشق مجراه لنفسه في وسطها.

[26] إحدى حوريات الأساطير اليونانية، عاشت على جزيرة أوجيجيا، واستبقت أوديسيوس لسبعة أعوامٍ.

عندما يجذب حفل الروك عددًا غير مسبوقٍ من المتابعين حول معشوقهم، ويرافقونه في تناغمٍ إيقاعي وجسدي -مثل الثلاثة ملايين ونصف الذين حضروا حفلة رود ستيورت عشية رأس السنة في عام 1994 على شاطئ ريو دي جانيرو- فإن ذلك يمثِّل ما تبقى داخلنا من حاجة إلى نسيان أنفسنا، إلى الخروج من ذواتنا في سُكرة من النشوة المشتركة التي تحمل اسم ديونيسوس.(27)

(27) إله الخمر عند الإغريق القدماء وملهم طقوس الابتهاج والنشوة، ومن أشهر رموز الميثيولوجيا الإغريقية. أُلحِق بالأوليمبيين الاثني عشر ويقال إن أصوله غير محددة لليونانيين القدماء، إلا أنه يعتقد أنه من أصول آسيوية كما هو حال الآلهة آنذاك. كان يعرف أيضًا باسم باكوس أو باخوس.

ينطبق الأمر ذاته على التواصل الإلكتروني، وشبكات الإنترنت، ومواقع التواصل الاجتماعي التي تمتاز بالثرثرة والضبابية والسرعة اللحظية، إلى جانب الواقع الافتراضي والقدرة على الاتصال بنقرة واحدة، حتى يتسنَّى لأناس بعيدة جسديًّا أن يظهروا على شاشة الحاسوب أو الهاتف المحمول؛ الأمر الذي يشبع حاجة الإنسان ذات الجذور الأسطورية المتجذّرة في الإله هرمس؛ وهو الرسول ذو القدمين المجنَّحتين، والسفير الرئيس لزيوس الأعلى، بل أيضًا حامي المحتالين واللصوص، وصورة الأسطورة اليونانية الأقرب إلى البشرية، الصورة التي تُعَد حلقة وصل بينها وبين الآلهة، فتظهر وتختفي كما يحلو لها، وتقوم بدور الوساطة بين المنظور وغير المنظور، الجسدي وغير الجسدي.

ربما نُسيء تفسيرها، نزيِّفها، نجعل منها دربًا من دروب الحماقة والابتذال، لكننا لن ننعتق من الأسطورة أبدًا، هذا لأننا نعيشها. منذ الصبا ونحن نستهل حياتنا بها على الفور ونحن في أشد الجوع إلى أبطال وقدوة نحذو حذوها. نلقي بأنفسنا في رغباتٍ، ونميل إلى التعرف إلى نفوسنا في تلك الأنماط التي ربما منذ صباي كانت شخصيات لقصصٍ مصورة (أحببتُ ليبرتي كيد أكثر من سلسلة «الشجاع»)، أو شخصيات في السينما والكتب والرياضة. أما الآن فأصبحوا في الأغلب -ليس من حسن الحظ - أنماطًا عصرية: لاعبي كرة قدم عصريين، الإنفلونسرز شديدي الذكاء، الطهاة المرموقين بشكلٍ أو بآخر، وشخصيات التلفزيون، ومواقع التواصل الأكثر رواجًا.

لأكثر من مرة اتّبع جميعنا شخصيات أسطورية خيالية مفتعلة ومفصَّلة بصورةٍ متصنعة ملقحة بداخلنا مثل الفيروسات نتيجة لعمليات الدعاية والتسويق الماهرة. أمسى جوعنا بمنزلة حقيقة، إلا أن الفرصة ما زالت أمامنا للارتحال فورًا بعيدًا عن عالم الأوهام، والإصغاء إلى دوافعنا العميقة، وإعطاء المساحة لأحلامنا الأكثر أهمية.

لا أشعر بأي خطأ اليوم إزاء تلك الأساطير التي آمنتُ بها خلال شبابي، وماذا عنكم؟ لكل جيلٍ «نجومه»، وأنا أعي بأن نجومي في ذلك الحين كانت تُشبع رغبات متنوعة في فترة شبابي وما تلاها، وداخل كل رغبة منها -حتى وإن لم أكن أعلم ذلك بدقة آنذاك- ثمة ألوهية قديمة كانت تتحرك، بطل يوناني قديم؛ إذ تكلّمت أفروديت من خلال مارلين التي كانت تمثِّل لي براءة إيروس[28]، وسكن بروميثيوس[29] الحر في مارلون براندو[30] الذي كان يمثّل لي جمال التمرد، وحلَّق هرمس في كاري جرانت[31] رمز الأناقة الرفيعة، وسكن أخيل في شجاعة وتضحية وتحدي جيجي ريفا[32]؛ «هزيم الرعد»، وسكن ديونيسوس الاستثنائي في لويس أرمسترونج[33] الذي كان بالنسبة إليَّ عاشق الجاز غير المسبوق، وتجلّت به ملامح الجنون المبهج للموسيقى.

28) في الميثولوجيا اليونانية هو إله الحب والرغبة والجنس.

29) عملاقٌ محاربٌ في صفوف الآلهة الأولمبية ضد العمالقة في الحرب العظمى، وقد كان ذا حنكة ودهاء ومحبوبًا من البشر دون بقية الآلهة، تُعَد قصته من أهم القصص في الميثولوجيا الغربية إن لم تكن أهمها على الإطلاق، وترمز القصة إلى مضامين ودلالات هائلة في الفكر والتاريخ الغربي.

30) ممثل ومخرج وناشط أمريكي.

31) ممثل بريطاني المنشأ وأمريكي الجنسية، يُعَد أيقونة الجمال والوسامة في السينما الأمريكية.

32) لاعب كرة إيطالي الجنسية.

33) مغنٍّ وعازف جاز أمريكي الجنسية.

إن الأسطورة حاضرة في كل مكان، ولن يمكن للمرء الخروج من حيِّزها حتى وإن زعم أنه بعيدٌ جدًّا عنها.

منذ بداية حضارتنا، كل شيء كان أسطورة، كل شيء كان رمزًا، كانت لغة البشر منقوعةً باستعاراتٍ شعرية ومعانٍ إلهية. كان كل شيء مقدسًا؛ الكون والطبيعة والإنسان. كان عصر الملاحم العظيمة. كانت التجارة لا تزال مستمرة بين الآلهة والبشر، لم يكن الفكر المتناغم مع الحواس يُشكّل أي حاجزٍ بين أنماط الوجود المختلفة.

إنه عصر الآلهة كما وصفه جامباتّيستا فيكو في العلم الحديث، العصر البدائي، البربري، التأسيسي، حيث اصطبغ كل شيء ببُعدٍ خيالي شعري، وعبَّر عن نفسه من خلال الاستعارة: طفولة الجنس البشري التي يحمل كل فرد منَّا أثرًا منها في نفسه خلال طفولته الفردية الأولى.

يصف لنا هوميروس هذا العالم في الإلياذة، اللوحة الجدارية العظيمة الملطخة بالذهب وبالدم، بالعبرة وبالقسوة، بالرغبة وبالشفقة، لواقعٍ يحيا في وئامٍ مع الألوهة ومع سر أصوله.

يبدو أن تفكيك هذا المنهج الأسطوري في العالم كان بمنزلة خطوة طويلة شاقة. في اليونان، وبعد إدراك معارف جديدة تتعلق بالتأريخ والفلسفة، التي آثرت التعبير عن ذاتها عبر النثر، كنَّا قد انتقلنا من هوميروس وسافّو وهسيودوس وألكايوس إلى هيرودوت وثوقيديدس وأفلاطون وأرسطو، وقد ضاق حيز الأسطورة لكن من دون أن ينغلق تمامًا، كما لو أن المعارف الجديدة أرادت أن تسيِّج من حولها وأن تحيل كل شيء -بالنسبة إليها- يجب تحييده بل ورفضه في بعض الأحيان؛ كالعاطفة والخيال والدوافع والشعور بالمأساة والغموض وإحساس الدهشة والحساسية السحرية والبصيرة والسحر والقداسة.

رغم ذلك، فإن أولئك الذين اتخذوا المواقف الأولية ضد الأسطورة، احتفظوا جزئيًّا بمذاق وقوة السردية داخل أنفسهم؛ حيث يكفي التفكير في صفحات معينة لأفلاطون، وفي أسطورة أطلانطس التي صاغها في محادثات طيماوس وكريتياس(34) التي كانت بالغة الصدى في الثقافة والخيال الغربي حتى يومنا هذا، وفي العربة المجنَّحة والسائق في فيدروس(35) الوصف الرمزي غير المسبوق للنفس البشرية. يكفي التفكير في بعض صفحات قصص هيرودوت، ودائمًا ما أفكر في صفحات ذلك الكتاب الذي يحكي رحلته إلى مصر التي تُعَد مضمارًا إلى الآن للسائرين وراء آثار الأساطير.

(34) حوارات تتناول موضوع الطبيعة ونشأة الكون والخالق، وكان من بين المشاركين في الحوار سقراط، تيماوس من لوكري، هرموكراتس، كريتياس.

(35) أحد الحوارات التي كتبها أفلاطون بعد الجمهورية، حيث إنه أشار إليها في هذا العمل، ويرتبط ارتباطًا وثيقًا مع موضوعات حوار الندوة.

وعلى الرغم من نجاح المسيحية في خلع عرش الآلهة القديمة والإقرار بشيطنتها، لكن العصور الوسطى لم تنكر النظرة الأسطورية إزاء الواقع. نستدل على ذلك من خلال القوة الرؤيوية في الكوميديا الإلهية لدانتي، حيث «هوميروس التوسكاني» وفقًا لفيكو مع تكرار صور من الأسطورة اليونانية في القصيدة نفسها: أردتُ إحصاءهم جيدًا، فهناك ثمانية وسبعون في الجحيم وسبعون في المطهر وخلاف لما كنت أتوقع وجدتهم لم يتناقصوا بصورة ملحوظة في الفردوس إذ بلغ عددهم أربعة وخمسين.

لعبت الأسطورة الدور الحاسم الذي نعرفه جميعًا في عصر النهضة الإنسانية، وعصر النهضة، سواء في مفكريه أو فنانيه. انتقلت اليونان إلى توسكانا؛ فجالت ديانا وباكّو وأريانّا على ضفاف نهر الأرنو.

انكسر سحر العالم، وحُظِرت الأسطورة واختُزِلت في هيئة زخرفة بسيطة بقدوم العلم، وسدَّد العلم الحديث ضربته القاصمة نحوها. منذ أن قيل إن كتاب الطبيعة قد كُتِب برموزٍ رياضية، وبعد أن سادت المذاهب التجريدية والقوانين الفكرَ رغم الطاقة العضوية المهيمنة على الأشياء، وبعد أن وُضِع حاجزٌ منيعٌ بين المادة والروح، بدأت عملية معقدة لتحرير الأشياء من نزعتها الأسطورية التي سارت بالتوازي مع التصنيع والهيمنة الخافتة للتقنية الحديثة وما تلا ذلك من تأكيد لا مركزية العالم ولا مركزية نفوسنا، بما في ذلك الهجوم على الطبيعة الذي نرى تبعاته اليوم.

في القرن العشرين، وخاصةً عقب المآسي الرهيبة التي خلَّفتها الحرب العالمية الثانية، حارب العديد من المفكرين الأسطورة لكونها مظهرًا من مظاهر اللاعقلانية، كسببٍ زاد تأثيره وبات كأيديولوجيا ساهمت في تسطيح مدوٍّ للخبرة الحياتية والخيال والشعور، سبب شمولي جرَّم المقدسات والسحر، وساهم بفتوره حتى اشتدت نفعيته واستغلاله، واختزل الطبيعة في صورة مستودع مؤن أو مكبٍّ نفايات، واختزل البشر في صورة بيادق في لعبة يجهلون قواعدها، وفي صورة مخلوقات معيبة مستأنسة تتحرك بلا معنى على سطح العالم.

اليوم، وفي العقد الثالث من القرن الحادي والعشرين، نحيا في واقعٍ تداعت أساساته بسبب الأزمة البيئية التي جعلت حياة الكوكب برمته محفوفة بالمخاطر، والأوبئة الفتاكة العالمية التي غيَّرت وأسجنت كياننا كما لم يحدث من قبل، والتفاوت الاقتصادي السحيق بين الشعوب والأفراد عينهم. يبدو أن ذلك الواقع انهارت في طياته الأيديولوجيات الخلاصية القديمة، وتقلَّص وجود المسيحية في مواجهة أسبقية المنطق الاقتصادي للكسب والمال، وعادت كل ملامح اليوتوبيا إلى الصفر مرة أخرى.

وسط هذا الفراغ، يبدو أن الأسطورة التي لم تقف ضد العلم، أو التاريخ، أو الفلسفة، وإنما تأتي «في مقدمة» كل هؤلاء، عادت لتُظهر نفسها كما هي بصورة حاسمة: تلك الصورة للمعرفة التي تعبِّر عن حاجة مُلحَّة إلى نهضة إنسانية جديدة، إلى جمالٍ جديدٍ، إلى تصور مقدس جديد للكائن البشري، وهيكلة جديدة للفكر البشري. عادت الأسطورة لتتحدث مع البشر عن «قصتهم» وتعرِّفهم بأصولهم، الأمر الذي يطرح أسئلة أبدية حول الأسباب الأولية، والأسباب المنسيَّة الآنية، وعن اللغز المستمر السحيق لحياتنا وحياة الكون.

من المصطلح اليوناني ميثوس(36) نرى أن الأسطورة تُعَد «حكاية» في المقام الأول، حكاية خارج الزمان والمكان، ومن خلال قصص الآلهة الذكور والإناث، البطلات والأبطال، تُظهر لنا الموضوعات الأصلية والأساسية والأبدية للطبيعة ولكياننا البشري. بهذه الصورة، ربما تستعيد الأسطورة مساحاتها وتسترد أصالتها، كنفخة حية، وشارح أخير للكون، وطاقة داخلية للطبيعة ولكل دافع وعاطفة بشرية. في هذا الصدد، أطلق عليها جوزيف كامبل «أنشودة الكون»؛ ذلك الباحث الجليل في علم الأساطير المقارن، المُقرَّب من جورج لوكاس، وذلك في أثناء إعداده فيلم حرب النجوم (يعد أسطورة في مجال الفضاء بحقٍّ).

(36) يعني أسطورة باللاتينية.

سوف يُستنتج من ذلك أن الأسطورة استعارة تكمن خلف العالم المرئي، الطاقة الجارية التي تسكن وجودنا الأكثر خفية، وتسكن نزعاتنا، وفي الوقت نفسه تُظهر لنا الطريق نحو المُثل والجمال والمقدسات للوصول إلى أعلى مستويات الحكمة والخبرة الروحية.

تتغلغل جذور الأسطورة في أصول الحياة؛ ليس في عرق معين فحسب، أو شيء محلي مقيَّد، أو جماعة بشرية في حد ذاتها، وإنما في شيء أكثر قدمًا وشيوعًا في سائر الكائنات الحية، في الطبيعة وكوكب الأرض عبر رحلته في هذا الكون، هذا ما نحتاج إليه في القرن الحادي والعشرين.

ليس هذا هو الهدف من وراء هذا الكتاب رغم طبيعته الخاصة، وإنما علينا إيضاح أن للأسطورة اليونانية نقاطَ تواصلٍ مع أسطورة السومريين واليابانيين واليهود والهنود والأمريكيين الأصليين والبولينيزيين؛ للأساطير حركة دائرية تجعلها على اتصالٍ فيما بينها، لتُعد جسرًا بين الحضارات.

إذا ما قررت أيديولوجية ما تبنِّي أسطورة معينة وتحجيمها بواسطة استخدامها واستهلاكها عن طريق توظيفها لخدمتها، تمامًا مثلما فعلت النازية في القرن العشرين في الأسطورة النيبيلونجية التي انطوت على فكرة تمجيد الجنس الآري(37) والإرادة الأكثر وحشية للسلطة، حينئذٍ تصبح الأسطورة عاملًا من عوامل البربرية والموت، وتؤدي إلى حدوث المزيد من العنف المدمر والكوارث العديدة. لا يقع اللوم هنا على الأسطورة في حد ذاتها مثلما زعم الكثير من مفكِّري القرن الماضي، وهكذا ظل يزعم العديد من تلاميذهم إلى الآن. باختصارٍ، نقول إن

الأسطورة لم تكن هي التي غزت بولندا، وإنما آلة الحرب التي تهشَّمت الأسطورة في داخلها، واختُطفت بوحشية، وتشوَّهت بغرض استعبادها لأغراضٍ لا تمت لها بصلة على الإطلاق.

(37) فكرة تاريخية أثَّرت في الحضارة الغربية خاصة في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، مفادها أن متحدثي اللغات الهندية الأوروبية الأصليين يمثلون وخلفاؤهم حتى اليوم الحاضر جنسًا سائدًا أو جنسًا فرعيًّا سائدًا من الجنس القوقازي، ويسمى الاعتقاد بوجود تلك النظرية أو الأفكار بالآريانية.

كان هذا في البدء، كتب باول فاليري في نثره الهندسي: «مثلما فلت الكون من الحدس، تجاوز المنطق بالطريقة نفسها، أما بالنسبة إلى أصل الكون، ففي البدء كانت الأسطورة، وستكون إلى الأبد».

وحتى اليوم، عزيزتي القارئة وعزيزي القارئ، ما زالت الأسطورة موجودة إلى الآن. بذكر الطبيعة المُحترقة الجريحة، والبحر المسمم بالبلاستيك، والمقدسات والربات التي تم محوها شيئًا فشيئًا من مجتمعنا ونفسنا وقد خلَّفت وراءها صحاري الفتور والتعاسة، ولم يعُد هناك شيء ذو أثر إلا العودة إلى الآلهة وأبطال الأساطير التي تعود وتملأ الغابات بالحوريات، والمحيطات بالنيريدات(38) والأوقيانوسيات(39)، وتملأ كياننا البشري على سطح الأرض بالكرامة المقدسة.

(38) حوريات بحر عددهن خمسون حورية، وهن بنات نيريوس ودوريس، قيل إنهن فتيات لطيفات يساعدن البحَّارة عندما يواجهون العواصف، خاصة في بحر إيجة حيث سكنَّ مع والدهن في الأعماق في كهفٍ فضي.

(39) هن الحوريات اللواتي بلغ عددهن ثلاثة آلاف حورية -عدد فُسِّر على أنه يُعد ولا يحصى- وهن بنات التيتان أوقيانوس وتيثيس.

لن تنتهي الأسطورة، مثلما لم ينتهِ الشعر، ونرى في ذلك الإحساس المعُلّق بالدهشة والسحر أنه لا يزال يلفت أنظارنا أمام خيوط الضوء المتوازية المتسللة من سقف غرفتنا التي تخبرنا بقدوم الفجر وإن كنا نجهل مصدره.

حتى في شتاء الحبس والعزلة والخوف والشك هذا، فإن نبتة الميموزة الصغيرة التي أردتُ زراعتها في حديقة القصر حيث أقطن، وضعت زهورها الصغيرة الأولى كما لو أنها خائفة من الظهور أسفل الضوء. لأكثر من مرة ذهبتُ لألمسها، لأضعها بين أصابعي، بدت مثل حبيبات من الشمس تداعبها الرياح، إلى جانب مداعبتي أنا أيضًا. كنت قد سئمتُ من التباعد، وشبكات الإنترنت، والصور الافتراضية، كانت الأسطورة هناك، في ذلك البريق الذهبي المُزيَّن بحياة وشيكة.

لا ندري من أين ستأتي. طالما نفكر في أفروديت التي تحب كل ما يُزهر، وفي بيرسيفون(40) التي تصعد من مملكة الظلام في اللحظة المناسبة فور حلول علامات الربيع الأولى.

40) ابنة ديميتر إلهة الطبيعة والنبات وربة الأراضي المنزرعة من زيوس، وكانت ابنتها الوحيدة الفاتنة التي كان الفنانون لا يستطيعون تصويرها من جمالها الأخاذ.

مِن الفوضى إلى وَهج آلهة الأولمب

في هذا الكتاب، سنكتشف معًا ملامح وشخصيات ومغامرات الآلهة التي كانت تعيش في وهج الأولمب مثل البطلات والأبطال وحتى الوحوش، أولئك الذين أحيوا الشعر الملحمي والدرامي بدءًا من هوميروس وحتى يوربيديس(41). لكن للوصول إلى العالم الأولمبي، وإلى وهجه المتوازن الخالد الذي لا يخلو من بقايا عصور البربرية والظلامية والجنون، يجب اتِّباع منهجٍ ما، وإلا سيكون من العبث محاولة تحديد المدة والامتداد في الفضاء.

41) ثالث شاعر مسرحي تراجيدي إغريقي حسب التسلسل الزمني لظهور هؤلاء الكتّاب، وُلِد عام 480 قبل الميلاد وتوفي 406 قبل الميلاد.

حسب ثيوجونيا(42) هسيود؛ الشاعر الذي يروي أنساب الآلهة بدءًا من أصولهم الدموية وحتى تأسيس مملكة زيوس الأولمبية، نرى أنه أول ما وُجد في العالم كانت الفوضى. دعونا ألا ننسى أبدًا؛ كان هناك الغموض واللا شكل واللا اسم والظلمة، قبل وجود الشكل وقبل انبلاج النور.

42) قصيدة كتبها هسيود (عاش بين القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد) تصف أصول وأنساب آلهة اليونان، وألّفها عام سبعمائة قبل الميلاد تقريبًا، وقد كُتبت بلهجةٍ ملحمية من اليونانية القديمة.

نعلم أن الكون نشأ على إثر انفجار عشوائي من الضوء، وبعد ذلك وُلدت جايا؛ أي الأرض، ومن جايا، وُلد أورانوس؛ أي السماء، الأمر الذي يعد بمنزلة الشكل الأول للتوالد العذري وللولادة من دون تزاوج الذي نجده في الأسطورة.

بعد ذلك بقليلٍ، نجد أنفسنا في مواجهة سفاح القربى(43) الإلهي الأول. أحاط أورانوس الأرض بالحب، وظل يتسلل إليها بطريقة منقطعة النظير. أخذ يضغط عليها بلا هوادة، ويُخضعها لرغبته التي لا تنضب، ولكونه يشعر بالغيرة من أي أبناء تلدهم، كان لا يسمح لهم بالخروج من رحمها. هناك كان يحتجزهم؛ ذلك الحشد من التيتان(44) والعمالقة الجاثمين بداخل جايا، حيث لم تستطع إنجابهم أو إرضاعهم؛ كان أورانوس يدَّعي أن جايا لا تتكاثر، أو تتشعَّب، وغير مأهولة بأحدٍ.

43) زنا المحارم.

44) عرق من الآلهة الأقوياء الذين حكموا الأرض خلال العصر الذهبي الأسطوري، وهم العرق السابق للآلهة الأولمبية.

تُرى إلى أي اضطرابات كونية مظلمة تُلمِّح تلك الأساطير؟ في أي مرحلة من مراحل تطور السُدُم والمجرات؟ ربما يحدثوننا عن الماجما(45) التي يصعُب تمييزها ولا يمكن أن تتخذ شكلًا لها، أو عن مادة سوداء تمتص الضوء أيضًا، أو عن قوة غامضة؛ النفخة التي تدفعنا نحو الحياة ونحو حتمية الصراع لإثبات أنفسنا.

(45) عبارة عن مزيج من المواد السيليكاتية المنصهرة أو بمعنى آخر الصخور المنصهرة أو شبه المنصهرة مع المواد الصلبة المتطايرة من البراكين، وتتكون الماجما تحت القشرة الأرضية أو غيرها من طبقات الأرض.

ظل شيء ما في ذاكرة الأنواع، في ذاكرة الخلية، ليُبقي على الحياة في طيَّات عصر الأصول، عندما لم يكن للشموس ولا للكواكب ولا للأقمار أي نظام يُذكر نعرفهم من خلاله، وكان مبدأ الحياة العضوية يتمثَّل في الضغط للخروج من الكتلة غير العضوية للمادة. الأمر المؤكد هو أننا نجد أسطورة مشابهة لتلك الخاصة بجايا وأورانوس على الناحية الأخرى من العالم، في بولنيزيا(46)؛ حيث أسطورة رانجي وپاپا(47) أي السماء والأرض، اللذين كانا يعيشان ملتصقين أحدهما بالآخر حتى وإن لم يفلح پاپا في إنجاب أي أبناء، حتى إن إله الأشجار، تاني، لم يستطع أن يحيل أو يفصل بينهما بعد أن وضع حاجزًا من الجذوع والأغصان المورقة بينهما.

(46) مجموعة كبيرة لأكثر من ألف جزيرة تنتشر في المحيط الهادي المركزي والجنوبي.

(47) إحدى أساطير الخلق في الميثولوجيا الماورية بين سكان نيوزيلندا، حيث ورد بها أحداث فصل أبينا السماء عن أمنا الأرض وذلك بعد أن شعر أولادهما بالاختناق فقرروا أن يفصلا بينهما، وتخبرنا الأسطورة بأن جميع الأبناء عجزوا عن فعل ذلك، ولكن الوحيد الذي استطاع القيام بهذا الفعل هو تاني ماهوتا؛ أي الحرية، وهو الابن الأقوى العظيم بين إخوته.

إن الأسطورة اليونانية أكثر دموية ووحشية من تلك البولينيزية، تطلَّب الأمر القيام بجريمة كونية لتحرير الأطفال المدفونين في رحم جايا. صقلت جايا منجلًا من المعدن اللامع، وحثَّت أكثر الأبناء مكرًا من أبنائها، ويُدعى كرونوس، -«المستشار الداهية» مثلما ذكره شيزارى بافيزى في ترجمته للثيوجونيا- ليستخدمه ضد أبيه. نجد أنفسنا أمام الظهور الأول من حالات قتل الأب الطقسية عامة، ومن التحالف بين الابن والأم من أجل إتمام القصد وإنهائه بطريقة ناجحة.

تربَّص كرونوس ليلًا والمنجل في يده اليمنى، وما إن انحنى أورانوس بجسده الهائج من فرط الرغبة على جسد جايا، سدَّد بمنجله الطعنة القاتلة. نظر إلى الأسفل، وأخصى أباه ليحرمه من القدرة على الإنجاب ونوال المتعة، جعل قوته تتبدَّد إلى الأبد، وتمكَّن أبناء جايا الآخرون من الخروج إلى النور. تم إلقاء عضو أورانوس في البحر، يطفو محمولًا بالأمواج وتيارات المياه، خرجت من حيواناته المنوية إزهِرار بمادة رغوية، وخرجت من الزبد فتاة فائقة الجمال تسبح

عبر البحر إلى أن بلغت اليابسة في قبرص، تستضيفها وترحب بها ربَّات الفصول(48). كانت تلك الفتاة هي أفروديت، أو فينوس، التي ستنتزع القسوة والعنف عن الحب، وتملؤه بالجمال والنعمة والبهجة وإعادة الازدهار الربيعي.

48) بنات ثميس ربة النظام والقانون أنجبتهن من زيوس ومعنى اسمهنّ اللحظات أو الساعات، وهن ثلاث لم تتسم أي منهن بالمكر أو الخيانة، لذا كن الحارسات على بوابة السماء وجبل الأولمب.

أسَّس كرونوس مملكته، وأطلق عصر السلام والرخاء، حيث يقطر العسل من لُحاء الأشجار. تزوَّج ريا، ليكرر ما حدث بين الأب المخصي المخلوع أورانوس وجايا. رفض كرونوس أيضًا أن يرى الأبناء النور: هيستيا وديميترا وهيرا وهاديس وبوسيدون، الذين لم يرفض خروجهم من رحم أمهم مثلما فعل أورانوس فحسب، بل ابتلعهم كرونوس بنفسه ليُحتجزوا في ظُلمة أحشائه.

مرة أخرى نرى أن التحالف بين الأم وابنها أعاد ترتيب الأوضاع، نرى حاجةً إلى المكر والتأهب والشجاعة؛ فلقد قررت ريا أن تُخفي زيوس؛ ابنها الأخير، عن أنظار زوجها. غطَّت حجرًا بقطعةٍ من القماش وقدمته كما لو كان رضيعًا في قماطٍ إلى كرونوس الجشع الذي سرعان ما ابتلعه بلا أي ريبة.

زيوس الصغير؛ المشهد الأول لنمط الطفل الإلهي الذي يلعب دورًا كبيرًا في أساطير العالم كله، نُقِل إلى جزيرة كريت ليُخفَى عن الأنظار في كهفٍ بين الجبال حيث تُرضعه الماعز أمالثيا، وتربَّى إلى أن أمسى فتى يافعًا، فاستدعته ريا أمه وعيَّنته ساقيًا لكرونوس الذي لم يكن على دراية بأي شيء.

مزج زيوس الميث(49) الخاص بأبيه بموادٍ تبعث على القيء، فتقيَّأ كرونوس الحجر للوهلة الأولى، ورويدًا رويدًا أخذ يتقيأ أبناء ريا حيث كان يخبِّئهم داخله. ما إن حرَّر زيوس أشقاءه وظفر بالمعركة ضد جبابرة وحلفاء كرونوس الباقين حتى عيَّن نفسه الإله الأعلى وحامل البرق على الأولمب. كانت مملكته هي السماء والنور، وأمسك شقيقه بوسيدون بزمام البحر، وشقيقه هاديس بالآخرة؛ مملكة الأموات، وستصبح هيرا زوجته، وهيستيا ربة النار، وديميترا ربة النباتات والمحاصيل.

49) نوع من المشروبات الكحولية التي تُنشَأ بواسطة تخمُّر العسل مع الماء، وفي بعض الأحيان مع مختلف الفواكه، والتوابل، والحبوب.

من بين طيَّات الحب لهذه الآلهة الأولمبية الأولى، بدءًا من زنا المحارم وحتى أبناء الزنا، وُلِدت جميع الآلهة الأخرى؛ من أبوللو وأرتميس إلى هرمس وهيفستوس، باستثناء أثينا

.باعتبارها ربة الحكمة التي وُلِدت من دون مضاجعة من قِبل أبيها زيوس، بل من رأسه مباشرة

عزيزتي القارئة، عزيزي القارئ، يضع الكتاب الذي تقرأه الآن هذا البانثيون(50) الأولمبي الهادئ في الاعتبار، وإن كان يبدو معقدًا ومتعدد الأوجه في بعض الأحيان، إلى جانب نقطة .ارتكاز السحر الإلهي لفوضى الأصول

50) تُعني باليونانية تعدد الآلهة، وهو عبارة عن مبنى بالحي اللاتيني في باريس يضم الآن رفات بعض عظماء الفرنسيين، شُيِّد في البدء ليكون كنيسة لسانت جينيفيف، ويطل على أرجاء باريس كافة. عَمد مصممه جاك جيرمان إلى الجمع بين خفة .وعظمة الكاتدرائية القوطية إلى جانب المبادئ الكلاسيكية

إن أحداث الأنساب التي تبدأ من الفوضى وجايا وأورانوس وحتى كرونوس وزيوس، تذكِّرنا بالأحداث الكونية أكثر منها الأحداث النفسية والفردية. لكن إلى جانب آلهة الأولمب، وتنظيمهم الجمعي والطبيعي الجديد، نرى أن الأسطورة ترتبط بحياتنا نحن البشر القابلين للموت، وتتدخل .في تفاصيلها وتعيد رسمها مرة أخرى

مملكة بالاس أثينا

بالنسبة إلى فكر اليونانيين، لا يكشف الإله عن صورته في نطاق الواقع، وإنما في أشكال الواقع الطبيعي نفسها. لم يكن أي من آلهتهم قضاة، ولم يصنعوا المعجزات، ولم يؤسسوا أي قانون يرتفع فوق قوانين الطبيعة بشكلٍ عامٍّ. لم يخبرونا بما يتوجب علينا فعله، لكنهم أخبرونا بماهيتنا ورغباتنا، كانوا يعيشون في انسجامٍ تامٍّ مع واقع الأشياء مُظهرين نموذجًا سعيدًا للوحدة .بين الجسد والروح

كما رأى الفذ جوته، ومثلما أكد والتر فريدرك أوتو؛ الباحث الذي كتب كتابًا مهمًّا لفهم آلهة اليونان، فإن اليونان «لم يؤنسوا الآلهة، وإنما ألَّهوا الإنسان»، كان تعدد الآلهة بالنسبة إليهم .بمنزلة نموذجٍ رحبٍ للجوهر الإلهي الإنساني

بعيدًا عن الأولمب، تبقى قوى غير قابلة للاختزال للمقاييس البشرية؛ كالمحيط والبحر والهيليوس، أي الشمس، والكلمة أو القدر؛ الجزء السلبي من الوجود الذي لديه القدرة على تحلل الكائنات وموتها، يمكن لتلك القوى أن تظهر لنا في الأحلام كشاهدٍ على أصولنا المنحدرة .من الفوضى البدائية

إن جميع الآلهة الأخرى، ربات وآلهة الأولمب، تتناسب مع الوجود الإنساني، ومن خلال أشكالهم وقصصهم يظهرون لنا جوهر عملياتنا النفسية. إنهم يسكنون جبال الأولمب، لكنهم لا

يكفُّون عن زيارة المخلوقات الإنسانية باستمرارٍ، ويمكننا القول إنهم يحيون بداخلهم، ويحددون ويغيِّرون مضمار حياتهم.

لدينا أمثلة تُعد ولا تُحصى، سأختار منهم اثنين، الأول عن الإلياذة والآخر عن الأوديسة؛ حلقتان تعد بطلة حلقتها الأولى دون شك بالاس أثينا، التي سأتحدث عنها لاحقًا باعتبارها ربة الحكمة الإستراتيجية البنَّاءة، وأما الحلقة الثانية فهي تحدث بالكامل تحت إشرافها.

بداية من الكتاب الأول للإلياذة الذي كان عنوانه الفرعي غير الأصلي «الطاعون والغضب»، نجد أنفسنا أمام حشود عديدة من الآلهة.

سرعان ما يظهر أبوللو في صورة القوة القاتلة الانتقامية كرام سهامٍ ينحدر من جبال الأولمب يشبه الليل ويحصد الضحايا في حقل قبائل أخيون وينشر الطاعون القاتل.

إبّان ذلك، تقترح هيرا ذات الذراعين البيضاوين، التي ساورها القلق بشأن أحوال اليونانيين، على أخيل أن يطلب انعقاد اجتماع أخيون لمناقشة ما يتوجب فعله.

تعهَّد أخيل بحماية كالكانتي(51) الرائي. تمكَّن كالكانتي من كشف السبب وراء غضب أبوللو؛ حيث تعرَّض كريسى، أحد كهنته، الذي لم يرغب سيد البشر أجاممنون، وأقوى أفراد أخيون، في استعادة الابنة كريسيادى، التي أُسِرت كغنيمة وقد أصبحت عبدة آنذاك.

(51) كاهن ابن تيستوري، ولذلك يُدعى تيستوريدس، وشقيق ليوسيب في الأساطير اليونانية، وكان رائيًا عظيمًا أصلًا من أرغوس وحصل على موهبة النبوة من أبوللو.

اندلع صراعٌ محتدمٌ حول تقسيم غنائم الحرب بين أجاممنون سيد البشر العظيم المتغطرس، وأخيل البطل الشاب الذي لا يُقهر، منذ تلك اللحظة التي كان يتوجب على أجاممنون استبدال كريسيادي لإرضاء أبوللو رامي السهام، أراد في مقابلها عطايا أخرى، ونظرًا إلى أن أخيل كان يجروْ على التحدث ضده، أصبحت بريسايدى عبدةً لأخيل في مقابل كريسايدى الضائعة.

أُرسِلت بوساطة هيرا ذات الذراعين البيضاوين، لتظهر أثينا ذات العينين الزرقاوين (ذات العينين اللامعتين) وتقوم بالتدخل الحاسم: عندما أوشك أخيل أن يضع يده على مقبض السيف، كانت هي قد أدركته، وأمسكته من الخلف من شعره وتحدثت إليه، وهدَّأت من جماح ثورته، وأرجعته عن غريزته في ضرب أجاممنون وقتله. ظلَّت تحثه (تلك التي ذات يوم نجحت في نشأة وحماية الديمقراطية الأثينية) على التعامل مع خصمه باللغة لا بالسيف، ونقل كل قضاياه الجدلية عبر جنبات تلك اللغة.

ظهر الوباء كأعراضٍ مرضية بداية من الأنشودة الأولى في قصيدة الغرب الأولى. جميعنا يعلم جيدًا أن في أعقاب الوباء المتفشي في عام 2020، استطاع أن يجعل البشرية برمتها تركع على ركبتيها كما لو أن ذلك الوباء قد نَتج حقًّا بسبب غطرسة الإنسان الدنسة ضد توازن الطبيعة. ظهر أيضًا الغضب وشعور التمرد ضد الظلم الذي، بشكل عام، كان اقتصاديًّا منذ بدء الأمر. في نهاية المطاف، يدَّعي أجاممنون أن يوازن الخسارة؛ كريسايدى، بعملية شراء جديدة، ويعتق بريسايدى ممن يأسرها بعد إجراء تقسيم عادل للغنيمة (من المثير للاشمئزاز في أعيننا أن العملة كانت تشمل العبيد إناثًا وذكورًا)، لكنها تجرَّأت أن ترفع صوتها ضده كدليلٍ على معارضته. يظهر لنا الأمر كم أن الظلم الاقتصادي وقمع المعارضة والغطرسة يمثلون الوجه الأصلي والنمط المتكرر من أشكال السلطة.

كان رد فعل أخيل مؤثرًا حتى بعد أن هدَّأت أثينا من ثورته. ذهب بمفرده يبكي علي ضفة البحر، ويستدعي والدته ابنة البحر العجوز، الإله العتيق جدًّا الذي تربطه علاقة وطيدة عاطفية بالإله الأعلى زيوس.

أمسى البطل المغوار، الأقوى في الجانب القتالي بين سائر اليونانيين، يسلك مثل أي مراهق جريح، ويذهب طلبًا للمواساة من الكائن الوحيد في العالم الذي نثق جميعًا بأننا نكون محل استماع وحماية في حضرته.

تدخل في المشهد إلهة أخرى، الأم تيتي، زوجة بيليوس. لم تواسِ ابنها فحسب، وإنما صعدت نحو الأولمب لتطلب من زيوس العدالة من أجله. احتضنت ركبتيه، وتحدثت إليه بنبرة متواطئة: على زيوس أن يحذر من غيرة هيرا الإنسانية الشديدة، المستعدة دائمًا للشجار معه.

أما عن الإله الأخير الذي ظهر في الأنشودة فكان هيفستوس، رب النار، الإله الحداد الأعرج غير المستقيم، الذي يبدو قزمًا بعض الشيء، وقد نجح في إقرار السلام بين زيوس وهيرا بكلمات حرفي تتسم بالعقلانية والبساطة، وجاهد في سكب الشراب في كؤوس الآلهة في جوانب قصر الأولمب، الأمر الذي أثار في وجدانهم مرحًا لم ينضب.

تبدأ أحد الأناشيد من الأرض بإله يبث العذاب والوجع في صفوف البشر، وتنتهي في السماء بضحكة عفوية متحررة بين الآلهة، ماذا حدث؟ تتداخل الآلهة في نفوس البشر، وتؤلِّه دوافعهم، وتسلك مثلهم، وتنال نقاط ضعفهم من غضب وتمرد وغيرة وحنق، لكنهم يستطيعون تهدئة كل شيء بنظرة واحدة فائقة، أولمبية كما يُقال حتى الآن، تنفصل عن العواطف وتهزأ بغرورها.

أما الربات؛ هيرا ذات الذراعين ناصعتي البياض، وأثينا ذات العينين الزرقاوين، وتيتي ابنة عجوز البحر، فيقودن ويحمين الشاب أخيل، رغم أنهن لم يتمكنَّ من التدخل في مواجهة تهديدات القدر الذي يثقل كاهله.

في الأنشودة السادسة من الأوديسة، تلك الأنشودة الساحرة التي تدور حول المقابلة التي جرت بين أوديسيوس وناوسيكا، تتحدث بالاس أثينا ذات العينين اللامعتين إلى أميرة الفياكيين، أو ربما تكون قد ظهرت لها في أحلامها، وتحثها على الذهاب إلى ضفة البحر مع وصيفاتها لتغسل الملابس من فساتين ومشامل وعباءات جميلة. غادرت ناوسيكا على عربة تجرها البغال مع جميع وصيفاتها، وأخذن برفقتهن المشروبات واللحوم وزقًّا من جلد الماعز المليء بالنبيذ.

بعد الاغتسال وتناول الطعام، شرعت ناوسيكا ووصيفاتها في لعب الكرة. تشبه ناوسيكا أرتميس عندما مضت بين الغابات ومعها قوسها، تلعب مع الحوريات وتبث البهجة في قلب أمها ليتو التي تقف وتشاهدها.

انتهى أمر الكرة في الماء، فصرخت الفتيات، وعلى إثر تلك الصرخة، توقظ أثينا أوديسيوس الذي انتهى به الأمر على ضفاف ذلك البحر، وكان فاقدًا للوعي بعد حطام مروعٍ للسفينة. ما إن ظهر البطل عاريًا وملطَّخًا بالطين حتى هربت الوصيفات كافة، ولم تبقَ سوى ناوسيكا بفضل شجاعتها التي ألهمتها بها أثينا ربة الشجاعة والحكمة.

أبصر أوديسيوس ناوسيكا، والدهشة الأولى التي جالت في خاطره هو أنه أمام إلهة، بهذا القدر من الجمال، تذكره بأرتميس، أو بنخلة تناطح السماء قريبة من معبد أبوللو في جزيرة ديلوس. رأت ناوسيكا أن أوديسيوس بمنزلة زائرٍ تعيس بلغ تلك الضفاف تائهًا، وفكَّرت بأن عليها أن تعتني به، تفوهت ناوسيكا بكلمات خالدة تقول: «جميع الغرباء والمتسولين يأتون من عند زيوس».

لكن أوديسيوس، رغم عريه وعوزه البيِّن، لم يكن متسولًا. تدخلت أثينا مرة أخرى وفي هذه المرة بمعاونة هيفستوس المعتادة، الحدَّاد الماهر النشيط والمفيد دائمًا في اللحظة المناسبة: فصارت قامة أوديسيوس أكثر طولًا، وأصبح وسيمًا مجعَّد الشعر، وهكذا تمكَّن من الظهور مرة أخرى أمام ناوسيكا في هيئته الطبيعية كملكٍ.

قبل أن يصل أوديسيوس إلى مدينة الفياكيين ليطلب السماح من الملك والد ناوسيكا باستضافته، توقف في غابة صغيرة مدهشة مقدسة في أثينا. هناك، أخذ يشكرها ويصلي إلى الإلهة التي أصغت إليه ونجَّته من غضب وثورة بوسيدون الذي كان السبب وراء غرق سفينته وتحطمها.

تحدثتُ عن مملكتها لأن كل شيء هنا قد حدث في أوقات وأماكن اختارتها أثينا، أما عن بقية الآلهة فكانوا يلعبون دور الكومبارس: أرتميس وأبوللو وأمهما ليتو، وهيفستوس، وبوسيدون، وحتى زيوس. إن أثينا التي امتزجت بها الحكمة والشجاعة والحنكة والجمال العفيف، وكانت أقرب إلى أرتميس أكثر منها إلى أفروديت، كانت حاضرة في الأحداث الإنسانية أكثر من بقية الآلهة الأخرى، ولا سيما حضورها البيِّن في نفوسنا، مثل لحظة من النور والخلاص؛ فلم يعُد هناك حطام سفينة أو غضب أو خوف أو ذعر يحدث قط إلا وتهيمن أثينا عليه بهدوئها ورُشدها.

«عندما نلفظ مصطلح «النفس

عزيزتي القارئة، عزيزي القارئ، علينا الآن أن نتفق حول ما نريد قوله عندما ننطق مصطلح «النفس». «النفس» في الإيطالية تشتق من الكلمة اللاتينية نفسها المشتقة بدورها من مصطلح «أنيموس» باليونانية حيث يُقصَد بها نفخة أو ريح، وبصورة مجازية يُقصَد بها هياج أو عاطفة متأججة.

في يومنا هذا، في اللغة الحديثة، يتجه الكثيرون إلى إحلال مصطلح النفس بـ«القلب»؛ وهو اختيار سيِّئ لأن القلب، بعيدًا عن المجاز، ليس سوى عضلة بلا إرادة، لا تنقص أو تزيد على العضو الذكري على سبيل المثال. لكن عندما يتعلق الأمر بالنفس، فلن نستطيع الحديث بعيدًا عن المجاز. تُعَد النفس نفسها بمنزلة الرمز، ومن ثَمَّ تتعدد أغراضها، ويصعُب فكُّ شفراتها بسهولة، وتتسم ببريقٍ من المعاني التي لا حصر لها. يمكن أن تعني النفس المبدأ الحي، الروح، الظل، ساكنًا من الآخرة، الهوية، الأنا، السجية، الرغبة، الحماسة، الإرادة، الغرض، الوعي الأخلاقي، العاطفة، الشجاعة.

لكن أولًا، وقبل كل شيء، تُعَد النفس نمطًا من أنماط الطاقة الداخلية للإنسان والطبيعة، وتمثِّل نفخة حية لأصل كل شيء، تلك التي تسمح بدوران الكواكب، وخفقان القلب، كما أنها مَن تسمح للعضو الذكري أن ينتفخ، وللعضو الأنثوي أن ينفتح. إنها المحرك البدائي غير المرئي الذي

يحافظ على توازن عناصر الكون المتباينة. تنفخ النفس في العشب، وفي الأشجار، وفي الأنهار، وفي السحب، وفي المطر، وفي حيوانات البحر والسماء والأرض، وفينا نحن أيضًا.

التي اشتُقَت منها كلمة «حيوان» في animales باللغة اللاتينية، فإن الصفة من كلمة نفس هي اللغة الإيطالية. يخبرنا هذا بأن النفس ليست ملكنا بصورة حصرية، حتى وإن كنَّا نحن فقط مَن نملك اللغة -العامل الذي يميِّز بصورة قاطعة البشر عن بقية الكائنات الحية للخليقة- التي تسمح لنا بالتحدث عنها وبالتحقق من جوهرها.

هناك أغنية فائقة الجمال خاصة بقبائل نافاجو(52) تتحدث عن الخطوط الضئيلة التي لدى جميعنا في أناملنا على أطراف أصابعنا، يبدو أن لكل إنسان ملامحه الخاصة من دون أن تتشابه في خصائصها مع أي إنسان آخر. بالنسبة إلى المجتمع في هذه الآونة، أصبحت لبصمات الأصبع فائدة رفيعة في عمليات الفحص، وزادت المنفعة الدقيقة من ورائها داخل المطارات، بل وأصبحت رائدة في تحقيقات الشرطة لكشف الجناة خاصة قبل اكتشاف الحمض النووي. وفقًا لقبيلة نافاجو، فإن تلك الشقوق الرفيعة والموجات الجيبية(53) تعد بمنزلة الآثار والمسارات التي خلَّفتها داخلنا ريح الأصول عندما هبَّت للمرة الأولى وتسبَّبت في ولادة جنسنا على هذا الكوكب، ريح الأصول، الروح الأعظم، النفخة البدائية، الرب الإله.

52) أحد الشعوب الأمريكية الأصلية في الجنوب الغربي من الولايات المتحدة الأمريكية، وهي ثاني أكبر قبيلة معترف بها في الولايات المتحدة الأمريكية بعد قبيلة شيروكي، حيث يبلغ تعدادهم 300.460 نسمة اعتبارًا من 2015. تشكِّل أمة نافاجو هيئة حكومية مستقلة تدير محمية نافاجو في منطقة الزوايا الأربع، تشمل أكثر من 27.000 ميل مربع من الأراضي في آريسونا، ويوتا، ونيو مكسيكو.

53) موجة مستمرة؛ سمّيت نسبة إلى منحنى دالة الجيب، وكثيرًا ما تظهر في الرياضيات والفيزياء وكذلك في الهندسة الكهربائية.

وبذلك نجد أن النفس ترتبط بالأسطورة، وأما الأسطورة، التي تحيا في ثنايا اللغة، فتسمح لنا بالتحدث عنها.

ليس للنفس مكانٌ ماديٌّ تبقى بداخله، ولكن حسب ما قال الفلاسفة قبل سقراط إن لديها ما تقوم به كنفسٍ أصيلة مع بقية العناصر: مع الماء لطاليس(54)، والهواء لأنكسيمانس(55)، والنار لهرقليطس(56)؛ فالنفس لديها ما تقوم به حيال أجسادنا.

54) أحد فلاسفة وحكماء الإغريق السبعة الذين سبقوا سقراط، يُعتبَر عند الكثيرين فيلسوف الثقافة اليونانية الأول إضافة إلى كونه أبا العلوم، وعاش العالم طاليس في مدينة ميلتوس الواقعة في أيونيا غرب تركيا.

55) عالم وفلكي يوناني وأحد تلاميذ العالم اليوناني أناكسيماندر.

56) فيلسوف يوناني من إفسوس، برزت أعماله قرابة القرن 500 قبل الميلاد، وقدَّم نظرياتٍ فريدة، صاغها بلِغة أشبه بلغة الكهنة، اشتهر بآرائه حول السيلان العام، ووحدة الأضداد، وأن النار هي الأساس المادي للعالم.

بالنسبة إلى أفلاطون، فإن النفس يجب أن تتصوَّر على أنها «القوة الكلية للزوج المجنح وقائد العربة». شيء في حركة مستمرة، عسير ومتناقض خصوصًا بالنسبة إلى البشر؛ حيث يسحب عربتهم حصانان من طبيعتين مختلفتين بل ومتناقضتين، إحداهما صالحة، والأخرى طالحة.

يقال أيضًا إن النفس تتجلى في الأعين، ولا شك أن الأعين -محجر العين والجفون ومقلة العين والقزحية وحدقة العين- أحيانًا ما تعبِّر عن مشاعرنا بصورة واضحة تمامًا. للنفس أيضًا بوابة أخرى تظهر من خلالها وهي الفم؛ فالصلة التي تربط الشفة العلوية بالسفلية، وحركاتهما انبساطًا وانقباضًا، بالإضافة إلى حركة زوايا الشفتين، كل ذلك يُظهر أيضًا ردود أفعالنا العاطفية بوضوحٍ لا يمكن دحضه. تقبع النفس بين الجسد والروح، بين المادة والنور، إنها فردية وعالمية في آنٍ واحد، إنها حلقة الوصل التي تربطنا بالبحر والشمس والقدر. ومن ثَمَّ، فللوهلة الأولى تبدو النفس غير محدودة. كتب هرقليطس: «مهما مضيت في طريقك، فلن تدرك حدود النفس أبدًا»، يصح هذا القول بين اليونانيين في القرن السادس قبل الميلاد، بل ويصح أيضًا في يومنا هذا.

عزيزتي القارئة، عزيزي القارئ، في القرن الحادي والعشرين، دعني أدعوك إلى القيام برحلة، لكني لن أعدك بنقطة وصول، أو وجهة معينة.

يتناسى الكثيرون أمرَ حيازتهم نفسًا، الأمر ليس سيئًا بقدرٍ كبيرٍ؛ فلقد حدث ذلك معي أنا الآخر، منذ سنوات عديدة، خلال اللحظة الأكثر سوداوية في حياتي برمتها، حينها كنت في العشرينيات من العمر -آه، لندع غضبنا يتَّقد أمام أولئك القائلين بأنها من أجمل مراحل العمر!- وقد تهاوت من حولي كل ملامح يقيني وأحلام مراهقتي. لم أكن قادرًا على رؤية أي شيء بداخلي أو مِن حولي، لم أرَ سوى الفراغ واللا مبالاة. كنت أزعم أن كل شيء كان مجرد مادة في طور التطور، وأنه لم يكن هناك سوى هذا الجسد في بحثه الميكانيكي عن المتعة.

لا تكف النفس عن المقاومة في فترات جهلنا أو إلهائنا المتغطرس؛ توجد وتبقى هناك بانتظار عودتنا إليها، في رأيي، كانت الأسطورة طريق العودة للطبيعة وللنفس، وإنها هي من أهدتني اللغة الرمزية لأتحدث عنها.

يجهل الكثيرون أن النفس لا تزال بحوزتهم، أضاعوا قدرتهم بجملتها على محاورة غير المرئي والتحدث مع أعماق نفوسهم. في مجتمعنا الحالي؛ حيث يهيمن الاقتصاد والتكنولوجيا والموضة والإعلام على جوانبه، بات عسيرًا لكثيرين التفكير في أي شيء إلا إن كان ماديًّا، سريع الزوال، يُمكن بيعه في المتجر.

ربما يعرض شخصٌ ما نفسه للمقايضة، للبيع، حتى وإن كان على دراية بأن هناك شخصًا واحدًا فقط يمكنه شراؤها: الشيطان. ذلك الذي يدعونه الشرير، مفستوفيليس(57)، الذكاء العدمي، ناكر الحياة. إنه الشيطان الذي، تمامًا كما فعل مع المسيح، يمدُّ ذراعه وسبابة يده ويُظهر لنا من قمة أحد الجبال سلطة العالم وثراءه؛ إنها متاعه، ولن يمانع في منحها لنا، لكن في مقابل ذلك يطلب نفوسنا. من دون أدنى جدال؛ يظن الكثيرون أنهم أمام صفقة رابحة، هل سيبدو الأمر كذلك أيضًا بالنسبة إلى الأباطرة والطغاة؟ ربما تكون الإجابة بنعمٍ في نظر عموم الشعب، لكن ماذا إن كانوا قد عاشوا طوال حياتهم المترفة شديدة البأس بلا نفسٍ؛ بلا عاطفة نزيهة أو حبٍّ حقيقي أو أصالة داخلية أو إحساسٍ بشفقة إنسانية أو بحث عن الحقيقة؟ هل هناك مجالٌ للشك في أنهم ذاقوا بالفعل طعم الجحيم الأكثر بشاعةً وهم لا يزالون على سطح الأرض؟

(57 اسمٌ يُعطى غالبًا للشخصية التي تُمثِّل الشيطان في الأسطورة الفاوستية، على العكس من الشيطان الذي يُمثل عادةً في المخيلة الغربية في هيئة شبه حيوانية بحوافر وقرون، فإن مفستوفيليس أكثر إنسانيةً حيث يظهر في هيئة رجلٍ طويلٍ مسربلٍ بالسواد عادة، ويحمل كتابًا أحمر يوقِّع فيه الأشخاص الذين يبيعون أرواحهم له.

يظن البعض الآخر أن النفس تُعَد بمنزلة بقايا من تعاليمهم الدينية في وقت الكاتيكزم(58). كانت شيئًا نُسِي بلا عواقب تُذكر، ومن دون أن تُطرح أي أسئلة حولها مرة أخرى. أتذكر جيدًا مرحلة الكاتيكزم وتشمل وجه الشابة التقي واسمها، الآنسة زانتّي، التي علَّمتني إبَّان مرحلتي الأولى في رحلتي مع الاعتراف وتناول الأسرار المقدسة. قبل أي شيء، أذكر أنه حتى ذلك الحين، وأنا في الثامنة من عمري، عندما انتهت دروسها ووجدتُ نفسي أعبر بمفردي المساحة الشاسعة البيضاء في الظلمة الخافتة في كاتدرائية بورتو مارتسيو -كنيسة ذات طرازٍ كلاسيكي محدث بالكامل، وتُعَد أكبر كاتدرائية من حيث المساحة في ليجوريا بأسرها- وتساءلتُ ورأسي كأنها أُصيبت بالدوار عن مكان وهيئة الإله الذي كانت تحدِّثني بشأنه تلك الآنسة العجوز. وددتُ أن أشعر بتلك النفخة على وجهي، وبالثقل على راحة يديَّ. ما إن رفعتُ عينيَّ نحو قبة الكاتدرائية الشاهقة حتى بدا لي أنني أراه يتلألأ في كتلة متراصة غامضة بلون الحليب، أعلى القبة، وأعلى السماء.

تتدفق النفس؛ فهي في حالة جريان أكثر من كونها مجردَ كيانٍ مستقرٍّ. انحدرت النفس من نفخة بدائية وهي نفخة في حد ذاتها، عالقة بين الذاكرة والرغبة اللذين في الأساس ذاكرة الحياة ورغبة في الحياة، بين ماضٍ سحيقٍ ومستقبل يتوجَّب اختياره وحمايته هنا والآن، إنها مصدر هويتنا وحراكنا. دعونا نتوقف لحظة ونتأمل في معنى الحراك. تبدو كلمة يصعب تفسيرها لكن على أي حالٍ دعونا نحاول. فالعديد من الخيارات والأفراح والنجاحات والفشل والمعاناة في وجودنا تعتمد على الدرجة التي نشعر بها بذلك. في رأيي، يُعَد الحراك بمنزلة تأسيس تناغم مباغت بين الجسد والنفس بأهوائها المهيمنة، وإن كان بصورة غير معقولة، بل ويصعب شرحها. إنه تناغمٌ يدفعنا إلى تجاوز أنفسنا، إلى جرأة وابتكار وبناء مستقبل كالقدر، إلى ربط المستوى المادي بمستوى الواقع المثالي.

أرى أن ذلك التعريف للحراك يتناسب مع كل فردٍ على حدة، بل ويتناسب مع المجتمع، والحضارة جمعاء. إذا ما توقفت حضارة عن إظهار أرفع العواطف في البناء والإستراتيجية واليوتبيا، ولم تَعُد تستطيع أن تجمع محتواها المادي والاقتصادي والسياسي والاجتماعي بالتصوّر المثالي والميتافيزيقي، فإنها تصبح شاهدًا على ضمور نفسها حتى التحلل والموت؛ نستطيع القول إن حالة الحضارة الأوروبية الآن تنطبق عليها جميع الآثار المذكورة آنفًا.

إن النفس، نبع كل هوياتنا، لديها جمالها الفريد الذي لا يوصف. في القرن التاسع عشر، حاولت إخمادها بعض أنظمة القوة الوحشية مثل النازية والستالينية، لتُصدر مكانها القمع والرعب إلى حد الإبادة الجماعية المطلقة، إلى حد الهولوكوست، لكنهم لم ينجحوا في ذلك. في القرن الحادي والعشرين، ومن دون الحاجة إلى أي مجازر إنسانية أو إلى إراقة الدماء، نتساءل عمَّ إن كانت ستنجح الرأسمالية المادية التي تهيمن على العالم وتميل إلى نزع الإنسانية من الأفراد الذين حُوِّلوا إلى أجهزة، إلى ماكينات آلية لا يعرفون المعنى أو الغرض. آمل أن أكون مخطئًا. تقاوم النفس أي مخططاتٍ تسعى إلى حرمانها من أصالتها وحريتها، ربما لهذا السبب نجدها دائمة التدفق والجريان ولا تسمح لأحدٍ باصطيادها، ما دامت موجودة فإن حياتنا ستبقى مقدسة ومحصنة.

لهذا السبب، وإزاء العديد من علامات التدمير المنهجي للطبيعة وللإنسان، فإن المطالب العديدة للمادية التكنولوجية التي تهدف إلى السيطرة على العالم، بقوانينه المهمة والزائلة، وإلى

الربح مهما كان الثمن، تجعلنا في أمسِّ الحاجة اليوم إلى المطالبة بـ«حقوق النفس». كان أول من تحدث عن ذلك الأمر هو فيكتور هوجو، الشاعر العظيم الذي -ولن أتعجب من ذلك- وضعه القرن العشرون جانبًا بل وسخر منه.

نظرًا إلى أن الحقوق المدنية باتت الآن مفروغًا من أمرها، وغير قابلة للتنازل أو التفاوض نتيجة للمعارك الكبرى في عصر التنوير، فلقد صاغ هوجو تعبير «حقوق النفس» متخذًا خطوة شائكة إلى الأمام مقارنةً بفولتير. الحرية والمساواة والتسامح والعدالة الاجتماعية تعد بمنزلة أسس الحياة العامة، لكنها ليست كافية بلا شكٍّ. إن نفس الإنسان، ومعها طبيعة ونفس العالم، تقول إن لها الحق في الجمال والسحر والدهشة والروعة والرغبة في اللا نهائية، وفي القداسة التي لا يستطيع أحدٌ إخمادها أبدًا، وفي الصلاة التي لن يقوى أحد أن يطأها بقدمه.

تنتهي الوصية التي كتبها هوجو في الحادي والثلاثين من أغسطس عام 1881، بعد أوضاعٍ اقتصادية مفصَّلة بهذه الكلمات: «أوشك أن أغلق عيني الأرضية لكن عيني الروحية ستبقى مفتوحة أكثر من ذي قبل، أرفض أن يُصلَّى عليَّ في كل الكنائس، وأرجو الصلاة لكل النفوس». بعد بضع سنوات، على فراش الموت، تناهت إلى مسمع الأطباء همهمة هوجو قائلًا: «هنا يتناحر النهار والليل».

ما المقصود بـ«هنا»؟ يقصد في داخل النفس، حيث تتضافر كل التناقضات في ذلك الموضع الحاسم: الظلمة والنور، الموت والحياة.

في نهاية الأمر، وبعد أن أظهرنا النفس كنفخة في تدفقها المستمر، يجب علينا أن نختار صورة بلاستيكية لوصفها، وسأختار في ذلك نموذجَ الصدفة، محدبة الشكل، كما لو كانت ملتوية حول نفسها، بفتحة ضيقة بالأسفل، وفم، وعضو أنثوي، وما إن نقترب بآذاننا نحوها حتى نسمع شيئًا قادمًا غير متوقعٍ، شيئًا لا يُصدَّق، صافرة قاتمة مستمرة، همسة حيوانية بدائية، التي ربما يكون لها تفسيرٌ علمي، لكنها تثير دائمًا إحساسًا غامضًا بالنسبة إليَّ؛ ذلك الشعور الذي يرافق رحلة إلى الوراء للزمان والمكان، رحلة نحو بوسيدون وبروتوس ونيريوس المعروف بعجوز البحر وابنته تيتي، وأفروديت التي تأتي إلينا من البحر وتحمل معها نفخة الحب والجمال.

في هذه الصدفة التي تمثِّل النفس، تهبُّ كل الرياح وكل عواصف الإنسان العاطفية العاتية التي حرَّكته منذ بدء الخليقة. هناك نجد الحب والبغضة، الرغبة في التسلط ورغبة المعرفة

والبناء، الدافع إلى التشويه والهدم، والحلاوة والغضب، والجمال والهذيان، والوحشية والبحث عن النور.

تخبرنا الأسطورة اليونانية أن هناك ربات وآلهة، بطلات وأبطال، يترأسون كل هذا الحماس ويعطون معنى لكل هذه النزعات.

النزعات البشرية

النزعات البشرية»: هكذا دعا دانتى كل أهوائه الأرضية على لسان القديس برناردو دي» كليرفو في صلاته إلى مريم العذراء. نحن الآن في الأنشودة الثالثة والثلاثين من الفردوس التي تُعَد الأنشودة الأخيرة في الكوميديا الإلهية، حيث وصل دانتى إلى نهاية رحلة الحج السماوية التي حملته من ظلمة الجحيم الحالكة إلى وميض سماء السموات المتوهج، حيث يستعد ليُبصر بعينيه سرَّ الله. لكن قبل أن يحدث هذا، يجب على والدة الإله أن تتشفع من أجل هذا الابن الشجاع الذي بواسطة قوة روحه وحدها أولًا، ثم توجيه فيرجيليو وبياتريتشى، استطاع أن يُكمل رحلة أشد صعوبة من رحلة أوديسيوس وإينياس في العالم السفلي، وأكثر مغامرة من رحلة جاسون التي قام بها لاستعادة الصوف الذهبي.

كان دانتى هناك ليتعرَّف إلى سرِّ الله، لم يكن هناك أي بطل في العالم اليوناني استطاع أن يقوم برحلة مثله، أما عن القديس برناردو، ذلك القديس العليم بأحوال العالم، ويُقال إنه واضع قواعد فرسان الهيكل الرهبانية، فلقد طلب من مريم العذراء شيئًا لا يجب تفويته:

.«ليقهر حراسك النزعات البشرية»

مما يعني أن: حمايتكِ يجب أن تُفرَض على المحفزات الأرضية، وأن تُكبح كل العواطف البشرية لذلك الحاج. أجد أن هذا البيت مدهشٌ بشكلٍ كبيرٍ. كان دانتى قد أصبح تقريبًا على مرأى من الوجود الإلهي، رغم ذلك فكانت هناك حاجة إلى قوة روحية فائقة وإلى حارس سماوي يسعى إلى التغلب وقهر كل ما تثيره الأرض بداخل نفس الحاج من غرائز أو عواطف.

إلى أي مدى تبلغ قوة تلك «النزعات البشرية» داخله؟ نستشف ذلك من قصيدته، إذ نرى جميعها سواء في داخله كفردٍ أو في داخل باقي الأشخاص الذين يعرضهم في قصيدته. نجد في الجحيم عواطف متقدة، قوية، مجدِّفة، هوجاء، إلى أن تصبح لطيفة وطاهرة شيئًا فشيئًا في

أجواء المظهر البائسة حتى تكاد تتلاشى لكن ليس بصورة كبيرة -يكفي أن أذكر الأهواء السياسية والمدنية- في طيَّات النور السماوي للفردوس.

إن الدوافع، والعواطف، والرغبات يجب أن تكون محلَّ رفضٍ وتخلٍّ حتى تسقط بغرض الوصول إلى رؤية الله. يبدو كدورٍ غاية في الصعوبة بالنسبة إلى النفس، رحلة نسكيَّة، هو صراع لا يهدأ ضد نفسها، وضد غرائزها، وضد الطبيعة الكامنة بداخلنا. نحتاج إلى قطع دابر شهوة الجسد، والرغبة في إثبات الذات، وإلحاح الغضب والرخاوة وكل الملذات الأخرى، وأحلام العظمة، والانشغال المُتسعِّر تحت إمرة فكرة أو مشروع ما.

إن الناسك لهو شخص عريان يُقدِّس الحرمان، يحرم أتباع اليوجا(59) أنفسهم من كل شيء، ويحيا يشحذ اللبن والعسل الكافيين لبقائه على قيد الحياة، ويأتي راهبٌ من أتباع الطاوية(60) ليمارس «عدم الفعل» كقاعدة عليا، ثم يأتي الصوفي المسيحي ليضيف صنفًا آخر من جَلد الجسد، وإماتة المادة؛ بعد أن يتجسَّد الشغف الأوحد في نشوة إعادة الاتحاد بالمبدأ الأول للحب والحقيقة.

(59) مجموعة من الطقوس الروحية القديمة أصلها الهند، وتشير إلى طريقة فنية أو ضوابط محددة من التصوف والزهد والتأمل، مما يرمي إلى خبرة روحية وفهمٍ عميقٍ جدًّا أو بصيرة في الخبرات.خارج الهند، أصبحت اليوجا مرتبطة بممارساتٍ في وضعية محددة من التمارين.

(60) تقليد ديني أو فلسفي ذو أصل صيني، يؤكد العيش في وئام مع الطاو؛ الفكرة الأساسية في معظم المدارس الفلسفية الصينية، وهو المبدأ والمصدر والنمط والمضمون لكل شيء موجود في الحياة.

لم يحيا دانتى الإنسان حياة نسكية أو صوفية بأي شكلٍ، لكن شخصية دانتى في الكوميديا الإلهية كانت تدرك أن النسك والصوفية هما الطريق نحو الله خلال لحظة حاسمة وعبر الاندماج المُحب مع الله. لم يكن بمقدوره فعل ذلك بمفرده. أودعته بياتريتشى بين يدي القديس برناردو، ومن القديس برناردو أودِع مرة أخرى بين يدي مريم العذراء، فيبدو جليًّا حجم صعوبة التغلُّب على تلك «النزعات البشرية».

على نقيض الديانات التوحيدية، اليهودية والمسيحية والإسلامية، نجد أن مبدأ تعدُّد الآلهة لدى الإغريق يرفع شأن النزعات البشرية ويمنحها قيمة ضمنية إلهية.

في تعددية الآلهة اليونانية، لا نجد ما يُسمَّى بـ«التخلي عن الغرائز» الذي تحدَّث عنه فرويد في الديانات التوحيدية كاليهودية، ونلاحظه أيضًا في الديانتين الأخريين. لا يكشف الإله عن نفسه في نطاق الواقع، وإنما في أشكال الطبيعة نفسها، كما لا يضع أي قواعد للقانون.

فالعواطف والدوافع؛ «النزعات البشرية»، تأخذ شكل ربات وآلهة وتعيش في عبادة الأبطال، لا أحد يطالب بالتخلي عن أي شيء، وحدها الكبرياء المتعجرفة المعاندة المتباهية هي من تُثير غضب الآلهة وغالبًا ما تُعاقب بقسوةٍ بالغة.

لم تكن هناك أي فكرة عن النُسك أو إماتة الحواس، كانت الآلهة تمثِّل وتجسِّد كل حدود الشعور الإنساني. لم يُستثن من ذلك أي شيء؛ فحتى كل بشاعة، وكل قسوة، تجد لها مأوى داخل الإنسان. إن الصراع الجاري بين الظلمة والنور هو صراع جوهري بين الواقع والنفس، وروح الموت وروح الحياة.

تحدثنا الأسطورة اليونانية عن طبيعة الأشياء، عن أصولها، عن تحولاتها، عن تطورها المستمر. سنقع في خطأ سطحي إذا ما قرأنا الأساطير ورأينا تعارضها مع موسى، والمسيح، ومحمد، تباركت أسماؤهم. فالأسطورة اليونانية ليست في صراعٍ مع تعاليمهم لأنها ببساطة لم تقدِّم أي تعليمات، ولم تتعارض مع القوانين الأخلاقية لضميرهم الأخلاقي السامي لأنها تحيا في مستوى آخر من الروحيات، أي مستوى القوانين الطبيعية.

الأسطورة اليونانية لا تُعلِّم، أو تُعالِج، أو تُشرِّع، الأسطورة اليونانية ترقص، وتصف، وتحكي. إن ربات وآلهة الأولمب هم الطبيعة نفسها، يفيضون بالطاقة الطبيعية الكونية. وإلى جانب البطلات والأبطال الذين كانوا جزءًا لا يتجزَّأ من عالمهم، فإنهم يمثِّلون أيضًا العرض الأكبر لتلك الـ «النزعات البشرية» التي يمكننا التأمل فيها.

فالمخلوق يصبح إنسانيًّا عندما يطويهم جميعًا داخله، ويشعر بهم وهم يتحركون، ويتدفقون بلا توقفٍ، يتغيرون، ويصطدمون في نفسه. نشعر بالحب، وهاوية الشهوة، والأنانية الوحشية، والتوق إلى السلطة والهيمنة، ودفء البيت، والشغف المُطلَق إلى المعرفة، وتذوق الوحشية، والحاجة إلى توازن متألقٍ، والغطرسة الحربية، والدافع إلى الموت والولادة من جديدٍ، وتوتر الشرود والتجاوزات، والتقلبات المتحولة، والتركيز البنَّاء، والتماهي مع الطبيعة، والتمرد، والغرائز الوحشية الهاوية، والغرائز البطولية التي تقاتل وتفتك بالوحوش: كل هذا في داخلنا، كل هذا تمكَّنت الأسطورة اليونانية من إعطائه اسمًا.

إنها الركيزة الأساسية العاطفية لكياننا، كطفلٍ بريء يلهو غير مبالٍ بجسدِه وبلعبته، ويشترك بذات الحماس في حياة الوحوش والأبطال الخارقين، وما إن يتصل بعالم الكبار حتى ينكسر

توازنه الأولمبي. إن الرغبة، أول وأقوى النزعات البشرية، دائمًا ما تتعارض مع القوانين والمجتمع والأخلاق والله.

إنه الموضوع الحاسم للأدب الغربي بدءًا من دانتي وحتى شكسبير، من تاسو إلى جوته، من هوجو إلى ديكنز، من شيلي إلى ويتمان، من بودلير إلى فلوبير. ومثل نزعاتنا البشرية فإننا نرى أن الأبطال تتشابه فيما بينها في بعض الأحيان، وتتباين في أحيان أخرى. يغنون ويرمون القوس ويثملون ويسرقون، يصطدم بعضهم ببعض أو يتحالفون، يحبون ويكرهون بعضهم، يختبرون كل المشاعر الأكثر لطفًا وقسوة. يسكنون في النور، لكنهم يهبطون حتى الظلام، يسعون نحو الكمال ويتصارعون مع أي ملمحٍ غير مثالي.

عزيزتي القارئة، عزيزي القارئ، إن كل صور الأساطير اليونانية التي تعرفها أو تجهلها، تتحرك على مسرح نفسك وتحدد العرض الذي تمثِّله أنت في حياتك.

كتب بول فاليري، أكثر شاعر صوَّب اهتمامه على هندسة الذكاء اللامعة في القرن المنصرم: «في الحقيقة هناك أساطير كثيرة داخلنا، إنها مألوفة بشدة إلى درجة أنه يكاد يستحيل تمييز أي شيء في أرواحنا إلا ونراه يتشارك معها». حان الوقت الآن للتعرف عليهم، من أفروديت أو فينوس إلى أوديسيوس أو أوليس، حان وقت الاستماع إلى أصواتهم.

الجزء الثاني

شخصيات أسطورية
في أربعٍ وعشرين نزعةً بشرية

1

الحب الخالق والحب الهادم

ضمن أول وأشد النزعات البشرية قوة تلك التي تدفع نفوسنا نحو الحب. تتساوى الكراهية مع الحب من حيث حدَّتها، إنها بمنزلة حبٍّ بعلامة سلبية، حبٍّ مارقٍ؛ فهي شعور غالبًا ما يتم إخفاؤه، ومرض داخلي يُنكر الحياة.

يُعَد الحب بمنزلة شعور ذي نطاق عمل واسع حتى إن كل إنسان يختبره من دون أن يستطيع السيطرة على أسبابه أو آثاره على الإطلاق. قد يبدو أننا نحب الأم والأب، الشقيقات والأشقاء، الزوجات والأزواج، العاشقات والعاشقين، الصديقات والأصدقاء، زميلات وزملاء العمل، لكن يكفي القليل جدًّا ليتحوَّل هذا الحب إلى كراهية.

في الحقيقة، كثيرًا ما نجد نفوسنا لا نتحدث عن شيء قدر ما نتحدث عن الحب لكن من دون أن نتحرَّى الدقة في العديد من الأسئلة الجوهرية بشأنه: ما هو جوهر الحب؟ لماذا نقع في الحب؟ ولماذا أحببنا شخصًا بعينه من دون شخصٍ آخر؟ ما الذي يجعلنا «نفقد عقولنا» أمام أي موضوع للرغبة؟ ليس من قبيل المصادفة أننا نتفوَّه بهذا التعبير لأن المرء ما إن يفقد عقله حتى تكون الكلمة للنفس بصورةٍ مباشرة.

تمضي النفس في رحلة بحثٍ مستمرة نحو الحب، في حاجة مُلحة إليه، ويبدو أن ارتباطها بقوى الأرض المُزهرة، والبحر، والسماء، والربيع هو ارتباط في حالة من الحب. لكننا غالبًا ما نجهل كيف نبحث عنه، وإن وجدناه فإننا نفسده، بل ونحرِّف مساره في بعض الأحيان. إن وقوعنا في الحب يمكن أن يقودنا إلى بناء نفوسنا في سعادة، إلى الملء في حياتنا المنقوشة في ملء حياة الأشياء، لكنه يمكن أن يجلب لنا أيضًا الألم والدمار، فالنفس التي في حالة تدفق

دائمة، التي لا تنسى أبدًا أصلها كنفخة حيوية، التي أحبَّت المرتفعات والأهوية، تعرف جيدًا طريق المراعي المشمسة وأيضًا الكهوف الأشد ظلمةً من الليل.

إن الإلهة القديمة التي نطلق عليها دوافع النفس الفردية أو دوافع الطبيعة الكونية في الحب هي أفروديت وتُدعى أيضًا فينوس، غالبًا ما تظهر برفقة إيروس رغم اختلافهما ورغم أن الأسطورة تقول إن الأولى كانت أم الثاني، وكلاهما كانا حاملي الجمال والألم. كان عشيقها آريس، إله الحرب والغضب والكراهية، نقيضها بالضبط، وكان زوجها هيفستوس الحدَّاد الأعرج القزم، مما يبدو أن الجمال مثله مثل الحب؛ يحتاج إلى ما يُناقضه.

منذ سنواتٍ عديدة وعقب زيارتي إلى بيترا تو روميو (صخرة أفروديت) في قبرص، حيث خرجت أفروديت من البحر وفقًا للأساطير وهبطت إلى اليابسة، اتضح لي أنَّ إلهة الحب والجمال تنظر ناحية المشرق، حيث تشرق الشمس، أي أن لها علاقة بنور الفجر، وقدوم الربيع.

هناك شخصيات أخرى تتحرك وسط زحام نفوسنا وتمثِّل وجوهًا أخرى محددة للحب: نركسوس الذي أظهر لنا إلى أي حدٍّ يمكن أن يؤدي الحب الحصري للذات، باسيفاي التي تحدثنا عن نهاية إفراط الهوى والشهوة الذي يقلب قواعد الطبيعة ذاتها رأسًا على عقب ويكسر الحواجز بين الإنسان والحيوان، فايدرا التي تتحدث عن جنون الحب بين زنا المحارم والأكاذيب، هيلين؛ الفتاة الفائقة الجمال التي تمثِّل العاطفة العمياء التي تجعلنا ننسى الواجبات والكرامة وتُثير الحروب والصراعات.

لا تجيب الأسطورة عن التساؤلات، بل تجعل تساؤلاتنا باهتة، وتساعدنا على إعادة تمركزنا في نعيم الحب وجحيمه، تجعلنا نفهم في نهاية الأمر أن الحب الحقيقي هو حضور تلك الطاقة في نفوسنا التي تدفعنا إلى الخروج من ذواتنا للاتحاد مع جوهر كل ما يحيا من حولنا ويعطينا الحياة، للاتحاد مع الجمال والسحر والنور؛ حقيقة ما أدركه دانتى -الوريث الرائي لفيرجيل وهوميروس- في نهاية رحلته في العالم الآخر الذي أطلق عليه «الحب الذي يحرك الشمس وسائر النجوم».

أفروديت

إن كانت أفروديت بحق ابنة زيوس وديونى إلهة الماء، فإنها تُعد إلهة أولمبية أيضًا كسائر الربات الباقيات. على العكس، ترجع ولادتها إلى أزمنة سحيقة قديمة للغاية، حيث لم يكن زيوس

حاكمًا بعد على الأولمب، بل ولم يكن قد وُلِد من الأساس. لم يكن هناك سوى جايا؛ الأرض التي خرجت من فوضى بدء الأصول ومنحت الحياة لأورانوس؛ السماء. أما مَن حرر الأرض من الضغوط التي كان يمارسها أورانوس عليها فهو الابن الداهية كرونوس. عرفنا كيف سار الأمر: انتظر كرونوس حلول الليل، وأمسك بمنجل برَّاق وأخصى أورانوس المنحني بشهوة غامرة على جايا.

نجح كرونوس في التوقف هناك، وتمكَّن من خلع الأب، ولكن لا أحد يعلم السبب الذي دفعه إلى أن يلقي عضو أورانوس الذكري الذي كان ما زال ينبض ويُدمي، منتفخًا بالسائل المنوي، في عرض البحر، ربما فعل ذلك بدافع الازدراء أو الخوف أو ربما أراد أن يُبعد عن نفسه جسم الجريمة قدر الإمكان.

سرعان ما تبدَّل كل شيء في البحر، تغيَّر كل شيء وصار به شيء من الوفرة والغرابة، لا نعرف حقيقة ما إن كان كرونوس الداهية قد تعمَّد الأمر. رويدًا رويدًا أخذ جلد العضو الذكري يتخمَّر ويأخذ قوامًا مغايرًا، وينتقع في الماء المالح والسائل المنوي، وأصبح أبيض اللون، بل ناصع البياض، خفيفًا معرضًا لنسمات النسيم.

أصبح زَبَدًا، ثم انتصب الزَبَد كالحجاب، وانتشر بالأرجاء، واتخذ هيئة من خصل الشعر ليعلو هيئته، وشيئًا فشيئًا أخذ شكل وجه، ثم جذع إنسان، وذراعين، وساقين، حتى أصبح الفتاة فائقة الجمال التي لم ترَ الأرض مثلها حتى الآن.

جالت الفتاة على سطح البحر محمولة داخل صدفة حتى إننا نجهل المدة الفعلية التي مكثت هكذا (لم يكن الوقت قابلًا للقياس بمعاييرنا الحالية مثل الآن) حتى بلغت جزيرة كيثيرا في المحطة الأولى. آثرت الرحيل من تلك الجزيرة التي لاحظت صِغر مساحتها، لتجد نفسها على مرأى من قبرص، ذات السواحل الصخرية والرمال الصافية، تهيمن عليها الجبال الشاهقة التي تنحدر منها أشجار خصبة من الشوح والصنوبر.

عند وصولها، ما إن وطأت الفتاة المدعوة أفروديت -سميت هكذا لأنها وُلدت من الزَبَد؛ أي afròs باليونانية، وأطلق عليها البعض الآخر كيثيرا أو سيبرينيا وفقًا لأسماء الجزر حيث هبطت- بقدميها اليابسة حتى نبت العشب والزهور على الفور تحت قدميها، وحلقت أسراب من الحمام والطيور المغردة حول رأسها.

ألبستها ربَّات الفصول، بنات طاميس إلهة القانون، فلففن جسدها بسترة حمراء متوهجة، ووضعن حول رقبتها إكليلًا وقلادات ذهبية. حملنها في هذه الهيئة إلى محضر الآلهة الآخرين الذين سرعان ما وقعوا جميعًا في حبها.

كان الجميع على دراية بأن أفروديت، المُلقبة بعد ذلك بفينوس في روما، هي إلهة الحب، إلهة المتعة وأكاذيب الحب، إلهة العاطفة والجماع والشهوة. إنها إلهة الربيع التي تضع البراعم ثم الأزهار على أغصان الأشجار، وتلوِّن البراري، وتُزهر الورود، وتُحرك غريزة التكاثر بين حيوانات البحر والهواء والأرض.

لم تكن إلهة الزواج قطُّ، ولم تحم العلاقات المستقرة، كما أن الإلهة هيرا لم تكن صديقتها، وأما الربات الثلاثة الأخريات؛ هيستيا وأثينا وآرتميس فارتبن لأمرها ولم يخضعن لتأثيرها على الإطلاق.

إنها إلهة الرغبة المتعذّر كبتها، إنها تجتاح كل شيء، وتجعلنا ننسى أمر العائلة والزوج والأبناء والروابط والشرف والإخلاص مثلما حدث مع هيلين التي تخلَّت عن سبارتا ومينلاوس، تلميذ آريس، وتبعت باريس بريام، الرجل الأنيق الذي يذخر بشيء أنثوي في داخله، ذلك الـ باريس الذي أهدى أفروديت تفاحة الإلهة الأكثر بهاءً. ليست أفروديت إلهة تحب فحسب، وإنها هي الإلهة التي تُثير الحب وتجذب وتغوي؛ إنها إلهة الجمال.

قليلون مَن يعرفون أنها أيضًا إلهة البحر، ذلك النوع من البحر الساكن والملاحة الهادئة، إنها الإلهة التي تُسكِّن الريح وتبدد السحب وتحمي الموانى كما أنها محل توقير من المدن الساحلية. إنها إلهة الرحلة السعيدة، عبر البحر، وعبر بحر الحياة أيضًا، حيث من الأفضل الاتكال عليها وعلى طاقتها التي دائمًا ما تدفع إلى الحب وإلى إخضاع كل بقايا أصولنا البربرية الكامنة في داخلنا تحت القوة الخلاصية للنعمة والجمال.

من الكذب المحض أن نقول إن أفروديت لم تحب، بل إن قصتها مليئة بالحب، لكنه حبٌّ غير سعيدٍ أو مُزدرى به أو عابر أو زان.

خلال الفترة الزمنية التي لا تحصى عندما كانت تجوب البحر بعد ولادتها، يقال إنها أحبَّت نيريتيس، ابن نيريوس الإله البحري القديم ويُدعى الشيخ لأنه لم يعرف الخطأ أو الكذب، وقادرٌ على التحولات السريعة كسائر المخلوقات التي تعيش بين الأمواج التي من خلالها يمكن أن

يصبح ثعبانًا وماءً ونارًا، ذاع صيت بناته الخمسين أكثر منه؛ النيريدات اللاتي ولدن مع دوريس ابنة أوقيانوس.

كان لنيريتس أطرافٌ قوية نحيلة، وشعرٌ أطول من مجسات الأخطبوط، وشفاه أشد حمرة من المرجان. نسيت أفروديت كل شيء من أجله، وعاشت معه بسعادة، وسبحت بين جماعات الأسماك ذات الحراشف الوردية ومستعمرات قناديل البحر الشفافة. حان وقت رجوع أفروديت إلى الأرض بعد أن استدعتها للانضمام إلى آلهة الأولمب الأخرى. أرادت أن تأخذ معها نيريتس لكنه لم يكن يعرف أي عنصرٍ آخر سوى الماء، ولم يشعر برغبة في ترك الأب نيريوس والأم دوريس وشقيقاته الخمسين الرائعات، ولم يود التخلي عن الغوص بين شقائق النعمان ونجم البحر وفرس البحر.

أصرَّت أفروديت، لكنه تردد مرة أخرى ليجيب بالرفض في نهاية الأمر، حينها وعدته الإلهة بجناحين جميلين؛ فبهما سيستطيع الطيران ومواجهة الريح حيث إنه كان يخشى اليابسة. بات نيريتس حينها حازمًا في قراره، ولم يفكر في أنه لن يستطيع رفض عروض الإلهة. لكي تعاقبه أفروديت، أو ربما لكي تجعله أبديًّا وتحمله دائمًا معها، جعلته صدفةً، ربما كان هو تلك الصدفة التي أبحرت بداخلها حتى بلغت ضفاف قبرص.

هل يمكننا القول إن أنفاس نيريتس البحرية هي التي تنفخ في جوف أي صدفة ما زلنا نحملها في آذاننا إلى اليوم؟

كان هيفستوس هو الزوج الذي أعطاه زيوس إلى أفروديت، الإله الحدَّاد، إله النار، حرفي ماهر للغاية لكنه أعرج وقزم. سرعان ما أخذت أفروديت آريس عشيقًا لها، إله الحرب، شاب وسيم وإن كان مشاغبًا وفظًّا، هو إله -شيطان، عاشق للقتال والفتنة والنزاع والحروب الأمر الذي أثار نفور أبيه زيوس.

من آريس أنجبت أفروديت ديموس؛ إله الرهبة، وفوبوس؛ إله الخوف، لكنها أنجبت أيضًا هارمونيا التي تزوجت قدموس مؤسس مدينة ثيفا.

أخيرًا، عرف هيفستوس أمر الخيانة من هيليوس إله الشمس الذي اكتشف أمر العاشقيْن العاريين ينغمس أحدهما في مضاجعة الآخر حتى بزوغ الفجر، حينها، تدبَّر الحدَّاد ذو المهارة الفائقة أمره وأخذ يستعد للانتقام. أعد هيفستوس سلاسل رفيعة مثل خيوط العنكبوت، لكنها كانت

متينة جدًّا يستحيل قطعها، ثم ثبَّتها على جانبي سرير الزفاف وأحكمها بآلة ليتحكم بها من خلالها، بعد ذلك اختلق عذرًا حتى يبتعد عن المنزل وأخبر زوجته أن عليه الذهاب بعيدًا لبضعة أيام.

في الليلة نفسها، مَثُل آريس أمام أفروديت وتقاسم الفراش معها، أنجزت آلة الإله الحداد مهمتها على أكمل وجه وتمددت تلك الشبكة الحديدية بغتةً على العاشقين، واحتجزتهما عاريين كما هما.

عاد هيفستوس باكيًا ليباغتهما وقد استدعى كل الآلهة ليروا حجم الذنب الذي اقتُرِف بحقِّه، ظن أنه سيحصل على العدالة بعقليته الساذجة كأي حرفيٍّ، لكن وجوه الآلهه كانت تفصح بشيء آخر.

أثارت رؤية أفروديت العارية الشهوة في وجدانهم جميعًا، أكثر من ألمح كان هرمس الصغير الذي عندما سأله أبوللو إن كان يرغب في أن يكون على ذلك السرير بالقرب من أفروديت، أجاب أنه يود ذلك حتى لو مقيدًا بسلاسل أقوى ثلاثة أضعاف تلك السلاسل التي تسجن العاشقين.

على إثر إجابة هرمس، اندلعت ضحكةٌ بلا توقف كانت تُعَد علامة حزينة للغاية بالنسبة إلى هيفستوس. صارت دموعه وشكواه كزوجٍ تمَّت خيانته محل سخرية في أعين الآلهة الواقفين. لم ينل المواساة المنشودة، بل كاد أن يكون موضع ازدراء وتهكم. ألا يعلم أن حب أفروديت -التي اشتراها كزوجة له بعد أن انهال على زيوس بالمهر الثمين من دروع ذهبية ومزهريات وصحون ورماح وسيوف- لا يقع ضمن حدود الإخلاص الزوجي؟ ألم يعلم أن الإلهة تدفع إلى الحب من دون التطلع في وجه أي أحد وتنصاع إلى شهواتها فحسب؟

هيفستوس، الإله الحرفي، الرب الساذج، بدأ ينظر إلى الأمر بعين اقتصادية؛ فعلى الأقل كان يريد استعادة المهر بعد أن نظر إلى سلوك زوجته. كان بوسيدون، إله البحر، هو الإله الوحيد الذي استمع إليه. منذ أن رآها هناك، عارية، اتقدت الشهوة بداخله نحو أفروديت: سيدفع هو ما يعادل قيمة المهر ومن ثَمَّ سوف يتسنَّى له تحرير الإلهة وعشيقها.

لقد كان استثمارًا جيدًا؛ فالبحر يفيض بخيراتٍ لا تحصى في أعماق مملكته، حتى إن بوسيدون ذات يوم سيستطيع التمتع بحب أفروديت وسينجب منها روديس الذي سميت جزيرة رودي على اسمه، حيث الزهور الوفيرة كانت تستحضر جمال الإلهة دائمًا.

تمتعت بعض الآلهة الأخرى بنِعم أفروديت، لكن حبهم المُتيَّم والدرامي كان مهلكًا بالنسبة إلى الطرفين، ولا سيما الشاب أدونيس ذو الولادة الغريبة الجديرة بأن نذكرها.

كان الملك سينيرا يعيش في قبرص، وكان لديه زوجة متغطرسة وابنة فاتنة. ذات يومٍ، تجرَّأت زوجته وقالت إن جمال ابنتها المدعوة ميرّا يفوق جمال أفروديت. لم تكن تعرف حجم خطورة تحدي الآلهة، وحجم الغضب الذي يمكن أن يندلع. ثأرت أفروديت للأمر بطريقة شديدة القسوة، بواسطة سلطتها الغاشمة التي لا يمكن مقاومتها، جعلت ميرّا الشابة تقع في حب أبيها سينيرا. بمساعدة أفروديت، وحتى يتسنى لها إشباع رغبتها، تمكَّنت ميرّا من أن تُسكر أباها، وما إن حل الليل حتى دخلت معه إلى فراشه. لم يعِ الأب أي شيء إثر النبيذ، وزعم أن مَن بجانبه فتاة غريبة ولم يخجل من حبها الذي منحته إياه. حدث هذا ليالي عديدة انقضت بين أبخرة السُكر ولهيب الشهوة.

في إحدى الليالي، علم سينيرا أخيرًا هوية الفتاة التي تقاسمه الفراش وغمره ذعر شديد. لعن الابنة، وأخرج سيفه من غمده وتعقبها حتى يُمسك بها، بكت ميرّا، وتضرعت إلى الآلهة أن يمحو وجودها من على سطح الأرض.

أرثت الآلهة لحالها وحوَّلوها إلى شجرة يقطر لحاؤها مادة صمغية عطرة، وعندما سدَّد الأب طعنة بالسيف، لم يمزِّق قلب الابنة حينها، وإنما كسر جذع الشجرة بعد أن بدَّلت الآلهة هيئتها على الفور.

من رائحة تلك المادة الصمغية التي ستسمى ميرّا منذ ذلك الحين، خرج طفل بارع الجمال من لحاء الشجرة. وصلت أفروديت ووضعته في سلة مغلقة وحملته إلى بيرسيفون، ملكة العالم السفلي، حتى تحرسها. لم تفلح بيرسيفون في مقاومة فضولها وفتحت السلة. كان الطفل فائقَ الجمال حتى إنها افتُتنت به وعندما طلبت أفروديت استرداده لم تقبل بيرسيفون أن تعيده إليها.

نشب صراعٌ بينهما، حسمته في النهاية سلطة سماوية: فبعد أن بلغ أدونيس وأصبح شابًّا ذا وجه وجسم رائعين، قرر أن يحيا ثلث العام برفقة بيرسيفون، والثلث الآخر برفقة أفروديت، والثلث المتبقي بمفرده من دون حاجة إلى إرضاء رغبة الإلهتين.

لكن أفروديت، المفعمة بالحب والقوة والإغواء، احتفظت بأدونيس بجانبها مدةً أطول من المخصصة إليها؛ كانت تريده لها فقط بعد أن أعمتها العاطفة، تحيا معه، وتذهب إلى الصيد

برفقته، وتلعب معه، وتعلِّمه كل أسرار الحب والشهوة.

حينها ذهبت بيرسيفون لتحذير آريس، الإله، الشيطان الفتّاك، رب الحرب. أشارت إليه أن أفروديت تفضِّل عنه شابًّا آخر، ذلك الفتى ذو الملامح الأنثوية الطاغية. ثار آريس بشدة، ومن المعروف أن ثورته هذه تحمل في طياتها العنف والدماء. في أحد الأيام، اتخذ هيئة خنزير عملاق، وفتك بالشاب أدونيس الذي بدأ يركض في أحد المراعي العشبية. لم يكن عدوه سريعًا بصورة كافية للهرب من أمام ذلك الخنزير الذي رغم جسمه البدين لكنه كان سريعًا للغاية تفيض دماؤه بالقسوة والشراسة. أوقع بأدونيس، وجُرح إثر طعنة بأنيابه في جانبيه، وسُدِّدت الضربات من مخالبه وانطرح على الأرض، وأخذ ينهش في وجهه وساقه وخصره حتى بات جسده الرائع حفنة قذرة من العظام والأحشاء.

انتحبت أفروديت لما لحق به؛ تخضَّب الوادي العشبي بدماء أدونيس ثم تحوَّل إلى الحُمرة جرَّاء شقائق النعمان. رأت أفروديت وجهه ولطفه الرقيق ظاهرين بإحدى زهور شقائق النعمان. الآن، عاد أدونيس إلى العالم السفلي، مات أدونيس والتحق بالأموات، حتى زيوس الذي كان دائمًا ما ينظر بعين الرافة نحو أفروديت، لم يسمح لها باستعادته إلا خلال شهور الربيع فحسب.

هكذا كان أدونيس يُبعَث من جديدٍ، ويُحتفى به كل عام في الأعياد التي تُخلّد قيامته، وتُخلِّد ولادة الطبيعة بعد الشتاء من جديد.

الرجل الآخر الذي أحبَّته أفروديت كان أنشيزى، ابن دردانوس، الملك الراعي الذي يحيا على حافة جبل إيدا بالقرب من طروادة.

رأته أفروديت، وفي ذلك الوقت السعيد تبعت النظرة الرغبة، وتبعت الرغبة المتعة، ومثلت أمامه في خيمته وهو يعزف الفلوت مثل أميرة من فريجيا، مرَّت لحظة حتى تمدَّدا على جلود الأسود والدببة التي اصطادها أنشيزى، وقضيا ليلة من أروع ليالي الحب الساحرة.

كانت هذه أفروديت أيضًا: الحب الفوري، الحب السارق، الحب الذي يتوق إلى المتعة؛ أي خدعة مستباحة ما دامت المتعة هي المحطة النهائية. في صباح اليوم التالي، عقب استيقاظهما، تبدَّلت الإلهة وعادت إلى طبيعتها الحقيقية. بُهت أنشيزى، وأصابه الذعر أمام توهجها، وانتابه اليأس، وأجهش بالبكاء؛ حيث كان يعلم أنه سيضطر بالتأكيد إلى دفع ثمن احتفاظه بإلهة طوال

ليلة كاملة. هدَّأت أفروديت روعه، وأنبأته بأنه سيُنجب ابنًا على إثر تلك المضاجعة؛ إينياس، الذي ينتظره مصيرٌ مجيدٌ.

هدأ أنشيزى، ولم يستطع كتم سر تلك المقابلة. في أحد الأيام، وعندما كان يتناقش مع رفاقه حول الفرق بين مضاجعة امرأة جسدية ومضاجعة إلهة، أفصح لهم أنه يعرف الفرق جيدًا، لأن الذي يحدِّثهم، ابن دردانوس، الأب المستقبلي لإينياس، كان قد أحب أفروديت.

دفع أنشيزى ثمن تفاخره وألقى زيوس البرق عليه، كان سيحترق بالجملة إلا أن أفروديت التي تذكرت تلك الليلة المفعمة بالحب، وصوت ذلك الفلوت، وذلك الدفء المنبعث من جلود الأسود والدببة، تمكَّنت من تغيير مسار البرق؛ فلمس إحدى قدميه فحسب حتى صار أعرج.

يتضح لنا أن أفروديت هي الحب الذي يُخلّص، ويسمح بولادة جديدة، ويخدع، ويثور، ويمنح البهجة ويجلب الألم، ويحمي إبَّان العاصفة، إنها ذلك الجانب من الحب حيث تهيمن السعادة على جوانبه، والطاقة الحيوية، والنور الذي يضيء العالم. تسكن أفروديت في نفوسنا، وفي أي صَدفة تطفو على البحر الساكن، وفي الربيع الذي يُنبت العشب والزهور في كل مكان، وفي عُرْف الخيول المتحابة، وفي النحل الذي يلتف حول تويج الزهرة متعطشًا إلى لقاحها، وفي الريح الهادئة، وفي التلقيح، وفي البذور.

إن أفروديت هي أفضل مُثير للشهوة الجنسية في العالم بأسره، كل مَن يتبعها لن يُخطئ أبدًا، ومَن يقتفي أثرها فسيصل إلى الميناء بلا شكٍّ، وسيحظى بولادة جديدة مرة أخرى.

إيروس

الإله إيروس، ويطلق عليه الرومان آمور أو كوبيدو، لم يشغل حيزًا وسط آلهة الأولمب، فتى في ريعان شبابه، متقلب المزاج، ولم يحظَ بأي ثقة في أعين زيوس، وعند الفحص الدقيق نرى أن حياته لم تكن مليئة بالقصص والمغامرات كسائر الآلهة؛ من الصعب التحدث عنه؛ فهو غالبًا ما يظهر كرمزٍ مجردٍ أو مبدأ أو طاقة جارية.

إنه فتى مراهقٌ لطيفٌ، وهذا كل ما نعرفه من خلال مظهره الفائق الجمال ومن جناحيه الذهبيين. كان فتى متمردًا، غير مهذب، صاحب نزوات كعادة الصبيان. نظرًا إلى عجزه عن الوصول إلى مرتفعات جبال الأولمب فكان يرفرف حوله مثل فراشة صغيرة أو دبور، يحلق بين الغابات والمراعي والمدن، ويسخر من كل مَن يراه في مجاله.

أعدّ لنفسه قوسًا من خشب المُران، وسهامًا من أغصان السرو، وتمثّلت قوته في إصابة هدفه بطريقة عشوائية، من دون أدنى تفكير أو تصور، ومن دون أي اعتبارات للعمر أو للحالة الاجتماعية، يصيب الشباب والعجائز، الملوك والشحاذين. بلغ به العبث في بعض الأحيان حتى صوَّب قوسه نحو أحد الآلهة. كان يسدد ضربات عمياء، ويُلهب أجساد الأسود الذين يغطون اللبؤات في الغابات، والخيول التي تغطي إناثهم في المراعي، وأما في الهواء فكان يتسبب في قيام ذكور السلاحف بالبحث عن الإناث خلال الطيران، ويجعل ذكور الدلافين تقفز على إناثهم في عمق البحار. بعد ذلك يقترب من الأماكن المأهولة، ويجرح نفوس الرجال والنساء.

مَن يُضرب بسهمٍ من قِبل إيروس ينفتح جرح به في الحال، ويغمره شعور بالنقص والفراغ والريبة والإثارة. يُشعل إيروس الرغبة في كائن حي نحو كائن آخر، ومن المعروف أن الرغبة، قبل كل شيء، هي إدراك نقصان شيء ما.

من ثَمَّ، فالكائن الذي يُجرَح من إيروس يسقط فريسة الوقوع في الحب، تلك الحالة الغامضة، غير الموزونة، الزلقة التي يمكن أن تؤدي إلى السعادة إن تحققت الرغبة المنشودة، أو إلى الألم أو إلى الجنون في بعض الحالات إن نُبِذت.

إن سهام إيروس تُسقط إنسانًا منفردًا في حب إنسانٍ آخر، ولكن على النقيض، نجد أن أفروديت تُثير موجات وهبَّات ملتهبة من الحب تؤثر في كل من يشعر بها، وتنطوي على الطبيعة بأسرها؛ الربيع في الورد، والبحر الذي يفيض بالزَبَد، والريح التي تتخلل سعف النخيل. ليست أفروديت بفتاة متقلبة بل إنها ذات سيادة؛ كل ما تلمسه هو الحب، لا يهمها إن كان الحب سيدرك مبتغاه أم لا، وإنما ما يهمها هو أن يحب المرء فحسب.

يتضح لنا أن نطاق عمل إيروس وقوسه وسهامه أضيق بصورة ملحوظة، رغم ذلك، نرى أن بل واشتقت الصفة من اسمه «Erotismo» «اشتق مصطلح «الإثارة الجنسية «Eros» من اسمه أي جنسي، وهما اللذان يحددان في العالم الحالي المجال الفسيح في الفلسفة «Erotico» أيضًا والأدب والسينما والفن وكل ما يستدعي الشغف الكامن في الجسد وتغلغل الحب الروحي والجنس.

تبدو أصول إيروس متناقضة، فمن ناحية يُنظر إليه على أنه إله بدائي. في البدء كان الليل، الظلمة الفارغة المتجسدة في هيئة طائر ضخم ذي الأجنحة السوداء، الإله الذي خصبه إله الرياح (أذكركم بالنفخة الحيوية للأصول المتعلقة بالنفس التي تُحدثنا عنها الأسطورة دائمًا) الذي

وضع بيضة فضية وخرج منها الفتى إيروس بجناحيه الذهبيين بعد أن فقست في مدة لا علم لنا بها.

إن كان الجزء السفلي من البيضة الكونية تشغله الأرض، والجزء العلوي تشغله السماء، فإن إيروس قد وُلِد للتوِّ، مثل كتكوت يخرج من تلك البيضة الكونية، ويجعلهما يتزاوجان. سيخرج منهما أوقيانوس وثيتيس، وسيكتمل بهما لوحة عناصر الطبيعة: الأرض والهواء والماء. أما النار فبين يدي إيروس الذي يظهر ليس بقوسٍ فقط وإنما بشعلةٍ تتقد في يده.

إن صحَّت هذه الرواية، فإن إيروس قد وُلِد قبل الآلهة الأخرى، إنه أصل كل شيء، قوة كونية خالصة. بعض الروايات الأخرى تُظهره ابنًا لأفروديت نفسها، والتي ربما تنشئه على طريقتها، ليس مع زوجها هيفستوس وإنما مع بعض عشاقها الكثيرين، وفي مقدمتهما هرمس أو آريس، بل وربما أيضًا مع زيوس.

من الناحية الفلسفية الخالصة، في الندوة(61) لأفلاطون، تقول الفرضية إنه وُلد من بورو (الرخاء) وبينيا (الفقر) في ليلة حفل تتويج أفروديت في قصور الأولمب حيث إن بورو، المشهود له بالحكمة والحصافة، خرج متخمًا بالنبيذ في الهواء الطلق فبغته النوم، حينها كانت بينيا تقف على عتبة الباب تلتمس شيئًا من المأدبة الإلهية، ورقدت بجانبه وحملت منه.

(61) نص فلسفي بقلم أفلاطون يعود تاريخه بين عامي 385-370 قبل الميلاد، ويتعلق بنشأة الحب وغايته وطبيعته كما يعتبر أصل مفهوم الحب الأفلاطوني حسب بعض الأقاويل.

ما دام إيروس وُلِد من قوتين متناقضتين تمامًا فربما ذلك يفسر تناقضه؛ فهو مسكين دائمًا لكنه ماكرٌ مخادعٌ، صياد مروع و«محتال رهيب وساحر وسوفسطائي»؛ من هنا نشأت قدرته على إثارة الفرحة والألم في النفس البشرية.

إذا تأمَّلنا من رواية ولادته من أفروديت، سنقول إن أكثر سهم يمتاز بالمكر والحماقة، ذلك الذي ألقى به إيروس نحو أمه مما تسبب في وقوعها في حب أودنيس بلا تفكير، وما تبع ذلك من صراع وإراقة للدماء.

إيروس، أو الحب(62)، ربما عاش القصة الوحيدة التي تستحق أن تُروى، حقًّا يا لها من قصة! عندما كان على علاقة ببسايكي.

(62) عَمد الكاتب إلى استخدام لفظ الحب كنايةً عن إيروس.

كانت ابنة أحد الملوك وذاع صيتها لجمالها الذي أثار غضب أفروديت، وحتى تعاقب بسايكي، طلبت الإلهة من ابنها أن يطلق سهمًا نحوها حتى تسقط في غرام أكثر رجلٍ كريه في العالم.

امتثل الحب لأمه، لكن ما إن رأى الفتاة بسايكي حتى اضطرب فسقط السهم المنطلق ومال نحو الأسفل وجرح قدمه، وأُغرم بها، ونسي الوعد الذي قطعه، وأمسك ببسايكي وحملها معه إلى قلعته السحرية القابعة على قمم الجبال الشجرية. لم يكشف لها هويته أو مظهره، بقي مختبئًا بالنسبة إليها، ولم يأتِ إليها سوى ليلًا، ولم يبق برفقتها إلا عندما كانت تتجنب النظر إليه.

قضت بسايكي برفقة الحب ليالي مفعمة بالعواطف في الظلام، وفي السر، من دون أن تعرف قطُّ اسم حبيبها أو هيئته، لكنَّ الفضول سيطر عليها، وأثارت شقيقاتها الماكرات الحاسدات الريبة في داخلها: لماذا يصر حبيبها على ألا يكشف نفسه أمام أحد؟ ما الذي يعمد إخفاءه؟ ألا تريدين التحقق من قُبح وجهه، وشعره الدُهني القليل، وجسمه البدين؟ أليس من المحتمل أن يكون مشلولًا؟

رضخت بسايكي وقررت رؤيته بأم عينيها حتى تبدِّد شكوكها التي بثّتها شقيقاتها داخلها. ذات ليلة، بعد الجِماع، وبينما كان الحب منهكًا يغط في نومٍ عميقٍ، نهضت بسايكي وأشعلت مصباحًا ورفعت المُلاءة التي تحجب حبيبها، لكن بسبب ذراعها المرتعشة سقطت قطرة زيتية من مصباحها على الحب، فلسعته وأيقظته وجعلته يهمّ بالفرار.

لم يكن لندم بسايكي أي فائدة بعد أن أبصرت جمال زوجها الأخاذ، سعت أن تمسك بإحدى ساقيه لكن من دون جدوى، أجهشت بالبكاء ويئست من حياتها، وتمنَّت الموت مثل فتاة تعيسة شحاذة تجوب المعابد وتستجدي الآلهة حتى يساعدوها.

أصغت أفروديت إلى توسلاتها، وحتى تتمكَّن من استعادة الحب ألزمتها باجتياز مهام شديدة الصعوبة كالكابوس وتصل إلى حد الاستحالة. لن تستطيع بسايكي اجتياز أي واحدة منها بمفردها ولهذا جاءت الطبيعة لمعاونتها؛ فمن أجلها أفرز النمل من أعشاشه جبلًا من الحبوب له ذات الحجم، وأشارت إليها الأقصاب من أرضها كيف تأخذ الصوف الذهبي من فروة الأغنام المتناحرة، حتى زيوس أرسل إليها نسره في عملية الإنقاذ ليجمع المياه من نبعٍ عالٍ إلى جدار صخري أملس وشاهق للغاية.

كان الاختبار الأخير هو الأكثر خطورة: هبطت بسايكي إلى العالم السفلي وطلبت من بيرسيفون القليل من جمالها، وأخذت القارورة واستمرت تفتحها وتشرب منها في أثناء عودتها، كانت القارورة تحتوي على جرعة سحرية جعلتها تغفو، ولم يكن معروفًا عدد الساعات التي ستنامها، إذ لم يكن الحب ليوقظها، ذلك الذي رقَّ قلبه آنذاك. في نهاية المطاف، استعادت بسايكي الحب، وأصبحت خالدة هي الأخرى، واحتُفِل بزفافهما على الأولمب وكان الحداد هيفستوس مَن أعد غداء العُرس، ذلك الحرفي الكريم الذي صار بغتةً طباخ الآلهة، من علاقتهما، وُلدت ابنة تدعى فولوتا.

من هذا يتضح لنا، خلف ستار الحكايات الأسطورية، أن طريق النفس نحو الحب طريقٌ ملتوٍ ومحفوفٌ بالمخاطر وذو عوائق مستمرة يصعب تجاوزها. لم يرغب الحب في أن يمتلكه أحدٌ ويكشف هويته. يُمسك بك خلسةً، ثم يلوذ بالفرار، ويتجاهلك، لتظهر صعوبات يصعب تجاوزها حتى تتمكَّن من استعادته. لكنَّ الأمر جديرٌ بالبحث عنه، فلا يجب أن نستسلم أبدًا مهما يحدث، لأن النفس عندما تدرك الحب، تسقط في السعادة، وتجلس في مأدبة وسط الآلهة، وتتمتع بالخلود، وتلد اللذة، أعظم ما عرفه المرء تحت السماء.

نركسوس

على رأس الآلهة التي تسكن النفس البشرية فور وقوعها في الحب، لدينا أفروديت وإيروس، لكن هناك أيضًا نماذج أخرى، خصوصًا تلك التي يظهر فيها الحب كنبعٍ للمعاناة، للشهوة الجسدية الهوجاء، للهذيان والجنون، حيث يتراءى حينها بجانبه المظلم والمدمِّر، ها هو نركسوس كواحدٍ من تلك النماذج المذكورة.

جميعنا يعرف المعنى وراء مصطلح «نرجسية»، ذلك الذي يحوي في طياته سلوكًا قويًّا ينمُّ عن العطف والإحسان لذواتنا والتقدير من شأنها، مدفوعًا بإفراطٍ بيِّن، وعجزٍ عن الخروج من دائرة الإعجاب المهووس المنطلق نحو طبيعتنا. إن الإنسان النرجسي هو الذي -منطلقًا من حبه لذاته- يمتنع عن حب الآخرين، ولا يستطيع أن يمنح الحب أو يستقبله.

أزعم أن كثيرين يعرفون القصة المأسوية التي ظهر نركسوس كبطلٍ أسطوري لها. نركسوس هو ابن الحورية ليريوبي، واحدة ضمن آلاف الأوقيانوسيات، وابن إله النهر سيفيسو. في أوقات مباركة تحوَّلت الأنهار ذات التيارات القوية من المياه العذبة المنحدرة نحو البحر إلى عشاق لم

يستطع أحد إيقاف جموحهم وثورتهم، وسعوا إلى تخصيب حوريات البحر في جماعٍ فوري، انسابت المياه العذبة نحو المياه المالحة وامتزجت بها، ووُلد حينها طفلٌ بارع الجمال.

كسائر الأمهات، ساور القلق الأم ليريوبي بسبب المصير الذي ينتظر صغيرها -بالطبع لم يتوقف الإله سيفيسو واستطرد جريانه من دون أن يعبأ بالوقوف لرعاية نسله- وفكرت في الذهاب إلى أحد العرَّافين. ذهبت إلى تيريسياس الذي فقد بصره فأنعمت عليه الآلهة بهبة معرفة الغيب. كانت ليريوبي أول من بحثت عنه حتى تحصل على استجابة لطلبتها، طلبت منه معرفة ما يحمله المستقبل إلى ابنها نركسوس، وأجاب تيريسياس بطريقة يتقنها العرَّافون والوسطاء الروحيون؛ بعباراتٍ يُغلِّفها حجابٌ من الغموض: «سيحيا نركسوس طويلًا، إذا لم يتعرف إلى نفسه قط».

منذ تلك اللحظة، ابتكرت ليريوبي كل الحيل المتاحة حتى لا تسمح لنركسوس برؤية وجهه أبدًا، أو رؤية عينيه اللتين تُشعَّان جمالًا، أو شعره، أو خدَّيه، ومنعته من أن ينحني على سطح الماء، بل وكانت تُضفي الضباب فجأةً على أي مصدر آخر يُمكن للصبي الانحناء أمامه.

كلما يكبر نركسوس يزداد جمالًا وإعجابًا من الآخرين. كلا الجنسين أُغرما به، لكنه رفض الجميع بفتورٍ شديدٍ، من دون أي شعور بالإغواء ناحية أي منهم؛ فقلبه كان متخمًا بجماله الخاص حتى وإن لم يره إلى الآن.

ذات يومٍ، بينما همَّ بالذهاب إلى الغابات لصيد الغزلان برفقة قوسه ومصيدته، تتبعته الحورية إيكو المفتونة به بجنون لكن من دون أن تظهر له، حيث ظلَّت مختبئة خلف الشجيرات وجذوع الأشجار.

كانت خائفة، لأنها تعرف أنها لن تستطيع أن تتوجه نحوه بكلمة واحدة منذ أن عاقبتها الإلهة هيرا بذلك التشويه غريب الأطوار. ثارت هيرا عليها لأن الحورية إيكو تعمَّدت إمتاعها بأحاديثها الرنانة حتى تُصرفها عن مراقبة زيوس المنغمس في ألاعيب الحب الممتعة مع حوريات الجبل، فحكمت هيرا على تلك الحورية الماكرة الثرثارة بسلب قدرتها على التفوه بأي كلمة من تلقاء نفسها وترديد الكلمات الأخيرة التي يرددها الآخرون أمامها فحسب كطفلٍ متلعثم. كان هذا أسوأ بكثيرٍ من أن تجعلها خرساء، حيث جعلتها عرضة للسخرية، ونزعت عنها أي قدرة للتعبير عن نفسها، كيف يمكنها التعريف بنفسها إلى نركسوس في تلك الظروف؟

عندما عزم الصياد الشاب على نصب أحد فخاخه، لاحظ وجودها خلف كومة كثيفة من الفروع وسألها قائلًا: «من أنتِ؟ ماذا تفعلين هنا؟» لتجيب إيكو «ماذا تفعلين هنا؟».

احتجَّ نركسوس، وقال: «أنا هنا أنصب فخًّا، أنتِ مَن يجب أن تخبريني من أنتِ».

تمتمت إيكو: «..من أنت».

قال نركسوس: «يبدو أنكِ تهزئين بي، هذا يكفي».

قالت إيكو: «..هذا يكفي..».

حينها، خرجت إيكو من مخبئها، كانت بيضاء وعارية وممشوقة القوام كسائر الحوريات، واتجهت نحو نركسوس بخُطى متسارعة، ثم ركضت وتوقفت أمامه وحاولت معانقته.

صاح نركسوس وتراجع إلى الخلف، لم تُرفَض أي حورية بهذا الفِعل الوحشي المفعم باشمئزازٍ بيِّن من قبل.

تقهقرت إيكو إلى مواضع الغابة الأشد كثافةً وظلمةً، وجالت في الوديان الموحشة الدائمة الظلام، وفي منحدرات الجبال الوعرة. كانت تبكي بلا هوادة، ولم يلمس جوفها الطعام، ولم تعُد تنظر نحو الشمس. كانت تتأوَّه مثل حيوان جريح حيث إنها لم تستطع أن تعهد ألمها وندمها إلى الكلمات قطُّ. رويدًا رويدًا أصاب الهُزال والنحافة جسدها، وتلاشت ذراعاها، ثم قدماها، وأخيرًا وجهها بعينيها المعذَّبتين بالدموع اللتين احتفظتا داخلهما بصور نركسوس، وأخيرًا فمها الذي ما زالت تتزاحم كلمات كثيرة داخله من دون أن تقوى على التفوه بأي منها، تحوَّل جسدها بأسره وصار سحابة من الضباب حتى اختفت تمامًا.

لن تكون إيكو سوى مجرد صوت فحسب؛ ذلك الصوت القابع في الوديان النائية المنيعة، نسمعه يتردد إلى الآن من بعيدٍ، يكرر المقاطع الأخيرة لصيحات أي كائن حي، صوت غامض، يأتي من أعماق عقوبتها وألمها المعنوي.

أثارت نهاية إيكو في قلوب الآلهة شعورًا بالازدراء والانتقام لما فعله نركسوس. أخذوا يفكرون في جزاءٍ يستحقه، ويبدو أن الفرصة سنحت لهم سريعًا. كان نركسوس قد أرسل سيفًا هدية إلى أمينيو؛ أحد الذين كانوا يعشقون نركسوس بضراوةٍ وصدق. بذات السيف، قتل أمينيو نفسه على عتبة باب حبيبه نركسوس بعد أن رفضه للمرة الأخيرة، متوسلًا إلى جميع الآلهة حتى يثأروا له. بعد هذه المرة أَقرّت العقوبة، وكانت مروّعة للغاية. حان الوقت أن يدفع

نركسوس جزاء فعلته، وحسب مرسوم الآلهة، كُتِب عليه أن يقع في الحب من دون أن يكون قادرًا على إرضاء شغفه إلى الأبد.

كان نركسوس يبلغ من العمر ستة عشر عامًا، يزدري بأي علاقة حب كانت، وبأي شخص يُعلن له ذلك، كان جميلًا من رأسه إلى أخمص قدميه، بعينين فاتنتين، وفم جذاب، ومعصم وكاحلين رفيعين قويين، واستمر يقوم برحلات الصيد ويدخل إلى الوديان الضيقة الخفية في الغابة، بعيدًا تمامًا عن أمه.

في أحد الأيام في منتصف النهار، حيث الشمس كانت مرتفعة في أعلى قمة من السماء، والصمت معلّق بالأرجاء، وبدا أن النحل توقف عن الطيران، والغزلان والغزالات هربوا من دون أن يعرف أحد وجهتهم، لاحظ نركسوس على حافة إحدى الصخور انعكاسات وردية لنبع مائي لم يمسسه بشرٌ، شديد اللمعان، لا تطفو على سطحه أي أوراق ذابلة، أو تتلوّى الأسماك في قاعه، أو تنطلق إلى أعلى سطحه.

كانت المياه بلّورية ساكنة، لم يرَ نركسوس مثلها من قبل. جثم على ركبتيه، ومسح عرقه، وانحنى أمام سطح المياه. حينها، أبصر صورة جعلته مبهوت العينين وجاف الحلق جراء رؤيتها. لم يزعم أن ما يراه ممكنًا. رأى شابًّا فاتن المحيا، تبدو خصلات شعره كالمرجان، وقد تلوّن فمه وشفتاه بحُمرة شديدة؛ تمتدان نحو الأمام كما لو أنهما في حاجةٍ إلى قبلة.

لم يدرك نركسوس أن ما يراه هو انعكاس لصورته لأنه لم يرَ نفسه من قبل، كما لم يكن يعرف مضمون النبوءة التي نطق بها تيريسياس إلى أمه ليريوبي؛ فهو لم يسمعها تتحدث بخصوص الأمر على الإطلاق. كان يتعرَّف إلى نفسه من دون أن يعرف ذلك؛ لن تدوم حياة نركسوس طويلًا بعد الآن؛ فالنبوءات لا تسقط كلماتها أرضًا على الإطلاق.

ازداد إعجابه بصورته المنعكسة، وتحلّى بشجاعة مكَّنته من مدّ إحدى ذراعيه في المياه التي انفتحت في صورة دوائر متمركزة؛ فتبعثرت ملامح الصورة لكن سرعان ما عادت إليها، وهكذا تم إحباط محاولة نركسوس في مغازلة نفسه. لكنه لم ييأس؛ وإنما أغرق كلتا ذراعيه ليمُسك بالشاب الذي سقط في حبه من دون سابق إنذار، وفي هذه المرة أيضًا لم يستفد أي شيء سوى تحريك سطح الماء.

في النهاية، انحنى أكثر ليلمس بشفتيه تلك الشفتين المنعكستين لمحبوبه، لم يجنِ أي شيء، وشعر حينها بمرارة القبلة المرفوضة، ومعاناة الحب من طرفٍ واحدٍ، كم من عشَّاق رفضهم نركسوس! والآن ها هو قد صار مغرمًا بنفسه، بذلك الظل الذي لم يعرف أنه ذاته.

لا أحد يعرف حجم الوقت الذي بقي فيه نركسوس منحنيًا أمام ذلك النبع شديد الصفاء. في تلك الآونة لم يكن الوقت محسوبًا بالساعات، وإنما بحركتي الشمس والقمر. لا أحد يعرف كم عدد الشموس والأقمار التي أشرقت وغابت أمام نركسوس الذي فقد عقله من الحب وظل ساكنًا أمام انعكاس صورته.

نهاية قصته أيضًا يمكن أن تُحكى بطرقٍ شتى، قال البعض إن نركسوس بعد أن أمسى فريسة لهوى يعرف جيدًا أنه لن يصل إليه، صوَّب العديد من الأسلحة نحوه؛ سيفًا وسهمًا وقتل نفسه مثلما فعل عشيقه أمينيو. زعم البعض الآخر أنه لقي حتفه مثل إيكو متلاشيًا في العدم، أما أنا فأزعم أن القصة الأجمل من نهايته لها جانب آخر؛ حيث ينجذب دائمًا إلى صورته بهوسٍ وإصرارٍ، وينحني مرة أخرى أملًا في قبلة أخيرة ويسقط ورأسه ممدودة إلى الأمام في الماء البلوري البارد العميق حتى يغرق.

من يدري كيف انتهى الأمر، لكن الأمر المؤكد هو أنه بالقرب من النبع نبتت زهرة ذات جذع طويل رفيع وتويج ينحني قليلًا إلى الأسفل، تم تسميتها بزهرة النرجس.

باسيفاي

يرتبط اسم الملكة باسيفاي، ابنة إله الشمس وبيرسايدى، وزوجة مينوس ملك كريت، بأكثر قصص الحب بؤسًا التي ذكرتها الأسطورة اليونانية، إنها كئيبة إلى الدرجة التي تدفع أي أحد إلى إخفائها أو إلى تلطيفها بعض الشيء، في الحقيقة قامت باسيفاي بأعنف اعتداء جنسي عرفه التاريخ.

ليس هناك أي مصطلح من مصطلحات مبادئ الاحتيال الشرعي الجنسي الحديث يمكنه أن يعطي توصيفًا نفسيًّا/مرضيًّا لشخصيات الأسطورة، أو يمكنه إعادة تسميتها. لكننا نجد في حكمة دانتى الرؤيوية، في الأنشودة السادسة والعشرين من الجحيم، أن من الجماعتين اللتين تدفعان ثمن آثام الحب تجسّدت الأولى لمجموعة اللواط يهتفون باسم سدوم وعمورة، والأخرى لمجموعة الشهوانيين الذين يذكرون آثام باسيفاي:

«[...] ،عاشت باسيفاي في البقرة

.«حتى يركض الثور ويشتهي إياها

باسيفاي والثور، تروي لنا الأسطورة عن ثيران آخرين. إن الثور يعد بمنزلة حيوان شمسي، رمز السلطة والملكية؛ حيث اتخذ زيوس هيئة الثور من قبل وتراءى للفتاة أوربا، ابنة أجنور ملك صور، بينما كانت تقطف الأزهار ببراءةٍ على بُعد بضع خطوات من شاطئ البحر. كان الثور لامعًا وجلده ذو ثلاثة ألوان متنوعة ومن فمه تخرج رائحة الزعفران النفاذة. اقتربت أوربا شيئًا فشيئًا، ممسكة الزهور بيديها حتى انتهى الأمر بقدميها في مستهل الشاطئ، وتطلعت في عينيه، وأبصرت كم هو وديع ثم امتطته؛ سرعان ما هرول الثور مسرعًا كما لو أن له أجنحة أو أشرعة يمدها عبر الرياح وحملها بعيدًا معه.

وصلا إلى كريت، واتجه زيوس إلى الكهف الذي تذكر من خلاله طفولته عندما أنقذته الأم ريا وأبعدته عن الأب كرونوس، حينها كان زيوس ملك الآلهة، سيد البرق، ووحده القادر على تحقيق أي رغبة يشتهيها. هكذا استحوذ على الفتاة أوربا، وتراءى أمامها في مجده الإلهي. اتّسم حبه بأنه متقلّب المزاج، فتخلى عن أوربا وترك كريت وسرعان ما اتخذت أوربا الملك أستريوس زوجًا لها والذي تبنّته بعد ذلك بعد أن كانت زيجتهما عقيمة، وأنجبت من زيوس ثلاثة أبناء هم سربدون وردمنتس ومايثوس، وقد جعل دانتى من ذلك الأخير شيطانًا مشوَّهًا وأوقفه على باب الجحيم ليحكم ثم يُشير -ملتفًا بذيله حول نفسه- إلى عدد الدوائر التي تريد روح الآثم حديث الوصول النزول من خلالها.

نعود أدراجنا بالحديث عن باسيفاي ونقول إن مايثوس لم يرد أن يشاركه أحد أشقائه حكم كريت، وادّعى أنه الملك المختار من قبل الآلهة ولإثبات ذلك شيَّد مذبحًا لبوسايدون بجانب ضفة البحر ثم استدعاه متوسلًا أن يبعث له بثورٍ كأضحية من أعماق البحر.

حقق له بوسايدون بغيته، وخرج ثور بجلد ناصع البياض يضرب الأمواج بمخالبه ويقطر بالرغوة من كل جوانبه، ذو عينين واسعتين وجسد قوي البنية. كان محاطًا بالنور من كل ناحية واتجهت نحوه كل الأنظار. تطلّع مايثوس إليه، تقف بجانبه باسيفاي تنظر إليه أيضًا. اتخذ مايثوس قراره في لحظة واحدة؛ ثور كهذا لا يجب تقديمه أضحية وإنما يجب أن يكون ملكه فحسب. سوف يستبدل به أي ثور آخر ويرسل ذلك المخلوق الرائع ليرعى وسط قطعانه. كيف

يجرؤ أن يفكر في خداع أحد الآلهة؟ كيف له أن يخدع إلهًا مشهورًا بالغضب والحنق مثل بوسايدون؟ في الواقع، لم يتباطأ انتقام الإله، بل كان مروعًا.

أُغرمت باسيفاي بذات الثور الذي تاق مايثوس إلى امتلاكه ووقعت في حبه سرًّا في نفسها، كان الثور الإلهي هو الذي زار أوربا، أما باسيفاي، على النقيض، فهي من أخذت زمام المبادرة، هي التي رغبت، وهي التي قررت.

كانت تتردد كثيرًا على المراعي حيث يظهر الثور مميزًا وسط القطيع؛ فكان منعزلًا ومهيبًا ومشرقًا وناصع البياض حتى إنه يُذكّر الملكة بالقمر.

سرت في أطرافها رغبة في حالة نقاء عند رؤيته أعلى المروج الخضراء. ما أن يحل المساء، وخفية عن الملك، كانت تفكر به بين الملاءات، وتحضره إليها من نسج خيالها، وتندفع لتداعبه وتلهو معه. لم تكن مغرمة به، وإنما الشهوة هي من كانت تعذبها. كان جسدها يرتجف حتى الذوبان، وسرت الرجفات من أسفل ظهرها حتى مؤخرة رقبتها، وتلألأ العرق الدافئ على جسدها العاري، لم يعد في إمكانها المقاومة بعد الآن.

ما إن أحسَّت أن الرغبة باتت تبتلعها حتى بحثت عن شخص يمكنها الوثوق به. لن يستمع إليها أحدٌ في القصر إلا وسيعتريه الرعب ويهرول لإبلاغ مايثوس بكل شيء. لم تجد أمامها سواه؛ ذلك الحرفي الأثيني الذي يُشيِّد تلك الدمى المنحوتة المتحركة المصنوعة من خشب البلوط التي كثيرًا ما كانت تُضفي البهجة على أمسيات القصر.

عند اختياره، كان لباسيفاي دهاء الرغبة. كان الرجل يدعى ديدالوس وهو الذي يشيّد قصور ماثيوس، وشاع القول إنه رجل موضع ثقة لكنه كان أجنبيًّا على أي حال، انتهى به المطاف للنفي في كريت، وقد أدرك في أعماق قلبه أنه لا يدين للملك بشيءٍ إلا مهارته كرجل حرفي الأمر الذي وضعه في أسمى تقدير، إنه الأفضل، وعلى الجميع الإقرار بذلك.

استحوذت باسيفاي على إحساس الحرفي هذا، وأغوته، ووضعته في تحدٍّ، واستخدمت مكرها بعد أن عرضت عليه مهمة مستحيلة. لم يعبأ الحرفي برغبتها المجنونة، كما لم يشعر بأدنى ازدراء حيالها، لم يكن يهمه سوى تصميم تلك الأداة التي عن طريقها يمكن أن تنال الملكة بغيتها وسعادتها.

نجح في تصميم وإخراج بقرة خشبية بالأبعاد الطبيعية، وكان حريصًا للغاية لمنظر الخطم والظهر والحوافر وكساهم جميعًا بالجلد حتى إنه بات من الصعب تمييزها عن أي بقرة أخرى ترعى بين قطعان الملك. هذه المرة أُعِدَّت بطريقة تخدم الجنون فحسب؛ حيث من المفترض أن هناك بابًا منزلقًا غير مرئي تقريبًا في بطن البقرة يسمح بدخول الملكة، وتم ترتيب ساقي البقرة بطريقة تسمح لساقي الملكة المتباعدتين بالدخول بصورة فاحشة.

نجحت الحيلة بصورة تفوق الوصف؛ اختبأت باسيفاي منتظرة في ذلك المجسَّم المظلم من الداخل بعد أن وضعت مهبلها تمامًا على الفتحة الطولية المفتوحة للبقرة، في توقٍ إلى اللحظة الحاسمة.

كان مجسم ديدالوس يتحرك على عجلات أربع مخفيات ببراعة في الحوافر. خُطِّط لكل شيء ببراعة شديدة. دفع ديدالوس، المتواطئ حتى النهاية، بالمجسم الذي أعدَّه إلى المرج حيث يرعى ذلك الثور. اقتربت اللحظة الحاسمة؛ لكن هل سيسقط الثور في الفخ المخادع؟ هل ستستطيع بقرة ديدالوس إغواءه؟

خرج الثور من البحر أبيض كالسحاب، مثل قمر يبزغ في أعلى السماء. اقترب ثور بوسايدون من البقرة، واشتمها، وأخذ يلتف حولها. ارتجف ديدالوس لسببٍ ما، وارتجفت باسيفاي لسببٍ آخر؛ فكان انتظارها مفعمًا بالعذاب، واشتاقت باسيفاي أن تصرخ لكنها ظلَّت في سكونٍ مريبٍ لم تكسره سوى ضربات قلبها المتسارعة.

استجاب الثور لنداء الطبيعة، وقفز على البقرة بعضوه الضخم الممتد، وقذف المني بقوة ينبوعًا جبليًّا. كان على باسيفاي الصراخ آنذاك؛ إذ باتت تشنجات المتعة قوية إلى أقصى درجة حتى جعلتها تتلوَّى حول نفسها. انتصر الخيال، وفازت الحيلة، عاد الثور البريء إلى مرعاه، وعادت باسيفاي إلى بلاطها تحمل في رحمها المينوتور.[63]

63) مخلوق نصفه رجل ونصفه الآخر ثور.

فايدرا

لم يندرج مصير فايدرا المظلم وفقًا لاسمها الذي يعني «الساطعة» (تُدعى شقيقتها أريانا أي «الطاهرة»)، ولكنه كان يأتي من أصولها؛ حيث كانت فايدرا ابنة مينوس وباسيفاي، الأمر الذي يعني أنها كانت ابنة الناموس والانتهاك، الناموس والمتعة التي لا تقاوم. إلى أي هاوية شهوانية

هبطت باسيفاي؟ كانت فايدرا على دراية بذلك الأمر؛ إذ إن أمها قد منحتها وحشًا بمنزلة أخ غير شقيق، بجسد إنسان ورأس ثور.

كانا يسكنان معًا في ظلمة ذلك القصر الذي لم يكن يصلح بعد لتسميته قصرًا بعد أن بات مأهولًا بالسجناء والمهمشين والمنبوذين، ومكونًا من ممرات متعرجة ملتوية ضيقة ومنحنيات مائلة وأخرى بزوايا قائمة تجعل مصير الداخلين إليها التيه لا محال، وكان يُدعى قصر التيه. كان ديدالوس هو مَن شيَّده، ذات الرجل الذي بمهارته الحرفية ساعد باسيفاي في إشباع شهوتها القذرة. رأت فايدرا وشقيقتها أريانا قصر التيه ينمو أمام أعينهما، وكانتا تعرفان جيدًا الغرض من بنائه.

كيف يمكن لـ«الساطعة» ألا تحمل داخلها شيئًا من الرعب الذي يلامسها؟

في ذلك الوقت ابتعدت فايدرا عن كريت، مصدر قوتها وأسرارها، أصبحت ملكةً في تيريزين، زوجة بطل محارب الوحوش يُدعى ثيسيوس بعد أن ترك أريانا.

كان من المفترض أن تكون سعيدةً؛ لديها زوجٌ لم يختر سوى حبها رغم مغامراته العديدة، وأنجبت منه أطفالًا يرثون عرشه لاحقًا، كما لديها عدد لا يحصى من الخدم إلى جانب مرضعة أصبحت صديقتها المقربة، لديها المال والجمال الأخاذ حتى صار اسمها شاهدًا على ذلك.

لكن فايدرا كانت ضمن البشر على أي حال، ويحتاج البشر إلى موافقة الآلهة لنيْل السعادة، وأخذت أفروديت فايدرا رهينةً لها.

سألت فايدرا المرضعة المخلصة: «هل تعرفين ذلك الشيء الذي يدعوه البشر الحب؟».

أجابت المرضعة: «إنه شيء شديد العذوبة والعذاب في الوقت نفسه».

مكثت فايدرا هائمة منكسة الرأس وقد اعتراها الاضطراب والاستسلام وتمتمت تقول: «لم أذق سوى العذاب فقط».

يُعَد الحوار بين فايدرا والمرضعة الوارد في يوربيديس ضمن أكثر المآسي اليونانية إنسانية؛ كان صورة لحديث المرأة الأبدية صاحبة العشق التعيس؛ الحب وفعل الحب والوقوع في الحب سيظل غامضًا أبدًا، يحمل في ثناياه كل الحنان وكل المعاناة الكامنة في العالم. كل مَن يسقط في الحب من دون أن يبادله الطرف الآخر بذلك لا يتجرَّع سوى جانب المعاناة المروع المفجع، هذا هو الحال مع فايدرا، كما أرادت لها أفروديت.

عاش الشاب هيبوليتوس في قصر تيريزين، وكان ابن ثيسيوس الذي أنجبته له إحدى نساء الأمازونيات[(64)](#) وتُدعى أنتيوبى، في أثناء الحملة الحربية التي شنَّها البطل على شعوب النساء الرماة.

(64) شعوب من المقاتلات النساء، وهنَّ أول من سخَّر الحصان لأغراض القتال.

كان هيبوليتوس شابًّا رياضيًّا عفيفًا تلميذًا لأرطاميس كما لم يكن يطق أفروديت؛ فلم يقدم أي أضحية في هيكلها، ووصل به الأمر إلى السخرية منها من دون أن يتخيل مدى انتقام الإلهة. كان يحب الصيد في الغابات بصورة بالغة، والركض في المروج، وامتطاء الخيل بمحاذاة الشاطئ، ومرافقة أقرانه من الرياضيين والصيادين مثله. كان يحمل داخله وحشية الأم الأمازونية، وطهارة تبلغ حد التباهي بنفسه، لم يكن يعرف ما هو جسد المرأة، بل ولم يكن ينوي أن يعرفه.

من أجله، وهو ربيبها، احترقت فايدرا بالحب. حب غادر، زنى محارم، مستحيل، يلتهمها من الداخل وقد صيَّرها شاحبة ونحيفة ومنحنية وسلب منها كل رغبة في إطعام نفسها أو في الحياة عمومًا.

عاشت فايدرا ذلك الحب الملعون كذلك الحب الذي داهم باسيفاي لكن بشكلٍ يختلف تمامًا عن والدتها. لقد ولّى الزمن البدائي للانحلال، للانصهار مع مبدأ الحياة الوحشي، للشهوة التي تمحو أي حاجز حتى بين البشر والحيوانات. قاومت فايدرا القانون الأخلاقي بالعاطفة، لكن الأب مينوس، القاضي الصارم، كان لا يزال يحكم داخلها، ولم تنجح فايدرا بمقاومة العاطفة إلا بالتخلي فحسب؛ التخلي عن الحب وعن الحياة برمتها.

خشيت المرضعة على ملكتها لئلَّا تموت حبًّا، فأوشت إليها الصديقة الأمينة باسم ذلك الشخص الذي أثار داخلها ذلك الألم الرهيب: «هيبوليتوس».

ابن ثيثيوس، ربيب فايدرا، كان الاسم كافيًا لإيقافها، لكن المرضعة كانت تتحدث إلى فايدرا بتواطئ شديد الإخلاص والإنسانية. فكرت بالأمر بعقل خادمة سطحي؛ فكان على كفة الميزان حب زنا المحارم، وعلى الكفة الأخرى حياة الملكة نفسها، كان هذا هو ما يهمها؛ حيث إن مبدأ البقاء هو الذي يجب أن يسود ويزن أكثر.

لم ترضَ فايدرا؛ فكانت تفضِّل أن تحفظ داخلها سرها المميت، لكن المرضعة كانت قد أخذت المبادرة بالفعل، وذهبت إلى هيبوليتوس لتكشف له حب الملكة. كان رد فعل هيبوليتوس عنيفًا جدًّا، دون أدنى ملمح لتفاهم أو شفقة، بل وأظهر نقاءً بضراوة شديدة؛ وبَّخ المرضعة بشدة،

ودعاها بالقوَّادة والمومس، ثم سبَّ النساء كافةً وخصوصًا ذلك النوع الأكثر حساسية وذكاء، اللواتي يُنظر إليهن على أنهن الأكثر خطورة وتأثرًا بأفروديت.

افتضح أمر فايدرا، وشُهِّر بها، ولم يكن أمامها أي خيار سوى الموت، شنقت نفسها في القصر، ودفعت ثمن حبها، لكن رغبتها الأخيرة ظلَّت دائمًا أن تثأر دائمًا لمن تسبب في إهانتها أو جلب العار على أفروديت.

عندما وصل ثيثيوس بغتةً إلى تيريزين، لاحظ أن الحداد يهيمن على جوانب البلاط، ورأى جثمان فايدرا يُمسك بإحدى يديه لوحًا به سطور قصيرة تتهم فيها هيبوليتوس باغتصابها.

ماذا حدث لفايدرا في لحظاتها الأخيرة؟ لماذا ذلك الانتقام؟ لماذا آثرت أن تقلب الحقيقة؟ لِمَ اتهمت هيبوليتوس بما لم يفعل؟ بل هي مَن كانت تود ذلك عبر حبها الآثم؟ بلا شك يرجع ذلك إلى أنها كانت ترغب أن يأخذها هيبوليتوس بحماسة وجمال ورشاقة شبابه في أمسيات شغفها المفعمة بالوحدة والمرض.

يجلب الحب المنبوذ الكثير من المتاعب حتى وإن لم يصل إلى حد الكراهية؛ فهو يريد أن يجعل ذلك الذي لم يحب ولم يسقط في العاطفة يدفع الثمن. يُنظر إلى رفض عرض المُحب على أنه صورة من صور إنكار الجميل، أو لعله نفاقٌ وُلِد من رحم الزيف والخوف. من هنا يُعاد ترتيب الأدوار؛ مَن يُرفَض فهو البريء أما مَن رفض فهو المذنب، مَن يرغب فهو البريء، وأما المذنب فهو كل مَن يحتقر الشهوة باسم العفة المبهمة.

عزيزتي القارئة، عزيزي القارئ، أود أن أذكِّركما أن هذه الإشكالية قد بلغ مداها عوالم أخرى بعيدة تمامًا عن الأسطورة اليونانية؛ حيث نجدها في الكتاب المقدس وخصوصًا في سفر التكوين في قصة يوسف بن يعقوب الذي هجره إخوته ووصل إلى مصر كعبدٍ في منزل الملك فوطيفار. كان يوسف رمزًا للجمال والقوة في أي مجال يدخله، وكان يستطيع تفسير الأحلام. اعتزّ به فوطيفار وقدَّره ومنحه كامل ثقته. أغرمت به زوجة فوطيفار، وإزاء رفض يوسف الشاب لجأت ـمن دون أن تأذي نفسها- إلى حيلة اللوح نفسها الذي ظل جثمان فايدرا ممسكًا به بيده. لم تكن هي التي أغوت يوسف، وإنما هو مَن أغواها وأغراها وانتهك عرضها، هذا الاتهام ليس سوى دليلٍ على رغبة زوجة فوطيفار في كيفية تسيير الأمور، حسبما ذكر الكتاب المقدس؛ فإن يوسف حُكِم عليه من قِبل سيده.

نقرأ القصة ذاتها في القرآن في السورة الثانية عشرة التي تُسمَّى قصة يوسف، لكننا نجد في الرواية القرآنية أن يوسف كُتِبت له النجاة بعد اقتراح قدَّمه أحد الحكماء إلى زوجها؛ حيث عليه أن يفحص من أي جانب تقطَّع ثوب يوسف، إن كان ممزقًا من الأمام فإن رواية الزوجة صحيحة وقد اعتُدي عليها، أما إن كان ممزقًا من الخلف فإن رواية يوسف هي الصحيحة حيث إنه هرب من اعتدائها، هكذا نجا يوسف بعد ملاحظة الشقوق الكبيرة الموجودة على ظهر قميصه.

تحيي الرواية القرآنية بدورها القصة الصوفية ليوسف وزليخة؛ حيث جسَّد يوسف الجمال وزليخة الروح التي لم تستطع التواني في البحث عنه مهما كان الثمن حتى وإن دفعت نفسها ثمنًا لذلك. تحب زليخة يوسف طوال حياتها حتى بعد أن تهرم وتشيخ، وتنال نعمة العودة إلى شبابها مرة أخرى، تمامًا كما يحدث للروح عندما تحب. لم تعطِ القصة الواردة بالكتاب المقدس أو القرآن للمرأة البطلة البُعد المأسوي والبارز لفايدرا.

أما هيبوليتوس، ذلك الذي أنزل الأب ثيسيوس عليه لعنة بوسيدون وانتهى به الأمر حتى صار حطامًا بعد أن تهشَّمت عربته إثر صخور جلبتها موجة عملاقة، فلم يكن هو الجمال، بل كان البراءة البرية المتوانية العذرية، عدوة أفروديت.

كان لفايدرا دم باسيفاي؛ فهي زانية تهوى زنا المحارم حتى وإن جال ذلك في ذهنها ورغباتها فقط. جسَّدت عذاب الحب وولعه كما لم تفعل أي امرأة أخرى. لم تكن صدفةً أنه حتى الشعراء -يتجلَّى دورهم في البحث عن جوهر الإنسان- هيمنت عليهم فايدرا بصورتها. لم تكن صدفةً أن أحد أبيات الشعراء؛ جان راسين، يصفها بالرعب الشديد الذي نشأ منذ ولادتها: ابنة مينوس وباسيفاي، يعد جان من أقوى الإسكندريين وأكثرهم صدى في الشعر الفرنسي.

نظرًا إلى أصول اسمها؛ الساطعة، فلا بد أن يكون مصيرها إما شديد اللمعان، وإما مظلمًا بصورة مروّعة.

هيلين

كانت هيلين ذات شعر أشقر طويل كما لو أن الشمس نسجته من خيوطها، وبشرة ناصعة البياض حتى إن بياضها يُذكِّرنا بالثلج والريش. لا يمكن لأحدٍ أن ينسى ولادتها التي تمَّت بعد أن انفتحت البيضة التي وضعتها البجعة التي كانت تحب والدتها ليدا كثيرًا.

كانت تلك البجعة من أجمل المخلوقات التي خلقها زيوس، وورثت هيلين جمالها الأخاذ الذي يحمل في طياته ذكرى السماء وعاطفة الجسد.

تربَّت هيلين في بلاط أسبرطة لدى الملك تينداروس، زوج ليدا، برفقة الأخت كليتيمنيسترا والشقيقين ديوسكوري كاستور وبولوكس، وسرعان ما ذاع صيت جمالها بين جميع أبطال اليونان.

كان من بينهم ثيسيوس، الأكثر طيشًا واندفاعًا حيث اختطفها وهي لم تُكمل الثانية عشرة من عمرها وحملها معه إلى أثينا، لكنه أدرك أن هيلين لم تكن مستعدة للحب بعد، وعلى الفور عاد الشقيقان ديوسكوري وحرَّراها وأعاداها إلى أسبرطة.

ما إن بلغت سن الزواج حتى بلغ جمالها ذروته وبهاءه، وأخذ يشع في جميع أنحاء اليونان. أتى إليها الملوك والأبطال من كل جزيرة ومن كل ركن من أركان البلد يطلبون يدها للزواج محمَّلين بالرغبة والآمال والهدايا. طالت القائمة؛ حيث وصل إلى أسبرطة دايوميدس وآياس الأكبر وآياس الأصغر وفيلوكتيتس وإيدومينيوس وفطرقل وأوديسيوس. وحده الأخير لم يُحضر معه أي هدية؛ فكان ذكيًّا مثلها وقد علم أن المنافسة قد انتهت بالفعل وأن هيلين لن تقبل بأحد أولئك الخاطبين المحتشدين في القصر بدءًا من تلك اللحظة التي وصل بها أجاممنون؛ ملك موكناي القوي، الذي جاء ليطلب يدها للزواج، ليس لنفسه إذ كان متزوجًا شقيقتها كليتيمنيسترا بالفعل، وإنما لشقيقه الأصغر مينلاوس.

انحاز الشقيقان ديوسكوري، مُحكِّما المسابقة، نحو مينلاوس، تردد تينداروس خوفًا من أن يؤدي اختياره إلى انقسامات وكراهية لا علاج لها بين الأبطال الأغارقة، فالتمس نصيحةً من الشخص الوحيد الذي يمكن أن يهديه إياها؛ أوديسيوس.

دعا أوديسيوس؛ صانع المؤامرات، مينلاوس، وأوصاه أن يطلب قَسَم جميع خاطبي هيلين، ومن دون اللجوء إلى قتالٍ سيقبل الجميع الحكم الذي ينص على أن مَن يحصل على هيلين إذا واجه أي مخاطر أو عانى أي أضرار يهرع الآخرون إلى مساعدته، هكذا ألقى أوديسيوس بذرة حملات اليونانيين إلى طروادة.

تزوجت هيلين بمينلاوس، وأنجبت منه ابنةً تُدعى هرميون. بعد موت تينداروس، وتألُّه الشقيقين ديوسكوري، أصبح مينلاوس ملك أسبرطة واحتل المرتبة الثانية في السلطة بعد أخيه

أجاممنون.

في تلك الأثناء، كان الراعي باريس يرعى قطيعه بعيدًا، ذلك الفتى ابن بريام ملك طروادة الذي أُعطي مقمطًا في ثياب إلى أجيلاوس بعد أن حلمت أمه هيكوبا بحزمة نارية مشتعلة تحمل نذير نكبة وشيكة إلى بيتها. لم يكن لأجيلاوس أدنى شجاعة لقتل المولود الجديد وتركته بإحدى الشجيرات، وبعد مرور خمسة أيام وجدته آمنًا، فائق الجمال، وقد أرضعته إحدى الدببة، منذ تلك اللحظة، لازمته ورعته أعلى منحدرات جبل إيدا.

تمتع باريس بهيئة رشيقة ونال إعجاب الجميع واُختير حكمًا بين الآلهة هيرا وأثينا وأفروديت ليقرر هو مَن منهن ستحظى بجائزة التفاحة الذهبية التي ستنالها أكثرهن جمالًا. كان هرمس هو الموكّل بأخذ الآلهة الثلاث في رحلة جوية من مأدبة زفاف بيليوس وثيتيس؛ تلك المأدبة ذات البذخ والثراء حيث نشأ الصراع، وحتى المراعي الكامنة في جبال إيدا حيث يوجد باريس.

وافق باريس على النطق بالحكم؛ فطلب قبل أي شيء أن يرى الآلهة الثلاث عاريات أمامه، وحقًّا كان يملك الشجاعة الكافية لذلك لأنه من جنس البشر فحسب. كان من ذلك النوع الذي يعرف جيدًا كيف يتعامل مع النساء سواء كنَّ آلهة أم لا، كانت لديه تلك الهبة حتى إن هيرا بنفسها لم تستخف أن تكشف له قسمات جسدها الوفيرة المتمايلة.

أتت كل منهن إلى باريس ومعها ليس العُري فحسب وإنما بعض الهدايا؛ قدمت إليه هيرا النفوذ والثراء، وأثينا الحكمة والقوة، ماذا يريد الإنسان الفاني أن يطمح إلى أكثر من ذلك؟ بعد ذلك حان دور أفروديت، ابتسمت، وأظهرت راحتي يديها الخاويتين: «أنا سأمنحك حب هيلين؛ المرأة الأكثر جمالًا في العالم كله».

اختار باريس أفروديت، ثم نزح إلى طروادة وشارك في الألعاب الطقسية، وفاز في سباق العربات ونزال القتال وسباق الأقدام، فخطط أبناء بريام الأمراء لقتل ذلك الغريب الذي تسبب في تهميشهم تمامًا. حينها، أسرعت أجيلاوس لكشف طبيعة باريس الحقيقية كي تحميه من الخطر الوشيك، وأعادته إلى والده الطبيعي بريام الذي استقبله بذراعين مفتوحتين وأخذه معه إلى القصر.

بعد ذلك، كُلّف باريس في بعثة متجهة إلى أسبرطة. أحسّ أن مصيره قد اكتمل، ورحل مع أسطول من السفن تتقدمها صورة أفروديت وإيروس وقد دفعه نسيم البحر المواتي مسرعًا نحو

طريقه.

كانت أفروديت في ذلك النسيم أيضًا.

بدا أن هيلين لم تكن تعرف أي شيء عن باريس، مثُل أمامها كسفير أجنبي، أمير من طروادة، وقد أحبَّته من النظرة الأولى. وقف باريس البارع في المغازلة والتلميح إلى جانبها، وسدَّد نحوها نظراتٍ أشد عمقًا، تلك النظرات التي كانت تنقب عن كل شيء في ملامحها، وتضفي عليها قشعريرة، ثم شرب من الكأس نفسها التي شربت منها واضعًا شفتيه حيث كانت تضع شفتيها وغمس أصبعه في النبيذ وكتب «هيلين» على الرخام وانتظر حتى يتيقن أن أحدًا لا يراه وقال: «أحبك».

لم يكن لهيلين أي أسلحة تمكِّنها من المقاومة، بل ربما لم تكن تريد المقاومة من الأساس. يبدو أن ذلك الأجنبي كان الشخص المنتظر بحقٍّ؛ فهي أمام عاطفة بدائية ونيران لحظية وحبٍّ بلا شروطٍ وبلا قواعد، كانت أفروديت تغزوها بالفعل وتفرض شريعتها التي تهزأ بالسلطة والثراء والقوة.

ما هو أجمل شيء على سطح الأرض السوداء؟ قد يجيب البعض: «حشود الفرسان»، ويجيب البعض الآخر: «المشاة» وآخر: «أسطول من السفن» وأما أنا أقول: «هو ما يحبه المرء».

كانت صافّو هي من تحدثت هكذا بحقٍّ؛ فالشاعرة اليونانية القديمة تعرف ذلك جيدًا حتى وإن لم يرد البعض أن يفهم. الأمر غاية في البساطة: ما يحبه المرء هو ما يعطي للحياة المعنى، هذا كل شيء، كتبت تقول:

ها هي أجمل فتاة على سطح الأرض

هيلين، تركت زوجها المغوار

وهربت بعيدًا

نحو طروادة، عبر البحر.

لم تشغل بالها قط بأمر ابنتها

أو بأقاربها المقربين؛

بعد أن هيمنت عليها أفروديت بتوقٍ مُلحّ.

انهارت بناية العهد تمامًا؛ من أسرة وإخلاص وروابط ومشاعر ومعايشة واحترام أسفل ضربات الرغبة الرقيقة الجامحة القادمة في آن واحد التي بعثتها الإلهة التي تُثيرها.

رحل مينلاوس المغوار البريء حتى السذاجة نحو كريت تاركًا الضيف الأجنبي منفردًا مع هيلين في أسبرطة. بعد ذلك مباشرةً، أبحر باريس برفقة هيلين على متن سفينة متجهة نحو طروادة بعد أن أخذا معهما جزءًا من كنوز القصر الملكي، في الليلة نفسها، وما إن هبطا على جزيرة كروناى حتى سلّمت هيلين نفسها إلى باريس، وانتصرت أفروديت.

رأى الإغريق أن قصة هروب العاشقيْن تبدو كعملية خطف، شيء مخز لا يمحوه سوى الدم المنسكب في الأنهار. هكذا نشبت الحرب التي تغنّت بها القصيدة الأولى في حضارتنا؛ الإلياذة، حرب هيلين، للانتقام من سرقة الجمال والمطالبة بأحقية استعادته.

بعد موت باريس، أصبحت هيلين المتنازع عليها بين هيلينوس ودوفيوس، زوجة الأخير. رغم ذلك، عندما خرج الإغريق من داخل بطن الحصان، انحازت هيلين إلى جانبهم وأيدت مقتل دوفيوس نفسه.

عقب حريق طروادة، نالت هيلين الغفران من مينلاوس كما لو أن هروبها كان بمنزلة خطيئة شبابية أخفى النضج أواصلها، وعادت معه إلى أسبرطة حيث حكما وشاخا معًا.

هناك نسخة أخرى من أسطورة هيلين التي تبدو أنها تهدف إلى عتقها من الذنب، تقول إن يوربيديس قد آواها في مأساتها، أو في الكوميديا التراجيدية التي تسمى هيلين.

تقول الحقيقة إن الملكة بلحمها وعظامها لم تتبع باريس إلى طروادة قطُّ، وإنما هرمس هو مَن اختطفها وحملها معه طائرًا إلى مصر وعهد بها إلى الملك بروتوس أكثر الرجال عفةً. وحده الرجل المكرس للعفة يمكنه أن يبقى بالقرب من هيلين من دون أن يحترق بالرغبة حيالها. أما مَن سافر مع باريس فكان شبح هيلين، هيلين الزائفة التي خلقتها الإلهة هيرا بواسطة الغيوم حتى أمست الظلال امرأة بحقٍّ.

هل كان على الإغريق إذن تحمُّل سنوات وسنوات من الحرب وإراقة الدماء والمصائب من أجل ظلال فحسب؟ ماذا تريد أن تخبرنا تلك الرواية الأخرى من الأسطورة؟ هل تريد إخبارنا بأن الإنسان كثيرًا ما يصارع من أجل ظلال زائفة حتى وإن لم تبدو هكذا؛ كالثراء والسلطة والعظمة وحتى الجمال؟

في أثناء عودة مينلاوس، وبعد تحطم سفينته في مصر، وجد عروسته الحقيقية البريئة، التي كانت قد أنقذت براءتها للتوِّ من بين براثن الشهوات الجامحة لتوكليمينوس، ابن بروتوس، تمكَّنا من الهرب معًا وأبحرا صوب أسبرطة.

تنبئ لنا هذه النسخة من الأسطورة بنهاية سعيدة أيضًا كما لو كانت تقول: قد يبدو أن مَن يطيعون أفروديت يذوقون المعاناة والاضطرابات، ولكن على المدى البعيد، يصبح الحب جانبًا من جوانب الحياة، ويبقينا أحياءً، وينجينا من أي أهوال مباغتة.

2

الموقد كمركزٍ مستقر

تكشف لنا الأسطورة تعدُّد ميول النفس وتناقضاتها. والآن، أتحدث عن حشدٍ من الآلهة الذين يحيون في أنفسنا رغم عداوة بعضهم للبعض الآخر.

تحظى أفروديت بأوزان معادلة هامة داخل كل نفس منا، تلك التي تُمثّل دفعة الحب، وفازت بسباق مع أثينا وهيرا، وظفرت بالتفاحة الذهبية للجمال الفائق، وتنطلق في المراعي ما إن تخضر إبَّان الربيع، وتُنير الأزهار بآلاف الألوان، وتتسلل إلى لبدة الخيول المتحابة وإلى الرياح التي تهبّ بين أغصان الأشجار. هناك بعض الآلهة الذين لا يحتملونها، هل يحسدونها؟ لا أحد يعرف، لكن المؤكد أنهم لا يقفون في جانبها ويُظهرون وجهات نظر مغايرة داخل أنفسنا إن لم تكن متناقضة.

دعونا نذكر، قبل أي شيء، هيستيا التي تجسِّد أحد الميول التي تختبرها النفس، ذلك الميل الذي يسعى إلى إيجاد مركز مستقر، حتى لا تُترك النفس بمفردها أو تتجرع مذاق الوحدة. إنها الحاجة إلى الألفة التي لا تُدرك إلا بمعرفة مكانك أو التمسك بشدة بشيء ما: الموقد(65)؛ أي البيت. على الرغم من أن الإلهة التي تجسد هذا الميل لها اسم امرأة، فإن الميل نحو التمركز حول الأسرة والأمان شائع أيضًا بين الرجال بالقدر نفسه.

(65) يُقصد به موضع مغلق يتم فيه حرق الوقود للتدفئة، إما لتدفئة المكان الذي يوضع فيه الموقد وإما لتسخين الموقد نفسه وما عليه، وكثيرًا ما توحي الكلمة بدفء المنزل ولمِّ شمل الأسرة.

هل ينصاع المرء إلى إغواء أفروديت المستمر الذي ربما يجلب معه تجاوزات وخرابًا لا حصر لها؟ أم يبقى بالقرب من هيستيا، ومن دعوتها الساكنة إلى الركود بجانب دفء الموقد الذي تغذيه؟

كما يحدث مع معظم غرائز النفس، حتى تلك التي تحكمها هيتسيا وتجلب الصفاء، يجب أن نقول إن البيت والموقد لا يبدو أنهما يضعان السعادة بين أهدافهما الأساسية. بل يمكن أيضًا أن تلازمها آثار سلبية، وتجلب معها شعورًا بالاختناق والملل عندما يزداد حد الانغلاق والعُزلة، وتتحول الرغبة في الحصول على مركزٍ مستقرٍّ إلى مغناطيس لا يسمح بحرية الحركة بعد، ويشيِّد من حوله أسوارًا واقية شاهقة الارتفاع يتعذر بسببها رؤية ما يكمن وراءها.

عندما تحصنتُ بعبادة هيستيا، علمتُ معنى الركود، معنى الموقد، وذلك خلال تفشي الوباء. أنا الذي لم أمضِ أكثر من يومين أو ثلاثة أيام في البيت نفسه وجدتُ أنني مضطرٌ إلى حياة مستقرة في ذات الموضع شهورًا وشهورًا، وقد جعلتُ من حاسوبي الموقد الإلكتروني الذي من خلاله يمكنني البقاء حيًّا عبر التواصل مع العالم الخارجي. لم أختر هيستيا، وإنما النصيب هو مَن أتى بها إليَّ خلال الفوضى التي أحدثتها الجائحة في حياتنا، إن آلهة الحب والسفر يعلمون جيدًا أنني لم أنسهم.

هيستيا

هيستيا، ابنة كرونوس وريا، شقيقة زيوس، تُعَد واحدة من أشهر ملكات البانثيون اليوناني ذلك رغم أنها لم تلعب دورًا في الروايات الشهيرة ولم تكن بطلةً في أي محور روائي كما لم نرها تتدخل بين البشر مثلما تفعل باستمرار أثينا أو هرمس. لم تتحالف مع قبيلة أخيون أو مع قبيلة تروياني، ولم تعبأ بالحروب أو بالنزاعات، إنها إلهة وديعة، غير حساسة لحب أفروديت السام، بل تحافظ على العادات الحازمة الخيِّرة.

هي التي علَّمت البشر كيف يشيدون البيوت مع إبقاء النيران مشتعلة داخلها. يمكننا القول بأنها كانت الإلهة التي ساهمت كثيرًا في تطوير الإنسان من حالته البدائية الوحشية إلى حالة أخرى سامية؛ حيث إن البيوت تعد وتد المدن وصورةً أساسية للحضارة، كما أن النيران التي تظل مشتعلة في وسط البيت وفي وسط المعابد تعد علامة للارتباط بالمقدسات.

إن هيستيا لهي إلهة الموقد، إلهة الأمان والعائلة والسكون وواجب الضيافة. إنها تمثِّل الداخل؛ ذلك الذي يبقى بين الأسوار المنيعة، أو الانغلاق، ذلك الذي يبقى ثابتًا فترة طويلة في هدوءٍ وصبرٍ، في هذا الصدد نكتشف أنها النقيض البارز لهرمس.

نستطيع القول إن كل بيتٍ يأوي هيستيا في وسطه، كل بيت يُعد كنواة أسرية تبيت في أمان في منأى عن الآخرين حيث لا تتسلل إلى هناك رياح العواطف والرغبات الجامحة. تُعد هيستيا إلهة السكون والعزلة عن أي شيء يكدر صفو الرتابة بين جدران البيت، إنها أيضًا إلهة الضيافة، لكنها استضافة محمية بدورها كواجبٍ مقدسٍ، إنها الرغبة من أجل التمركز لا من أجل الفُرقة، من أجل سكون الفكر لا من أجل شروده بعيدًا. معها يشعر المرء بالرضا خاصةً إن كان يود الاستقرار والرسوخ حتى يصبح محميًّا أمام إيروس، في منأى عن سهامه.

إن هيستيا لهي أساس البيت والرباط المؤكد بالنعمة من دون غطرسة أو عواطف هوجاء كسائر الآلهة. لا نستطيع تخيلها، لكن بأحد التماثيل التي تجسدها -يُقال إنه تمثال فيستا(66) في نسخته الرومانية- تبدو سيدة مهيبة تضع حجابًا محتشمًا على رأسها وترتدي رداءً طويلًا حتى قدميها به طيات دقيقة لا تُظهر أي شيء من جسدها، وعيناها منكستان إلى الأسفل تعلوهما نظرة حزينة صارمة متحفظة بعض الشيء، ويدها موضوعة على خاصرها، كل شيء بها ينمُّ عن نوع من الصرامة التقية.

(66) إلهة البيت عند الرومان.

كانت البريتاناي بمنزلة مراكز رئيسة حيث توقد النيران المقدسة بصورة دائمة أمام هيستيا بعد أن وُضعت للعبادة العامة وليست عبادة عائلية فحسب. اعتاد اليونانيون المرتحلون، لتأسيس مستعمراتهم بمحازاة سواحل البحر المتوسط، أخذ بعض النيران من مذبح هيستيا وحملها معهم ثم يتركونها مضاءة في المدن الجديدة التي يؤسسونها.

تتبقى لنا روايتان فقط ترويان لنا شيئًا عن حياة هيستيا الأولمبية، هذه الإلهة التي تفضِّل البقاء بين جدران المنزل ومذابح المعبد عن السماء الحرة وقمم الجبال العالية.

عندما خُلع كرونوس عن عرشه وتولى زيوس منصب الإله الحاكم، حدثت عاصفة في الأولمب كالعادة عندما يسقط حكم وينشأ حكم جديد.

كان أمر هيستيا وعرسها من بين القضايا التي تم التباحث في أمرها. تقدَّم لخطبتها اثنان يتمتعان بقوةٍ جبارة؛ أبوللو الذي يمثل ضوء الشمس، وبوسيدون الذي يمثل مملكة البحر؛ بالتأكيد لم يكن الاختيار سهلًا قطُّ بالنسبة إلى أي إلهة.

لكن هيستيا لم ترد أن تختار من الأساس، لم يرُق لها الأول أو الثاني، ماذا يمكن أن تقدم أشعة الشمس أو أمواج البحار حيال استقرار المنزل المنغلق ذي الموقد في حما الأسوار المحصنة؟

عندما أصبح أبوللو وبوسيدون متأهبين للقتال، تشكَّلت العديد من الفصائل بالفعل في صالح كل منهما، وضعت هيستيا المتنافسين على المستوى نفسه: فالأمر لا يتعلق بشجارهما، وإنما بأنهما يخرقان النظام الأولمبي الذي وُلد للتوِّ، لم تُرِد أحد الاثنين وحتى تدعم رفضها أقسمت برأس زيوس أنها ستبقى عذراء.

امتنّ لها زيوس بعد أن تجنَّبت إحداث اضطرابات لا يمكن لأحد توقع عواقبها، وأعلن أن التقدمة الأولى لأي تضحية عامة ستكون على شرفها.

أما الرواية الثانية التي لعبت بها هيستيا دور البطلة، فكانت هزلية بعض الشيء على الرغم من هالة الجدية المحيطة بها.

كانت هناك مأدبة ريفية بين الآلهة الذين كانوا يفضِّلون النزول من أمجاد الأولمب في بعض الأحيان لإدراك الوجود البشري. دُعي جميع الآلهة، وأكلوا جميعًا الكثير من لحم الجدي، وطيور الحجل، والجبن -ربما كان هيفستوس الحدَّاد والطبَّاخ هو مَن أعد الطعام تلك المرة- وشربوا كمية هائلة من النبيذ؛ فمع وجود ديونيسوس يصبح الأمر لا مفرَّ منه.

عقب الغداء، غطَّت الآلهة في نومٍ عميق، لكن ليس جميعهم؛ حيث بقي إله صغير وليس أولمبي، إله الغابات والبساتين ويدعى بريابس، إله ذو هيئة مشوهة، صغير في كل شيء عدا قضيبه ذا الحجم الكبير المنتصب باستمرار الأمر الذي جعله يبدو متباهيًا بصورة تبعث على السخرية.

كان بريابس في حالة سُكر، وبدا كأن جسده هو الذي يتدلى من قضيبه الضخم وأن عقله يتناسب عكسيًّا مع حجم هذا القضيب. اقترب بريابس من الإلهة الأكثر حياءً وعفة وحشمة بين الآلهة حتى يؤذيها، لكن نظرًا إلى دهاء الطبيعة غير المتوقع؛ فبينما اقترب بريابس منها، ظهر حمار؛ الحيوان الهائج شهوانيًّا وجنسيًّا بشدة، وأخذ ينهق بقوة حتى أيقظ هيستيا وأحبط محاولة بريابس الخرقاء.

تذكرنا رواية مشابهة بطبيعة هيستيا كإلهة الضيافة لم تُدنس قطُّ. لا يوجد أي مجال للسُكر أو العاطفة أو انتصاب متشنج، فلا يجب أن تُدَنّس الضيافة بشهوات مَن يقدمها أو مَن يستقبلها، حتى الحمار الذي لا يعد سيد الأخلاق الحميدة بكل تأكيد يعرف ذلك. من خلال تخليها عن المتعة، أسست هيستيا وحدة الأسرة حول موقد البيت.

عندما انتقلت إلى روما باسم فيستا، اتخذت الإلهة مكانة أكبر؛ فبالإضافة إلى العائلة، أصبحت إلهة وصاية الدولة الرومانية الأمر الذي لم يحدث قط في المدن اليونانية الصغيرة.

انضم جانوس إلى فيستا، إلهة البيت. هذا الإله الإيطالي القديم، ملك لاتسيو المقيم على التل الذي يسمى على اسمه حتى الآن، جانيكولو، وهو إله ذو وجهين، وجه يتجه نحو المستقبل

وآخر نحو الماضي، فهو إله المرور عبر الزمن (من اسمه تمت تسمية شهر يناير، لانواريوس)، وإله المداخل أيضًا. بالنسبة إلى دوره الأخير نرى أنه بالنظر في الوقت نفسه إلى داخل المنزل وخارجه يصبح أكثر مَن يستطيع مساعدة هيستيا بشكل رائع في واجبها المتمثل في حماية منزلها.

كرَّست عذارى فيستال حياتهن لفيستا، وحتى الآن ما زال مصطلح «فيستالى» يوجد في اللغة المعاصرة بمعنى «المرأة الحازمة المحتشمة» ذات السجية الوقائية. كانت جماعة فيستال تتكوَّن من ست فتيات تتراوح أعمارهن بين الست والعشر سنوات ويبقين لمدة ثلاثين عامًا في المعبد لخدمة النار المقدسة. كان لدورهن أهمية قصوى لمصير المدينة حتى إنه إذا انطفأت النار من إحداهن تُضرب حتى الموت، وإن فقدت عذريتها تُدفن وهي على قيد الحياة.

تظهر فيستا أيضًا؛ البديل الروماني لهيستيا، لتمثِّل في نهاية المطاف الموقد كتقليدٍ، كاستمرارية ثابتة، كمظهر للأمن وحماية ليس فقط للأسرة وإنما للدولة أيضًا.

لهذا السبب لم يكن من واجبها أن تتزوج، بل أن تبقى على طهارتها، أن تصبح، كما أصبحت، عدوة أفروديت. أيضًا النار التي تحرسها ليست رمزًا للعاطفة وإنما للحياة البدائية التي، بفضل النيران، تدفئ جدران المنزل وتطهو الطعام وتحمي تتابع الأجيال الجيل تلو الآخر.

أزعم أن معركتها ضد أفروديت ومحاكمتها، ومعركة النار الفاضلة أمام نار الحب العنيفة، قد شاركت بها الخليقة كافة منذ آلاف السنين، وأن كلًّا منهما يلعب دورًا بارزًا خلال تلك المعركة الدائرة في حياة البشر.

3
السلطة والنفوذ

لم أنسَ قط لحظة وصولي أمام سور موكناي في ذلك الصيف حيث كنت أتجول في أرجوليذا. بدت لي أسوار تيرنز بيضاوية الشكل، ضخمة بصورة لا تُعقل، عمياء، تستحضر في الذهن عصور ما قبل التاريخ عندما كان جبابرة التيتان قوى كونية في كونٍ لا يزال في طور التكوين. كانت موكناي قابعة في الأعلى بين التلال القاحلة والصخرية حيث بالكاد تنبت شجيرات المصطكى، وبرزت أسوارها وبوابتها بالأعلى إلى جانب الأسدين المتشبثين على جانبي أحد الأعمدة، حيث تحوم حولهما ذكرى أتريوس الدموية؛ حيث أعطتني في الحال صورة كاملة للسلطة والنفوذ المذكورين في التاريخ والتي تعززت عندما وصلتُ أمام مقبرة أجاممنون، دخلتُ المقبرة بالفعل.

قبر أجاممنون، ويدعى أيضًا كنز أتريوس، هو بناية يبدو أنها حُفِرت ومُوِّهت في التل الذي يمكن دخوله عبر باب ضيق ومرتفع، مستطيل مظلم يعلوه مثلث حاد، أما في الداخل فنرى المبنى دائري الشكل ذا قبو مخروطي.

ساد الظلام المكان، كانت ظلمة عميقة لأحد المدافن على الرغم من أنه لم يُرَ أي توابيت أو قبور، ساد شعورٌ بالفراغ، بالعري، بالغموض. أشد ما أثار دهشتي هو أنني سمعتُ موسيقى تدوي بقوة في الظلام، أصواتًا يضخِّمها النظام الصوتي لتلك الغرفة شبه الأرضية الغامضة، مما أضفى عليها شيئًا من الغموض والإزعاج. كانوا طلابًا مجتمعين في دائرة ينشدون في جوقة باللغة الألمانية، يندمجون في أدائهم، نوعًا من الموسيقى لم أكن أعرف إلى أي نوعٍ تنتسب. يمكن أن تكون موسيقى فاجنر لكني لم أكن متيقنًا على الإطلاق. الأمر الذي كنت واثقًا منه فقط هو أنني في تلك اللحظة راودني إحساسٌ حادٌّ بماهية إرادة السلطة ونصيبها من العظمة، وقبل أي شيء، نصيبها من الظلمة والتضحية والموت.

ثمة نزعة بشرية تدفع النفس دائمًا نحو رغبة جامحة في السلطة والنفوذ، يبدو الأمر مذهلًا بالنسبة إليَّ، لكنها حقيقة. إنه محركٌ عتيقٌ لا مفرَّ منه؛ الرغبة في ممارسة القوة الذاتية ومضاعفتها وإعلائها وجعلها الحَكَم والسيدة التي يجب على الآخرين الانحناء أمامها وتقديم الطاعة والولاء. نجد أن هذا المحرك يدفع المرء إلى الهيمنة والقمع وجعل من حوله عبيدًا له،

وذلك على جميع المستويات، بدءًا من المستويات الأدنى وحتى الأرفع منها، من الأب السلطوي مع أبنائه إلى مشرف الوردية مع العمال، والعريف مع الجنود البسطاء، والمدير مع مرؤوسيه، بل وحتى القائد العظيم مع شعبه والشعوب المحتلة، من الإسكندر إلى قيصر، ومن شارلمان حتى نابليون.

إنه محركٌ يمكن أن تكون له قوته الخاصة وشجاعة وحلم وطموح حتى المنتهى، لكنه غالبًا ما يصبح صانعًا للاستبداد والألم والمجازر والخراب. إنه النقيض للميول نحو الحب والحرية، كما أنه مَن يجبر الوجود على البقاء في دائرة الأمر والطاعة الحديدية. يعرف العديد من الشعراء -يندر من يقرأ لهم الآن- ذلك الأمر مثل فيتّوريو ألفيري حيث تمردوا قائلين:

ثقيلة هي الطاعة، وكريه هو الأمر،

وحده يشعر بذلك ذو النفس الحرة الطاهرة:

[...]

في الأسطورة اليونانية، تكمن القوة في التحرر من سلطة الأب، وفي أن يصبح أبًا للآلهة الأخرى: هكذا فعل كرونوس وزيوس ما إن استوليا على الأولمب، ومع ذلك نرى أن قوته الذكورية عارضتها هيرا وقوّضتها ببراعةٍ زوجته. لذا، فإن حاكمي الأولمب المنخرطين بألعاب القوة فيما بينهما بلا توقفٍ، غلبتهما صفات المُلك ليجسدا محركًا واحدًا فقط، نزعة بشرية واحدة.

على النقيض، كان هناك بطلٌ لم يصبح ملكًا على موكناي بالصدفة المحض، سيد قبيلة أخيون، الظافر بالحرب المميتة الأولى في تاريخ الغرب، الذي يجسِّد ببراعة ووحشية ذلك الميل الكامن في النفس البشرية؛ إنه أجاممنون.

زيوس وهيرا

حسب النظام الأولمبي فإن زيوس يُعَد الضامن الأعلى، وبصاعقه يمكنه السيطرة على جميع الآلهة الذين يثيرون القلق والخصام ويتحكم بهم ويسوِّي نزاعاتهم؛ فهو لديه سلطة ليس على الخالدين فحسب بل وعلى السماء والأرض وعالم الأبطال والبشر. إن زيوس هو حامي تناغم العالم، يحمي الملوك ويحمي المتسولين والغرباء أيضًا، يراقب النظام المدني ويجازي مَن يخرق شرائعه التي بمنزلة شرائع الحياة في زهوتها. تجلس هيرا، زوجته، إلى جانبه على قمم جبل

الأولمب، سيدة الآلهة، وابنة كرونوس وريا. لم يكن بحوزتها أي صواعق تمكِّنها من ممارسة سلطتها، وإنما كانت تنالها عبر معارضة زوجها السماوي المستمرة، وتحريض بقية الآلهة للتمرد عليه، وأحيانًا أخرى تفعل ذلك من خلال إنجاب الوحوش عبر التوالد العذري مثل تايفوس، أو الآلهة ذات المظهر الأعرج مثل هيفستوس، والشياطين مثل آريس؛ السيد الطائش للحروب وأعمال الشغب. إن هيرا هي التي تمنح نعمة النبوءة لأي إنسان ترى حذاقته، تُدعى هيرا إلهة الزواج تكريمًا لزواجها من زيوس وتقديرًا لقبولها النظام البطريركي الجديد.

لم ترضَ الأم هيرا إعطاء الإذن لابنها بالزواج بعد أن حدست سجيته الشهوانية، في حين أن زيوس الذي لم يستطع قبول التناقض أو فرض الحدود كان يهددها بضراوةٍ.

بعد ذلك تحوَّلت ريا إلى أنثى ثعبان ذات حراشِف عاجية جميلة وبقيت تحت قدمي الابن وحينها باتت تشعر بالأمان. على الرغم من أنها كانت تعرفه جيدًا، وتعرف شبق زيوس المتحول، لكنها لم تضع في حسبانها أنه ربما يأخذ هيئة ثعبان ذكر ذي حراشف مزينة حتى التفَّ ملتويًا حول الثعبان الأنثوي.

من تلك النقطة بدأت سلسلة التحولات التي خضع لها زيوس خلال رحلة الحب.

حتى ينال هيرا، التي رفضته، تتبعها حتى أرجوليذا حيث تحوَّل وشابه طائر الوقواق. أثار بعدها تلك العاصفة التي لم يستطع أي أحد آخر أن يثير مثلها؛ فها هي الرياح العاتية والسحب المتصادمة والبرق وأخيرًا المطر الغزير، أخذ الوقواق المسكين الصغير البارد الذي تقطر منه حبات المطر يرتعش ويتأوَّه.

آوته هيرا بين يديها بإيماءةٍ رقيقة تنم عن أنثوية بالغة ثم وضعته تحت المعطف لتحميه وتجففه، ما إن بات هناك، في وسطها، حتى استعاد زيوس ملامحه الإلهية واستحوذ على هيرا.

كان الزواج حتميًّا، واحتُفِل به بترفٍ ملحوظٍ. من بين الهدايا، ، كانت هدية جايا الجدة بمنزلة الهدية الأسمى، الأرض الأم التي أحضرت معها شجرة التفاح الذهبي التي تحرسها حارسات التفاح، بنات المساء في هيسبيريديس، في أقصى الطرف الغربي من العالم.

استمرت ليلة الزفاف ثلاثمائة عامٍ، وكانت بمنزلة أطول جماع عرفه التاريخ على الإطلاق. تمكَّنت هيرا من الاغتسال في أحد الأنهار المسحورة القريبة في أرجوليذا حتى تسترد عافيتها حيث كان لذلك النهر القدرة على إعادة عذريتها في كل مرة تأتي إليه.

لكن زيوس كان نهمًا بصورة بالغة، مثل الحياة، ولم يكفِه ذلك الجماع البديع قطّ. يُلاحظ أنه، من بين جميع الآلهة، كان هو الشخص الذي تُروى عنه أقل مغامرات تُذكر عدا تلك المتعلقة بالحب، تلك المغامرات التي تصعب مقاومتها ويتعذَّر كبتها.

أنجب ربات الفصول من تيميس، أما من نيموزين فأنجب الموزيات(67)، ومن هورينومى أنجب الحسناوات الثلاث. لقد أحب الآلهة والحوريات ونساء البشر وديميتر وأفروديت ومايا وداناي وأوربا وباسيفاي وآيو وسيميلي وليدا، وكان غالبًا يتخذ مظاهرَ مختلفة؛ حيوانات أو شتى الظواهر الطبيعية كالمطر.

67) بحسب الأساطير الأغريقية، هنَّ ربات أخوات (أو حوريات أو مخلوقات إلهية)، عرفن كمصادر إلهام في أثناء التأليف الموسيقي، أو ملهمات جميع أنواع الفنون والشعر، حيث اعتبرن في بعض الأحيان تجسيدات لها، كان الإغريقيون القدامى يدعون إليهن طلبًا للإلهام، ولإبراز أعمالهم بشكلٍ مميزٍ.

أمام نهم زيوس الساحق، لم تتوقَّف هيرا عند الشعور بالغيرة فحسب، بل تصدَّت لطبيعته العنيدة المريبة الفخورة، وكانت على استعدادٍ لإلحاق الأذى في أي وقتٍ. في أحد الأيام حرَّضت أبوللو وبوسايدن على التمرد على السلطة المطلقة التي كان يشغلها أبوهم وأخوهم على التوالي بأمان وحزمٍ.

أقنع أبوللو وبوسيدون بقية الآلهة للتعاون في سعيهم؛ فتشارك معهم الجميع عدا المعتدلة هيستيا، إلهة الموقد. بينما كان زيوس نائمًا، ربط أبوللو وبوسيدون ساقيه وذراعيه بأربطة جلدية بمائة عقدة حتى لا يتمكن من الحركة وحتى إذا ما استيقظ زيوس وتوعَّد المتمردين وبحث عن صاعقه، سيجد أنه تم إبعاده عنه بصورة مسبقة وأن العقد كثيرة ومحكمة بدرجة لن يقوى على حلّها أبدًا.

للمرة الأولى استطاع أبوللو وبوسيدون وسائر الآلهة الهزء بزيوس، بل وحتى هيرا لم تستطع أن تتمالك نفسها من فرط الفرحة. أتى عون غير متوقع من البحر؛ ثيتيس، ابنة نيريوس ودوريس، حيث كانت تربطها علاقة عاطفية بزيوس، وكانت موضع شكوك لهيرا، وخشيت أن تندلع حرب أهلية بين الآلهة، فصعدت إلى جبل الأولمب برفقة هيكاتونكآريس؛ العملاق ذي المائة يد الذي بنفخة واحدة فكَّك كل العقد المحكمة التي تقيّد بها زيوس.

ما إن استعاد قوته حتى عفا زيوس عن جميع الآلهة الذين انخرطوا بسذاجة في هذه الشراكة الحمقاء لكنه بعث بأبوللو وبوسيدون -كعادته للتكفير عن أي ذنب بين الآلهة- لتسخيرهما في

خدمة أحد البشر ويدعى لاوميدون حيث شيَّدا له أسوار طروادة. أما عن العقاب الأشد قسوةً فاحتفظ به زيوس لهيرا؛ محرضة الانقلاب الأولى، فقيَّد معصميها بسوار ذهبي ووضع مثقال سندانين على كاحليها وعلَّقها من أعلى نقطة في السماء.

اجتاح الرعب جميع الآلهة لرؤية سيدة الأولمب في تلك الصورة المخزية، ورغم ذلك لم يجرؤ أي منهم على الذهاب لتحريرها.

تذكر رواية أخرى محاولة هيفستوس، ابنها الحداد الماهر جدًّا، وأخرى تقول إن زيوس بنفسه نوى أن يصفح عنها ويردَّها إلى جانبه شريطة أن جميع الآلهة الأخرى تتعهد بعدم التمرد إلى الأبد.

إذا تفحصنا الأمر بأعين اليوم فسنقول إن جنة الأولمب صارت جحيمًا، لكن العلاقة بين زيوس وهيرا يجب أن يُنظر إليها بطريقة مختلفة تمامًا. إن جميع الأحداث التي ترويها لنا الأسطورة اليونانية يجب أن تُقرأ في إطار قيمتها الرمزية التي تتجاوز مجرد إطارها الحرفي. لم يكن الإلهان زوجًا وزوجةً يسكنان معًا في إحدى الشقق التي يفوق ثمنها ملايين الجنيهات في مانهاتن أو بأحد قصور العائلة المالكة في إنجلترا، لم يعيشا على المكائد من أجل متعة المكائد، ولم يعيشا على الخيانة من أجل متعة الخيانة.

جسَّدت هيرا الطرف الآخر من السلطة، ذلك الطرف الأنثوي الذي ظلَّ في ذاكرة العصور الألفية للنظام الأمومي حيث تتزوج النساء بأكبر عدد من الرجال كما يريدن بحرية تامة، وينقلن أسماءهن إلى الأبناء، فبات السحر والإغراء أكثر تطورًا من الأسلحة والشرائع. احتفظت هيرا بجانبٍ سحري يسمح لها بمنح الفضيلة النبوية، بالإضافة إلى جانب متمرد آخر استطاعت من خلاله مواصلة مقاومة السيادة الذكورية.

فيما يتعلق بنهم زيوس بالجنس، فإن رؤيته كمجرد شخص متحرر غير نادم أو رجل مهووس بالجنس ستكون قاصرة، وربما ستبدو مسلية وسطحية بكل تأكيدٍ. إن زيوس، كإله مقتدر، لم يكن فقط مصدر البرق وتوازن العالم، لكنه أكثر من ذلك؛ فكان الضامن لاستمرار الحياة، ومصدر التناسل المستمر، والروح الإلهية التي تندس في كل شيء، وتخترق الصلابة الساكنة والمعتمة للأشياء غير العضوية حتى تتدفق البذرة والروح إلى المادة.

إزاء شخصيات الآلهة والحوريات ونساء البشر يجب أن نضيف أيضًا بعضًا من شخصيات الفتيان مثل جانيميد الوسيم، ابن تروس وكالّيروى الذي اختطفه نسر زيوس ليقوم بمهمة الساقي على جبال الأولمب. إنهم شخصيات رمزية تسعى إلى وضع حدٍّ للطبيعة الكاملة، الإلهية، البشرية، الحيوانية، وكل ما ينقل إليه زيوس شريان الحياة.

يمثِّل زيوس السلطة والجلالة والعدالة وقسوة الحياة، ورغم كل ذلك نجده منغمسًا أيضًا في بثِّ الحياة عن طريق الآلاف من التحولات الغرامية. أما هيرا فهي إلهة العائلة بالطبع لكنها أيضًا على أتمِّ استعدادٍ أن تنجب من دون مشاركة زوجها، وإن قلنا إنها كانت خصمًا شرسة لأفروديت فهي لن تتردد أن تطلب اقتراض حزامها السحري لإحياء الشهوة في وجدان زيوس الخائن مرة أخرى.

أجاممنون

إن قصة عائلة أجاممنون، ابن أتريوس وأوربا، كانت غارقة بالدماء والرعب.

انخرط أتريوس وشقيق ثيستس في صراعٍ ملعونٍ وقتالٍ بين الأشقاء بلا أي استثناء بدافع الهيمنة على موكناي. لم ينقص صراعهم أي ملمحٍ من الجريمة أو الوحشية. أرسل ثيستس ابنه لقتل أتريوس حيث تعمَّد أن يقتله حتى من دون معرفته. بعد ذلك، حملت ابنته بينيلوبى التي أنجب منها إيجيسثوس الذي قُدِّر له أن يصبح قاتلًا وخائنًا، بعد ذلك نجح في إغواء أوربا، أخت زوجته.

هكذا تلطَّخ ثيستس بالقتل والخداع وزنا المحارم والخيانة، لكن في النهاية جعله انتقام أتريوس يبدو كضحيةٍ.

بدافع إقرار الصلح، دعا أتريوس شقيقه إلى الغداء في قصره وحينها حدث الأمر الأكثر بشاعة ووحشية على مرِّ التاريخ حتى إن الشمس نفسها، كما روى سينيكا في ملحمته، عكست مسارها في تلك اللحظة وانطفأت مجموعات النجوم وسقطت.

ذبح أتريوس أبناء ثيستس الثلاثة؛ أوركومينوس وأجلاوس وكالّيليونتى. طها أجسادهم بعد تقطيعها ثم قدمهم على تلك المائدة لتناول الغداء التي كانت من المفترض أنها مُعدة لإقرار السلام، لكنها على النقيض أصبحت لنشر الرعب. لم يتوقع أحدٌ ردَ فعل ثيستس، وحتى يتمكنوا

من الفرار من اضطهاده كان على عائلة أتريوس؛ أبنائه أتريوس وأجاممنون ومينلاوس، اللجوء إلى أسبرطة حيث بلاط الملك تينداروس.

ما إن وصل أسبرطة حتى عزم أجاممنون على استرداد موكناي والزواج بامرأةٍ تليق به. كانت كليتيمنيسترا، ابنة تينداروس وليدا، وشقيقة هيلين والتوأمين ديوسكوري؛ كاستور وبولوكوس.

سرعان ما تجلّت شخصيته القاسية المتغطرسة العنيفة. كانت كليتيمنيسترا متزوجة بالفعل من تانتالوس ابن ثيستس لكن ذلك لم يردع جموح أجاممنون بالطبع. لم يُذكر أي نوع من العشق أو الحب ولكننا نعلم أنه أراد كليتيمنيسترا لا لشيء سوى أن ينخرط في عائلة تينداروس النبيلة وأن يستحوذ على السلطة.

هكذا نجح في تحرير كليتيمنيسترا بأقصى سرعة وقتل تانتالوس، بل وحتى يسحق أي روابط تربطها بحياتها السابقة؛ احتدم غضبه إزاء طفلها الصغير وانتزعه من حضنها ومن دون الحاجة إلى استخدام السيف، أنهى حياته ضاربًا رأسه بأرضية المنزل.

لا يعرف أحدٌ بأي وجه استضافته كليتيمنيسترا في فراشها. أنجب منها أربعة أبناء؛ إيفيجينا واليكترا وكريسوتيمي وأوريستيس. نجح أجاممنون في استرداد موكناي بمعاونة تينداروس، وتربَّع على عرش المدينة الأكثر نفوذًا في قبيلة أخيون، ورغم ذلك مضت أهدافه إلى أبعد من ذلك.

ذات مرة، اختطف ثيسيوس هيلين الفاتنة، شقيقة كليتيمنيسترا، لكن أشقاءها أعادوها إلى المنزل مرة أخرى نظرًا إلى كونها صغيرة للغاية على الزواج، وما إن بلغت سن الزواج المناسب حتى قدم إليها كل ملوك وأبطال اليونان للزواج منها. أما أجاممنون فكانت لديه الخطة لتدعيم سلالته الحاكمة وتوسيع نطاق سلطته. كان على هيلين الزواج من مينلاوس، شقيقها الأصغر، الفتى المقدام لكنه كان مجردًا تمامًا من قوة الإرادة الوحشية كابن بكر، استطاع أجاممنون إظهار ثرائه وسلطته أمام الجميع بعد أن تمكن من فرض تلك الزيجة.

في أعقاب ذلك، وبعد موت تينداروس، استضافت السماء التوأمين ديوسكوري وريثيه الشرعيين، وأصبح مينلاوس ملكًا على أسبرطة، من ثم، وبين موكناي وأسبرطة، سقطت أرجوليذا في يد عائلة أتريوس، ولم يتمكن أي أحد من التباهي بقوة أكبر من قوتها.

عندما اختطف باريس هيلين، كان أجاممنون، وليس مينلاوس، هو الأكثر غضبًا وجُرحًا. سلب أمير أجنبي زوجةً وكنوزًا من أخيه، وسيتعين على مدينته أن تدفع الثمن باهظًا. بدأ أجاممنون في حشد الملوك والأبطال والمحاربين والسفن لاستئناف الحرب مع طروادة موطن باريس الأصلي، في ذلك الوقت بدأ حلمه بالسلطة يرفع الأشرعة ويطمح إلى عبور البحر.

وافق أجاممنون على ذبح ابنته إيفيجنيا كظبيةٍ مقدسة لاسترضاء أرتميس حتى يتغلب على سكون البحر الذي أعاق سفن أسطول أخيل عن الحركة في أوليس كما لو كانت عالقة في طين أحد المستنقعات. كان زمن التضحيات البشرية قد ولّى بالفعل لكن أجاممنون بات مستعدًّا لتقديم ضحية أخرى من جديدٍ، ومستعدًّا لرؤية ابنته تُذبح على مذابح الآلهة حتى تهب الرياح وتقلع السفن وتبدأ الحرب؛ فظمؤه نحو السلطة والنفوذ كان شديدًا جدًّا.

على الرغم من أرتميس أنقذ الفتاة في اللحظة الأخيرة، لكن كليتيمنيسترا لم تصفح عن زوجها هذه المرة، حتى تشكلت في وجدانها رغبة الانتقام وهي في أوليس.

كان أجاممنون على أتم الاستعداد لوضع مشاعره وأسرته وكل شعور بالرقة تحت قدميه حتى يتسنى له تحقيق مبتغاه.

إن صراع أجاممنون الشهير مع أخيل الذي افتتح كتاب الإلياذة الأول يسلط الضوء على شخصيته بصورة واضحة للغاية: أجاممنون، Anax Andròn، «سيد البشر»، إنه القوة المتجسدة. بالإضافة إلى أنه لم يكن يُقدّر الحب، لم يحترم أيضًا الشجاعة أو البطولية أيضًا؛ فلم يعرف كيفية ضبط النفس، وقد هزأ بأخيل، أقوى فتى بين محاربيه، وهدَّده واختطف عبدته بريسايدى بعد أن أجبره على التخلي عنها. لم يقبل أيضًا أن يجرؤ أي أحدٍ على الجدال أمامه. اعتاد أخيل أن ينهال عليه بالإهانات: «تلك النفس الصفيقة، النفس الجشعة»، وأردف يقول: «رجل سكير! نظراته ككلبٍ وقلبه كظبيٍ!».

كان يطلق على أجاممنون الوقح، التافه، السكير، البذيء، الجبان. كل ذلك ولم يحرك أجاممنون ساكنًا من منصبه. تساءل أخيل كيف يمكن لقبيلة أخيون أن تتبعه في المعركة، وكيف يمكن أن تقبل أن يصبح بمنزلة «طاغية يلتهمهم» بعد أن ينهب نصيب الأسد من الغنائم التي اكتسبها المحاربون بدمائهم، كان بمنزلة اتهامات سياسية الأمر الذي دفع أجاممنون إلى السخرية قائلًا:

ستأتي ابنة بيرسيوس، سجينتك الفاتنة

بذات جناحيك وتحُلِّق بك بعيدًا

لتشهد النصيب الذي تركته لي في السلطة

.بعد أن أصبح مساويًا لهؤلاء الآخرين، وأكون عثرةً لهم

تعبِّر كلماته هذه عن جوهر القوة التي تُقدِّر البشر بما يملكون؛ فمن «يتسلط» الجميع أولًا، .يمكنه فرض إرادته على الآخرين حتى يخشون من مجرد فكرة الانتفاض أمامه ومعارضته

في أثناء العودة إلى الوطن، وبعد تدمير طروادة بعد سلسلة من المعارك التي أظهر فيها أجاممنون شجاعة وقسوة لا تُحد، هرب من العاصفة التي أغرقت العديد من سفن الأبطال ومن بينهم سفينة آياس المنكوبة. عبر شعلة مشتعلة على القمة القريبة من المدينة، أعلن أجاممنون الحلقة الأخيرة من سلسلة الحرائق التي جالت الفضاء بداية من طروادة وحتى أرجوليذا، وحتى .عادت أخيرًا إلى موكناي

يمكن القول إن أجاممنون كان أكثر آدمية وإدراكًا بالحدود حتى إنه اجتاز أسوار مدينته. كان إنسانًا عندما دفع عنه بعيدًا منذ البدء إغواء كليتيمنيسترا التي من فرط السم والإثم الجاثم بقلبها عرضت عليه أن يهبط من مركبته لا على أرض جرداء وإنما على بقع ملطخة باللون القرمزي؛ .حمرة النار وحمرة السجاد

ربما أبصر أجاممنون من خلاله انعكاس الدماء التي تتدفق، حمل كاساندرا برفقته؛ ابنة بريام العرَّافة، وقد أصبحت غنيمة ومحظية ضمن غنائم الحرب التي شنَّها. لا أحد يعرف إن كان أحبها من عدمه؛ فأجاممنون ابن أتريوس المنحدر من تلك السلالة الملعونة لم يكن قد أحب أحدًا من .قبل، لكن وجود كاساندرا كان كافيًا لتفاقم كراهية كليتيمنيسترا أضعافًا وأضعافًا

على كلٍّ، كان مصير أجاممنون مقدرًا بعد أن قررت كليتيمنيسترا بصحبة عشيقها إيجيسثوس ذبحه. بينما كان يستحم، لفَّه أحدهم برداء من كل جانب كما لو كان واقعًا في شبكة أفقدته بصره، .وهكذا بات من السهل أن يخترق الخنجر جسده ويذبحه

كان ابن أوريستيس هو مَن ثأر له، وأما الشقيق الأصغر الناجي مينلاوس فهو مَن شيَّد معبدًا في أسبرطة كُرِّس لزيوس وأجاممنون؛ كبرهانٍ على بداية علاقة متوازنة بين سيد الآلهة وسيد .البشر

إن النفس التي تتوق إلى السلطة والنفوذ هي في الحقيقة تحيي ذكرى أجاممنون، لكننا نقول إنه مهما كانت السلطة التي ينالها المرء فإنها لن تصبح منيعةً إلى الأبد؛ لكل طاغية يوم يُقتَل فيه، وكل سيادة أرضية إلى زوال.

غالبًا ما ينتهي به الأمر بالمنفى أو بسقوط حكمه، كما حدث في إحدى جزر بحار الجنوب الباردة وتبدَّد حلم نابليون، وكما حدث في محرقة باحة قبو الفوهرر في برلين حيث شهد نهاية جنون هتلر الدموي.

يبدو أن التاريخ عاجزٌ عن المضي قدمًا من دون السعي نحو السيطرة، بل ومن دون أحد الأقوياء الذين يقرون الشرائع ويبرؤون أنفسهم. لم نعُد نتقاتل الآن بإراقة الدماء وإنما بالغزوات الاقتصادية والمعاملات المالية، لكن النتيجة نفسها لم تتغير قطُّ؛ فبدلًا من الجثث، تبقى في الميدان الحشود الفقيرة، المُتخَدِّرة، الجائعة.

نجد أن لقلق السلطة كيانين متضادين عظيمين في نفوسنا الفردية؛ الحب والحرية، وبعدهما نجد الكرم والوَهن والشفقة والحنان.

كما أن الشمس اليافعة المشرقة للتوِّ تكون مستعدة لإتمام موعظتها عبر السماء، تتأهب شمس الظهيرة الساكنة الناضجة أكثر من ثمرة الفاكهة لسكب الذهب والدماء، هكذا، سيبقى أخيل ضد أجاممنون دائمًا وأبدًا.

4

الحكمة البطولية الإستراتيجية

تُعَد الحكمة صفة تُكتسب مع الوقت والخبرة والدراسة والتأمل، لكن ربما هناك ميل فطري ودافع حيوي لنفوسنا نحو ما تمثِّله الحكمة: المعرفة والسيطرة على الغرائز والحزم والنضال لسببٍ ما. لماذا تشعر بعض الفتيات (الأمر الذي يتكرر كثيرًا الآن) وبعض الفتيان بميلٍ نحو الدارسات والأبحاث والبعض الآخر لا؟ لماذا يشعر البعض بضآلة في العواطف الجنسية والمشوشة ويفضل الاستناد إلى مستوى أعلى من الفعل والفكر؟ لماذا يوجد في حضارتنا، منذ زمنٍ بعيدٍ، ذلك الوعي بأن المعرفة والثقافة والكتب كانت بمنزلة مثابرة ولحظات لإحدى الإستراتيجيات تدفعنا إلى تحقيق ذواتنا وتحقيق رغباتنا؟

إن بالاس أثينا تعد بمنزلة الإلهة الرئيسة لكل ما ذكرناه سالفًا، إنها مثل هيستيا؛ خصمة أفروديت تمامًا. تعرف جيدًا أن الحب يجلب العمى اللا عقلي ويدفعنا إلى الذهاب بعيدًا عن المكان الذي يتوجب على الحكمة اقتيادنا إليه.

أزعم أن كثيرين قد اختبروا التناقض البيِّن بين أثينا وأفروديت في أنفسهم. أتذكر ذلك التناقض المحموم المُبهر يجول في نفسي كفتى مراهق مجتهد عفيف، يقاوم جسده، وينجذب بصورة لا تُقاوم نحو المعرفة حتى اقتحمتني أفروديت وأظهرت لي دروبًا جديدة أمضي عبرها حملتني بعيدًا عن المكتبات والعفة، إلى الغابة المظلمة وإلى البحر العاصف المفعم بالرغبة في الحب والجنس بكل هواجسه.

إن تعدد الآلهة في الأسطورة اليونانية يفيد النفس بصورة واضحة؛ فبعد عبادة أفروديت، تمكنتُ من العودة، حالما توجَّب ذلك، إلى عبادة أثينا التي من دونها، عزيزتي القارئة وعزيزي القارئ، لم أكن لأكتب هذا الكتاب.

إن اختياراتنا في الحياة تتم في مخبأ كامن في أنفسنا، لسنا سادة أنفسنا بصورة كبيرة كما أننا لسنا مَن نقرر كل ما يجري في حياتنا. تدفع النفس المرء إلى اتجاهاتٍ بلا حصرٍ، لكن في النهاية تختار الاتجاه الذي نحوه تدفعنا بأقوى صورة.

عزيزتي القارئة، عزيزي القارئ، عندما يكون المرء تحت سلطان بالاس أثينا، لا يختبر فقط بميلٍ نحو الحكمة ولكن أيضًا نحو التوازن والإثمار والتنوير والسيطرة على الغرائز المدمرة والشفاء من أي اضطرابٍ كان. ستكونين، عزيزتي القارئة، كمحاربة، وأنت عزيزي القارئ ستصبح محاربًا، ولكن من أجل السلام! وستعرف كيفية التعامل مع آريس؛ ذلك الشيطان الدموي المتعطش إلى القتال من أجل القتال فحسب.

إن بالاس أثينا هي مانحة شجرة الزيتون، وعلى رأس مسؤولياتها تحارب عمالقة الفوضى، وصارت الإلهة التي تصون الديمقراطية حتى وإن لم تكن تدرك بعد تلك الأنماط من الديمقراطية الغربية المرهقة الجوفاء التي وضعت المعرفة تحت أقدامها.

وسط زحام أنفسنا، تتجلى أثينا مثل البارثينون، المعبد المخصص لها في المدينة التي سُميت على اسمها، أثينا، فوق جبل الأكروبوليس. البارثينون يُشتق اسمه من لقب الإلهة، بارثينوس، «العذراء»: كالحكمة الحقيقية، العذراء عن أي خنوعٍ أو كراهية عمياء أو خوف أو الامتثال أو التلاعب.

أثينا

وُلدت الإلهة أثينا -تحتل المرتبة الثانية بعد زيوس في البانثيون اليوناني من حيث السلطة والتأثير في البشر- بطريقة مليئة بالمغامرة والغموض من مناحٍ عدة. يُحكى أن زيوس أحبَّ ميتيس، إلهة الرشد و«النصيحة الحكيمة»، الإلهة الأكثر ثقافة و«عقلانية» بطبيعة الحال بين سائر الآلهة. ميتيس هي ابنة أوقيانوس وثيتيس، وكانت مخلوقًا بحريًّا يتميز بالقدرة على تغيير هيئته في الحال كسائر المخلوقات البحرية؛ فبغتة يتخذ طبيعة أخرى ويصبح ثعبانًا أو نارًا أو سحابة نظرًا إلى قوته في المراوغة.

لكن أحدًا لم يفُق زيوس في براعته في لعبة التحول، ذلك الذي صار ثورًا ليختطف أوربا، وبجعةً ليتسلل إلى ليدا، ومطرًا ذهبيًّا ليحظى بداناي، نجده يتخذ هيئة مغايرة بغتة ما إن تصبح ميتيس أمامه وبعد عدة محاولات عبثية يفلح في نوالها.

لم يكن زيوس راضيًا، وإنما كان يسعى إلى امتلاك كل ما تمتلكه ميتيس كمهرٍ؛ كل تلك المعرفة، وذلك الإدراك الحذر، اليقظ، الإيجابي، كان في حاجة إليها ليعتلي القمة بين سائر

الآلهة، حاجة إلى إشباع شيء ليس بالضئيل، كان عليه أن يُدمج ميتيس في نفسه، يحملها بداخل وجدانه، في أحشائه.

وهكذا، فإن زيوس العظيم الذي أفلت سابقًا لحسن حظه من عادة كرونوس الوحشية المتمثِّلة في ابتلاع أبنائه، وتمكَّن من الإطاحة به، وإنقاذ إخوته، يرتكب الآن الجريمة نفسها مع ميتيس وقد بدا له الأمر صورة من صور الميراث البشري. ابتلعها، لكن بلا كراهية، بلا انتقامٍ، ولم تحركه أي رغبة سوى رغبة التملك المطلق.

تشكَّلت أثينا من هذا الاتحاد غريب الأطوار وغير المتوازن، لكنها تكوَّنت في جسد زيوس الذي أحسَّ بالجنين الإلهي ينمو داخله، يركل أطرافه ويدفعها.

استُدعي هيفستوس كعادة الحال عندما يقتضي الأمر مساعدة ملموسة وعملية، ذلك الحداد القزم الأعرج الضليع في أي شيء يستلزم قوة أو مهارة. نراه هنا يرتدي لباس طبيب الولادة. زيوس بنفسه، سيد البرق والسماء، سيضع مولوده. كان في حاجة إلى تدخل هيفستوس الذي قَدم من ورشته المظلمة. لم يكن بحوزة الإله الحداد أي وسيلة للقيام بذلك سوى فأسه؛ فضرب به على رأس زيوس، ومن هناك، من قمة رأس الإله الأعلى قفزت خارجًا سيدة شابة تلتف بدرع ذهبي وتمسك بيدها رمحًا طويلًا حادًّا.

كان للمرأة الشابة فمٌ ذو شفتين مرتفعتين وأنفٌ عزيزٌ وعينان زرقاوان لامعتان كعيني البومة وابتسامة محجوبة وواثقة بنفسها. ارتجف الأولمب أمامها، واهتزت الأرض، وبعث البحر بموجاته العاتية الأرجوانية القرمزية نحو شواطئه. ها هي أثينا قد وُلدت، ابنة زيوس، جزءًا منه، تجلس بجواره مباشرةً على عرشه في النقطة الأعلى من السماء.

تُدعى أثينا بالاس أيضًا؛ وفي اليونانية بالّاس حسب مختلف اللهجات والتغيُّرات في الحروف، ويمكن استخدامه للمذكر وللمؤنث أيضًا. في الحالة الأولى يعني شابًّا قويًّا، وفي الثانية يعني شابة عذراء موهوبة بالقوة نفسها. حملت أثينا في وجدانها كلا المبدأين، ومن الضروري تأكيد أنها إلهة تود القُرب من البشر والمدن عكس بقية الآلهة. رأى بها العديد من الأبطال حاميةً ومُشيرةً بارعة: أتذكر نقاشها مع أخيل في بداية الإلياذة، ثم قربها من هرقل وجاسون وبيليروفون وتايديوس ولا سيما أوديسيوس، الماكر، الذي كانت تراقبه بلا كللٍ.

إنها الإلهة التي منحت اسمها لمدينة أثينا وهذا ليس بالأمر الهيِّن. عزيزتي القارئة، عزيزي القارئ، يكفي الإقرار بكل ما تدين به الحضارة الغربية لهذه المدينة من إرثٍ حيوي في العديد من المجالات الفكرية والإبداع الإنساني.

حكم الملك كيكروبس على أتيكا خلال عصر الأصول، وكعادة ذلك العصر، حيث لم تتضح الهوة بين الحيوان والإنسان بعد، فإننا نرى نصفه العلوي يتخذ صورة إنسان بينما نصفه السفلي يتخذ صورة ثعبان.

عندما عزم على تأسيس مدينة لتصبح فيما بعد عاصمة أتيكا، دعا إلهين، بوسيدون وأثينا، دعاهما عندما كانت الحدود الإنسانية والإلهية لم تكن تحددت بعد كعادة عصر الأصول أيضًا، فاستجابا لدعوته، أعلن كيكروبس أمامها أنه أوشك على تأسيس مدينة ينوي أن يسميها على اسم أي إله يتقدم إليه بأعظم هدية.

كان كيكروبس ماكرًا بشكلٍ كافٍّ حتى إنه وضع في منافسة واحدة إله البحر العجوز، سريع الغضب، مفتول العضلات، ذا الرمح الثلاثي الذي يلوّح به بالقوة نفسها التي كان شقيقه زيوس يبث البرق، إلى جانب الإلهة الشابة ذات العينين المشرقتين والوجه الوسيم الصارم، التي تعتمر خوذةً على رأسها وتمسك بالرمح في يدها ورغم ذلك كانت تحب الحكمة الحذرة المثمرة قبل أي شيء.

أطلق بوسيدون المندفع، السريع، رمحه الثلاثي تجاه إحدى الصخور ليتدفق منها نبعٌ رويدًا رويدًا أخذ هيئة حصان وكانت هذه هديته لتلك المدينة حديثة الولادة.

أما أثينا، المتأملة، الهادئة، أخرجت شجرةً من الأرض لها جذعٌ معقودٌ وسعفٌ غني، أظهرت الأوراق الخضراء -وهي تتأرجح في النسيم- جانبًا مختلفًا من الألوان لم يبتعد كثيرًا عن الألوان البارزة في عيني الإلهة. كان للشجرة ثمار سوداء غنية بالعصارة صالحة للأكل، بالإضافة إلى كل ذلك، يمكن استخراج الزيت من تلك الثمار التي تبدو كشمسٍ سائلة غنية؛ قدمت الإلهة شجرة الزيتون كهدية لتلك المدينة الجديدة.

وقع اختيار كيكروبس على هدية أثينا؛ سُميت المدينة المولودة على اسمها؛ أثينا، ولم يتخيل أي إنسان مقدار المجد الذي تمنحه حماية الإلهة، أعلى هضبتها أكروبوليس، هيمن معبد الإلهة العذراء، البارثينون.

لم يغضب بوسيدون الخاسر كثيرًا لما حدث؛ فكان يعلم أن مملكته، البحر، ستلعب دورًا حاسمًا من أجل هذه المدينة، وأن الموانى والسفن ستصبح مصدرًا لقوتها وسلطتها في أعالي البحار.

بالاس أثينا، الفتاة الحكيمة القوية العذراء بفطرتها الطبيعية والواثقة بنفسها، لم تهرب أو تبحث عن ملاذٍ أو تخشى أي فخاخٍ كانت. تم تأمين عذريتها منذ يوم ولادتها مباشرة من قِبل أبيها زيوس؛ فلا زيجة أو رباط يغويها أبدًا. بصورة مغايرة لهيستيا، كانت أثينا خصمًا لأفروديت أيضًا، فتراها مثالًا لإهدار الوقت والتبذير، تولد تحت أقدامها الورد والعشب، في حين أنها هي من أخرجت شجرة الزيتون النافعة للإنسان ولقوْتِه.

رغم ذلك، في يوم من الأيام، قرر هيفستوس، أجل؛ ذلك الحداد الحرفي، الوصي الأمين الذي سيحظى بعد ذلك بأفروديت زوجة له حتى تذيقه عار خيانتها، الذهاب إلى زيوس وطلب يد أثينا للزواج. قَبِل زيوس الطلب لكنه أخذ يضحك مثلما يضحك شقيقه بوسيدون في أعماق البحر؛ حقًّا هو مَن جعله يقتنع أن أثينا ستقبله ليهزأ به.

اشتعل هيفستوس إثر الرغبة الجامحة التي أشعرته بسخونة تفوق في قوتها سخونة المعدن الذي يدقه تحت سندانه، لكن باقترابه من فراش الزوجية، أدرك أن أثينا غير موجودة، وأن مراده بات وهمًا فحسب. ارتمى إلى الأرض وقذف السائل المنوي الذي خرج إريتّونيو من قطراته بعد أن لقّح جايا؛ ذلك الطفل الذي قررت الإلهة الأعظم أن تمنحه أثينا للتبني، في نهاية المطاف يبدو أن هيفستوس قد أخرج كل هذا التدفق المجنون من السائل المنوي وهو يفكر بها.

أخذت أثينا الطفل وربته سرًّا لكن الأمر لم يدم طويلًا؛ فليس لها غرائز الأمومة بل ولديها الكثير من الأمور الدنيوية المهمة عليها إتمامها. لذلك وضعت الرضيع في سلة محكمة الغلق مثلما فعلت أفروديت مع أدونيس وسلمتها إلى بنات كيكروبس الثلاث بعد أن قطعت وعدًا معهن بحماية السلة جيدًا كما حذرتهم بصورة حازمة بعدم فتحها والتطلع إلى داخلها مهما حدث.

بعد الانتهاء من تسوية الأمر، عادت أثينا للاهتمام بمشغولياتها وحلّقت للبحث عن صخرة صالحة لتحصين قلعة كيكروبس حيث سيتم تشييد أكروبوليس.

ما إن حملتها وأخذت تحلق نحو المدينة حتى أوقفها غراب وحذرها بأن أحدهم انتهك وصيتها لأن إحدى بنات كيكروبس، وتُدعى أجلاوروس، لم تفلح في مقاومة فضولها المتزايد وانتهى بها

الأمر بأن فتحت السلة ورأت داخلها إريتّونيو، نصفه إنسان حتى العانة والنصف الآخر ثعبان.
.من شدة خوفها ألقت أجلاوروس بنفسها من قمة القلعة ولقيت حتفها، هذا ما قاله الغراب

اجتاح الغضب أثينا حتى إنها تركت الصخرة تتهاوى من بين ذراعيها الأمر الذي شكّل تل ليكابيتوس الذي يلوح في أفق أثينا إلى الآن. لعنت الغراب حامل تلك الأخبار السيئة وجعلت ريشه الأبيض يتحول إلى اللون الأسود، ومنذ ذلك الحين لم يستطع أي غراب يُذكر التحليق فوق .أكروبوليس

تعد أثينا مخترعة وبنَّاءة بصورة تفوق بكثيرٍ هيفستوس المسكين. تتمثل إبداعاتها في تشكيل الأواني الخزفية المهمة في تزيين المنازل وفي التجارة أيضًا، وصناعة المحراث والمجرفة المهمَّين في أعمال الحقل، وصناعة النير للثيران واللجام للخيل إلى جانب المركبات والسفن. يبدو أن الفضل يرجع إليها في صناعة الناي والبوق أيضًا في حين أن القيثارة تظل من اختصاص أبوللو فقط. ومما لا شك فيه، فإنها برعت في جميع الفنون النسائية الأخرى من طبخ .وغزل ونسيج

نحن الآن، عزيزتي القارئة، عزيزي القارئ، بصدد الحديث عن إلهة تساعد البشرية؛ فلا شك أن الحكمة والشجاعة والقوة والإبداع تساعدها كثيرًا. إن أثينا هي إلهة حضرية، ومن خلال هدية الزيتون أظهرت إلى الإغريق الطريق نحو الزراعة وإعداد المنتجات الزيتية، وأما من خلال .القوارير والسفن فأظهرت لهم المرحلة المقبلة من التجارة

لا شك أن بمجرد رؤية الحصان الذي قدمه بوسيدون يبدو رائعًا، فاخرًا، قويًّا، لكن ما فائدته للإنسان من دون لجام أو مركبة يجرها ليجوب شوارع المدينة وممرات السهل؟ اهتمَّت أثينا بصلب الموضوع؛ حيث إن حكمتها ليست مجردة جوفاء، وإنما واقعية، قابلة للتطبيق في شؤون الحياة اليومية بل وأيضًا في الحياة العامة. عندما نُمعن النظر سنراها حامية لأثينا إلى جانب كونها حامية للديمقراطية التي حاولت أسبرطة والفرس الانعتاق منها، بل إنها لا تزال تُقاوم حتى الآن وتتعرض للخيانة والأذى، في أماكن عدة من العالم حيث كان -على الأقل حتى ذلك الوقت- .أكثر أمانًا للولادة والعيش

إذا نظرنا إلى أثينا باعتبارها إلهة حرب سنرى كم أنها إلهة إستراتيجية بصورة واضحة، لا تسعد أبدًا بالمعارك الدامية أو بالمذابح أو بإراقة الدماء، بل تحتقر كل ذلك بذكائها الحاد. إنها عدوة آريس، إله الحرب الشرس الجبار حسن المظهر، إله الشيطان ذي العينين الناريتين

والعضو الدائم الانتصاب. لم تعرف ما يتوجب أن تفعله إزاءه، إن واجهها، مثلما ذكرت الأنشودة الحادية والعشرين للإلياذة فإنها ستهزمه بلا شكٍّ، على أي حال، تركته عن طيب خاطر لأفروديت: فلتستمتع به كعشيقٍ لها أيضًا!

أثينا هي:

الإلهة الممجدة [...].

ذات العينين المشرقتين، النصوحة، العذراء الطاهرة.

حامية حمى المدينة، المثابرة، الباسلة.

تسعى أثينا إلى تسوية النزاعات وإقرار الحلول السلمية، إنها تمثِّل انعكاسًا للتنوير والكرامة والشجاعة العقلانية والتدبر. إنها تجسد الفكر عندما يؤدي إلى الفعل، ويسعى صوب الشفافية ويمضي بعيدًا عن الاندفاع أو حتى عن التأمل. ورغم ذلك، ونظرًا إلى أن أحدًا لا يؤمن بالكمال حتى إن الآلهة لا تخلو من النقائص أو مواطن الضعف، مثلنا جميعًا، فسنجد أن الأسطورة تروي لنا كيف أن إلهة مثل أثينا -التي ربما تراها أعيننا بلا عيبٍ- كانت فريسة الحسد حتى تخلَّت عن صفاء العقل إثر غشاوة عواطفها.

كانت الأميرة أراكنى تحيا في ليديا، في كولوفون المدينة عاصمة إنتاج الصباغ القرمزي وقد ذاعت مهارتها في النسج حتى إن شهرتها بلغت أقطار الأرض آنذاك، وعندما أخذت تُعد عباءة بخيوطٍ ذهبية منسوجة تروي بها حكايات زيوس الغرامية، وصل الخبر حتى آذان أثينا. هل كانت أميرة ليديا ماهرة إلى درجة تستحق كل هذا المدح والثناء حتى إنها فاقت أثينا في ذلك الفن الذي اخترعته هي بنفسها؟

ربما استمتعت أراكنى كثيرًا بشهرتها، وربما لم يكن من اللائق أن تجرؤ على نسج مغامرات الآلهة الغرامية على عباءة بشرية. استشاطت أثينا غضبًا ونزلت أمامها بالخوذة والدرع الذي ثُبِّت عليه رأس ميدوسا وأخذت تلوِّح برمحها بثورة عارمة. كانت قد أشاحت عن وجهها المفزع؛ فمن المعروف أن الآلهة لديها دائمًا ذلك الوجه وإن كان مخفيًّا عن الأنظار، لكن المرء ربما يواجهه في أي وقت حتى وإن لم يكن ينتظره. حطَّمت النول بضربة واحدة من رمحها، ومزَّقت العباءة إربًا إربًا. بعد ذلك حوَّلت أراكنى إلى حشرة صغيرة حتى تُشعرها بضآلتها في

محضرها؛ فاختارت العنكبوت الذي عبثًا يقضي وقته في نسج شباكه التي مُقدَّر لها الزوال لتصبح خيوطًا بالية.

رواية أخرى أقل بشاعة لتلك الأسطورة تقول إن ما إن رأت أراكنى الإلهة الغاضبة أمامها حتى ندمت على غطرستها في الحال وعزمت أن تشنق نفسها، في تلك اللحظة، حوَّلتها أثينا إلى عنكبوت، وحوَّلت حبل المشنقة إلى خيط حتى تحيل أراكنى من دون الموت.

إن كنَّا سنقبل الرواية الثانية، فسنكتشف أن الذكاء -تعد أثينا أسمى رموزه- يمكن أن يسقط في براثن الغضب والاندفاع الأعمى، ولكن من ناحية أخرى، في الذكاء الأسمى الخالق المستنير، نرى نزعةً نحو الشفقة ونحو كل ما يمنحنا حياة، ويبقينا على قيد الحياة.

5

الوحشية المتحفظة

ثمة نزعة مألوفة في نفوسنا تحملنا نحو الوحشية، نحو رفض العلاقات الشرعية وربما أيضًا العلاقات العاطفية. حينها، لا يسقط المرء في حب أحدهم وإنما يُغرم بالطبيعة البرية، بالغابات المظلمة إثر ظلال أشجارها شديدة الكثافة، بالحيوانات البرية التي تسكنها. يُغرم بضوء القمر الساكن البكر أكثر من ضوء الشمس. تضل نفسه في غابة بلا طرقاتٍ؛ فالقمر مرشده الوحيد، وتظهر الغزلان إلى جانبه كرفقاء رحلته، تسري قشعريرة في نفسه، تنمُّ عن شيء مقدس.

تجسدت الإلهة أرتميس تلك النزعات. لا يمكن ألا تكون فتاةً، لديها ذلك الإحساس المميز بالاستقلالية وذلك الزهو بالحرية المطلقة التي لا تُكبح. لاحظتُ ذلك حاضرًا بقوة في المراهقات مقارنة بأقرانهن من الذكور الذين ربما يمتازون بأكثر سكونًا وبلاهة.

مَن تهيمن عليه أرتميس يرفض أن يُصنَّف بأي حال، يرفض أي مساومات؛ فهو يسعى إلى الحرية المطلقة، ولا يعني ذلك التهور والطيش وإنما إمكانية الشعور بملء الحياة حتى في أثناء العزلة. يحب ذلك المرء الركض بكل أنواعه؛ على القدمين أو بالدراجة أو بالموتوسيكل أو بالسيارة، المهم أنه يركض فحسب، يمضي في طريقه مسرعًا ومنفردًا.

أرتميس أيضًا مثلها مثل هيستيا وأثينا، لا تربطها أي علاقة بأفروديت، إنها عذراء أيضًا لكن ليس بدافع العفة وإنما لنفاد صبرها نحو الذكور والانجذاب نحو القمر.

كانت الغابات حيث تسكن وتركض وتصطاد بقوسها الفضي، مقدسةً قديمًا من قِبل القدماء. إن الغزاة الرومان الذين كانوا رمزًا قاطعًا للنزعة نحو القانون والمنطق أطلقوا اسم ديانا(68) على حدود طرقاتهم في تلك الغابات التي تم تكريسها سالفًا للآلهة البربرية القديمة من القلطيين والليغوريين الذين احتلوهم سابقًا.

(68) آلهة الصيد والقمر والولادة في الميثولوجيا الرومانية وترتبط بالحيوانات والنباتات البرية ولديها القوة للتكلم والتحكم بها، تعادل ديانا الإلهة أرتميس في الميثولوجيا الإغريقية.

يوجد بعض من تلك الغابات حتى الآن رغم أن معظمنا لا يدرك أصولهم المقدسة. عندما عرفتُ أن واحدة من تلك الغابات موجودة بالفعل بالقرب من مسكني أُصبت بالذهول والدهشة. إنها غابة تشغل شبه جزيرتين وتلال كثيرة في وادٍ ينحدر برقة نحو البحر حيث تنتشر نباتات

كثيفة من أشجار الصنوبر البحري وأشجار الغار والزيتون. في ذلك المكان حيث لا نرى الآن سوى السياحة الشعبية، ضحَّت الكهنة ببورمانو، الإلهة الليغورية، منذ زمن بعيدٍ، حيث سمَّاها الرومان باسم ديانا التي هي أرتميس التي نتحدث عنها.

إن البساتين المقدسة المتبقية إلى الآن تكمن في نفوسنا. فإن كنت، عزيزتي القارئة، عزيزي القارئ، تفضِّل انعكاسات القمر بين أوراق الشجر عن ضوء الشمس الساطع الذهبي، وإن كنت تفضِّل الغابة عن الشارع، وإن كنت تسعى نحو حرية برية وركضٍ سريعٍ بلا وجهة واضحة؛ فأرتميس هي مَن تهمس في أذنك.

أرتميس

إنها شقيقة أبوللو وابنة ليتو وزيوس. صعدت أرتميس من جزيرة ديلوس، حيث وُلِدت، حتى قمة الأولمب. هناك، عثرت على زيوس، أبيها، وجلست على ركبتيه وقد أظهرت سلوكها الطفولي مداعبة لحيته بحرية تامة.

لا أعرف إن كان حنان الإله الأعلى الذي دفعها إلى التقدم بعدة طلبات إلى جلالته، أم أنها هي، مباشرة، مَن طلبت تلك العطايا بنوعٍ من الصراحة المندفعة المتعجرفة كسائر المراهقات.

في بادئ الأمر طلبت من زيوس القدرة على البقاء عذراء من دون أن تُمس مدى الحياة، وأن تبقى متحررة من أي قيود، من الحب، من الواجبات؛ كانت العذرية صورة من صور الاستقلال والاكتفاء الذاتي. بعد ذلك طلبت منه قوسًا كالذي يمتلكه أخوها أبوللو، فإن كانت أنثى فهذا لا يعني أنها أقل منه شأنًا. طلبت منه أيضًا سترة صيد بلون الزعفران ذات حواف أرجوانية. ازدادت طلباتها جرأةً شيئًا فشيئًا؛ فطلبت ستين من حوريات المحيط كي يرافقنها إضافة إلى عشرين أخريات من حوريات الأنهار، طلبت أيضًا تابعًا وحاشية شريطةً أن يكنَّ من الإناث مثلها، وفي النهاية، طلبت السيادة على كل جبال العالم.

أجابها زيوس: «لكن ألا تريدين أي مدينة؟» نظرت إليه أرتميس باسمة تقول: «أريد واحدة لا أكثر، إن وافقت، خاصةً أنني لن أسكن القصور أبدًا، ولن أركض أبدًا في الطرقات أو الميادين إلا إذا ضللتُ طريقي، سأسكن الغابات والجبال، ستكون هي مملكتي فحسب».

هكذا، أعربت أرتميس عن نداء دعوتها البرية بوضوحٍ شديدٍ، هكذا عاشت بين الشروق والقمر، السلطة والحياء، الرقة والخشونة، وقد وطدت علاقاتها مع قوى الحيوانات البدائية؛

الغزلان والخنازير البرية والدببة والذئاب والخيول مع أفضلية خاصة بذكور الغزلان وإناثها حيث كانت تحبها وتصطادها.

بعد سماح زيوس ذهبت إلى كريتا ومنها إلى نهر أوقيانوس لتختار رفيقاتها، فاختارت فتيات ذات تسع سنوات، ونظرًا إلى قلة خبرتهن وعدم نضجهن في ذلك العمر، فلقد قررن البقاء عذارى، بريَّات، لن يمسسهن أحدٌ، وهكذا أعلنت أرتميس تميُّزها عن أفروديت الذي بلغ حد العداء.

بعد نصيحة هيفستوس، اتجهت أرتميس إلى ملاقاة الصقاليب(69) في ورشهم الضخمة الهائلة حيث وجدتهم يصنعون الأجران المخصصة لخيول بوسيدون ليشربوا منها، تمثَّلت طلباتها في أن يتوقفوا عن هذا العمل حتى يصنعوا لها قوسًا فضيًّا وفقًا لإرادة زيوس.

(69) مسوخ من جنس الجبابرة، ذوو عين واحدة وسط الجبهة، وعمال مهرة يصنعون الصواعق وأسلحة الآلهة ويحققون الأعمال الكبيرة والضخمة حسب الأساطير الإغريقية.

جلست أرتميس على ركبتي الصقلوب برونتى حتى تتمكَّن من إقناعه، ذلك الكائن البدائي المولود قبل زيوس نفسه، ولم يكن يبالي بسلطته قطٌّ. جرؤ برونتى على مداعبتها أكثر من اللازم وكانت أرتميس المتمردة قد اتخذت حذرها بصورة بالغة، فنزعت عن صدره حفنة من الشعر الأسود الطويل، ومزقته بقوة، بغضبٍ، ولكن بصورة طفولية أيضًا كما لو كان لهو أطفال.

تفهَّم برونتى ما حدث؛ فلن تنمو أي شعرة أبدًا في منتصف صدره، ستبقى بقعة بيضاء كعلامة على الجرب لن تُمحى أبدًا.

حصلت أرتميس على القوس الفضي إلى جانب مجموعة لا بأس بها من الأسهم الحادة. أقرنت اثنين من الأيل ذوي القرون الهائلة بعربتها الذهبية وسافرت تجرِّب آلتها غير المألوفة. أصابت لحاء الأشجار بعد تسديد ضرباتها الأولى، وبعد ذلك رفعت رميتها نحو الأعلى وهكذا نجحت في صيد الحيوانات البرية الأولى بعد أن انطلقت السهام بدقةٍ حاذقة وأصدرت صفيرًا حادًّا عبر الغابة. بعد ذلك، وبالتسلسل نفسه الذي اتخذه أخوها أبوللو، في الميدان الإغريقي، شرعت أرتميس في صيد الكلاب والبغال ثم قررت استهداف البشر وسعت إلى اختبار قوة سهامها المميتة على إحدى المدن التي تعج بالطغاة الذين لم يظهروا أدنى تقديرًا لها.

بلا شكٍّ تسبَّبت أرتميس في حدوث وباءٍ؛ شر يصعد من الأسفل، من كائنات أضعف كثيرًا من أن تمس البشر، وأفنت منهم أعدادًا هائلة.

في أحد الأيام، كانت أرتميس تغطس في مياه النبع برفقة الحوريات اللواتي يحطن بها، كان الماء نقيًّا صافيًا كجمال الإلهة وفتيات بلاطها، لم يكن هناك أي مجال لدنسٍ يُذكر، حتى وإن كان مجرد نظرة خاطفة من أحد الذكور.

كان الفتى الكريتي سيبوريتس أول مَن حاول ذلك الأمر، وجرؤ أن يرفع عينيه على ذلك المشهد المفعم بالعري والفتنة، ودفع ثمن جسارته باهظًا بعد أن تحوَّل وصار امرأة؛ هكذا، لن يجرؤ أي ذكرٍ على التباهي برؤيته حمام أرتميس.

لم تمضِ الأمور على ما يرام مع إيكتيان ابن أرستائيوس وأوتونوئي، شقيقة سيميلى وأم ديونيسوس. كان إيكتيان ابن عم ديونيسوس؛ تلك القرابة التي لم تعطِها الأسطورة اليونانية أي أهمية، بل ولم تذكرها قطُّ رغم أهميتها المحدودة التي ربما كانت قدرًا نحو الملذات.

اعتاد إيكتيان الذهاب للصيد طوال اليوم عبر الغابات المحصنة وكانت الشباك المعلقة بين الأشجار تقطر بدماء كل الحيوانات المقتولة؛ كانت الغنيمة كبيرة بحقٍّ. أخبر خادمه أن وقت الراحة قد حان. بدلًا من أن يتوقف إيكتيان مع رفاقه، مضى نحو جوانب الغابة الأكثر كثافة، لم يكن يعرف عما يبحث، لكن من المؤكد أن سوء القدر كان يقود خطواته.

وصل إيكتيان إلى نبعٍ أمام أحد الكهوف حيث شكَّلت الطبيعة الخلابة شيئًا يشبه القوس، شيئًا يشبه معبدًا صخريًّا يقبع بين خُضرة النباتات وزُرقة الماء الكرستالية، هناك، كانت أرتميس تحظى بحمامها قبيل المغرب وتحيطها حورياتها التابعات لها.

عندما وصل إيكتيان إلى هناك، لم يقو أن يشيح عينيه عن رؤية جسد الإلهة العاري ناصع البياض. صاحت الحوريات وقرعن صدورهن بلا جدوى، والتففن حول الإلهة في شكل دائري، وعبثًا كانت محاولة الإلهة الانحناء على أحد جانبيها. كانت الإلهة طويلة القامة عن أقرانها، وأشعرتها هاتان العينان الذكوريتان المصوبتان ناحيتها بخجلٍ لا يوصف؛ فاحمرَّت وجنتاها كسُحب الغروب أو كشفق السماء.

لكن عندما يتعلق الخجل بالآلهة، سرعان ما يدفعها إلى الغضب والثأر؛ لم يكن القوس والأسهم على مقربة من يدها، فسحبت بعض الماء براحة يدها ورشتها ناحية إيكتيان المسكين الذي كان واقفًا أمامها بلا حراكٍ كمَن أصابه الشلل. ما إن سقطت قطرات المياه على إيكتيان حتى

حوَّلت هيئته؛ فخرج قرنان كبيران من رأسه، وتمدَّدت أذناه، واكتسى جسده بطبقة من الفراء، وانكمشت ساقاه وصارت مخالبَ طويلة وسريعة.

صار أيلًا، ورأى إيكتيان إلى أي مدى انقلبت حياته رأسًا على عقب؛ فلم يعد صيادًا بعد، بل صار فريسةً. لم يعُد بمقدوره سوى أن يصدر سليله، ولم يعد بمقدوره الحديث ليروي ما حدث له؛ سيكون فريسة لكلابه التي ستهاجمه وتقطعه إربًا بعزةٍ، كعزَّته كصيادٍ، حتى تُرضي الإلهة.

أصبحت العذرية إلزامًا على أي فرد من أفراد عشيرة أرتميس، ولم يكن هناك أي استثناءٍ مهما حدث.

حتى كاليستو التي يُستشف من اسمها مقدار جمالها، ابنة ليكاون، التي أغواها زيوس، حدث أنه في إحدى المرات أدركت أرتميس أن كاليستو حبلى في أثناء سباحتها في ماء النبع، الأمر الذي صعب إخفاؤه، فلجأت مجددًا إلى فنونها الماكرة وجعلت منها كائنًا آخر. كانت كاليستو رشيقة وناصعة البياض، فرأت نفسها تسمن أكثر بكثير من أي امرأة حبلى، وأصابها البطء والسمنة، بينما نما فراء داكن سميك على خصرها وذراعيها وقدميها؛ صارت دبًّا.

لكن تلك المرة، تمكَّن زيوس، بحكمه الغامض وسلطته العليا، من إقرار نهاية سعيدة لتلك القصة، أخذ المسكينة كاليستو بعد أن تبدَّلت صورتها وحملها إلى السماء حيث خضعت لتحول جديد استعادت به رونقها الذي أحبه زيوس؛ فصارت مجموعة من النجوم، كوكبة الدب الأكبر حيث تمت تسميتها انطلاقًا من اسمها.

نجد أيضًا أن قصة الحب الأحمق من قِبل الإله النهر ألفيوس، ابن تيتي، نحو أرتميس، أقل وطأةً من سابقتها حتى إنها تميل إلى الفكاهة.

كان ألفيوس، صاحب الغضب العدواني وفقًا لطبيعته كنهرٍ، مفعمًا بالشهوة والعاطفة وظل يتبع أرتميس وحورياتها من دون أن يتركهن للحظة. كان يلحُّ بلا هوادة، يتدفق بسرعة فائقة، يحاول إحاطتها والإمساك بالإلهة بدواماته كما لو أن الأمر ممكنٌ رغم أنه لم يكن كذلك. هربت أرتميس بعض الوقت من أمام غضب ألفيوس وقد أخذت معها بالكامل كل بلاطها المكون من ثمانين حورية بين جزر إيجة وأتيكا وبيلوبونيز والجزر الأيونية.

وصلت حتى جزيرة أورتيجا في صقلية حيث كان هناك نبعٌ شديد النقاء مقدس لها. توقفت هناك وتوصلت إلى حيلة مع حورياتها، لعبة فتيات، نوع من الرقص والتمويه معًا. قالت: «يبلغ

عددنا الواحد والثمانين، دعونا نخفي وجوهنا بالتربة البيضاء الموجودة بالأسفل، ولنلطخ وجوهنا جيدًا، وبعد ذلك يمتزج بعضنا ببعضٍ ونبدأ بالرقص». وصل ألفيروس مدويًا إثر جريان مياهه ثم توقف، وقال: «ما هذا العرض؟ ماذا يعني؟».

لم نعرف بعد درجة الذكاء التي تتمتع بها آلهة النهر، لكن يبدو جليًّا كم أن أرتميس وفتياتها يتمتعن بدرجة أعلى من الذكاء. بقي ألفيوس في موضعه، مشتتًا، في حيرة تامة؛ ترى أين ستكون تلك الإلهة التي أحبها؟ ماذا حدث لهؤلاء الفتيات ذوات الوجوه الملطخة بالأبيض جعلهن يتأرجحن برشاقة معًا هكذا مثل سرب من قناديل البحر؟

لم يبق ألفيوس كثيرًا للتفكير بالأعلى بل استدار ووثب ومضى بعيدًا وقد اختلجته الإهانة والتهكم، بينما تعالت ضحكة هائلة متحررة من داخل أورتيجا.

تُعَد أرتميس إذن إلهة الطبيعة، البعيدة عن الأمومة، العذراء البرية الخجول. تحب الحيوانات لكنها تصطادهم. باستخدام قوسها الفضي وسهامها الدقيقة تُصيب البشر والإناث -كان أبوللو يهتم بالذكور- وتمنحهم موتًا مباغتًا لذيذًا. مع أنها لم تكن أمًّا لكنها ترسل المخاض إلى النساء الحبلى وتساعدهن في أثناء الولادة وفي أثناء تربية صغارهن أيضًا، كانت تحرس المراهقين وتتمتع بكل خصائصهم من حب التنقل والرقص والمياه الصافية العاكسة والليل والقمر.

أحبَّت الليل بحقٍّ برفقة صديقاتها وتلميذاتها وتابعاتها التي اختارتهن ليبقين بجانبها كبلاطٍ من حولها يتمتع بشباب حيوي غير ناضج. دُعيت «مُحفِّزة الشعلة»، إنها الطبيعة البدائية العذرية النقية التي يمكن أن تكون حلوة ومرحة تارة، قاسية وعنيفة تارة أخرى.

ترمز إليها الطيور المهاجرة، ربما تهاجر أيضًا بحلول الخريف، مثل شقيقها أبوللو، نحو شواطئ إيبربوراي التي لم يمسسها أحدٌ، ذلك الشعب الساكن بأقصى الشمال، حيث يمتاز البشر هناك بوجهٍ ناصع مثل ريش البجع وشعر بلون الشمس.

ذلك الموضع حيث لا مكان لشيخوخة أو موت، أو ربما لا؛ لعلها ستتخلى عن رحلتها نحو الوميض الفتَّان لتلك الأرض للأخ الإلهي، بينما ستبقى هي في غاباتها وتمضي في تقديس الحياة بالركض الليلي مع المشاعل والصيد والرقص برفقة الحوريات اللواتي يشعرن بسعادة غامرة جراء الالتفاف حولها وخدمتها.

خيمت الظلال اسم أرتميس إثر صوت التضحيات البشرية التي ارتكبت باسمها، لكن دعونا نأخذ بعين الاعتبار قصة أجاممنون وابنته إيفيجنيا الذي بدأ منها مصير عائلة أتريوس المأسوي.

أحضر سيد البشر أسطولًا من أليوس وقد نفد صبره حتى يبحر للتوِّ ناحية طروادة، ولكن لعدة أيامٍ لم تهب نسمة ريح واحدة على ذلك الساحل. أصبح البحر كنصلٍ لامع لا يتحرك، أو كلوحة ذهبية، وما إن يحل المساء سرعان ما يتخذ لون الدماء والنبيذ. بات انتظار الريح بلا جدوى، وظل الأسطول حبيسًا في ذلك السكون، وبدا أن الماء حول جسم السفينة كمعجون من الرمال والمني.

سأل أجاممنون العرافة كالكانتى التي كشفت الحقيقة أمامه. كانت أرتميس تكيل الغضب ضد سيد البشر -لا تعبأ الآلهة بألقاب ونفوذ البشر- لأنه في أثناء الصيد قتل أحد أيائلها المقدسين، لهذا السبب سكن البحر، ولن تستطيع السفن التحرك من الميناء، ولم يبق أمامه سوى نوال رضاء وغفران الإلهة بتقديم القربان. تقدم أجاممنون نحو المذبح، مفعمًا بالعزة وعواطف السلطة، وقَبل بالتضحية بابنته إيفيجنيا حتى وإن تمت التضحية ببعض المقاومة الداخلية العاطفية.

بقيت الفتاة في أرجوس، وسحبها أبوها نحو أوليس مدعيًا أنها ستتزوج هناك بأخيل. مضت الفتاة في طريقها وقد غمرت البهجة وجدانها ترافقها أمها كليتيمنيسترا. اكتُشِفت كذبة أجاممنون المروعة، واستشاط أخيل غضبًا من خسة أجاممنون التي لا مثيل لها، وامتلأت كليتيمنيسترا بالغضب وأقسمت على ذبح زوجها، وأما إيفيجنيا فبدت كما لو كانت مستسلمة للتضحية بنفسها إثر رؤية ذلك الأسطول الضخم المهيب.

أوشك الفعل المشين أن يُرتكب، ولكن في تلك اللحظة أظهرت أرتميس وجهها العطوف المحب كأي شابة، ولم تدع إيفيجنيا تُلقي مصيرها، واستبدلت بها أيلًا على المذبح، ثم حلَّقت بها، وحملتها معها نحو توريس حيث ستكون كاهنتها فيما بعد.

6

التوازن المنير

إن ميول النفس نحو توازن منير، كامل، بلاستيكي، إلى درجة يستطيع من خلالها المرء رؤيته ولمسه، يجلب نسقًا وهدوءًا إلى الوجود المتزاحم الداخلي القابع في النفس ذاتها. إنها نزعة إنسانية لا يمكن للجميع أن يغرسوها؛ فهي ترفض وتهزم الظلمة والكآبة والبربرية لا بواسطة ما هو عادل حكيم وإنما من خلال نور الجمال.

تُعَد الموسيقى والفن والشعر آلياتٍ مهمة تنتفع بها النفس حتى تصل إلى هذه الحالة السامية. إن المرء ليس في حاجة إلى أن يكون فنانًا حتى يتذوق هذه الميول، وليس في حاجة إلى أن يكون عالِمًا أيضًا يبحث عن أحدث حقائق الكون التي دائمًا ما ترتبط بفكرة وسرعة الضوء. إن تلك الحالة الفطرية في الإنسان، ذي النفس المنهكة المزدحمة التي غالبًا ما تسودها الدوافع الدنيا، تدفعه إلى الشعور بقوة منيرة يمكن أن تمنحه السلام الذي في حاجة إليه.

يُعَد الإله أبوللو هو الذي يترأس ما ذكرناه سالفًا، إنه إله شمسي في حين أن شقيقته أرتميس إلهة قمرية. يُقال إنه إلهًا يونانيًّا أكثر من أي إله آخر لأنه يجسد تلك الحاجة إلى الانسجام التي عبَّر عنها اليونانيون بصورة غير مألوفة في فنونهم وحضارتهم.

نلاحظ أن التناقض البيِّن بينه وبين ديونيسوس والخلاعة والإفراط بدأ منذ القِدم، إلى جانب بان أيضًا، إله الطبيعة البري الذي لا يحظى بسماتٍ رقيقة على الإطلاق، وأيضًا هيفستوس، الحداد القزم الأعرج الذي كان أول من سخر منه. كان معجبًا بهرمس قبل أي شيء، الذي رغم فظاظاته وبذاءته كان يتمتع بذكاءٍ حاضر بصورة واضحة.

تقاسم مع شقيقته أرتميس حب القوس والسهم اللذين أعطى من خلالهما الموت العذب للرجال بينما منحته هي النساء. لم يكن عدوًّا لأفروديت أو هيروس، بل كان يحب ويُفتَن، كان يحقق التوازن بين النور والفن، إدراك الذات والجمال.

ومع ذلك، كان لأبوللو أيضًا بعض الجوانب التي تبدو متناقضة، كرامي سهم عديم الشفقة يمكن أن يأتي بالخراب والموت، يمكن أن يكون مرعبًا في انسجامه. إنه إله يتكلم عبر صوت

العرافة النبوية الغامضة. على كل حال، لن نجد توازنًا، وإن كان ساميًا أو أبولليًّا، لا يحمل في جوانبه جزءًا مظلمًا.

خلال رحلتي إلى بحر إيجة، عزمتُ السفر إلى ديلوس لزيارة الجزيرة التي تروي الأسطورة أن أبوللو وأرتميس وُلدا على أرضها من ليتو التي حبلت من زيوس، ويبدو أن القدر أو الصدفة أرادا ألَّا تستكمل العبَّارة رحلتها بسبب عاصفة مستمرة. كانت السماء أرجوانية من ناحية الأفق، وقد ضربت رياحٌ ممطرة رصيف الميناء. رفض القبطان أن أصعد إلى العبّارة قائلًا بلغة إنجليزية فقيرة: «الطقس سيئ في ديلوس»(70). شعرتُ بالرفض من قِبل إله الانسجام بينما في قبرص كنت أتجول بحرية تامة مقتفيًا آثار أفروديت حتى إن سائق التاكسي صاح أمامي مبهوتًا وقال ساخرًا: «تبدو مشغول البال جدًّا اليوم».

70) Delos no good weather.

رفضني أبوللو المنشغل مع فينوس، وأدركتُ أنني لن أرى ما داخلي بوضوحٍ أبدًا، ولن أحظى بسلامٍ مع ذاتي على الإطلاق، لكنني سأظل أحب إلى الأبد.

أبوللو

لم يجسد أحد من آلهة الأولمب روح الإغريق مثلما فعل أبوللو. يُعَد أبوللو إلهًا منيرًا، يطوي بداخله وضوحًا قاطعًا، إرادةً آمرة، عقلانيةً ملموسة تتحد بقدرة نبوية لإيصال ملامح الإله الأعلى زيوس إلى البشر. إنه رب الوعي بالذات، والتدبير، والنظام، حيث نجد من ضمن مبادئه أن «تعرف نفسك» و«ألا تفرط في شيء». يضع على إحدى جانبيه القوس والجعبة المليئة بالسهام إلى جانب القيثارة، يستطيع القوس أن يجلب الموت إلى البشر، وهذا ما رأيناه بوضوح في الإلياذة.

لكن أبوللو لم يستخدم القوس لأغراض حربية، قطعًا لا، بل نرى جليًّا في الأنشودة الحادية والعشرين من الإلياذة في أثناء اندلاع القتال بين الآلهة انقسام وتحيز البعض إلى صفوف الإغريق والبعض الآخر إلى صفوف طروادة.

في عنفوان المعارك لجأ بوسيدون، إله البحر، مزلزل الأرض، إلى أبوللو ودعاه إلى المعركة حتى يتسنى له الدفاع -وهو الشاب الصغير الساذج الأحمق- عن سكان طروادة المتغطرسين، غافلًا عن المعاناة التي تجرعها كلاهما من جراء ازدواجية لاوميدون وعنفه.

أجابه أبوللو بعبارات لا نستطيع وصفها إلا بعبارات «أبوللونية» قائلًا:

«يصعب أن تناديني شخصًا متعقلًا بعد الآن يا مزلزل الأرض

إن قررتُ الاشتباك معك من أجل مخلوقات بائسة،

حُكم عليها بالموت،

يُزهرون الآن مفعمين بالحياة مثل أوراق الشجر،

يأكلون ثمار الحقل، حتى تخور قواهم ويسقطون جثة هامدة.

دعنا نطرح عنا تلك المعركة في الحال! وليتقاتل آخرون بدلًا منا ذات يوم».

يبدو ردًّا محكمًا بعقلانية مذهلة تصل إلى درجة التهكم ومعاداة البطولية، محكمًا بعقلانية وتقدير للواقع وصفاء النية.

تجلب القيثارة الموسيقى إلى البشر، في واقع الأمر، لم يكن أبوللو مخترع القيثارة، بل كان الرضيع هرمس عندما طفق يلعب بدرقة السلحفاة.

لم يكن أبوللو أيضًا بمنزلة حامي الأنشودة والشعر والفنون الوحيد لأن لدينا وليًّا آخر؛ ربات الإلهام، بنات زيوس ونيموسيني، فهن شقيقاته من أبيه إذن.

استخدم أبوللو القيثارة لأغراضٍ سامية تفوق الفن ذاته؛ حيث كان على قناعة أن الإيقاع والأنشودة يعدَّان شكلًا من أشكال الطاقة الحضارية التي في إمكانها ترويض وإخماد كل شيء داخلها: الفوضى والظلمة والعنف والحرب.

حتى تلد أبوللو وشقيقته أرتميس، كان على لاتونا، محبوبة زيوس، أن تجول منبوذة ومطاردة من جراء غضب هيرا الغيور، قرينة زيوس الشرعية التي تجرعت خيانته إلى الأبد.

لم تستضفها أي جزيرة من جزر إيجة خوفًا من قصاص الإلهة، لم تحتضنها سوى صخرة تطفو فوق المياه، قاحلة وغير مأهولة، وجعلت من نفسها مأوى للاتونا الهاربة. كانت جزيرة ديلوس التي ستثبت في عمق البحر بأعمدة ذهبية كمكافأة لها. عانت لاتونا إثر مخاض طالت مدته واشتدَّ ألمه، ولزم الأمر أيامًا تسعة حتى تنعتق من آلامها. لم تكن هناك سوى نخلة فقيرة واحدة في تلك الجزيرة، فمدَّت كلتا ذراعيها وشبَّكتهما بجذعها وركعت أمامها: أخيرًا رأى الإله النور بغتة، وغُسِل بالماء شديد النقاء، وغُطِّي بأحزمة ناصعة معقودةً جنبًا إلى جنب بشريط ذهبي، وتغذى على الرحيق والأمبروسيا.

سرعان ما أظهر أبوللو سلوكه الفطري البدائي؛ فكان يُنزل بقصاصه على الوحوش التي تؤذي أمه والذين بحضورهم المتهور العنيف يؤذون البشرية بأسرها ويؤلمون روحه. حاول العملاق تيتسيو ذو الجسد المشوَّه -الذي قتل أمه بسبب أبعاد جسدها البدينة وهو جنين في بطنها- اغتصاب لاتونا، لكنه دفع الثمن باهظًا؛ أطاح به أبوللو إلى العالم السفلي حيث رقد جسده على ظهره وغمره بهكتارات كاملة من تربة الجحيم مرسلًا إليه نسرًا يلتهم كبده بلا توقف.

سقط التنين بايثون صريعًا أيضًا من جرَّاء سهام أبوللو إلى جانب الأفعى دالفاين اللذين كانا يسكنان في دلفي بأحد الكهوف الكامنة بالقرب من النبع. حالما قتل أبوللو تلك المخلوقات الوحشية حتى أسَّس معبده هناك، في دلفي، وتلقَّى وحيه البالغ الأهمية.

في أحد الأيام حكم زيوس على أسكليبيوس بالموت؛ مخترع الطب والطبيب الأول في العالم الذي جرؤ على إحياء أحد البشر وقد تحدى بذلك قوة الإله الأعلى، وحرم الإله هاديس، إله العالم السفلي، من ميت كان ينتظره. هكذا ثأر أبوللو لابنه أسكليبيوس بأن هجم بسهامه النفاذة الصقاليب، الأعداء القدامى الذين بعد ذلك باتوا حلفاء وحراسًا لجسد زيوس.

مرة أخرى يصوِّب أبوللو إرادته وعمله لمحو أخطائه وآثار الماضي الفوضوي، لهذا كان عليه قضاء ثماني سنوات بمنزلة كفَّارة في خدمة الملك أدميتوس بين الرعاة في حراسة قطعانه.

تطهَّر من كل ذنوبه، وتمكَّن من الرجوع إلى دلفي مشرقًا هناك بكل نوره حتى دُعي فيبو؛ أي «الطاهر» أو «المُشرق».«

بين علاقات أبوللو العاطفية يظهر الفتيان والفتيات على حدٍّ سواء، كانت علاقات معقدة، حزينة، ذات نهاية مأساوية. تؤكد تلك العلاقات أن أبوللو، رغم نقائه، لم يفلح في أن يفكك كرة الخيط المعقدة تلك، المشرقة تارة والمظلمة تارة أخرى، الذي هو الحب، حتى بالنسبة إلى الخالدين.

أحبَّ أبوللو هياكينث، الأمير من أسبرطة، الشاب الفاتن الوسيم، المحبوب من آخرين أيضًا. كان المغني ثاموريس من بين أشد معجبيه، ويُعَد الرجل الأول في العالم الذي يمارس الجنس مع كائنات من نفس جنسه. كان ثاموريس أنيقًا، حساسًا، لطيفًا، ذا عيب وحيد فقط أنه مختال حتى إنه ظن أنه يفوق الموزيات ببراعته. ما إن علمت الموزيات بالأمر حتى أوقعن عقابهن عليه، ليس بسبب مثليته بالطبع وإنما بسبب غروره. كن قاسيات كحال سائر الآلهة فور شعورها

بالإهانة؛ فحرمن ثاموريس من الصوت والرؤية والذاكرة، حينها تمكَّن أبوللو من التمتع برفقة محبوبه هياكينث بمفرده. أصبح في إمكانه الركض والغناء والتنافس معه. في أحد الأيام كانا يحاولان معًا رمي القرص، وانتابت الغيرة أحد عشَّاق هياكينث الآخرين جراء سعادتهما. كانت الريح الغربية؛ فانحرف مسار القرص وانتهى أمره في رقبة الصبي وتركه جثة هامدة. تأثَّر أبوللو بموته وملأه الألم ثم حوَّله إلى زهرة تحمل اسمه حتى الآن.

شاب آخر أحبه أبوللو يُدعى سباريسو، قتل ذلك الشاب الأيل الخاص به من دون قصدٍ أو معرفة بين أوراق شجيرة كثيفة. مات الأيل المسكين ذو القرنين المتفرعين المذهبين الذي كان قد زيَّنه بنفسه بقلائد فضية، وعامله كما لو كان أعز رفاقه، يمتطيه من آن إلى آخر وسط الطبيعة الخضراء.

بمجرد أن أدرك خطأه الفادح المميت، انطرح سباريسو يائسًا على الأرض، وصاح يلعن جرمه، ويطلب الغفران، ويجهش بالبكاء. رفض الطعام وأي مواساة كانت؛ بات جليًّا أنه يرغب في الموت وأن يتبع مصير أيله. أظهر أبوللو وجهه الرحيم مرة أخرى؛ لم يدع سباريسو يموت بل جعل منه تلك الشجرة العالية ذات الأوراق السميكة دائمة الخُضرة، تلك الخُضرة القاتمة الكئيبة، شجرة السرو التي إلى الآن، رغم المسافة الزمنية السحيقة، تثير بوجداننا الحسرة والكآبة.

تعد دافنى أيضًا ضمن أبرز الفتيات التي أحبها أبوللو، كانت ابنة إله النهر وجايا، حورية تحيا بين قريناتها المكرسات للعذرية، وفي منأى تمامًا عن عواطف الحب، رغم ذلك، تمتعت دافنى بجمالٍ يُثير الرغبات الملتهبة الجامحة في النفوس.

حدث ذلك مع ليوكيبوس حيث يعني اسمه «ذوات الخيول البيضاء» أو «الفحل الأبيض»، كانت دافنى أعلنت رفضها القاطع عن مرافقة أي من الذكور، لذلك، وحتى يظل ليوكيبوس قريبًا منها، عزم على التنكر في هيئة فتاة؛ فترك شعره ينمو طويلًا، ويحلق خفية تلك اللحية القصيرة التي تنمو في وجهه كل صباح، ويبرز حركات أنثوية، ويُغير من صوته مضيفًا لمسة ناعمة. استمر خداعه حتى اقتراح أبوللو -المُتيَّم بدافنى أيضًا- للحوريات بالذهاب للاستحمام عاريات معًا إلى النبع. لم يجد ليوكيبوس مفرًّا سوى أن يتعرى تمامًا، وهكذا انكشف أمره، وكان مذعورًا من أن نتيجة خداعه هذا يؤدي إلى أن الحوريات يمزِّقنه إلى أشلاء. رغم ذلك، رفضت دافنى عشقيها الإلهي، وفرَّت من أبوللو، وتوارت في أعماق الغابة الكثيفة، وأجشهت بالبكاء، وتضرعت إلى

الأم جايا لترسل إليها الخلاص، وعندما أوشك أبوللو أن يمسك بها، تدخلت الأم في الحال وحوَّلت خصرها وساقيها وذراعيها إلى خشب، ولحاء، وفروع. صارت دافنى شجرة الغار وتوقف أمامها الإله في إجلال وشجن. صنع له من أوراق الغار تاجًا وضعه على رأسه، وأصبحت الغار شجرته المحبَّبة إلى قلبه إلى الأبد، لعدة قرون تاق الشعراء إلى تتويج بأوراق من شجرة أبوللو المقدسة هذه.

ثمة فتاة أخرى أحبها أبوللو تسمى كلايتي، ابنة أوقيانوس وثيتيس، تراءى أبوللو أمامها في أوج بهائه الشمسي، وعزف القيثارة من أجلها، وتغنى بحبها بعذوبة. ولكن تحركات الآلهة القلبية دائمًا ما تكون متقلبة، ولن نستطيع استثناء أبوللو في ذلك. بعد أن أحب كلايتي، أحبته المسكينة بدورها بجنون شديد، وسرعان ما انجذبت عواطفه نحو ليوكوتو، ابنة أوركامى وهورينومى، وانجرف وراءها حتى تناسى أمر كلايتي تمامًا. قررت كلايتي إنهاء حياتها بعد أن اجتاحها الإحباط واليأس والوجع؛ فلم تذُق أي مأكل، ولم تُزِح عينيها عن الشمس حيث بهاء النور الذي تراءى حبيبها للمرة الأولى. غمرته الشفقة حيالها، فلم يجد أبوللو أمامه سوى إجراء عملية تحول أخرى؛ فجعل من كلايتي زهرة كتلك الزهور التي تشبه الشمس. اتخذت بتلتها هيئة زاهية حيث تقبع مرتفعة أعلى ساق مرتفع جدًّا كما لو كان يستدعيه عبثًا خلال النهار، وسرعان ما تنحني على نفسها حالما يختفي؛ إنها زهرة عباد الشمس.

ثمة نهاية أكثر سعادة نجدها في علاقة أبوللو العاطفية مع باركا، ابنة الملك إبسيو ملك تيساليا. كانت عذراء صيادة تُشبه أرتميس في كل شيء، سكنت الغابات ودافعت عن قطعان أبيها من الوحوش البرية. عرفها أبوللو هناك، في ذلك اليوم الذي واجهت فيه أسدًا ببسالة تليق بأعظم الأبطال بلا أي أسلحة. بناءً على نصيحة القنطور تشيرون، المُعلم الموهوب بحكمة عتيقة، تزوج أبوللو باركا، وحملها بعيدًا على عربته الذهبية التي تجرها البجع، نحو سواحل إفريقيا حيث تأسست مدينة باركا التي تسمى إلى الآن باسم برقة.

أنجب منها أريستوس، الطفل الإلهي مثلما تنبَّأ تشيرون، كان أريستوس راعيًا وصيادًا عظيمًا، وهو مخترع تربية النحل وإنتاج الجبن والمعصرة ومصيدة الثعالب والدببة. يُعَد مؤسسًا للحضارة كأبيه أبوللو، ذلك الذي قدم تضحية إلى زيوس حيث نجح في أن تهب الرياح على جزر سيكلادس التي أحرقتها الشمس والحرارة والجفاف. تعلَّم هو أيضًا على يد تشيرون وتزوج بواحدة من أجمل فتيات الموزيات، أوتونوئي، ابنة قدموس، التي سينجب منها إيكتيان صاحب

القصة المأسوية التي ذكرناها سالفًا، بعد ذلك سنرى أنه أُعجب بيوريديس، زوجة أورفيوس، والمسؤولة بعد ذلك عن موته.

ليس من الصواب تحدي أبوللو؛ فهو مثل أفروديت وأثينا لن يصفح عمن يناطحه أو يزعم بحماقة أنه سيظفر به، ورد ذلك في قصة مارسياس، الساتير الذي عثر على الناي الذي ألقته أثينا. كانت أثينا قد اخترعته واستخدمته بسرور إلى أن دفعتها الضحكات الساخرة والابتسامات الغامزة لأفروديت وهيرا إلى النظر إلى نفسها على سطح المياه بينما تعزف. أدركت السبب حينها بعد أن رأت وجنتيها منتفختين، حمراوين، مشوهتين، الأمر الذي دفع خصمتيها إلى السخرية منها، ألقت بالناي في أعماق النبع ولعنت أيضًا كل مَن يحاول إخراجه من أسفل.

استخدم الساتير مارسياس ناي أثينا ونجح في إثارة إعجاب الرعاة والفلاحين والحوريات، وسرعان ما انتشر الخبر القائل بأنه حتى ناي أبوللو لن يُخرج صوتًا عذبًا كهذا. نزل الإله من أعالي الأولمب وتحدى مارسياس في سباقٍ موسيقي، وجاءت الموزيات كحكمٍ لتلك المنافسة. بدت المعزوفة الأولى التي عزفها مارسياس على القيثارة فائقة الجمال، لكن رغم جمال المعزوفة وأثرها على آذان القاضيات النزيهات الناجم عن تناغم ناي مارسياس، فإن النتيجة كانت التعادل بينهما.

أصرَّ أبوللو على طلب جولة أخرى، وبذكائه العقلاني، اقترح أن يعزف كلاهما على آلته الخاصة بعد أن يقلبها رأسًا على عقب. كان جليًّا أن القيثارة، المقلوبة، سوف تستمر في إصدار نغمات رائعة، في حين أن المسكين مارسياس كان يعزف على الناي على الجانب الآخر من الفتحة، ولم يصدر سوى صريرٍ ونفخات من دون أدنى انسجام.

فاز أبوللو، وفي هذه المرة لم تجد الرحمة سبيلًا إليه على الإطلاق؛ فسلخ مارسياس وعلَّق جلده على جذع إحدى الأشجار. تحذِّر العقلانية والانسجام والتوازن الأسمى الذين يجسدهم أبوللو كل من يحاول مجابهتهم؛ إذ تكمن الخطورة في ضياع المرء، وفقدان جسده ونفسه، والفناء كصَدفة تافهة، ليبدو أشد حقارة من خيال المآتة وأكثر وحشية من الأشباح.

7

الجموح والإفراط

أكدتُ سابقًا وجود نزعات ودوافع متناقضة تسكن في أنفسنا، نزعة تدفع نحو النظام والتوازن والجمال المتناغم تتناقض مع أخرى تدفع نحو الفوضى والتجاوز والاعتداء غير الأخلاقي الناكر لكل انسجامٍ.

إن النفس في حاجة إلى إطلاق عنانها أيضًا، إلى تجاوز نفسها، إلى سُكرٍ يتخطى كل توازن وكل سكون. لا يفلح الوضوح أو الوعي الذاتي دائمًا في مساعدة النفس في تسكين ألمها الناجم عن سكناها في جسدٍ ميتٍ، بل في بعض الأحيان تكمن رغبتها في الهروب والتخلي والنزوح بعيدًا. تكمن رغبتها أيضًا في عدم السماح لأحدٍ أن يحبسها في أي قفص كان حتى وإن كان قفص النوع؛ ذكرًا أو أنثى. تسعى دائمًا إلى التحليق والتجاوز وفعل اللا شيء وترك جسدها هناك كخرقة بالية أو منحه دفعة تفوق قوة البشر.

يكمن سبب انتشار المخدرات الهائل في الغرب في تلك النزعات التي إن لم يحسن المرء توجيهها سرعان ما تدمر ذاته وتهلكها. في العقود الأخيرة من القرن الماضي لم نستطع حصر أعداد الذين لقوا مصرعهم من جراء تعاطي المخدرات. كنت على علاقة بأحدهم، كانوا تعساء، أبرياء، يشعرون بعطش إلى شيء لم يفلحوا في العثور عليه من حولهم. ثمة مصداقية كانت تسكن بداخلهم. بالنسبة إليَّ كان يكفي اختبار حمض الليسرجيك مرة واحدة لأختبر تأثير المخدرات الفعَّال ليس في الهروب من الذات أو عتق المحرمات أو لكشف الغرائز المكبوتة فحسب وإنما للاندفاع والسفر إلى عوالم من الأضواء المتصنعة عبر مِشكال(71)، كما لو كانت أضواء قبل الولادة وأكثر وضوحًا من الأحلام، تختلف عن ضوء الشمس وعن ذلك الضوء الذي يجلب الحياة.

(71) أنبوب يحتوي على مرآة وخرز ملون وحصى حر، وغيرها من الأشياء الملونة الصغيرة حيث ينظر المشاهد من أحد طرفيه ويدخل الضوء من الطرف الآخر، منعكسًا من المرآة.

كل ذلك يجسده اسمٌ؛ ديونيسوس الذي وفقًا لما قاله نيتشه يعد مناهضًا لأبوللو. إن ذلك التناقض الكامن داخل أنفسنا ربما يصبح عنيفًا في أي لحظة. يحفز ديونيسوس المرء نحو الثمالة والعدوان وإلهاء العقل عما يكون عليه، وما كان عليه، وما يريد أن يكونه. إنه مزعج

جراء قوته الساحرة؛ لديه بعض السمات الأنثوية وترعرع وسط النساء اللواتي وجد فيهن تابعاته المتعاليات وأسس عبادة غامضة تحكمها العربدة ونشوة الاتحاد بكل شيء.

ثمة محاكاة ساخرة للإله القديم تتمثَّل في انتشار الإكستاسي(72) في الحفلات الماجنة، مذهب للمتعة البائسة اليائسة. في حين أننا نجد، بلا شكٍّ، خطًّا ديونيسيًّا حاضرًا بصورة أكبر في بعض موسيقى الروك وفي الطريقة التي تُعرض بها في الحفلات الموسيقية الكبيرة. يعد فاسكو روسّي في إيطاليا بمنزلة نجم الروك الوحيد السائر على الدروب الديونيسية إلى جانب زوكيرو اللذين يعارضان جوفانتّي السائر على الدروب الأبوللونية(73).

72) منشطات لها تأثير نفسي وتُدعى أيضًا بحبوب السعادة.
73) نسبةً إلى أبوللو.

إن ديونيسوس المدعو باكّو في الحضارة الرومانية يمثِّل إله الخمر، ويتوّج بفروع الكروم وعناقيد العنب، ويترنَّح تحت وطأة الثمالة الشديدة، يمثِّل الخمر مصدرًا لمواساة العامل، وإلهام الفنان، وهلاك المدمن. يقولون في الغرب إن كأس الخمر الأولى للعطش والثانية للمتعة والثالثة للبهجة؛ إذن فالخمر أيضًا أبوللوني ولكن حتى هذه الدرجة فحسب، حيث بعد ذلك لدينا الكأس الرابعة التي يراها المتصوفة بمنزلة كأس الجنون. هناك، في جوانب الجنون، حيث تُولد الإثارة، يصبح الخمر صورة من صور الهروب والخلاص. تحدث بودلير عن الخمر في كتابه سأم باريس، في جزء فلتتثملوا، في دعوته القاطعة حيث يقول: «علينا أن نكون سكارى دائمًا، هذا كل شيء؛ إنه القضية الوحيدة، حتى لا تشعروا بوطأة الوقت الرهيبة التي تكسر كتفيكم وتدعكم تنطرحون أرضًا، يجب أن تثملوا بلا هوادة»، أن نكرس حياتنا إلى ديونيسوس.

ديونيسوس

يظهر ديونيسوس كإله الأسرار والخمر والثمالة والجنون والتحول، الإله الذكر الذي يمتزج بجانبٍ أنثوي. تبدو قصة ديونيسوس، على نقيض قصص الآلهة الأخرى، طويلة ومعقدة ومليئة بالمغامرات وتصطبغ بعدة شعائر حقيقية من خلال تقدمة القرابين الطقسية والمجون الذي لا يحده شيء، ماضية في طريقها نحو نور ومجد الدين الأولمبي.

شاب الغموض ولادته أيضًا؛ حيث لدينا قصتان مختلفتان لذلك الحدث،

الرواية الأولى تذكر لنا ديميتر، إلهة النبات والفلاحة التي قَدِمت من كريت وأخفت ابنتها بيرسيفون في كهفٍ مظلمٍ، عميقٍ، في صقلية، يحرسه الثعبانان اللذان كانا يقودان عربتها.

وقع زيوس، الذي لا يهرب شيءٌ من أمام عينيه، في غرام بيرسيفون، ووصل إليها متخذًا صورة ثعبان، وعلى نقيض طريقته التي اتبعها دائمًا في ملاحقة وخطف النساء اللواتي يسعى إليهن، نجح في أن يحظى ببيرسيفون في محضر كهف الطحلب بمباركة أمها ديميتر، وأنجبا ديونيسوس من اتحادهما؛ طفلًا ذا قرنين وشعر ثعبان.

حفّزت غيرة هيرا التيتان ضد الطفل الإلهي. بوجوهٍ مُلطَّخة بالأبيض حتى بدوا كرسلٍ أو أرواح الموت، فاجأ التيتان الصغير ديونيسوس الذي يلهو بألعابه المفضَّلة؛ النرد والكرة والبلبل والتفاح الذهبي. كان التيتان مخلوقات وحشية لا يعرفون إلى ضبط النفس أو إلى الشفقة سبيلًا، قتلوا الطفل وقطعوه سبعة أجزاء ثم ألقوا به في قدرٍ من الماء المغلي، بعد ذلك ذهبوا لشواء أعضائه على الأسياخ.

باغت زيوس التيتان بعد أن انجذب ناحية الدخان والرائحة المنبعثة من المأدبة الكريهة التي تُعَد، وضربهم بصاعقه إلى أعمق مكان وأكثرهم ظلمةً في تارتاروس، بعد ذلك، أودع أعضاء ديونيسوس لدى أبوللو، إله التوازن المنير، الذي دفنهم في جبل بارناسو.

يتجلَّى ديونيسوس هنا كطفلٍ إلهي أصبح جسده ذبيحة لإعادة النظام في العالم؛ ذلك الموضوع الذي يحضر بقوة في العديد من الأديان، ولا أستبعد المسيحية في ذلك، حيث قد حملته إلى آفاق روحية سامية لم يتطرق إليها أحد من قبل.

ثمة رواية ثانية لميلاد ديونيسوس تحتوي أيضًا على أحداث ظلامية ذات طابعٍ مأسوي.

كانت سيميلى، ابنة قدموس ملك ثيفا، إحدى محبوبات زيوس وحبلت منه، اعتادت رؤيته في الخفاء متخذًا هيئة عابري السبيل تمامًا كعادة زيوس المفضلة في الظهور أمام البشر. لكن في حالة سيميلى نرى أن شقيقاتها الغيورات أثرن الشكوك في داخلها بشأن هوية سيد الآلهة الذي اعتاد المجيء لرؤيتها في كل مرة.

لذلك، في أحد الأيام، عزمت سيميلى على التيقُّن من طبيعة عشيقها الإلهية فتحدثته قائلة: «إن كنت أنت زيوس بحقٍّ، تجلّ أمامي الآن في مجدك كسيد الأولمب كافةً». لبَّى زيوس طلبتها؛

فتراءى أمامها على عربته الذهبية، وكعلامة على قوته السماوية ضرب بيده اليمنى صاعقًا أصاب سيميلى وحوَّلها إلى رمادٍ في الحال.

يُحكى أن من ذلك الرماد الرصاصي المنثور على الأرض وهو كل ما تبقى من جسد سيميلى الحبلى في ديونيسوس، وُلدت الكرمة الأولى في العالم كما لو كانت إثر إخصاب سحري.

أنقذ زيوس الجنين ديونيسوس الذي أكمل فترة نموه في فخذ أبيه الذي خبَّأه وخيط مكان الشق بمساعدة الدؤوب هيفستوس المعتادة. عندما رأى ديونيسوس النور بعد أن خرج من فخذ أبيه، تم إيداعه إلى هرمس الذي حمله إلى الملك أثاماس وزوجته إناريتي حتى يرعياه في مأمن بعيدًا عن غضب هيرا الطفولي الغيور.

مرة أخرى تندلع ثورة هيرا وتدفع أثاماس إلى الجنون؛ فيقتل الابن البكر زاعمًا كونه أيلًا، وأيضًا إناريتي تُلقي بالابن الأصغر في الماء المغلي ثم تنزل به في البحر لترديه قتيلًا بين ذراعيها.

أنقذ زيوس ديونيسوس مرة أخرى وقد حوَّله إلى ماعز صغير وأودعه تحت رعاية حوريات جبل نيسا في إليكونا. ترعرع هناك ديونيسوس وسط الصبايا، وتغذى على العسل وسط رقصات الحوريات والساتير وأغانيهم العاطفية. أصبح شابًّا مجعد الشعر، ذا ابتسامة زاهية وغامضة أيضًا، وجسدٍ ممشوقٍ متخنث يمشي متبخترًا ويرتدي رداءً طويلًا أرجواني اللون. هناك، في أعالي منحدرات إليكونا المغطاة بالكروم اليافعة وجذوع العنب والعناقيد، اكتشف ديونيسوس كيف يمكنه الحصول على النبيذ، مصدر المتعة والبهجة والنسيان والجنون.

تعلَّم ديونيسوس على يد سيلينوس المعلم العجوز المترنح من جراء مشروباته غير المألوفة، ذي البطن البارز والمتدلي وصدر أشبه بصدور النساء، ويتشح برداءٍ طويلًا يصل إلى قدميه، ويضع تاجًا على رأسه مُعد من أوراق الغار واللبلاب.

نرى أن ديونيسوس تربَّى في بيئة هيمنت عليها الثمالة والأنوثة حتى إن البعض أطلق عليه: «زيوس النساء».

أما عن النساء اللواتي كنَّ يوقرنه إلى حد العبادة، اتحدن معًا مزدريات أي رفقة أخرى، ولا سيما الذكورية منها، وتركن أنفسهن حتى غُمرت خلايا عقولهن وأجسادهن بنشوة جامحة تحوي داخلها الجنون والحب والشهوة والغضب. دعيت تلك الجماعة بـ مينادي، ماياناديس،

مشتقة من كلمة «مانيا» أي الجنون، العاطفة، كما تدعى أيضًا باكانتى، باكهاي، من كلمة باكو، أحد ألقاب ديونيسوس ويعني «المُزهر».

تميزت تلك الجماعة بارتداء الأردية الطويلة، وبركضهم وهم يرمون رؤوسهم وشعرهم الأشعث إلى الوراء، وبتيجان اللبلاب التي يضعونها على رؤوسهم، وبالعصا التي يلوحون بها في أيديهم وكانت عبارة عن عصي طويلة تشبه الرمح يوضع في قمتها مخروط من الصنوبر. كن يركضن معًا ولكن متفرقات، ممسوسات، مأخوذات بثورة عمياء بمقدورها أن تطيح بأي شيء وتسحقه وتقتله.

عندما علمت هيرا أن الشاب ديونيسوس هو ابن زيوس، صبَّت عليه لعنتها وجعلته يفقد رشده. هكذا ترك ديونيسوس سكون إليكونا وكرمها، وأخذ يجوب العالم برفقة بلاطه من الحوريات والساتير والفاونى. تبعه صامدًا أيضًا سيلينوس المخلص ذو الجسم البدين المترنح سيرًا على الأقدام أو على ظهر الحمار ومن خلفه عشيقات بوكانتى الوفيات.

سافر إلى مصر وسوريا، وعبر نهر الفرات راميًا من ضفة إلى أخرى جسرًا من اللبلاب والكرم، ثم انطلق إلى الهند حاملًا في جعبته أينما ذهب نعمة النبيذ. في البدء تحالف مع الأمازونيات اللواتي لم يشعر بجانبهن بأي اختلاف، لكن بعد ذلك، حاربهن وظفر بهن. اشتبك أيضًا مع ملك دمشق وملك تراقيا، ثم استدار بخطواته ناحية الغرب عائدًا إلى اليونان ووصل إلى بيوسيا حتى توقف في ثيفا.

سرعان ما بدأ وجوده برفقة بلاطه يثير القلق والغموض والفوضى. عبثًا حاول الملك بنثيوس تقييد ديونيسوس برفقة تابعيه من النساء الجامحات، إلا أن عقله لم يهدأ حتى ربط ثورًا بالأغلال وكما لو أن سيد الخمر في إمكانه الاعتماد على قوة السُّكر حتى الجنون لأي أحد يقف في طريقه صديقًا كان أم عدوًّا.

أُصيبت جماعة بكانتى بالجنون؛ فقطَّعوا كل عجول القطعان الملكية أو تلك الخاصة بالمربين البسطاء في ثيفا وفي الحقول المجاورة. لم يستفد الملك بينثوس من الدرس الذي تلقنه منذ قليل؛ فخرج بصحبة رجاله المسلحين حتى يحاولوا إيقافهن، لكن كان من المستحيل كبح جماح تلك الثورة التي تفوق قدرة البشر، حيث ازداد جموح البكانتى من جراء تدفق الخمر والدماء في أجسادهن، فاقتلعوا الشجرة التي لجأ بينثوس إلى الاحتماء بها، وأحاطوه، وهاجموه بلا أسلحة تُذكر، وأسرعوا بعضِّ رقبته، ومزقوا صدره وقطعوا ذراعيه وساقيه إلى أشلاء.

كانت أغوئي؛ امرأة بفمٍ يقطر منه اللعاب وحدقتين مستديرتين، أم بينثوس، هي من تقودهن. اختلط عليها الأمر ورأت بينثوس أسدًا؛ فلم تعبأ بتوسلات أو تضرعات، بل إنها قطعت رأس ابنها في لحظةٍ من الهياج الذي لم يفلح أحدٌ في كبح جماحه، وثبتته كغنيمة على طرف العصا. أعطى ذلك المشهد علامة مؤكدة للنهاية التي تجلبها حالة الهياج الأعمى، الذي يُجلب العمى، لتابعات ديونيسوس.

بلغت مغامرات ديونيسوس البحر أيضًا. ذات يوم، رأوه قراصنة تيريني من سفينتهم يقف على الشاطئ. بدا شابًّا وسيمًا مجعد الشعر يرتدي عباءة أرجوانية فاخرة. عرجوا باتجاهه مدَّعين أنهم يريدون استئجار سفينته للوصول إلى جزيرة ناكسوس، لكن نواياهم كانت مغايرة تمامًا. زعموا أنه أميرٌ، وأنهم في إمكانهم طلب فدية باهظة من أبيه أكثر بكثير من المبلغ المتفق عليه لاستئجار السفينة.

أمسكوا بالشاب واحتجزوه بتقييده في صاري السفينة. لم تبرح البسمة شفتيه كما لو أن تلك الحبال شيء لا يُذكر بالنسبة إليه. رفع عينيه قليلًا بحركة بطيئة مائلة فأخرج كرمةً بجذوع وعناقيد حول صاري السفينة حيث كان مقيدًا. صاح قائد الدفة الذي فهم أعجوبة ما حدث، وقال: «إنه إله، دعونا نحرره في الحال!» لكن قبطان السفينة، رجل جشع أعمى، لم ينصت إلى صوت العقل ولم يفكر إلا في المال الذي سيجنيه من الفدية.

سرعان ما التفَّت السفينة بفروع اللبلاب المتسلقة كشباك العنكبوت وجذوع الكروم، وتحولت المجاديف إلى ثعابين. أظهر ديونيسوس دبًّا شرسًا يقف في منتصف طاقم البحارة المبهوتين، ثم جعل من نفسه أسدًا ليتسنى له القفز وغرس مخالبه في القبطان حتى يسقطه قتيلًا.

أما البحارة الذين ألقوا بأنفسهم بين الأمواج بحثًا عن النجاة، فلقد جعلهم ديونيسوس دلافين، ومنذ ذلك الحين صارت مخلوقات سلمية رقيقة تجاه الناجين؛ لم ينقذ ديونيسوس أحدًا سوى قائد الدفة الذي يقال إنه يدعى إيكاريوس.

على جزيرة ناكسوس، احتفل ديونيسوس بزفافه المترف على أريادني، ابنة مينوس وباسيفاي، وشقيقة فايدراى.

نجد مغامرات ديونيسوس أيضًا في حياة ملك مقدونية المرموق ميداس، ابن إحدى الآلهة والساتير. كان يمتلك حدائق رائعة ذاع صيتها بسبب وردها ذي الستين بتلات ورائحتها العطرة

أكثر من أي وردة أخرى.

ذات مرة، كان سيلينوس الطيب المتخم بالنبيذ قد سقط فريسة مرة أخرى لسُكره المستمر، وضل طريقه منهكًا مترنحًا بإحدى حدائق الملك ميداس؛ استقبله الملك بحفاوةٍ وأرجعه إلى موكب ديونيسوس الحيوي.

امتنَّ الإله كثيرًا للمعاملة التي حظي بها معلمه العجوز، وطلب من الملك ميداس أن يتمنى أي أمنية وما عليه سوى تحقيقها له.

كان ميداس يعاني من الضعف والعمى، وطلب منه أن يحوِّل كل ما تلمسه أيديه إلى ذهب. بعد ذلك، أدرك حجم الخطأ الرهيب الذي يرتكبه ما إن يداعب وردة أو يُمسك بثمرة من على المائدة أو يمسك بذراع خادمته. في الحال لحق بديونيسوس وتوسل إليه أن يحرمه من تلك العطية المشينة. دعاه ديونيسوس إلى الاغتسال وتطهير يديه في مياه نهر باكتولوس، يقولون إنه منذ ذلك الحين عُثِّر على شذرات ذهبية كبيرة في قاع النهر.

بمجرد ما ذاع صيت عبادته وعجائبه في جميع أنحاء العالم، إلى جانب تطهره من كل آثار الماضي المشينة، استُقبِل ديونيسوس أخيرًا في الأولمب حيث جلس ضمن آلهة الأولمب الكبار الاثني عشر.

حافظت عبادة ديونيسوس -خرج من أحد أضلعها التمثيل المسرحي في اليونان- على مظهر ابتدائي جامح يعزز معرفة الأسرار وقوة الروح الإبداعية.

عندما انتقل من اليونان إلى روما، أصبح محل شكوك من جانب السلطة، تمامًا كما يتضح في قرار مجلس شيوخ باكا ناليبوس في عام 186 قبل الميلاد، حيث ذكر أنه اعتُقِل وقُتِل قرابة سبعة آلاف شخصٍ من أتباع باكو، منذ ذلك الحين ظلَّت مراسم العبادة تتم تحت رقابة سلطة الدولة.

استشعر الرومان، وهم أكثر من يعرف معنى السلطة والقوانين، أن الروح الديونيسوسية تقوِّض أسس النظام الذي وضعوه، والذي من خلاله كانوا يستعدون ليكونوا سادة العالم.

حقًّا هذا ما فعله ديونيسوس عزيزتي القارئة وعزيزي القارئ، بل ويستمر في فعله حتى يومنا هذا وقد أظهر إلى المخلوقات البشرية أبعادًا أخرى من الوجود حيث تكمن المعرفة والنشوة والمتعة والجنون الإبداعي.

والخمر بالطبع؛ حيث ينشد بنفسه داخل الزجاجة حتى الآن كما في أبيات بودلير، أنشودة ثملة بالحرية كما في قصيدة روح الخمر:

يا صاح، وأنت يا عزيزي المحروم من الميراث، أبعث إليك أنت فحسب
من داخل سجني الزجاجي ذي الشمع القرمزي
أنشودةً تفيضُ بالنور والمساواة.

8

المشاجرات والاشتباكات والمعارك

إحدى أهم النزعات الشائعة ضمن الحركات البشرية، هذه التي تدفع المرء نحو النزاع والعنف والرغبة في الخلاف واختبار قوته على حساب قوة الآخرين.

يتجلى ذلك بوضوحٍ في الحياة اليومية منذ الطفولة. منذ الطفولة، كنت أرى في حياتي اليومية عصابات منظمة ومسلحة بالحجارة والمقاليع وبنادق النفخ في أحياء المدن. ظهر قادتهم، وأتذكر إلى الآن اسم أحدهم كان كافيًا لبث الذعر في داخلي: فيرّوتشو، زعيم عصابة الحي الأشد فقرًا، وقد ذاعت شهرته بكونه أحد القساة الجبابرة. بعد ذلك، في فترة بلوغي، أيقنتُ بالدليل الدامغ وجود تلك النزعات التي تدفع النفس نحو الشجار منذ أن رأيتُ أولئك الصبيان المشاكسين المستعدين للصياح والشجار من أجل لا شيء. عندما ترتفع تلك الحركة البشرية من المستوى الفردي إلى الآخر المجتمعي، التاريخي، نجد أنفسنا أمام عدوانية شرسة تنتمي إلى بلد بأكملها أو نظام حكم، ونزعة نحو شنِّ الحروب العدوانية وخوض أعنف المعارك بشراسةٍ واشتياق إلى ارتكاب المجازر، وسط كل هذا تتجلى لنا روح آريس الشيطانية.

لم يحبه زيوس، كما لم يحبه أتباع أثينا الذين يفضلون التوسع عبر البحر بسفنهم بدلًا من احتلال أراض جديدة عسكريًّا. هكذا، اتجه زيوس إلى آريس كما ورد في الكتاب الخامس من الإلياذة ليعلن احتجاجه من جراء الضربة التي تلقَّاها من حربة ديوميديس التي وُجهت أسفل بطنه من أثينا:

ستظل بالنسبة إليَّ أكثر الآلهة كراهية من بين كل ساكني الأولمب

لا يهتم عقلك إلا بالمشاجرات والاشتباكات والمعارك.

لم تكن الحرب من أجل الحرب فكرة صائبة بالنسبة إلى سيد الآلهة. أما عن الإلهة التي تجسد الحرب العادلة فلدينا أثينا، العدو اللدود لآريس التي تحظى بحكمة حية وبحنكة التخطيط. لكن دعونا نتساءل؛ هل يوجد أحدٌ في الغرب الآن على استعداد أن يزعم بوجود ما يسمى بالحرب العادلة؟

آريس

ابن الإلهة هيرا العظيمة ذات الذراعين البيضاوين. لم يحظَ آريس بسيرة حسنة بين آلهة الأولمب، بل كان يُنظر إليه على أنه متعجرف، مشاكس، دموي، ذلك النوع الذي يبحث دائمًا عن أي دافعٍ يمكنه أن يتشاجر ويقاتل من أجله.

كان عملاقًا يبلغ طوله سبعمائة قدمًا، وتبلغ قوة صرخته المرعبة قوة عشرة آلاف جندي مجتمعين، ومن ثَمَّ فهو يُعَد أشد بأسًا من ستنتورى؛ ذلك المحارب الشهير الذي تبلغ قوة صوته قوة خمسين رجلًا مجتمعين فقط.

كان متطفلًا، طائشًا، ذا قضيب دائم الانتصاب وربما كان هذا ما دفع أفروديت للإعجاب به. اختارته ربة الحب الجسدي والجمال عشيقًا لها؛ فكانت الوحيدة التي تستقبله وتبقى بالقرب منه. لم يحظ إلا بصديقٍ وحيدٍ من بين جميع آلهة الأولمب؛ هاديس، سيد العالم السفلي. ربما يكمن امتنان هاديس نحوه لأن بفضله كل البشر يلقون مصرعهم في المعارك ويسقطون كأشباحٍ تحت سلطته.

بعد عدم الترحيب الذي لاقاه آريس في الأولمب، آثر السكنى في تراقيا، وكانت أرضًا برية قاحلة حيث لن يلقى بها سوى عبادة واحدة: الحرب. كانت شقيقته إريس، ربة الفتنة التي تسبب الخصومات بأقاويلها الكاذبة والتشهير وإثارة الغيرة، كان أبناؤه ديموس، إله الرهبة، وفوبوس، إله الخوف، وقد أنجبهما من أفروديت.

علمنا من قبل القصة المأسوية للعشيقين المسجونين في الفراش من جراء خيانة هيفستوس، الزوج الشرعي للإلهة. هل توجد علاقة إذن بين طاقة النار التي تسبب القتال وتلك التي تؤدي إلى الحب؟ وما ماهيتها؟ إن العلاقة بين آريس وأفروديت -المتقدة، الفاحشة، غير الشرعية- يجب أن تدفعنا إلى التأمل في الجوهر المظلم لتلك العاطفة الغرامية، وفي سحر الحرب المرعب الذي يصعُب إنكاره.

إبان حرب الإغريق ضد طروادة، وافق آريس أولًا أمام أثينا أن يقف على الحياد وترك لزيوس منح النصرة إلى أي من الطرفين، لكن سرعان ما انحاز إلى صفوف طروادة للدفاع عن أفروديت، الحامية اليقظة للابن إينياس، من بطش ديوميديس الجامح.

آريس، آريس، المخرب المُهلك المتعطش إلى الدماء»؛ بهذه الصفات المشينة تذكره أثينا» ومن بعدها أبوللو، وهما الإلهان اللذان يمتازان عنه في كل شيء، لم يرياه سوى شيطان لا

يستحق سكنى الأولمب.

من المؤكد أنه كان لا يزال صبيًّا عندما تداخلت قصته مع قصة التوأمين أوتيس وإفيالتس: الوعداء(74)، ابنيْ ألويوس وإفيدميديا. في الحقيقة كانت تلك الأخيرة مغرمة بجنون ببوسايدن، وفي كل صباح، تتغافل عن المهام المنزلية، وتخرج وتذهب إلى شاطئ البحر، وتتأمل حركة الأمواج، وتُصغي إلى صوت تلاطمها، وترى عيني الإله المحبوب وشعره في كل رذاذ الزَبَد، وفي كل سحابة من المياه المالحة.

74) يُقصد بهما العملاقين القويين العدوانيين أوتيس وإفيالتس.

مكثت هناك بضع ساعات، وتسللت إلى عمق البحر حتى تغطَّت ركبتاها، ثم انحنت بيدين مقعرتين لتأخذ من الماء المالح، الصابح، وتنثره عليها عدة مرات بجنونٍ، على صدرها وبطنها، كما لو أنها تستقبل مني بوسيدون. عندما أنجبت التوأمين، لم يكن مؤكدًا إن كان ألويوس هو أبوهما أم إله البحر.

كان أوتيس وإفيالتس ينميان بمقدار تسعة أشبار شهريًّا، وسرعان ما أصبحا عملاقين حتى خلال فترة صباهما. لم يكفَّا عن إخبار الجميع برغبتهما في تسلق الأولمب ذات يوم، والاستقرار على قمة أحد الجبال، وبناء درج يصل إلى قمة السماء.

هل الإيقاع بآريس بات لعبةً يلهو بها الأطفال؟ لم نعرف شيئًا أكثر من أن آريس أسره التوأمان الوعداء اللذان احتجزاه في زجاجة برونزية حيث يقبع لمدة ثلاثة عشر شهرًا. صار شاحب الوجه، هزيلًا، في حالة مزرية للغاية، وقد أوشك على الموت لولا وصول هرمس الذي جاء ليحرره. أما التوأمان الوعداء، فبعد أن أعلنا نواياهما العدائية حيال زيوس إلى الرياح الأربعة، قتلهما زيوس وهما لا يزالان في صباهما.

كان بريابس معلمًا لآريس، وبدا الأمر لا يُصدق. علّمه الإله ذو القضيب العملاق الرقص أولًا ثم القتال، ويبدو جليًّا أن الانتصاب المستأسد الذي يظهر به آريس يرجع إلى بريابس.

إذا ما اشتبكت الآلهة، المفعمة بالغضب والعدوانية، أعلى الأولمب، فمنطقيًّا نجد آريس (ثاقب الدروع) هو الذي يستهل طريق العدوانية. جَهِز على أثينا برمحه البرونزي الطويل، ولاحقها من دون أن يتوقف عن الصراخ والسباب والازدراء بها وينعتها بـ«الذبابة الصفيقة»، ووبخها لتحريضها ديوميديس ضده، ارتاب بلا شكٍّ في أن الإلهة هي مَن أرشدت رمح البطل كي يفتك به.

سرعان ما انكسر رمحه أمام درع أثينا حيث كانت تراوغه بذكاءٍ. بعد ذلك، كما ورد في الأنشودة الحادية والعشرين من الإلياذة، انحنت لتلتقط حجرًا كبيرًا وضربته في رقبته حتى ترنح وتهاوى على الأرض، فسخرت منه تقول:

أيها الأحمق، إلى الآن وأنت لم تفهم إلى أي حدٍّ

يمكن أن أكون أقوى منك،

وأنك لن تجرؤ على مواجهة اندفاعي؟

من المدهش رؤية إلى أي مدى تفوقت أثينا على آريس، وحجم ثقتها بالاشتباك معه، والازدراء الذي أظهرته بحديثها إليه. هل نستطيع القول إذن إن المعرفة الملموسة الإستراتيجية تفوق قوة العنفوان الطائش المتغطرس؟

كانت أثينا تحمل داخلها أيضًا بعضًا من ذلك حيال أفروديت، عدوتها اللدود، التي أتت لمساعدة عشيقها ونصحه. بتحريض من هيرا، ولكن لا أحد يستطيع أن يؤكد أنها لم تفعل ذلك بمحض إرادتها، أصابت أثينا أفروديت أيضًا، الفاتنة العاجزة كعادتها، ودفعتها وهي تضرب بيدها القوية على صدرها، وترنحت الإلهة على ركبتيها وفي نفسها.

بقدر ما كان آريس وحشيًّا ومحتقرًا للشرائع، كان أول من يخضع لمحاكمة بتهمة القتل العمد. وفقًا للاتهام، في تلك المحكمة الإلهية، كان آريس مذنبًا بقتل هاليروسيوس، ابن بوسيدون. دافع آريس عن نفسه مؤكدًا أنه فعل فعلته للدفاع عن ابنته ألسيبى بعد أن حاول هاليروسيوس الاعتداء عليها. شهدت ألسيبى في صالحه ولم يكن هناك أي شهود آخرين، أُعلِنت براءة آريس، وكان ذلك بمنزلة الحكم الأول في محاكمة قتل، ولتخليد ذلك الحدث سُمِّيت الصخرة البارزة التي انعقدت فوقها المحاكمة باسم أريوباغوس وذلك على الرغم من أن الغالبية ليست على قناعة بأن اسم المحكمة العليا الآثينية مشتق من اسم آريس.

أما الرومان فلقد حل عندهم الإله مارس بدلًا من آريس، وكان إلهًا ذا أهمية بالغة في معبد البانثيون الخاص بهم. كان مارس في الأصل يجسد إله الحقول والنباتات الربيعية ولكن بعد ذلك بدأ يُمثل الحرب خاصة مع ظهور روما كقوة عسكرية شيئًا فشيئًا.

مارس، أو المريخ كما يسمى، الذي سُمي الشهر الذي بدأت فيه الحملات الحربية على اسمه، كان أبا رومولوس ورموس؛ أي أنه سلف السلالة الرومانية، فلم يكن شيطانًا متعطشًا إلى الدماء

وإنما إلهًا ساميًا التفَّ الكثيرون لعبادته المتجددة حتى إن الملك أغسطس شيَّد معبد مارس ألتور، أي «مارس المنتقم» احتفالًا بانتصاراته على قاتلي قيصر.

يمكن القول إن مارس أصبح في روما راعيًا لسياسة القوة وحروب التوسع وتأسيس الإمبراطورية الرومانية ذاتها. ومن هذا المنطلق قدمت جماعة المحافظين الجدد الأمريكية نفسها على أنهم «أبناء مارس»، تاركين لنا، نحن الأوربيين، الهَزل والانحدار جراء بنوّتنا لفينوس.

9

مجابهة عالم الأموات

تنجذب النفس البشرية دائمًا إلى الموت. عزيزتي القارئة، عزيزي القارئ، لا شك أن جميعنا على علمٍ بما يسكن في أعماق ذواتنا من انجذاب طاغ نحو ما يخيفنا أو يتعارض معنا أو يسحبنا إلى دوامة الغموض الهائلة.

إنه انجذابٌ غامضٌ وغير مألوفٍ. تعد النفس نسمة حية، في حركة وبحث مستمرين عن النور. على هذا النحو، عليها الهروب الدائم من السُبات المُظلم الذي للموت. إلى جانب ذلك تدرك النفس أيضًا أنها مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بذلك الجسد؛ جسد مكون من الدماء واللحم والأعصاب والعظام، وتعرف جيدًا أن الموت هو صاحب السيادة على كل ذلك. سوف يوارى الجثمان الثرى أو ربما يتم حرقه ولن يبقى سوى الهيكل العظمي أو بعض الرماد، وتمضي النفس في رحلتها من دون الجسد.

هل ستشعر بحرية فور انعتاقها من ثوبها الجسدي الذي يبدو سجنًا كئيبًا في رأي كثيرين؟ أم ستشعر باشتياقٍ عميقٍ ومؤلمٍ إلى جوهر الإنسان الذي كانت تسكنه؟ تصبح جاذبية الموت، المتأصل بين جميع المخلوقات الحية وليس البشر فحسب، تحديًا للموت ذاته؛ حيث نجد ذلك الدافع الأساسي الذي يحثنا على سبر أغواره ومحاربته وإنكار أن مملكته لا يمكن اختراقها لمن هم على قيد الحياة. إذا قيل إن الموت هو رحلة بلا عودة، فإن مهمتنا الآن تتلخص في إنكاره، في الذهاب إلى زيارة مملكته، العالم السفلي، والعودة بين الأحياء.

تروي لنا الأسطورة عن أبطال نجحوا في زيارة الجحيم. أخذ هوميروس، في الكتاب السادس من الأوديسة، بطله إلى بلدة الكيميريون التي تملؤها الغيوم والضباب، ومنها إلى بوابات هاديس حيث العالم السفلي. يروي فيرجيل أيضًا في الأنشودة السادسة من قصيدته نزول إينياس، المنهزم في طروادة، إلى العالم السفلي بحثًا عن وطن جديد. عندما طلب من العرَّافة كومانا أن تهيئ رحلته، رسمت إينياس شجرة عائلة للأبطال المنحدرين إلى هاديس فنجد منهم: ثيسيوس وبيريتوس وهرقل أيضًا، لكن على رأس الجميع لدينا أورفيوس الذي انحدر لإعادة زوجته المحبوبة إلى الحياة.

زار أوديسيوس وإينياس الجحيم طلبًا للنصح والنبوءات؛ فاتجه أوديسيوس إلى تيريسياس واتجهت إينياس إلى الأب أنخيسيس. أما ثيسيوس وبيريتوس فلقد انحدرا إلى هناك ليختطفا بيرسيفون ويعيداها من الجحيم إلى الأرض، وهبط هرقل إلى هناك ليتم أحد أخطر مهامه؛ سيقبض على تيريسياس الكلب ذي الرؤوس الثلاثة.

وحده أورفيوس مَن شرع في رحلته بدافع الحب، وحده مَن جابه الحب والغناء والجمال حتى الموت، لهذا السبب، وبينما كانت الرحلة إلى الجحيم حلقة واحدة فقط في مغامرات الأبطال الآخرين، فإننا نرى أن المغامرة لدى أورفيوس هي التي حملته نحو الخلود وجعلته الرمز الرئيس في تحدي الموت المتجذر في نفس الإنسان، وأن الحب، والبحث عن النور، والغناء، كانوا بمنزلة المحرك الأول له في رحلته.

بعد مرور عدة قرون، ارتحل دانتى في صورة رجل حي في عالم الأموات -على نقيض هوميروس وفيرجيل كان بطلًا في قصته- من ظلمة الجحيم إلى نور الفردوس الأسمى، الموضوع الرئيس للكوميديا الإلهية، وسيكون الحب بمنزلة مرشده ومحركه حتى نهاية مسيرته حيث الاندماج مع الجوهر الإلهي، هكذا كان دانتى الأقرب من السلف؛ من أورفيوس، الأب الأسطوري لجميع شعراء العالم.

أورفيوس

لأنه ابن أواجروس ملك تراقيا وكاليوبي ربة الإلهام، فسرعان ما أظهر أورفيوس مكانة بارعة في الشعر والغناء، تلك القيثارة التي اخترعها هرمس بذكاءٍ لا مثيل له وانتقلت بعد ذلك إلى أبوللو وأمفيون. تمكَّن أورفيوس عبر أمواجه الموسيقية من تحريك الحجارة لبناء أسوار ثيفا حيث وصلت القيثارة، بين يديه، إلى الدرجة الأعلى من القوة الساحرة.

إذا ما عزف أورفيوس، تتجمع في الحال الطيور المجنحة محلقةً أعلى رأسه، وتقفز الأسماك من الأعماق إلى السطح كما لو كانت ترقص، وتتحرر جذوع الأشجار من جذورها منتقلةً كما يحلو لها، بل وتفقد الحجارة سباتها الثقيل وتنبض بها الحياة: كانت أغنيته بمقدورها أن تفعل الكثير.

بعد رحلة إلى مصر، أصبح أورفيوس ضمن ملاحي الأرجو في رحلة البحث عن الصوف الذهبي(75).

75) صوف خيالي لكبش طائر خيالي تناقلته الأساطير اليونانية.كان هذا الصوف موضوع بحث مشهور قام به البطل اليوناني الشهير الخرافي جاسون برفقة مجموعة من الرجال تسمى بحَّاري الأجور.

وصلت سفينة أرجو عقب مرورها بسواحل الليجوريين والقلط وساردينيا، أصبحت جزيرة سيرين(76) على مرمى البصر وتحيَّن دوره لإنقاذ رفاقه من السحر المميت لأغنيتهن من خلال عزف مقطوعة لأغنية مضادة أشد قوةً وعنف. نجح في أن يجعل كل رفاقه يبقون على سطح سفينته للاستماع إليه ما عدا واحدًا فقط، بوتى، الذي لا نعرف منه سوى اسمه، كان لديه من الضعف -وربما من الشجاعة؟- حتى غاص في مجهول حوريات سيرين وضاع وسط دوامات البحر.

76) في الأساطير الإغريقية القديمة هي حوراء بحرية لها رأس امرأة وجسد طير، تغوي الملاحين بغنائها الساحر حتى توردهم التهلكة، الكلمة أخذت معنى مجازيًا للمرأة الفاتنة والمغوية.

بعد عودته من كولخيس، وقع أورفيوس في حب الفاتنة يوريديس ذات البشرة الرقيقة البيضاء مثل الثلج. في يوم الزفاف نفسه، كان أريستوس، ابن سيرين وأبوللو، مربي النحل العظيم ومنتج العسل، قد وقع في حب يوريديس أيضًا، فحاول نوالها، هربت هي بدورها، وخلال هروبها انطرحت أرضًا حيث لدغها ثعبان في كاحلها وأرداها قتيلة.

حينئذٍ، انتحبت الأمادريادي، بنات نيريوس ودوريس، وملأن الغابات والجبال والأودية ببكائهن.

صارت نفس يوريديس أكثر رقة وبياضًا من جسدها، وشابهت الضباب، شفافة ولا يُمكن إمساكها، وانحدرت إلى هاديس حيث العالم السفلي. رغم اليأس المجحف الذي ألمَّ بأورفيوس، فإنه لم يستسلم قط لخسارة محبوبته.

حتى هنا، يعرف جميعنا جيدًا ذلك الخوف، العجز، الرغبة في عدم التصديق أو الإقرار بأن شخصًا يُمكن أن يختفي هكذا من على سطح الأرض وينتقل إلى الأبدية حيث لن نستطيع رؤيته إلى الأبد. لكن أورفيوس ذهب إلى أبعد من ذلك؛ حيث عزم على استعادتها من حيث مضت، وإعادتها إلى الحياة عبر غنائه وحبه، ها هو يهبط إلى مملكة الظلام والأموات حيث يقبع الملكان هاديس وبيرسيفون.

لم تتوقف قيثارته عن الإغواء؛ روّضت نغماته من شراسة خارون وسيربيروس، حتى إن أشد العذابات التي تجرعها أبطال مثل تانتالوس(77) وسيزيف بدت كأنها تتوقف بغتة. توهم تانتالوس أنه أخيرًا أخذ رشفة من ذلك الماء الذي بلغ فمه متطايرًا، وأما سيزيف(78)، فلقد توهَّم

أن حجر الجلمود بقي أخيرًا على قمة التل، ذلك الحجر الذي كان مجبرًا على حمله على كتفيه على طول التل المنحدر بعد أن كان يتدحرج إلى الأسفل في كل مرة.

(77) اشتهر بسبب عذابه الأبدي في تارتاروس، حيث حُكم عليه أن يقف في بركة ماء تحت شجرة فاكهة ذات أغصان منخفضة، وتبقى ثمارها في متناول يده إلى الأبد، بينما ينحسر الماء دومًا كلما أراد أن يشرب منه.

(78) كان يحمل صخرة من أسفل الجبل إلى أعلاه، فإذا وصل بها إلى القمة، تتدحرج إلى الوادي مجددًا، فيعود إلى رفعها إلى القمة، ويظل هكذا إلى الأبد، فأصبح رمزًا للعذاب الأبدي.

ومن ثَمَّ، بلغت أغنية أورفيوس قلب بيرسيفون؛ ملكة العالم السفلي التي لم تنسَ أنها كانت فتاة فائقة الجمال وأنها لا تزال تصعد إلى الأرض بين وردها إبّان حلول الربيع بصورة مستمرة.

نادت بيرسيفون يوريديس التي ما إن وطأت قدماها مملكة الأموات والرماد حتى ظلَّت تسير بخطى مرتبكة، مرتابة، لا تصدق ما رنت إليه. صار شحوبها شفافًا، وكانت لا تزال تضع على كاحلها تلك الضمادة التي حاولت عبثًا أن تُشفي من خلالها لدغة الثعبان.

عزيزي القارئ، عزيزتي القارئة، لا يمكننا أن نتخيل أبدًا شعور أورفيوس حال رؤيته يوريدس ماثلة أمامه. إنها تجربة تفوق التصور بشكلٍ كبيرٍ؛ ما الذي يمكن أن يكنّه إنسان على قيد الحياة في قلبه أمام الإنسان الذي أحبه والذي اقتنصه الموت؟ بماذا يشعر وقد صار قادرًا أن يُعيد ذلك الإنسان إلى الأرض مرة أخرى؟ إن نجح في خرق أكثر قوانين الطبيعة فسيدفعه ذلك إلى إحساسٍ ببهجة غير محدودة يشوبها الفزع، وبقلقٍ لا يوصف، وربما برعشةٍ مسرعة تسري في أوصاله.

كان قانون هاديس للعالم السفلي يحظر بأن ينظر المرء في أعين قرينه الآخر. وافقت بيرسيفون أن يأخذ أورفيوس يوريديس إلى الأرض بشرطٍ واحدٍ أن يسير أمامها خلال صعودهما من الظلمة إلى النور وألا يتوجه إليها بنظراته أبدًا. بمجرد وصوله نهاية الدرب حيث حافة الهاوية، استدار أورفيوس برأسه إلى الخلف وتطلع إلى يوريديس، لكن لماذا؟ كيف لنا تفسير السبب وراء حَنث الاتفاقية مع ملكة العالم السفلي؟ هل بدافع خطأ أم جنون أم فرط الرغبة أم حاجة إلى الطمأنينة؟ لن نعرف أبدًا. ما نعرفه فقط أن في تلك اللحظة ظهر هرمس، الإله الصغير الذي يرشد الأنفس إلى العالم السفلي، وأمسك بيد يوريديس وأعادها كشبحٍ إلى مملكة بيرسيفون.

اجتاح اليأس أورفيوس، وأحسَّ بأنه خُدِع، وأصبح دميةً في يد القدر بعد أن كان على أعتاب الاحتفال بتتويج مهمته وحبه، وارتمى بكل ما يملك في ملاحقتهما مرة أخرى ولكن بلا جدوى. لم

يعد لقيثارته أي تأثيرٍ على الإطلاق؛ فخارون ذو اللحية البيضاء الشعثاء والعينين المتقدتين كجمرتين منعه من الاقتراب ملوحًا في طريقه بمطرقته العملاقة، وأما سيربيروس الكلب ذو الرؤوس الثلاثة فلقد تفاقم نباحه المروّع بصورة بالغة.

أذرف أورفيوس كلَّ الدموع الممكنة وطوال سبعة أيامٍ لم يأكل، ولسبعة أشهر عاش في عزلة تامة في كهفٍ مظلمٍ كظلمة العالم السفلي حيث تجلس محبوبته.

حالما عاد إلى المدينة بدا كأنه لم يعُد لديه عينان للنظر إلى أي امرأة. ذاع صيته باعتباره حكيمًا متصوفًا، في فجر كل صباحٍ، على قمة جبل بانجيو، يصعد لتحية الشمس التي تبزغ، أحب هيليوس كثيرًا، وأطلق عليه فيبو أبوللو الذي يسعي أي شخص ليصبح له أبًا حقيقيًّا.

بدأ يكرز أن الشمس تعد الإله الأعظم بين سائر الآلهة، وربما تسلل ذلك إلى ذاكرته خلال رحلته في مصر حيث تناهى إلى مسمعه العبادة التوحيدية للشمس التي وضع أساسها الفرعون إخناتون.

تردَّد عليه الشباب الذين كان يعلِّمهم قمع الجسد كاشفًا لهم أصل الأشياء والأسرار التي تعلمها من بيرسيفون، واضعًا أسس عبادة سرية أصيلة. نشأت الأورفيّة؛ ديانة تعزز تماهي الإنسان بالألوهة، والوحدة الجوهرية للخالق والمخلوق، مؤكدة أن الخير هو النفس غير الميتة، الروح، وأما الشر فهو الجسد، السجن الجسدي الذي تسكن النفس بين ضلوعه.

في جانبٍ كبيرٍ من الشرق، ليس في مصر فقط، تأثرت تلك النظريات بالزرادشتية التي جسدت الصراع الأبدي بين أهورامزدا؛ النور، وأهريمان؛ الظلمة.

أبدى أورفيوس اهتمامًا واضحًا بتعليم الشباب، معهم فقط أظهر حميمية، الأمر الذي دفع البعض إلى الظن بأنه كان أول مَن مارس الحب المِثلي ووعظ به.

عند هذه المرحلة ظلَّل ديونيسوس بجناحه على أورفيوس مغيرًا مصيره. أحسَّ ديونيسوس بإهانة لأن أورفيوس كان شديدَ الارتباط بعبادة أبوللو ودعم تفوقه على جميع الآلهة الأخرى. بدأ ينزعج من الطقوس السرية التي يتممها أولئك الشباب وقد حملتهم بعيدًا عن أسراره. إلى جانب أفروديت، ازدرى ديونيسوس -ذو السمات الأنثوية والمحاط دائمًا بنساءٍ مغرمات- بإحجام أورفيوس جسده عن ممارسة الجنس وميله نحو العلاقات المثلية. كان ديونيسوس إلهًا يمتاز

بالغضب أيضًا، بل ولم يقل غضبه شراسةً عن غضب أفروديت، هكذا، أطلق تابعاته من المايناديز والبوكانتى ضد المُرتل المسكين.

في أحد الأيام ذهب رجال أورفيوس محتشدين إلى المعبد للاستماع إليه وتقديم الذبائح معه، إبَّان ذلك، انطلقت جماعات النساء التي استحوذ عليهن غضب ديونيسوس وقد دفعت الثمالة بالقوة والشجاعة والوحشية في نفوسهن، فاستولين على أسلحة الرجال التي تركوها خارج أسوار المعبد، وتسللن إلى الداخل وقتلن جميع الرجال. ألقين القبض على أورفيوس بعد ذلك، ومزّقنه إلى أشلاء كتصعيدٍ للضراوة الوحشية؛ فهن كن يعرفن هويته جيدًا عكس ما حدث تحت أسوار ثيفا حيث لقي الملك بينثوس مصرعه بعد أن تحوَّل إلى أسد وقُتِل بعد رؤيته هكذا. تمقت جماعة بوكانتى أورفيوس ويكرهن كل ما يمثِّله، فصلن رأسه عن جسده وثبّتن إياها على القيثارة، وألقين بها إلى مياه أحد الأنهار.

لم يتوقف أورفيوس عن الغناء، حتى بعد أن فقد أعضاءه بصورة مروعة. انحدر إلى النهر، وانتهى به الأمر في البحر تسحبه التيارات والأمواج من دون أن يكف عن الغناء.

قال البعض إن الرأس المثبتة في القيثارة قد بلغت مصب نهر ميليتو وسميرنا، وقال البعض الآخر إنها استقرَّت في لسبوس. على كل حال، فأي أرض حمل إليها البحر رأسه تخصَّبت بالشعر؛ فيُقال إن هوميروس قد وُلِد في سميرنا وفي لسبوس نشأت سافو وألشيو حيث تدفقت من تلك النواحي الشعر الملحمي والغنائي إلى اليونان بل وإلى الغرب بأكمله.

حُفظت رأس أورفيوس في معبد ديونيسوس، ووُضعت قيثارته في معبد أبوللو؛ وهما الإلهان اللذان أشرفا على قصته وشعره. خشي ديونيسوس أن يصب زيوس غضبه بقسوة على جماعات البوكانتى فحولهن على الفور إلى أشجار بلوط، أراد أبوللو أن يحمل قيثارة المُرتل المعجزية نحو السماء فحوَّلها إلى كوكبة.

جمعت الموزيات الرحيمات أشلاء ابن كاليوبى ودفنَّها في ليبترا عند سفح الأولمب حيث يُقال إن طيور العندليب تشدو بأعذب أناشيدها أكثر من أي مكان آخر في العالم؛ فليس هناك أقوى من الشعر يعرف معنى الشفقة الإنسانية ومعنى الدموع المتأصلة في الأشياء.

10

التحوّل السريع والِخفّة

تحيا أنفسنا في حالة تحركٍ دائمة، ولا يسعها إلا أن تحب السرعة، والتغيرات، والتحولات الجذرية، والهروب إلى الأمام والتقهقر إلى الخلف. ثمة خلفية طفولية بريئة تسكن أعماقها. تعرف أن تكون نقطة الالتقاء بين الألوهية والإنسانية، إنها الحلقة التي تُبقي رباطنا بين رب الأرض ورب الشمس. إنها تشعر بذلك، ولهذا لا تريد أن تحمل على عاتقها مسؤوليات كثيرة، ولا تريد أن تُثقل بأحمال عدة بل تريد أن تحلق محافظة على خفَّتها. إنها بمنزلة الرسول بين المرئي؛ أي العالم، وغير المرئي؛ أي هي ذاتها. تحب اللعب؛ أن تُدير الأشياء وتُعدِّلها وتلهو بها. إنها مثل سائر الأطفال لا تتراجع أمام الكذب والسرقة. نادرًا ما تجد النفس راحتها في توازن أبوللو الجامد شديد الالتزام أو بين التجاوزات الماجنة الطائشة التي لديونيسوس. إنها تفضِّل بهجة الأسواق حيث بيع الأشياء وشراؤها، وتغيير العملات، وتدبير المكائد: في ذلك المكان حيث يوجد دائمًا محتالٌ لطيف ينجو بفعلته.

يعد هرمس هو الذي يحكم كل تلك الميول في نفوسنا، بل ربما يكون مَن يشغل الحيز الأكبر على الأقل في مستهل القرن الحادي والعشرين، ذلك لأن ميول النفس، حتى الأصيلة التي تعود إلى أسلافنا منها، تستشعر تغير التاريخ والأزمنة بل وتتكيف معها.

يُعَد هرمس إله التواصل السريع، يحكم أولئك الذين يعيشون على شبكات التواصل الاجتماعي المتيَّمين بالعالم الافتراضي والفضاء الإلكتروني، أولئك الذين يتصفحون مواقع الإنترنت طوال اليوم ويدردشون، حتى يدمنون تلك المواقع بسعادة غامرة. لن يمانع هرمس في نوعٍ ما من الابتذال. تثق به النفس، بذلك الإله الأقل ألوهية أولمبية وأكثر بشرية بين سائر آلهة الأولمب، وتجد فيه الإجابات التي تعينها على التكيف إبَّان لحظة معادية للبطولة من التاريخ. لكن في حقيقة الأمر، هناك سببٌ آخر أعمق وراء ثقة النفس به. تعرف الروح جيدًا أن ذلك الإله، ذا الشعور الأقل قوة، الرسول غير الموثوق به تقريبًا، صديق اللصوص والمحتالين، هو مَن سيأخذ بيدها في رحلتها الأخيرة ويصحبها بعيدًا عن الجسد الفاسد وعالم الأموات نحو الخلود.

ومن ثَمَّ، بين توازن أبوللو وسُكرة ديونيسوس، يجسِّد هرمس السحر، يمكن أن يأخذ هيئة ملاك، أو على الأقل روح أحد الرسل التي تأتي لزيارة الباحثين عن أبعاد جديدة للوجود. في هذا

الصدد، تراءى مرة لديفيد هربرت لورانس مثلما يروي في قصيدته ماسّيمو:

رجل عار، غريب تراءى أمام البوابة،

يضع عباءةً على ذراعه، منتظرًا دعوتي إلى الدخول،

سألته: ما اسمك؟

رمقني دون أن يجيب،

لكن نوعًا من الجمال تسلل إليَّ،

حتى ابتسمت في نفسي وقلت: إنه الرب.

حينها أفصح لي عن اسمه: هرمس!

إنه تجلٍّ مذهلٌ وأعترف أنا، تلميذ لورانس ومدين له بالكثير، بأنني شاهدته في بعض الأحيان.

هرمس

عاشت الحورية مايا ذات الضفائر الشقراء الفاتنة في كهف يقع عند سفح جبل سيلين في أركاديا. كانت تسمى «التقية» إذ إن أحدًا لم يمسسها سواء من الساتير أو الرجال، ولم ترحب إلا بزيارات زيوس الليلية، الوحيد الذي لا يمكن إنكار أي شيء له. بينما تغط هيرا في نومٍ عميقٍ، ينحدر زيوس مسرعًا من الأولمب كالبرق الذي يُمسك به، وها هو يرقد بهيًّا عاشقًا في فراش مايا الوثير حيث كانت تنتظره لتمنحه أجمل الملذات.

على إثر هذه اللقاءات الخفية السعيدة وُلد طفلٌ دُعي هرمس. أظهر الطفل منذ نشأته سلوكيات مدهشة، فسرعان ما كان ينمو من الصباح حتى المساء، وحظي بعطية مخترع وغرائز لص، كان كاذبًا وشاهد زور وماكرًا وماهرًا وسريعًا وقذرًا نوعًا ما.

لم يحظ بأي شيء يخص الأولمب، ولم يرث شيئًا من أبيه سوى المكانة الإلهية. غير ذلك، بدا إنسانًا بلا شكٍّ، بدهائه وخفته ودعابته وأكاذيبه وقدرته على التملّق وعدم خشيته من ارتكاب أي فعل فظّ ووقح. هذا هو هرمس، الفتى القليل الحياء، الرسول السريع، المؤسس والمسافر ومرافق النفوس في مسيرتها التي تمتد من الأرض إلى الجحيم، بل وأيضًا من الجحيم إلى الأرض.

إنه إله صغير تمكَّن من نوال محبة المحيطين، وكثيرًا ما كان يُضحك زيوس أباه وأبوللو أخاه غير الشقيق، ونتخيله الآن وهو يُضحك الجميع في مفترقات الطرق والأسواق والشوارع ويخبر المارة بقصص لا تحوي سوى هذيان وبذاءة فحسب.

بدأت وظيفة هرمس منذ لقائه بالسلحفاة، بعد أن خرج من كهف مايا صباح يوم ولادته، تقابل مع واحدةً من تلك الحيوانات البطيئة الثقيلة المسلحة المدرعة بأصدافها الصلبة.

أصابته الدهشة، وابتسم، وقرر أنها ستكون لعبة ممكنة تحفز إثارته الطفولية. أمسك بالسلحفاة وحملها إلى الكهف وبدأ العملية بقسوة بريئة لا تخلو منها الطفولة أبدًا، إذ فصل جسم الحيوان الناعم نازعًا إياه من درقته، ثم غسل جيدًا هذا الأخير وثبت به عصيين وسبعة خيوط مصنوعة من أمعاء الغنم. لم يفكر أحدٌ قط، منذ بدء العالم، ماذا كان ينوي أن يفعل طفلٌ ماهر مشاغب حديث الولادة مثل هرمس.

تحسس الحبال بريشة حتى دوى في أركاديا صوتٌ موسيقي لم يُسمع من قبل، وأخذ يتغنى بحب مايا وزيوس، ويحتفي بهما، ومن ثم، يحتفي بنفسه أيضًا.

لم يتوان في استئناف مهمته الجديدة؛ ففي غروب اليوم نفسه، نهب هرمس الجائع الخمسين بقرة الرائعة التي لأبوللو حيث كان يحرسهم إله الشمس وينظفهم ويطعمهم في حظيرة محمية بصورة جيدة. لم تكمن مشكلة هرمس في فتح الحظيرة؛ فهو يحظى بغريزة وتأهب لصٍّ مسجلٍ، لكنه بدهائه كان يسعى إلى كيفية أن يجعل القطيع يفقد آثاره ومن ثم لن يستطيع أبوللو أو أي شخص آخر يتتبعه ويعثر عليه من جديد.

تجلَّت الحيلة الأولى في كساء حوافر الأبقار بقطعٍ من لحاء البلوط مربوطة بأغصان وعشبٍ جافٍّ. بعد ذلك حان دور الحيلة الرئيسة؛ حيث يُحرك القطيع، ويتحرك هو إلى الخلف ماحيًا آثار الأقدام بطريقة لا يمكن كشفها.

أخذ هرمس الخمسين بقرة الرائعة بالقرب من كهفه عند سفح جبل سيلين، وقتل منهم اثنتين بعد أن لوى رقبتهما بقوة غير متوقعة من طفل يبلغ من العمر يومًا واحدًا، ووضع الجلد جانبًا ليجف، وطها اللحم والدهن على سيخين، بعد ذلك قسَّم اللحم إلى اثنتي عشرة قطعة كبيرة؛ لكل إله من آلهة الأولمب الكبار، وحسب نفسه من بينهم، ذلك القوي منذ ولادته ذو الطباع صعبة

المراس، هكذا أسس هرمس الذبائح الدموية. أشبع نصيبه رغبته في اللحم وهدأ من وطأة جوعه. بعد أن أنجز كل شيء عاد إلى مهده، رضيعًا بريئًا، واستغرق في نومٍ عميق.

بعد أن رأت الأم مايا البقرات وأدركت أنها كانت محل سرقة، وبَّخته بعنفٍ ولامته على فعلته كما تفعل سائر الأمهات. لم يتأفف هرمس أو يعبس بوجهه كسائر الأطفال، بل دافع عن طيبة نواياه وقال لأمه: «لدينا اللحم الوفير، مكاننا ليس هنا بل بين مسرات آلهة الأولمب». منذ بداية طفولته وهو طفل عملي، ذلك الإله الصغير، بل وانتهازي أيضًا.

في تلك الآونة، أخذ أبوللو يبحث عن بقراته ولكن بلا جدوى، وعد بمكافأة لمن يساعده في إيجادها؛ فأتوا بسيلون العجوز الذي ذاع القول بأنه مُلهَمٌ إثر النبيذ الذي يملأ بطنه دائمًا، والساتير الذين يعرفون كل وديان الغابة وكل قطاع الطرق في اليونان.

في الحقيقة كان الراعي العجوز هو الذي وضع أبوللو على الطريق الصحيح. اتجه إلى كهف مايا ليجد الصغير في مهده، كانت تكسو وجهه سيماء البراءة وتبرز شفتاه كطفل رضيع له عينان مغمضتان. اتهمه أبوللو بالسرقة لكن هرمس استخدم سلاح المنطق أمام أخيه غير الشقيق الذي كان يكبره ويفوقه قوة بلا شكٍّ، وجعله محل سخرية أمام الجميع: «فيما سيفكر أي شخص يتناهى إلى مسمعه أن طفلًا صغيرًا مثلي يسرق خمسين بقرة؟» هذا أمر لا يُعقل، إنه لا يعرف أي شيء عن ذلك مُقسمًا باسم زيوس؛ إنه محتال مراوغ شاهد زور حتى إنه أضحك أبوللو بشدة. ألا يصفح المرء كل شيء لطفل صغير خاصةً إن كان لطيفًا مستيقظًا للتوِّ من نومه؟

حمله أبوللو من مهده، وعند هذه اللحظة ارتكب هرمس فعلته الأكثر قبحًا. كان أبوللو محاطًا بأجواءٍ نورانية، ومعه القوس والسهام والعربة التي تجرُّها البجع.. توجَّب على هرمس أن يأسره إلى أفقٍ أدنى وأكثر جسدانية، ونظرًا إلى الحرية الطبيعية التي تتمتع بها الأطفال مقارنة بالكبار، وبينما كان أبوللو يحمله بين ذراعيه، أطلق هرمس ريحًا وعطس، أو ربما تظاهر بالعكس كي يُخفي ضجة ريحه، في الحال تقزز أبوللو وأسقطه على الأرض بينما ظل الأول يتلوى ضحكًا في أقمطته، وضع أبوللو حدًّا للأمر؛ فرفعه وأخذه إلى محضر زيوس واتهمه أمامه.

لكن إلقاء تهمة على هرمس، البارع في الهرب وقلب سند الآخرين، لم يكن بالأمر الهيِّن، أعلن الوقح الصغير الذي لم يهب وجود أبيه زيوس على الإطلاق أنه لم يعد قادرًا على الاستمرار

في الكذب أكثر من ذلك، وقَلَب اتهام أبوللو مدعيًا أنه هدَّده بدفعه إلى تارتاروس مستغلًّا كونه شابًّا ضخمًا قوي البنية أمام ذلك الطفل الصغير الأعزل.

التمس من أبيه الحماية مدعيًا براءته وكرر قسمه الكاذب مرة أخرى. حظي هرمس بأفضلية لم ينلها أحد من آلهة اليونان الكِبار حيث بلغ بالوقاحة إلى تلك الدرجة من التوهج التي لم يتبقَّ سوى ضحكة عالية لإطفائه. لذلك، ضحك زيوس، وكأب صالح يأمر ولديه بالتصالح في الحال، وأمر هرمس أن يعيد الأبقار المسروقة.

عندما أصبحوا على مرأى من القطيع الذي يرعى بأحد المراعي شديدة الخضرة، توصل هرمس إلى حيلة أخرى للمقايضة تحيله دون إرجاع الأبقار، أخرج القيثارة وأخذ يعزف ويتغنَّى بمجد سائر الآلهة وعلى رأسهم أبوللو، دائمًا ما يقتنص اللص لحظة التملق الحاسمة.

انتشى أبوللو مبتهجًا أمام كلمات هرمس ونغماته الصاعدة من تلك الآلة الغريبة، حتى ذلك الحين لم تعرف الموزيات أو الساتير أو حتى أبوللو نفسه سوى الناي. طلب أبوللو القيثارة من هرمس الذي بدوره، ذلك الحامي المستقبلي للتجار والأسواق، لم يتردد في بدء المساومة على الفور. كم تساوي قيثارة جميلة كتلك، تنبعث منها نغمات حية قوية هكذا؟ خمسين بقرة على الأقل، إن لم يكن أكثر.

هكذا بقي قطيع أبوللو المقدس بحوزة هرمس، وانتقلت القيثارة إلى ملكية أخرى. إلى الآن يربطها الكثيرون بأبوللو، رب الشعر والتناغم والتوازن المُنير، لكن أصولها كانت أشد قتامة، طفل يلعب مع حيوان عجوز يحمل أسرارًا وثيقة بالأرض وتارتاروس، ويُخرج من تلك اللعبة جمال الغناء والشعر وإن كان بقسوةٍ وابتكار.

على الرغم من مكانته بين آلهة الأولمب كان هرمس الأقل بينهم بل والأقرب إلى البشر؛ يرتدي عباءة مسافر يتخفى خلالها إن لزم الأمر، ويمسك عصا (الصولجان) حيث تتشابك أشرطة بيضاء وثعبانان، ويعتمر قبعة مستديرة تقيه المطر (بيتاسوس)، وصندلًا ذهبيًّا مجنحًا يسمح له بالطيران وبالوصول إلى أي جهة يقصدها في الحال.

نظرًا إلى كفاءته، كلَّفه زيوس بمهامٍ يُمكنه إنجازها بيسرٍ. أصبح هرمس مرسول الآلهة الذين يلجؤون إليه إذا ما أرادوا إجراء حوار مع البشر، نوعٌ من الوسيط السماوي يشابه في هذا، وفي هذا فقط، ملائكة اليهودية والمسيحية والإسلام؛ فهو مُعلنٌ ومرافق. نجده في الأنشودة الرابعة

والعشرين من الإلياذة أنه الذي رافق ملك بريام للمخيم ليطلب من أخيل استعادة جثمان هيكتور، هو مَن أرشد هيرا وأفروديت وأثينا للوصول إلى باريس ليتسنى لهن معرفة من الأجمل بين ثلاثتهن. هو مَن يحمل نفوس الموتى إلى الجحيم، وفي أحيان أخرى يرافق الموتى من الجحيم إلى أرض الأحياء، مثلما حدث مع بيرسيفون. كان هذا سيحدث أيضًا مع يوريديس إذا لم يرتكب أورفيوس الخطأ المؤسف إذ استدار ناحيتها، وفي هذه اللحظة حان دور هرمس ليعكس المسار ويُعيد يوريديس إلى ظُلمات العالم السفلي من جديدٍ.

إلى جانب ذلك يرأس هرمس إبرام العقود ويحمي التجار والأسواق وعابري الطريق والمضللين ويحرس الشوارع حتى إننا ندعو الحجر الموضوع على زوايا الشوارع لتُهدي المارة في طرقهم «هيرما».(79)

(79) نوع من التماثيل كانت موجودة في زمن اليونان القديمة، تتميز بوجود رأس الإنسان على جذع قاعدة، وقد نحت عليها أعضاء تناسلية بالارتفاع المناسب، ويعتقد أن اسمه مشتق من هرمس.

إنه مخترع أيضًا؛ القيثارة وتقديم الذبائح إلى الآلهة ونعرف أيضًا إنه مَن علّمهم إشعال النار عن طريق تدوير عصاة صغيرة داخل فتحة جذعٍ بسرعة تُميّز جميع أفعاله: وكانت إشارة واضحة من إله ماكر للفعل الجنسي.

هل تذكرون، عزيزتي القارئة وعزيزي القارئ، إعجاب هرمس عند رؤيته أفروديت عارية عندما كانت عالقة إلى جانب عشيقها آريس في الشِباك التي احتجزهما داخلها زوجها هيفستوس؟ صاح حينها ضاحكًا معربًا أنه على أتم استعداد أن يحتمل المزيد من الشِباك والسلاسل شريطة أن يرقد إلى جانب إلهة الجمال. يبدو أن تلك الكلمات أحدثت صدعًا في قلب أفروديت حتى إنها أرادت أن يكون هرمس ضمن عشاقها وأنجبت منه هرمافروديتس. نعرف أيضًا من بين أبنائه إيخيون الذي كان ضمن ملّاحي الأرجو، وأوتوليكوس الذي أخذه من أبيه وصار زعيمًا للصوص ذائع الصيت.

لكن صورة هرمس تتجسَّد دائمًا في ذلك الصبي، الروح الخفيفة، جوّال سريع مبتكر، يعكس انجراف أنفسنا نحو الخفة والسرعة والمهارة التي ليست بالضرورة أن تكون مكرسة للخير، بل في الحقيقة إنها تسعى إلى تهيئة الطريق نحو الحيل والأكاذيب والسرقة حتى وإن كانت سرقة الحب. إن فعلة هرمس بإطلاق الريح على ذراع أبوللو المهيب تُفصح أيضًا عن خسة وبذاءة

كامنة في أي مخلوق بشري. إنها المفارقة بين التهكم روح الدعابة، اللذة في جلب الأذى، المتعة في وجه أي شخص أو أي محفل مهيب كان.

على الرغم من أن هرمس يمثِّل إله قطَّاع الطرق لكنه أيضًا يجسد الشهامة التي تصحب المرء في مسيرته وترعاه. إنه يجسد تعقيد الحياة وتناقضها والذي يُفكك إلى شيء خفيف متطاير مثل الريشة. إنه إله الغناء والصمت أيضًا اللذين تحتاج إليهما النفس بصورة دائمة. قديمًا، إذا ما حلَّ صمتٌ مباغت وسط محادثة حماسية، كان الإغريق يقولون «مرّ هرمس من هنا»، تمامًا كما اعتدنا أن نقول نحن أيضًا، لا أعرف إذا ما كنت ستتذكر، عزيزتي القارئة وعزيزي القارئ، في الظرف نفسه عندما اعتدنا أن نقول: «مرّ ملاكٌ من هنا». يصل هرمس إلى مفترق الطرق والأسواق عندما يسود الارتباك الأكثر فوضوية، لكنه يهمس في داخل النفس عندما يسود الصمت من حولها أيضًا.

يتجلى أمامنا ما إن نبقى يائسين بمفردنا، مثلما تعرفتُ إليه منذ عدة سنوات، ويغزو نفوسنا بجمالٍ لا ننتظره إلا من إله مثله. يتحدث إلينا، دون حاجة إلى كلمات، عن الرحلة إلى اللا مرئيات حيث يصحبنا معه كمرشدٍ لنا.

11

المهارة والتصنيع

إن كانت النفس البشرية مع هرمس قد ظلَّت في حركة وتغيُّر دائمين، فمع هيفستوس تُظهر قدرتها على الإنتاج، قدرة على إتقان عمل شيء ما، العمل فحسب بلا تشتيتٍ، تهدف إلى إنهاء عملها بإتقانٍ شديدٍ بلا تشتت أو تسكع.

إن نزعة النفس في البقاء في ورشة العمل بدلًا من الانطلاق نحو الغابة أو البحر أو السماء، تلك التي تفضِّل معالجة الخامات حتى تراها أشياء مفيدة جميلة تخرج من بين يديها، تسمى هيفستوس؛ رب النار، الإله الحداد، زوج أفروديت التعيس المُزدرى.

تشتهي النفس الأشياء حتى وإن عسر عليَّ قبول هذه الحقيقة، لا تشتهي النفس المبادئ الأخلاقية فحسب (بالنسبة إليَّ لا أريد سوى الجمال والحق والحب)، ولكنها تشتهي أيضًا الكؤوس اللامعة ودروع الأبطال التاريخية والقلائد النفيسة. كان هيفستوس صانع كل ذلك، إنه الإله الراعي للحرف اليدوية بل وحتى الصناعات الثقيلة؛ إذ إن ورشته تسبِّب أبخرة تتصاعد نحو السماء، إنها مظلمة مفعمة بالسخام: حيث إن المواد الأولية المستخدمة داخلها هي المعادن والذهب والحديد والبرونز.

يُعّد هيفستوس بمنزلة المستوى الصالح البريء للرغبة التي تخلقها النفس، أولئك الذين ينجزون أعمال الإصلاح البسيطة في منزلهم مستخدمين المفكات والمطارق لتشكيل شيء ملموس، ربما لا أحد منهم يعرف أنهم ورثة هيفستوس.

إن النزعة إلى التصنيع وعمل الحدادة يناقض تمامًا نزعة الخفة والحركة السريعة التي لهرمس. إن كان هيفستوس هو راعي الصناعة الثقيلة فإن هرمس يُعَد بمنزلة راعي الصناعة الإلكترونية والرقمية. يبدو أن أحدهما يعارض الآخر، لكنهما في الحقيقة يكمل أحدهما الآخر. إن هيفستوس وهرمس، الواقف بين النيران والآخر الذي يُحلق بخفةٍ، تم تعريفهما هكذا من قِبل إيتالو كالفينو، بأسمائهم اللاتينية فولكانوس وميركوري، كقطبين لنشاط الفرد العقلي، ومع ذلك فالحديث عن نفسه لا يبدو ملائمًا اليوم. إن كان كالفينو قد أعطاني مخطوطة الدروس الأمريكية(80) بصفحاتها التي تحوي داخلها الإلهين اليونانيين القديمين لقراءتها، فذلك لأنه كان

واعيًا أنني كنت على رأس الذين أعادوا الكرامة المعرفية إلى الأسطورة في إيطاليا وأوروبا بعد عقودٍ من التجاهل.

(80) كتاب من تأليف إيتالو كالفينو يستند إلى سلسلة من المحاضرات التي أُعِدَّت لدورة مكونة من ستة خطابات أُلقيت في جامعة هارفارد للعام الدراسي 1985-1986، نُشر بعد وفاته في عام 1988.

طالما كنتُ أبجِّل هرمس، المسافر، لكني كنت على دراية بأهمية هيفستوس أيضًا، أدركتُ ذلك هنا، خلال الكتابة، في نشاطٍ يبدو غير ملموسٍ، لكن يحمل في جوانبه الدقة والعمل البطيء الحِرفي الذي يؤدي إلى التفرد في الأسلوب. يبدو أن الدقة والعمل الحِرفي ذات أهمية تمامًا مثل الإلهام المباغت المتطاير، رسول العوالم الأخرى التي يجسدها هرمس.

هيفستوس

قيل إن هيفستوس وُلِد من أب مجهول وهيرا، سيدة الأولمب التي طالما سعت لتحظى بإخلاص زيوس رغم أنها لم تتقنه بالكامل هي الأخرى. وُلِد بجسدٍ ضئيلٍ هزيلٍ وقدمين نحيفتين وذراعين خاملتين، تكسو وجهه ملامح بغيضة حتى إن هيرا عندما تراه كان ينتابها الندم على ولادته، ولم تعتبره أهلًا للسكنى بين آلهة الأولمب بل شعرت بالعار بسببه. دفعتها غريزتها، وتحركت بسرعة البرق التي للحيوانات أو الآلهة فحسب، وأمسكت به، ورمته إلى الأسفل من أعالي الأولمب.

انتهى به المطاف في البحر، وأنقذه كلٌّ من ثيتيس ويورينومى، ربَّتي البحر الرؤوفتين. حملتاه إلى قصرهما الفخم في قاع البحر حيث تربى هيفستوس وسرعان ما أظهر مهاراته. أصبح حدَّادًا، لكن ليس كأي حداد يوجد في القرى، وإنما حرفي يعرف جيدًا كيف يطوِّع المادة ويثنيها حسب رغبته. لن يخبرنا أحدٌ أبدًا كيف كان له إشعال النار في أعماق البحر حيث وجد المعادن لتشكيلها: تعرض الأسطورة دائمًا عن مبدأ عدم التناقض.

حتى يُعرب عن امتنانه للإلهتين؛ صنع هيفستوس جواهر أنيقة لأجلهما. في أحد الأيام، حدث أن ثيتيس، سيدة البحر، صعدت إلى الأولمب مرتدية قلادة ذهبية مرصعة بالزمرد. لم تسلم روعتها من عيني هيرا الغيورة بطبعها وفي الحال أرادت أن تعرف من أين أتت بها ومَن صانعها. عندما علمت أن صانع تلك التحفة القيمة هو ذلك المخلوق الذي ألقت به من أعالي الأولمب منزعجة من شده قبحه، اتخذت قرارها في الحال باستدعائه ليبقى في خدمتها.

تمتع هيفستوس بعقلية حِرفي بسيط، وبعد أن نبذته هيرا، أحضر إليها هدية عبارة عن عرش كبير ذهبي لامع إلى الأولمب. جلست هيرا فوقه وسرعان ما قيدتها سلاسل ذهبية غير مرئية تقريبًا، وأخذ العرش يتأرجح في الهواء الأمر الذي أثار السخرية بين الآلهة. استُدعي هيفستوس إلى الأولمب، حيث ظل بعيدًا عنه فترة طويلة، لوضع حدٍّ لذلك الأمر المخزي. في البدء لم يفلح آريس بصحبة الشريرات في إعادته إلى هناك، لكن ديونيسوس، بعد توجيه أسلحته الماكرة، جعله يشرب حتى الثمالة حتى أصبح في قبضته. أفاق هيفستوس من سُكرته، وحرَّر هيرا من السلاسل المثبتة بذلك العرش، وفي المقابل أراد منها أن تعترف به ابنًا وربًّا وأن تختاره كنتيجة ذلك ضمن فريقها في نزاعاتها المتكررة مع زيوس.

في أحد الأيام، تملَّك الغضب زيوس جراء مواقف الغيرة المتكررة، فربط يدي زوجته بأربطة وعلَّقها في أعالي السماء حيث لن يتناهى إلى مسمعه أي من ثرثراتها بعد الآن.

لم يطق هيفستوس رؤية أمه مُهانة هكذا، في هذه الصورة التي جعلت منها محل ازدراء وسخرية، وفي الحال تناسى معاملتها له، ولم يعبأ بقوة زيوس الخارقة، وصعد نحو السماء وحرَّرها من رباطها.

هكذا خسر الحداد هيفستوس للمرة الثانية مكانته في أعالي الأولمب. لم يطق زيوس أن تكون فعلته على ألسنة الجميع حتى تدخل البعض في قراراته الإلهية؛ ابن هيرا، اللقيط، هوى من الأعالي مجددًا للمرة الثانية. لم يسمح له القدر في تلك المرة بأن يجد البحر أسفله ليخفف من وطأة سقوطه، داوم السقوط من السماء يومًا كاملًا حتى بلغ جزيرة ليمنوس. كان تأثير الأرض الحجرية للجزيرة مروعًا على جسده؛ كُسِرت ذراعاه وركبتاه وكاحلاه حتى إنه لم يقوَ على النهوض على قدميه بمفرده. أنقذه سكان ليمنوس واعتنوا به، وصار هيفستوس أعرج منذ ذلك الحين، وحتى يستطيع المسير تعيَّن عليه أن يتكئ على عكازين صنعهما من الذهب أيضًا، هكذا، صفح زيوس عن فعلته، وجعله يعمل في ورشته.

أظهر هيفستوس سلوكًا فظًّا وليس شريرًا على الإطلاق، وكان دائمًا على استعدادٍ أن يضع مهاراته غير المألوفة في الصناعة في طوع سائر الآلهة. بحث عن زوجة بين الربات، واعيًا لقبحه، وحالته كأعرج قزم، ولكن أيضًا لحذاقته التي تمكنه من صناعة أشياء غاية في الجمال.

في البدء، قيل إنه تزوج واحدة من ربات الحُسن، أجليا، «ربة الزخرفة»، اجتمعت في زيجتهما الجوانب العملية والواقعية والروحانية التي للجمال. لكن زيجته الشهيرة الأكثر تعاسةً

كانت بأفروديت التي خانته مع آريس وهرمس وأدونيس وصيَّرته شخصية كاريكاتورية؛ كوكو مضحك، بعيدًا أشد البعد عن مجد الأولمب السماوي غير الموصوف.

لم يستسلم هيفستوس بل سعى في محاولة خرقاء لنوال أثينا التي تهربت من هجماته المتكررة وتركته خائب الأمل. لم ينجح الجنس في الجمع بينهما، لكن العمل هو من سيجعلهما حلفاء، هذا ما سنقرأه في أنشودة هوميروس لهيفستوس:

جنبًا إلى جانب أثينا، الإلهة صاحبة العينين اللامعتين،

يُعلّمها أعمالًا رائعة للبشر ساكني الأرض.

من المؤكد أن أثينا تمتعت بذكاءٍ فائق أكثر من أي إله آخر جراء ولادتها من رأس زيوس، وبمجال أوسع للعمل لإتمام أي عمل حضاري مهما بلغ من تعقيد.

هكذا كان يفعل هيفستوس أيضًا إبان مكوثه في ورشته حيث يُنجز أشياء أكثر جمالًا. سعى لمواساة نفسه من آثار المغامرات العاطفية مع الربات فصنع له فتيات ميكانيكية يستطيعن أن يتحركن ويرقصن ويتكلمن بل ويغنين أيضًا. هكذا أحاط نفسه بحضورٍ أنثوي يأتمر لجابله، ويشعر بالامتنان له، ويخدمه، ويحمل نسائم الشكر والفضل إلى الورشة المفعمة بالسخام. كنّ فتيات لامعات من الذهب، لا يتأثرن بالدخان أو لهيب النيران على الإطلاق. اعتاد أن يتحدث إليهن في الأوقات التي يندر فيها أن يقف متجهمًا منشغلًا بطرق المعادن على السندان خاصته. بلا شكٍّ أنها كانت أحاديث بدائية فقيرة بين كائنات ميكانيكية وحداد يعادي المزاح والثرثرة. على أي حالٍ كان البقاء في ورشته أفضل بكثيرٍ من بقائه في الأولمب. كانت يتعزى بأناشيدهن عندما لا تصدح الورشة بطرقات مطرقته أو نفخات كيره. (81)

(81) جهاز من الجلد أو نحوه يستخدمه الحدَّاد وغيره للنفخ في النار لإذكائها.

ابتكر هيفستوس طاولات سحرية ثلاثية الأرجل؛ فعند الحاجة إلى حضور مأدبة في قصر الآلهة تنزلق الأرجل من الورشة مباشرة في اتجاه صالة الطعام في الأولمب، وبانتهاء المأدبة، تحرر الأرجل نفسها وتعود أدراجها بمفردها إلى الورشة حيث رحلت. كان يعمل بلا كللٍ، أهدى درعًا واقيًا للبدن إلى هرقل، ودرعًا وأسلحة إلى أخيل، وقلادة إلى قدموس بمناسبة زفافه على هارمونيا. كل ما خرج من تحت يديه كان يمتاز بجمالٍ لا يُضاهى. يقال إنه هو من خلق باندورا، بأمر من زيوس، المرأة اليونانية الأولى وقد عجنها من ماء وطمي، وغمرها بالحياة والصوت، واستخدمها زيوس بعد ذلك لمجازاة بروميثيوس.

نظرًا إلى أن هيفستوس لم يتوان في السعي نحو الكمال، فإنه يصبح ذلك الجانب من نفوسنا الذي يرغب في العمل والإنتاج ويحقق ذاته بالوقوف أمام النار يُعيد صياغة الأشياء ويُشكِّلها بجمالٍ لا مثيل له.

بحديثنا عن الفن، نقول إن هرمس كان الإلهام، وهيفستوس كان الأسلوب، ولكي يصبح المرء فنانًا فعليه أن يُكرس حياته لكليهما.

12

ازدواجية التوجه الجنسي(82) والبصيرة

(82) واحد من الأنواع الأربعة الأساسية للتوجه الجنسي ويعني ميل الشخص عاطفيًّا أو جنسيًّا أو كليهما إلى نفس جنسه وإلى الجنس الآخر أيضًا، وهي واحدة من أربعة تصنيفات أساسية للتوجه الجنسي عند البشر جنبًا إلى الغيرية والمثلية واللاجنسية.

لا جنس للنفس. إن نظرنا إليها من الجانب اللُغوي فهي كلمة مؤنثة كمثيلاتها في اللاتينية واليونانية. لكن من الجانب الرمزي فإن معناها يتخطى حدود التعريف حسب الجنس. كل مخلوق لديه نفس بما في ذلك كل فصائل الحيوانات بدءًا من الفيل وحتى حشرة الدعسوقة، وكل الأشجار والورد والعشب ومياه البحر والرياح.

نزعة بشرية رئيسة يكمن هدفها في الرباط بين الجنسين، المنفصلين في أصلهما، في وحدة منشودة. وفقًا للأسطورة التي وردت بالندوة الأفلاطونية فإن ذلك القلق من جراء الرباط يرجع إلى زيوس الذي شطر المخلوقات البدائية إلى نصفين، تلك التي كانت بوجهين باتجاهين متعاكسين على الرقبة، ومزوَّدين بأربع أرجل وأربع أذرع، وفي إمكانهم السير باستقامةٍ وأيضًا التدحرج منزويين في نفوسهم كالأجسام الكروية. لقد كانوا «خنثى»؛ رجلًا وامرأة في آن واحد، أقوياء وجبابرة بالمقارنة بالآلهة إلى درجة أنهم أنزلوا عليهم جزاءً كهذا. منذ تلك اللحظة خُلق الإنسان في جنسين تمامًا كما نعرفهما الآن، رغم ذلك الانفصال الذي تم قبل التاريخ، حتى الآن لا يوجد رجلٌ بجانبٍ ذكوري فحسب، أو أنثى بجانب أنثوي فقط.

تزعم الأسطورة اليونانية أن تيريسياس، العجوز الأعمى البصير الذي بلغ عِظم تأثيره في الأدب الغربي حتى يومنا هذا، كان بمنزلة الكائن الذي، وإن لم يُعد وحدة الجنسين الجسدية، إلا أنه وضعهما جانبًا إلى جنب في تجربته الخاصة. سكن الجنسان جسد تيريسياس بالفعل وفي ممارسته للحب؛ كان رجلًا، ثم امرأة، ثم عاد رجلًا مرة أخرى.

إن ابن أفروديت ربة الجمال، وهرمس إله التحول، المدعو هرمافروديتس له جانبٌ يمزج بين الصفات الذكورية والأنثوية التي تجلَّت بوضوحٍ ما إن أصبح كائنًا منفردًا مع سالماس؛ الحورية بأحد الينابيع التي أحبَّته بجنون. تكرر ذكر سالماس في عنوان قصة شبابية كتبها ماريو سولداتي؛ الكاتب البارع الذي بمنزلة صديق حميم لا مثيل له رغم فارق السن بيننا، وقد تحدثتُ

معه ذات مرة، ضمن آلاف الموضوعات التي طغت عليها حماسته في كل محادثة، عن ازدواجية التوجة الجنسي في الأدب وفي الحياة.

أصبح مصطلح «خنثى» يُعني، في اللغة الشائعة، كائنًا يحمل داخله الطبيعة الأنثوية والذكورية، وفي علم النبات يقصد به أي نبات يحمل في زهوره السداة والمدقة، أعضاء من كلا الجنسين. نظرًا إلى أن النفس لا جنس لها، فهي أنثى وذكر في آن واحد. إنها زهرة «خنثى»، وقد يقول البعض إنها متحولة جنسيًّا. إنها مزدوجة الجنس بلا شكٍّ ذلك لأن الازدواجية الجنسية شائعة في حالاتٍ لا حصر لها من حولنا لا ينكرها أو يخفيها إلا منافق يدَّعي الحفاظ على أفكاره. هذا ما تسرده لنا الأسطورة التي جسَّدها هرمافروديتس الرجل الذي جمع في جوانبه طبيعة أنثوية، وتخبرنا أيضًا عن سالماس الحورية الأنثى التي مزجت طبيعتها الأنثوية برجلٍ بحبٍّ جامح حتى حملت إلى داخله العلامات التي تتميز بها الأنثى.

تيريسياس

ابن إيفيرى وكاريكلو؛ الحورية التي لعبت دورًا في بلاط بالاس أثينا، وقد دفعه القدر إلى رؤية أشياء في الواقع لم يكن له أن يراها. كان لا يزال شابًّا عندما ذهب للصيد برفقة كلابه حول نهر إيبوكرين وقد نبتت لحيته أعلى شفته العليا وأعلى ذقنه. في ظهر ذلك اليوم، كانت أثينا تتجوَّل ممتطية جوادها في تلك الأنحاء. كانت لديها طباع محارب، تحب الخيل، وتنحدر من أعالي الأولمب وتجر خلفها قطيعًا كاملًا من الخيول حتى يتسنى لها تغيير جوادها في كل مرة تلوح عليه ملامح التعب أو تظهر على رقبته قطرات العرق الأولى.

في ظهر ذلك اليوم كانت أثينا هي من شعرت بالإنهاك، كانت قد امتطت جوادها طويلًا تحت وطأة الشمس ونورها. معروف أن الآلهة لا تتعرق أبدًا، لكنها شعرت بدفءٍ خافت يكسو جسدها حتى أصابها الضيق. ترجَّلت عن جوادها، وحرَّرت بقية الجياد، خلعت ملابسها، ونزلت إلى مياه إيبوكرين شديدة الصفاء. لم تسبح الإلهة، لكنها بقيت في مكانها حتى أتت المياه تغطي ركبتيها وتلعق فخذيها حتى اجتاحتها حيوية هائلة معطرة، كانت عارية، منفردة، سيدة نفسها ووقتها، بينما استمرَّ قطيع الجياد يرعى منتظرًا عودتها.

حدث أن كان الشاب تيريسياس هناك بالصدفة المحضة. كانت كلابه تركض بذلك الاتجاه، وكان الهواء حول النهر منعشًا جدًّا في تلك الظهيرة الحارقة وشديدة الحرارة. شعر بالعطش،

عطش شديد؛ ارتمى على ركبتيه على العشب، وأثنى نصفه الأعلى إلى الأسفل، وأخذ يتحسس الماء بفمه، ولم يستطع ألا يراها.

كانت أثينا هناك، وقد برز جسدها العاري على المياه وانعكس على سطحه. رأى تيريسياس كل شيء دون رغبة من جانبه، نهديها البارزين الممتلئين المرفوعين إلى الأعلى، وخصرها العذري، وفخذيها المتماسكتين لفارسةٍ.

كان موقفًا مخزيًا إلى أقصى درجة بالنسبة إلى أثينا، اقتربتْ من الصبي، دون كراهية، ودون أن تتفوَّه بكلمة لتوبيخه، كان الأمر مهلكًا؛ فمن يرى عُري الإلهة لن يرى الشمس مرة أخرى. وضعت أثينا أصابعها وأنزلت غشاوة من الظلام على عيني تيريسياس، وقد كانت ظلمة ممتدةً إلى الأبد.

لكن أثينا فور علمها بأن ذلك الفتى ابن رفيقتها كاريكلو التي كانت تلعب دورًا بارزًا في بلاطها وكانت مقربة لها، أرادت أن تعوِّض فقدان بصره بعطية أخرى؛ أن يكون بصيرًا؛ سيصبح تيريسياس عرَّافًا، بل أشهر راءٍ في تاريخ الإنسانية.

طهَّرت أذنيه بمياه نهر إيبوكرين حتى صار سمعه أشد قوة، ومنحته عصا تسمح له بالسير آمنًا حتى بعد أن فقد بصره.

في رواياتٍ أخرى، قيل إن تيريسياس أمسى عرَّافًا في مناسبة أخرى عجيبة تمامًا. شاءت الأقدار أن يحوي في وجدانه شيئًا يفوق العجب؛ حيث عاش جانبًا من حياته كذكرٍ وجانبًا آخر كأنثى، أي أنه صار كليهما: رجلًا وامرأة، وكان يشعر ويتمتع بكلا الهيئتين؛ كانت خبرة فريدة من نوعها لا يقدر أي إنسان أو إله مهما كان يتباهى بها، كيف حدث ذلك؟

شاع أنه في أحد الأيام، ويبدو أن الظهيرة اللعينة كانت حارقة على منحدرات جبل سيلين حيث وضعت مايا طفلها هرمس، كان تيريسياس لا يزال راعيًا بسيطًا، وقد تقابل مع زوجين من الثعابين كان يغازل أحدهما الآخر.

إن رؤية زوجين من الحيوانات يتزاوجان دائمًا ما يأتي بإحساسٍ يبعث على الاضطراب والانزعاج، فسعادتهما الكئيبة، تكاد تكون قسرية، تأتي من عمق الطبيعة المظلم ومن قوانينها. ظل تيريسياس واقفًا مندهشًا ومنزعجًا بعض الشيء لرؤية ذلك المشهد. دفعته غريزة العنف الجامحة بداخله إلى الإمساك بعصاه حتى ضرب الأنثى بقوة شديدة أودت بحياتها.

تبدَّل جسده للتوِّ في تلك اللحظة نفسها، صار شعره طويلًا منسدلًا، واندثرت الشعيرات المتناثرة للحيته الأولى من وجهه، وازدادت شفتاه حمرةً، وانتفخا النهدان البارزان في صدره، وأسفل الحوض، تقهقرت الخصيتين والقضيب وأفسحوا المجال لشقٍّ طولي عميق. ما إن تحدَّث حتى أدرك أن صوته صار أعلى وأكثر رقةً، لقد صار أنثى بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

عاش هكذا لمدة سبع سنوات، أخذ يتسكع من مدينة إلى أخرى، ويختبر كونه امرأة في الجِماع، وأصبح امرأةً ماهرة خبيرة حتى شاعت الأقاويل أنه مارس الدعارة بنجاحٍ منقطع النظير في أحياء ثيفا من دون أن يتعرف إليه أحدٌ قطٌّ.

بعد ذلك بسبع سنوات، وقعت المقابلة ذاتها؛ فرأى ثعبانين يتضاجعان. هذه المرة، لم يُظهر تيريسياس أي دهشة أو فضول جنوني بعد أن مارس العلاقة الجنسية أكثر من مرة. رغم ذلك هناك شيء دفعه إلى تكرار فعلته التي فعلها منذ وقت مضى، ودون أن يدرك السبب، صوب العصا بدقة، وفي تلك المرة كانت الضربة من نصيب الذكر الذي أخذ يتلوّى ويلتف حتى لقي حتفه.

في الحال، خضع جسد تيريسياس لتحوُّلٍ جديدٍ؛ في الشعر والخدين والجذع والخصر وأخيرًا في مخارج صوته، عاد ذكرًا بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

دفعته هذه الحياة المزدوجة والصيت الذي جناه من ورائها أن يُدعى كحكمٍ لتسوية الخلاف المستعر بين زيوس وهيرا.

لم يختلف الزواج في أعالي الأولمب عن المنزل الفقير البائس لأي إنسان؛ فالجدل وسوء الفهم والغيرة كانوا أمرًا سائدًا بينهم أيضًا، إلا أن الجدل المستعر بين الزوجين بالأعلى قد حظي بختمٍ إلهي.

في تلك المرة، كان الصراع يدور حول مَن يشعر بمتعة أكبر إبّان الجِماع. رأت هيرا أنه الرجل في حين أن زيوس رأى أنها المرأة، لكن رأيهما كان مجرد تكهنات فقط، وحده تيريسياس استطاع أن يتحدث بمنطقٍ سليمٍ بعد أن عاش كلا التجربتين في جسده.

اُستُدعي تيريسياس إلى الأولمب، ومن المفترض أن هرمس هو من اصطحبه الذي كان يهزأ بتلك المشادات الصاخبة وقد رأى في ابنه هرمافروديتس علامات هوية جنسية مزدوجة وغامضة.

انتظر زيوس وهيرا الرد، وتحدث تيريسياس على هذا النحو: «إن انقسمت اللذة الآتية من الجِماع إلى عشرة أجزاء، فتسعٍ منها تذهب إلى صالح المرأة، وواحدة فقط إلى الرجل».

أحد لا يعرف ما إن كان يُقر بهذا كقانون عالمي أم يتحدث فقط عن خبرته الشخصية مضاجعًا النساء كذكرٍ، أو منغمسًا كامرأةٍ في الرجال ذوي البأس في بيوت الدعارة وشوارع ثيفا. أسعد ذلك الرأي زيوس إلى حد الشماتة؛ فلقد وقف الحكم في صفِّه.

أما بالنسبة إلى هيرا، فلم يمر الأمر مرور الكرام. كانت سيدة الأولمب تعرف كيف تصبح وحشية منتقمة. وفقًا لكثيرين، فإنها هي، لا أثينا، من أنزلت بالغشاوة العمياء السوداء على عيني تيريسياس.

أراد زيوس تعويضه عما جرى، فمنحه البصيرة والحياة التي استمرت سبعة أجيال.

كان تيريسياس هو مَن كشف لأوديب حجم اللعنة التي سيجلبها على نفسه وعلى أسرته بالكامل. أمست قوته الإلهية يُضرب بها المثل، حتى إنه لم يفقدها عندما اقتاده هرمس إلى العالم السفلي. انحدر أوديسيوس إلى الجحيم بحثًا عن تيريسياس ليعرف ما يخبأه له القدر، ولم يُرجعه تيريسياس فارغًا.

في حياة منقسمة مضطربة كحياته، حظي تيريسياس أيضًا بتجربة الأبوة. أصبحت ابنته مانتو عرَّافة أيضًا وارتحلت لخدمة أبوللو في دلفي بعد خراب ثيفا. انتقلت من هناك إلى أسيا الصغرى حيث تزوجت رجلًا كريتيًّا أنجبت منه صبيًّا يُدعى موبسوس الذي كان عرَّافًا أيضًا. يبدو أن هبة البصيرة، القوية الهائلة، انتقلت عبر الأجيال، ويبدو أن تيريسياس المنكوب، الأعمى، المسكين، أصبح مؤسسًا ملكيًّا لسلالة حاكمة حقيقية.

حتى وإن لم يتمكَّن أحدٌ حتى الآن مضاهاتها، فإن روح الرائي الرفيع تعود وتتحدث الآن بعد آلاف السنين في أبيات الشعراء الذين أعادوا الحياة إلى الأسطورة من خلالها.

هرمافروديتس

عندما ضاجع هرمس أفروديت، تم الأمر بعجالة شديدة بلا أدنى شكٍّ؛ فهرمس اقتنص من وقته ومهامه كمرشدٍ ورسولٍ، وأفروديت تغلَّبت على أحوالها كزوجة لهيفستوس، الحدَّاد القزم، وكعشيقة للشيطان آريس، الشرس المعاند. لم يحب أي منهما، هرمس أو أفروديت، أي شيء يبعث على الاستقرار والسكون أو أي شيء شرعي. كانا كلاهما على استعداد للإقرار بأن أجمل

ما في الحب يكمن في «اختلاس» الحب، حيث يأتي الإشباع في الحال بعد الرغبة، هكذا تمارس الحيوانات والآلهة الحب.

وُلد هرمافروديتس من هذا النوع من الحب وقد دُمج اسمه باسمي أبيه وأمه حتى يخلدا ذكرى أنهما من أنجباه وقد أودعاه رضيعًا تحت رعاية ناياد على جبل إيدا؛ كان كلٌّ منهما بعيدًا تمامًا عن فكرة تكوين الأسرة.

ترعرع الطفل هناك، وأصبح صبيًّا يحمل في وجهه ملامح أمه المثالية والقليل من ملامح والده المشاكسة، وأما في جسده فلقد حمل هيئة جسد أمه المُثير ونحافة أبيه المُسرعة.

في الخامسة عشرة من عمره، ترك كوخ ناياد على منحدرات جبل إيدا وبدأ رحلته. عرف ليقيا وكاريا، واجتاز الغابات المظلمة، والوديان المشمسة، وملأه الإعجاب الذي لامسه الانجذاب المجنون لمجاري المياه. كان يتوقف على ضفاف أي نهر، أي بحيرة، أي نبع، ويظل هناك ساعاتٍ ينظر في المياه المتدفقة المندفعة التي سرعان ما تلبث أن تعود ساكنة مموجة وتلمع مثل النصل حيث يُمكن للمرء النظر إلى نفسه كما في مرآة.

ربما، بصورة غامضة، أحسَّ في المياه بالعنصر الذي وُلدت منه أمه البعيدة، أو ذات الانعكاس للسرعة والسطوع اللذين يميزان والده البعيد هو الآخر.

ذات يومٍ، وصل هرمافروديتس إلى نبع مياه بدا له الأجمل بين كل الينابيع التي رآها في حياته. كان سطح المياه شديد الصفاء والشفافية حتى تسنى للمرء رؤية عمق النبع، لم تشبه أي طحالب، ولم تنبت من أعماقه قصبة أو أسل، كان صفاءً مطلقًا، وبدا أن ذلك ثمرة تعويذة.

بالقرب من ذلك النبع، كانت تسكن إحدى حوريات الماء وتُدعى سالماس، لم تتبع أرتميس كسائر شقيقاتها. عبثًا كانت شقيقاتها يتساءلن عن سبب عزوفها عن لمس القوس أو جعبة السهام، لم تجب سالماس عن تساؤلاتهن؛ فالصيد والجري في أعماق الغابة لم يُوجدا من أجلها. آثرت المعيش هناك في فضاء النبع المنعش المُنير وقضت أيامها تتأمل نفسها على سطح المياه، وتُمشِّط شعرها الطويل جدًّا، وتقطف الورد من حولها.

في ذلك اليوم، وبينما كانت تجمع الورد مرتدية ثوبًا أكثر خفة ولمعانًا من أي بتلة، رأت هرمافروديتس قادمًا، لم يلحظ الفتى وجودها؛ حيث كان يجلس مفتونًا على ضفة النبع.

وُلد الحب في وجدان الحورية سالماس ونما مثل بزوغ شمس الفجر؛ مباغتًا ولا مفرَّ منه. حدث معها ما حدث لأفروديت وهرمس، أحسَّت برغبة في الاندفاع نحوه ودفعه والاستيلاء على جسده.

بعد أن مشَّطت شعرها بعنايةٍ وهندمت ثوبها الأشد لمعانًا من بتلات الأزهار، اقتربت من الصبي وتحدثت إليه بكلمات تغازله: «هل أنت إله أم بشر؟ كم أن جمالك يفوق العقل، فإن كنت بشرًا فلا بد أن أشقاءك وشقيقاتك ومربيتك يشعرون بفخرٍ لا مثيل له».

سرعان ما تطرقت سالماس مباشرة، بجرأة الحوريات الفظة المبهجة، إلى حديث أكثر إثارة قائلة: «هل أنت متزوج أم لا؟ في الحالة الأولى ففي إمكانك منحي نفسك سرًّا، هنا والآن، أما في الثانية فيسعدني أن أكون أنا زوجتك، وسنذهب معًا إلى فراش الزوجية».

احمرَّ وجه هرمافروديتس، الذي لم يكن يعرف الحب بعد، وقد جعلته الحُمرة النابضة في وجهه يبدو أكثر جاذبيةً في عيني سالماس.

بدأت تُحث قبلاته، والتصقت به، وداعبت رقبته، وكانت لترضى بأي طريقة يقبِّلها بها حتى لو كانت كشقيقته. فجأةً، انتفض هرمافروديتس وطلب منها بخشونةٍ أن تمتنع عن ذلك مهددًا إياها بالرحيل إن استمرت في ذلك.

تظاهرت سالماس بالابتعاد، محبطة، غاضبة، لكنها لم تفز بشيء. في الواقع، ذهبت لتجثو على ركبتيها خلف شجيرة كثيفة حيث تستطيع متابعة مصدر شغفها من كثبٍ.

زعم الصبي أنه بات بمفرده، فأخذ يلهو بماء النبع. أغوته تلك الشفافية ودعته إليها. غمس أصابع قدميه في المياه، ثم قدميه بالكامل حتى الكاحلين. كم هو رائع أن يشعر المرء بالانتعاش والحرية. تحرر من ملابسه، وبرز جسده العاري وانعكس بأكمله على سطح المياه الصافية. رأته سالماس واتقدت الرغبة بداخلها واندلعت كالنيران وومضت كشعاع الشمس.

عندما سمح الشاب لأطراف جسده أن تُغمر بالمياه الجارية، ابتهجت سالماس؛ فهي حورية بحرية وذلك النبع يعد بمنزلة موطنها وجوهر وجودها، صاحت في نفسها: «لقد فزت».

غاصت في الماء ولحقت بالشاب في غمضة عين، وجذبته إليها، وكلما حاول الإفلات منها كانت تجذبه أكثر وأكثر، وأحاطته بحركات لولبية كالثعبان. أحجم هرمافروديتس عن إعطاء

الحورية أي متعة منشودة، أصبحت أحضانها ومداعباتها الحماسية بلا جدوى بعد أن ظلَّ الفتى فاترًا خاملًا.

لم تجد سالماس أمامها سوى أن تدعو الآلهة حتى يؤمنوا بحقيقة حبها وأن يجعلوا هيرمافروديتس يؤمن بها أيضًا حتى يرتضي أن يقضي حياته بأكملها إلى جانبها دون انفصال قطٌّ، إذ إنها لن تنفصل عنه أيضًا إلى الأبد.

أصغت الآلهة إلى صلاة سالماس في تأثرٍ، الأمر غير المعتاد بالنسبة إلى حورية، وقرروا تحقيق مبتغاها.

سيبقى جسدا هرمافروديتس وسالماس، التي لم تنضم بجماعٍ عابرٍ، متحدين الآن عبر دمج أحدهما بالآخر، يخلطان الملامح الذكورية لأحدهما مع الملامح الأنثوية للآخر في جسدٍ واحدٍ جديدٍ، لم يعد رجلًا فقط، ولم تعد امرأة فقط. كان مخلوقًا لم يره أحدٌ على الأرض حتى يومنا هذا، وإن ربما قد حدث ذلك في العصور السحيقة، حيث كان كل كائن يحمل في جوانبه ذكرًا وأنثى قبل أن يتم فصلهما إلى الأبد.

إن هرمافروديتس وسالماس يعدان بمنزلة الكائن المخنث بصورة لا ريب فيها. في يومنا هذا، أصبحت الحورية في طي النسيان ولم تظهر إلا في ذكرى أحد الكتاب الساحرين.

شاع اسم هرمافروديتس وأصبح يشير إلى أي كائن ذي ميزاتٍ أنثوية؛ بصدر وردفين، وبملامح ذكورية أيضًا، هذا ما يُطلق عليه اليوم «المتحولين جنسيًّا» بشكلٍ عامٍّ، وربما دون أن نعرف أصوله الأسطورية التي لم تكن الآلهة، وخاصةً اليونانية منها، في منأى عنها.

13

الطبيعة والجنس

ثمة حركة بين الحركات الإنسانية المتناقضة المبهجة تؤدي إلى التماثل مع قوى الطبيعة والرجفة في مواجهة مظاهر قوتها سواء كانت شروق الشمس أو غروبها، أو موجة تتبدد في صخرة، أو شجرة يبلغ عمر جذعها مئات السنين وتضرب بجذورها في أعماق الأرض بينما ترتفع أوراقها العريضة نحو زُرقة السماء. تبدو نزعة نادرة للإنسان المعاصر المُحاصَر بالتكنولوجيا وضوضاء المدينة، لكنها خامدة تتأهب للانفجار داخله حتى يشعر بآثارها في أي وقتٍ.

كان ديفيد هربرت لورانس أدق من وصفها في القرن الماضي، الذي ليتك تتذكرين عزيزتي القارئة وتتذكر عزيزي القارئ، مؤلف الرواية التي لمدة طويلة ظلَّت موضع فضيحة ورقابة: عاشق السيدة شاتيرلي. فعلها إلى جانبه مؤلفنا دانونسيو بعمق فلسفي أقل وإن غلب عليها وجود الجمال الموسيقي والتأثيرات منقطعة النظير. رأى لورانس في الطبيعة طيفَ «بان»، يقال إنه لم يمت في الغرب، وعرف أنه، كان يعيش في أمريكا حتى سبعينيات القرن الماضي على الأقل، بين القبائل السكان الأصليين، حيث سكن لديهم في مزرعة في أعالي جبال روكي، وأمضى بضع سنوات من عمره وقد دُفن في معبدٍ صغيرٍ أبيض تحلِّق أعلاه طيور الفينيق. بخبرة مسافر، أستطيع أن أجزم أنها من أكبر العواصم المشمسة المرعبة في العالم إلى جانب محمية تاوس بويبلو الطبيعية.

يجسِّد بان، كطبيعة تكمن داخلنا، نزعة أخرى؛ تلك التي تدفع الكائنات الحية إلى حياة جنسية سعيدة جامحة من دون الالتفات إلى أي قاعدة أخرى سوى قاعدة المتعة. إن مجتمعنا المنفصم والمهترئ من أعماقه جراء العنف الفظيع، الذي تضفو على سطحه العبادة ذات المشاعر النبيلة فيما تعشش في جوانبه نتائج النفاق الواضحة، قد جعل من الأشياء الغريزية الحرة أعراضًا مرضية مفعمة بالجنس والجنون، لقد جعل من اتِّباع دعوات الطبيعة داخلنا أمرًا شيطانيًّا.

إن كان هرمس يبدو مخمورًا باختلاس الحب فإن بان يمثّل الغرائز المستمرة للعلاقات الجسدانية والمخرج المتحرر لشهوانية مفرطة. رغم ذلك لا يندرج بان على الإطلاق تحت ما

تسميه جرائد الأخبار اليوم «غيلان» أو «وحوش». إن مغتصبي الأطفال والمغتصبين مخلوقات نجسة، وليس هناك أي أسطورة تبرر أفعالهم، بل هناك القوانين التي تعاقبهم على نحوٍ صحيحٍ.

في حقيقة الأمر، إن لقصص بان القديمة، والساتير، والحوريات، وحضور بريابس القضيبي، معاني رمزية غاية في العمق. من خلالهم تدرك النفس مدى المخاطرة والمتاعب الكامنة في تلك الكهوف التي تتخفى داخلها الغرائز الأكثر بدائية، التي يمكن أن تدفع نحو العنف بلا شكٍّ. من ناحية أخرى، يمكنها أن تدفع المرء نحو البهجة والمتعة إن تمكَّنت النفس من إحجام وحشية غرائزها، وتلطيفها وتهذيبها في نورها. إن لم تفلح النفس في ذلك، فحينئذٍ يكون المرض وستهوي في براثن السيكوباتية.

ليس من قبيل المصادفة أن تأتي مصطلحات اللغة المعاصرة من تلك الصور الإلهية مثل التي تُشير إلى: الخوف مثل «الذعر»، والاضطرابات الجنسية في «الجنس القسري» أو «الدافع الجنسي المفرط»، التي تشير إلى زيادة جنونية مرضية نحو الرغبة الجنسية في الرجال أو النساء، ولدينا «القساح»، تلك الحالة من الانتصاب المستمر، الذي يفوق الحد، المؤلم غير المصحوب بأي إثارة تُذكر.

قرأنا عن وجود عيادات متخصصة تساهم في إزالة آثار سموم الإدمان الجنسي، خاصة تلك التي يتردد عليها كبار الممثلين. لكن يبدو أن شيئًا لم يستطع كبح جماح غرائز العنف الجنسي للآخرين. سمعنا عن ضحايا الاغتصاب واللوليتيزم(83) وقد أكَّدنا الحكم بفساد الأثرياء في عالم السينما والمال والسياسة، رغم ذلك لن يجرؤ أي منهم على أن يشير إلى بان بأصابع الاتهام. يعد بان جنسًا بالطبيعة، عنيفًا لكن لحسن الحظ نجده قويًّا جامحًا لا يحمل معه أبدًا أي استغلال أو قمع، ولا ينتهز من وراء أي مكانة اجتماعية، لأنه إلهًا في تلك الحالة. من جانبهم، يتزاوج الساتير والحوريات بسعادة ويقضون أوقاتهم بين الملاحقات والهرب ويتساوون في حجم الرغبات ذاتها. كما أن وظيفة قضيب بريابس العملاق لم تكن بغرض الاغتصاب، وإنما لقضاء متطلبات الأرواح الطبيعية في الإنبات وحماية الحقول والبساتين والكروم.

(83) مصطلح باللغة الإنجليزية يُعرِّف بأنه يشير إلي فتاة «تملك جسدًا مثيرًا في سن صغير»، و قد أُستمد هذا المصطلح من رواية فلاديمير نابوكوف التي نُشرت في عام 1955 بعنوان لوليتا التي تصوِّر هوس الراوي الجنسي بفتاة تبلغ من العمر 12 عامًا تُدعى دولوريس هيز، واسمها المستعار لوليتا. على عكس نابوكوف، يستخدم الكتَّاب المعاصرون عادة مصطلح لوليتا لتصوير فتاة صغيرة تجذب رغبة الكبار على أنها متواطئة وليست ضحية.

بعودتنا إلى الطبيعة والرمزية سنفهم روح الـ «فالّوفوريى»؛ تلك المواكب التي يُحمل ويُعبد خلالها قضيبًا ضخمًا من الخشب، وسنفهم السبب وراء انتشار، حتى يومنا هذا، اللنجام؛ القواضب الحجرية المنتصبة في الهند الهندوسية، تلك الرموز التي تُشير إلى إله قديم لا يزال يُعبد على الأرض يدعى الإله شيفا.

بان

يصعب وصف بان؛ فهو دائم الفرار والتخفي والتكاثر، لديه مظهر وقصة تمتاز عن سائر قصص آلهة الإغريق الأخرى. يبدو للوهلة الأولى إلهًا ريفيًا، دائم اليقظة، يلوح في عينيه وميضٌ أبيض كعيني الماعز، كما رآه لورانس في كتابه بان في أمريكا، كهاربٍ متخفٍّ في الأدغال، أو خارجٍ عن القانون. مع ذلك، عندما يُذكر في العصور القديمة يتكرر تعريفه بأنه «الإله بان العظيم»، بنبرة غامضة من الاحترام كما لو أن بان بمنزلة الإله الأعظم بين الآلهة على الإطلاق. يشمل اسم بان باليونانية معنى «كل شيء»، على الرغم من بعض التفسيرات غير الرائجة تزعم أن اسمه مشتقًا من فعل Paian؛ أي يرعى.

تحيط بولادته أقاويل بلا عددٍ، وأكثرها رواجًا القائلة بأنه ابن هرمس والحورية دريوب المقدسة في البلوط، لكن هناك عدة أسماء لأمهات محتملات أيضًا.

دعونا ألا ننسى أن هرمس كان لصًّا من لصوص الغرام؛ هل أنجب من الحورية إينيدى أو -كما يزعم أحدهم- يكون قد تغزَّل في بينيلوب؟ لِمَ لا؟ وماذا عن زوجة أوديسيوس رمز الإخلاص؟ يُقال إنه نالها بعد أن تخفى في هيئة كبش.

في النهاية، ونظرًا إلى الطريقة الغامضة التي وُلِد بها بان، ساد القول إن العنزة مالثيا ربما تكون أمه المحتملة أيضًا؛ أجل عنزة، لكنها تنحدر من ماضٍ نبيل لأنها مرضعة الصغير زيوس.

لم تحاوط الشكوك أمهاته فحسب؛ بل إن هرمس ربما كان هو مَن أنجب إرمابان، وحسب همجيته البدائية فيبدو أنه تكرر في أشكال مختلفة ومراحل متنوعة بعيدة من حيث الوقت؛ فبدءًا من العصور السحيقة هناك تيتانوبان المولود من أحد الجبابرة، ربما من كرونوس، وديوبان المولود من زيوس.

ومن ثَمَّ، فإن الكائن بان، حاوي كل شيء، ربما تعزز وجوده من العلاقة الأبوية الغريبة التي تربطه بزيوس: فإن كان وُلد حقًّا من كرونوس فسيغدو شقيقه، وإن كان وُلد منه شخصيًّا فسيعد

بمنزلة ابنه، وإن كان مولودًا من هرمس فسيكون حفيده. ها هو الإله المسكين المشوَّه الوحشي يحوي داخله قدرة غير مألوفة حوت كل شيء؛ طبيعة الأصول والطاقة المظلمة السحرية للجنس التي انبعث منها كل شيء.

الصورة الأكثر شهرة لبان تلك التي صوَّرته على أنه إلهًا قرويًّا. عرف هرمس دريوبي خلال تلك المرحلة التي توجّب عليه خدمة البشر، ووقع في حبها، تمامًا كما حدث مع أبوللو عندما كان يرعى قطيع أدميتوس. نعرف جيدًا أن المتعة تتلو الرغبة على الفور في عصر الآلهة، وها هو هرمس ودريوبى يتحدان في عناقٍ سعيد، لكن السعادة لم تدم طويلًا على الأقل بالنسبة إلى دريوبى.

انكشف لها الطفل الذي أنجبته من رحمها كما لو كان مخلوقًا مرعبًا؛ فلديه قرنان تعلو رأسه، وقدما ماعز، ولحية تكسو وجهه، وما إن أجهش ببكاء كسائر الأطفال وبدأ يقفز حتى أدركت مقدار وحشيته وآثرت الهرب على أن تبقى لتربية ذلك المخلوق، وهربت.

هكذا نشأ بان؛ الطفل الوحشي المشاكس ذو الضحكات المتسارعة التي تشبه ابتسامات خبيثة، بمفرده دون أم. حمله هرمس بين ذراعيه، ولفّه بجلود أرنب بري، وأخذه إلى أعالي الأولمب.

ابتهجت الآلهة برؤية ذلك الكائن الضئيل المشوه وضحكوا متهللين ودعوه بان؛ إذ إن ردود أفعالهم لا يُمكن أن تقارن بما نفعله نحن البشر التعساء. رغم ذلك لم يُحتفَ بالصغير باستمرار بين آلهة الأولمب الاثني عشر العِظام؛ حيث إن مجدهم له أبعادٌ أخرى ومظاهر أخرى، ظلمتها أكثر من نورها.

هكذا، تخلّى عنه أبوه هرمس أيضًا، وتربَّى بان بواسطة حوريات أركاديا. أصبح إلهًا قرويًّا يحيا بين الغابات والبقاع العشبية والكهوف والبحيرات ويرعى القطعان وتعلم تربية النحل مثل أريستو، ومساعدة الصيادين في تعقب فرائسهم، ويرقص بلا كلل كل ليلة بصحبة الحوريات.

لم يُظهر أي شرٍّ، بل كان بمقدوره أن يبدو سعيدًا بسيطًا بحقٍّ كأي راعٍ. عقب الظهيرة، كان ينعس تحت ظلال إحدى الأشجار ولم يرد أن يزعجه أحدٌ مهما كان السبب. إن فعلها أحد، وإن كان من دون قصد من جانبه، يُصدر بان صيحة حادة مدوية ينتشر صداها في الغابة حتى تهتزّ أوراق الأشجار لقوتها، وتهرب الأيل، وتحلق أسراب العصافير الهائلة وسحب من حشرات الزيز. إذا أحسَّ أي إنسان بتلك الصيحة تتسلل إلى أذنيه فستجتاحه رجفةٌ لا يمكن إيقافها أبدًا،

وسيشعر بأطراف شعره تنتفض إلى الأعلى: هذا هو «الذعر»، خوفٌ معدٍ مؤلم يُسمى هكذا حتى ذلك اليوم.

في أحيانٍ أخرى تصبح طباعه أكثر قتامةً واضطرابًا، ويتجلى بان بصورة مخلوق قضيبي ذي قوة هائلة. لا يكتفي بالرقص على التلال مع الحوريات تحت ضوء القمر وإنما يطاردهن ويتملكهن. يتغزل في إيكو، دون أن يعبأ لأمر نركسوس التي أحبَّته الحورية إلى حد الجنون؛ إذ إن حدود المتعة الجسدية بين الآلهة تعد أكثر ضبابية ومرونة من تلك التي اعتدناها عدة قرون من ثقافة الخوف من الجنس.

تغزّل في أوفيمى بعد ذلك، مربية الموزيات، وكان يزهو بقدرته على تملُّك جميع، أجل أقصد جميعهن، جماعات المينادى والباكانتى التابعات لديونيسوس، فيباغتهن في سكرتهن وزيغان حواسهن، حتى إنهن يمِلن إلى المضاجعة وإلى أي شكل آخر من أشكال المتعة الحسية.

لا أحد يعرف كيف كان يظهر بان إبان ذلك، بين كل أولئك الفتيات الجامحات القادرات على تقطيع أي رجل إلى أشلاء بل وفصل رأسه. لكن بان لم يكن رجلًا؛ فلم يكن له مظهر أورفيوس المرتل النبيل، أو حتى كبنتيوس ملك ثيفا. كان بان يحظى بشيء بدائي حيواني لا يمكن محوه أبدًا، يحمل في جسده المشوَّه النارَ المنسدلة من الشمس وترجع إلينا في اتجاهها الصاعد دائمًا نحو الأعلى، وأسراب النحل التي تطير بجنون حول البتلات وتنثر حبوب اللقاح الخاصة بها.

إن بان هو الطبيعة، ووحدها الطبيعة يمكنها أن تقرر متى يمكن كبح دوافعها أو خداعها. حدث ذلك مع حوريتين، بيتيس وسيرنجا، فكلاهما تمكنتا من الفرار من هجماته، وكلاهما أيضًا نجحتا في ذلك بعد خضوعهما لعملية تحول.

تحوَّلت بيتيس إلى صنوبر، ويزعم البعض أنها تحولت إلى شجرة تين، ولكن أيًّا كان نوعها فلقد نزع بان، المحبط لا الحزين، عنها فرعها وصنع منه شيئًا يشبه القلادة الريفية التي تذكِّره دائمًا بحوريته المحبوبة.

أما سيرنجا، فلقد أظهرها أوفيد بصورة حورية عفيفة، إحدى تابعات أرتميس، وتقريبًا لا يمكن تمييزها من جمالها وإنما، وعكس سائر الآلهة، من خلال القوس القرني الذي تمسكه بدلًا من القوس الفضي. عندما أعرب لها بان عن رغبته، وعلينا أن نتأكد أنه فعل ذلك بصورة غريزية مبتذلة، هربت سيرنجا إلى الغابات.

كانت تزعم أنها تفوقه خبرةً وسرعةً، فمن المعروف أنها تتدرب جيدًا على الركض، لكن بان لم يتركها تبتعد كثيرًا، فالغابات والأكواخ والأخاديد تعد بمنزلة بيته، وهو لا يعرف العقبات أو التعب. تناهى إلى مسمع سيرنجا صوت ضحكاته ووقع خطاه. بلغت يائسةً نهر لادونى ذا العمق الرملي والضفة المليئة بالأقصاب. تضرعت بصلاة إلى شقيقاتها الحوريات ساكنات المياه، وطلبت منهن أن يعتقنَّها من الإله الوحشي الذي أوشك أن يسلبها لنفسه، لبَّت الحوريات طلبها.

في الحال تمَّ تحولها؛ إذ إن بان مدَّ ذراعيه للإيقاع بها، وأوشك أن يتم مهمته وتصبح الحورية ملكه، فوجد نفسه يحتضن حزمة من الأقصاب الطويلة النحيلة. أصبحت سيرنجا واحدةً من تلك الأقصاب جراء شفاعة شقيقاتها الحوريات، لكن تُرى، أي قصبة كانت؟

مرةً أخرى، لم يُبد بان أي ملمح للحب الرومانسي، ومال إلى المواساة، وبينما كان ممسكًا بالأقصاب أمام وجهه، أحسّ بأنفاسها تُصدر صوتًا يسحره من جوف إحداهن.

كسرها إلى سبعة أجزاء مختلفة في الأطوال، وربطهم معًا، ونفخ بداخلها. هكذا ابتُكِر الزوفولو، آلة الرعاة، والمهرجانات الريفية، التي ستحل محلها القيثارة بعد ذلك، قيثارة هرمس وأبوللو وأورفيوس، الملائمة بصورة أفضل لتمجيد عواطف الآلهة النبيلة ومغامراتهم.

من ثَمَّ، نرى أنه بجانب عالم بان الليلي وسكنى الغابات، هناك أيضًا عالم الموسيقى والرقص، ومن خلال الأخير تمكَّن من مغازلة الحوريات والإيقاع بهن.

تُعَد قصة حبه مع سيلين بمنزلة القصة الأكثر سعادةً بين جميع قصصه، إنها ربة القمر ذات العينين المبصرتين، الإلهة التي تنظم الحيض عند للنساء وترسل الندى الصباحي على أوراق الأشجار والعشب وبتلات الورد.

في البدء احتجَّت سيلين على محاكمة إله الغابات ذي المظهر العابس المشوَّه، حينها، تعلّم بان كيف يستغل مكره وتنكُّره بعد أن كان معتادًا جماحه العنيف فقط. كانت سيلين في سمائها غير مُدرَكة عفيفة، وربما كل ما احتقرته فيه كان مظهره القاتم الأشعث. حينئذٍ تخفَّى بان في صورة مغايرة؛ فكسا نفسه بصوف الماعز الكثيف الأبيض، وكان ناصع البياض حتى خال لسيلين أنها تنعكس على سطحه. انجذبت الإلهة إلى ذلك الفراء فنزلت من علوها وامتطته. لم تكن تعرف حجم شهوة وشغفه المختبئ تحت ذلك البهاء الناصع، وأنه بات بمقدوره نوالها واللهو معها بألعاب الحب الجامحة بلا هوادة.

يحيا بان في طبيعة ومعزل ومغاور أنفسنا، يجسِّد الخبرات الغريزية التي تصل إلينا الطبيعة من خلالها وتسكن داخلنا، إنها رغبة ممزوجة بالكرب، ومتعة ممزوجة بالخوف. إن كان هو، كما يتراءى لنا، مَن يدفع نحو الاستمناء والاغتصاب، فهو يفعل ذلك بمعنى مغاير تمامًا عن المعنى الذي أضفيناه نحن إلى تلك المصطلحات اليوم.

بالنسبة إليه، فإن الاستمناء يُعَد ممارسة تمتزج من خلالها المتعة الجنسية وإطلاق العنان للخيالات السحرية للمَزجَرة[84]، الموروثة من طقوس التلاعب بالأعضاء التناسلية التي أكد بها الرجال في العديد من المجتمعات البدائية قوة الحياة في مواجهة الموت وضد أعين الشر (لا تزال تلك الطقوس سارية إلى الآن وبالطبع إن لم تكن مستهجنة، فعلى الأقل هي غير أنيقة وهي عبارة عن ملامسة الخصيتين بصورة عابرة لمواجهة الأخطار والمصائب والمهالك الوشيكة).

(84) نوع من السحر يهدف إلى درء الأذى أو التأثيرات الشرية، مثل درء الأذى أو زجر عين الحسد، ويكون على شكل تميمة تتولى زجر الشياطين وقوى الشر عامة. تُمارس شعائر المَزْجَرَة بدافع الإيمان بالخرافات اللا مفهومة أو بعيدًا عن التقاليد، كما هو الحال في سحر الحظ السعيد، أو التمائم، أو الإيماءات مثل الأصابع المتقاطعة أو النقر على الخشب، وقد قدم اليونانيون قرابين «لآلهة زجر قوى الشر»، الآلهة والأبطال القوميين الذين يمنحون الأمان ويدرؤون الشر.

يقترح جيمس هلمان، الذي خصَّص بحثًا كاملًا للإله القديم، أن الاغتصاب وفقًا لبان يعد بمنزلة الاختراق والتخصيب الإلهي للعالم، المُقاوم والمضغوط بالمادة، حتى يجلب له الحياة. بهذه الطريقة فقط؛ أي بقراءتها كرمزٍ فلسفي تكتوني، نستطيع فهم تلك المظاهر في جوانب بان التي قد تبدو في أعين المعاصرين شيئًا ظلاميًّا مقززًا.

إن بان يعد بمنزلة الإله الوحيد المعروف تاريخ وفاته. حدث ذلك في عصر الإمبراطور تيبيريوس في العقد الرابع من القرن الأول بعد الميلاد. على متن سفينة متجهة نحو الغرب، بالقرب من جزيرة باروس، سمع الربان باروس أحدًا يناديه من الأرض ويقول: «عليك بإعلان وفاة الإله العظيم بان»، في الحال تعالى النحيب والدموع الخانقة من جميع جوانب الساحل.

حسب تزامن الأزمنة، وتحت حكم الملك تيبيريوس، ظهر المسيح في فلسطين. منذ ذلك الوقت أصبح المسيح رب الكون الجديد. أما بان، الغريزة الوحشية، الطبيعة البرية، فقد هُزِم وطُرِد إلى الأبد. بإعلان وفاة بان، أُعلِن عن ظهور دين الشفقة والرحمة، وأما من الإله القديم فاسُتمد منه الملامح التي نصف بها العدو، الشيطان سواء القرنين أو حوافر الماعز.

ثمة فرضيات أخرى تزعم أن مقتل بان من قِبل البشر الذين أرادوا إعلاء الروح البطولية، واقتفوا أثر هرقل وبروميثيوس؛ فعملوا على تطهير العالم من أي وحشية، وبناء الحضارة

البشرية باستخدام مواد الأرض، وتطويع الماء والنار لأغراض دنيوية تمامًا.

يعد بان بمنزلة العلاقة البدائية بين الإنسان والطبيعة، وبعد ذلك، كما يبرهن لورنس، انطلق أجدادنا القدامى لسكنى المدينة وآثروا رؤية الناس عن رؤية الأشجار. أخذوا يُقدِّرون الأفكار، والتفكير المجرد، وصناعة الآلات التي تنجز الأعمال بدلًا من أذرعهم، وهكذا تشابك التجريد مع التقنية، وصنعوا حاجزًا منيعًا بينهم وبين الأشياء، بين النفس والطبيعة. إن الإحساس بمجمل الخلق، بين الصخور والأشجار والحيوانات والبشر والآلهة، قد كُسِر وفُقِد بلا رجعة.

هل يتجلى بان اليوم في صورة كبت أو سيكوباتية أو وحشية السلوك المندفع نحو الغريزة؟ أزعم أن الأكثر حقيقة وواقعية القول بأن بان يتراءى في جوعنا نحو الطبيعة، في التواصل المباشر مع النجوم والسماء وأمواج البحر، في إيجاد طاقة الكون بين هبَّات الرياح، وفي الحاجة إلى تذوق إخوة جديدة مع عالم النبات والحيوان، وفي إيجاد صلة تربطنا بأمنا الأرض حتى يتسنى إنقاذها من الهجمات التي يشنها عليها ورثة هرقل وبروميثيوس حتى عانت صنوف التلوث والجفاف والانطفاء بغرض الاستيلاء على كل ثرواتها.

في الحالة الثانية، يتجلَّى بان، رب الغابة المشوَّه، عازف الزوفولو، مُغوي القمر، كالإله الأعظم منذ التاريخ: ذلك الذي في إمكانه مساعدتنا في إعادة توطيد كمالنا كمخلوقاتٍ بشرية بين الجسد والنفس في مغامرتنا على كوكب يتعيَّن علينا أن نحفظه ونحبه.

الحوريات

كيف يبدو عالم الطبيعة في أنظار شخص يوناني قديم؟ سنجد صعوبة في تخيُّل الأمر، نحن الذين ننتمي إلى حضارة صيَّرت الطبيعة مستودعًا هائلًا للمواد الخام، أو ملعب أطفال بلا فائدة، وفي أفضل الأحوال تصبح «منظرًا طبيعيًّا» وإن كنا نجحنا في تشويهه، وليس هناك مجالٌ للشك فيما تراه أعيننا من فقر مدقع وتسمم بل ومخاطر لموت الكوكب.

أتساءل إلى درجة من السحر، الذي ترافقه دهشة جديدة دائمًا، كان يشعر بها البشر آنذاك إثر وقوفهم أمام شجرة أو جبل أو نبع أو بحر، ولعلَّني أنجح في التأمل في ذلك الأمر، وإن كان بصورة مشوشة، عندما أفكر في الحوريات بصورة خاصة.

تُعَد الحوريات ربات صغريات تنقسم إلى عائلات متعددة بأسماءٍ متنوعة، وحضور طاغ، يظهرن في صورة فتيات في طور الشباب يلتحفن بأغطية أو زهور أو عاريات، ويملأن كل جانب

.من جوانب الطبيعة، ولهن قصص كثيرة في الأسطورة

تسكن حوريات البحر في الينابيع والأنهار ولديهن علاقة وطيدة بالماء؛ إذ بمقدورهن التدفق .ويتمتعن بشفافية ناصعة

أما الأُريادة؛ الحوريات الجبلية، فتراهن يصعدن الجبال، ويعشن في المرتفعات، في غابات .التنوب المنحدرة أو على قمتها

أما حوريات الأمادريادى، فيملأن الغابات والأعشاب والشجيرات والمغائر والطحالب والورد، إذ يمكن رؤيتهن في كل شيء. من بينهن، هناك دريادس؛ حوريات الأشجار اللواتي يتواجدن في .أكثر الأشجار قدسيةً: شجرة البلوط

هناك حوريات أخرى يظهرن بصورة أقل في قصص الأسطورة، رغم ذلك نعرف بضعة أسماء منهن مثل: نابى، اللواتي يملأن الوديان، وليمنيادي اللواتي يعشن في البحيرات، والميليادي اللواتي يعشن في لحاء أشجار المُران ويحمين القطعان والرعاة، ويقال إنهن بمنزلة أقدم .الحوريات في الكون إذ إنهن وُلدن من دماء أورانوس

إن انتقلنا من الأرض اليابسة إلى أعماق البحار فسنجد أن هناك بعض الكائنات تتمتع بملامح .الحوريات نفسها ولديها حضور واضح بكل تأكيدٍ

تسكن النيريدات في البحر، الفتيات الخمسون اللواتي وُلدن من نيريوس، الشيخ المهيمن على الأمواج من قبل بوسيدون أيضًا، ودوريس، ابنة أوقيانوس. إنهن فتيات فائقات الجمال ولطيفات مثل والدهن، شيخ البحر الحكيم المتأهب دائمًا لتقديم النصائح الطيبة. كن يبتعن السفن من بعيد، ويقتربن منها في حالة وجود أي غرقى لإنقاذهم. كن يحتضنَّهم ويساندنهم ويوجهنَّهم نحو الشاطئ. كن يمتطين الدلافين وفرس النهر بمهارة شديدة. وبرفقة النيريدات يملأن .الأوقيانوسيات البحر؛ بنات تيتي وأوقيانوس

ثمة قرابة تربط الأوقيانوسيات ونيريدي؛ إذ إن أوقيانوس يُعَد بمنزلة والد الأوليات وجد الأخريات من أمهن. إنها مخلوقات تنحدر من آلهة عتيقة، ربات مثل الشمس والكلمة، يسبقن .أرباب الأولمب ولا يدِنَّ لهم بالطاعة

حسب الرواية الأولى يبلغ عدد الأوقيانوسيات خمسين حورية، من بينهن أورانيا وكالّيروي وديونى وبوليدورا وأوربا وإورينومى وآسيا وبيرسيدى وكاليبسو. كثيرًا ما ترددت تلك الأسماء

في قصص الحب الخاصة بالآلهة، وعلى رأسهم زيوس، وفي قصص البشر أيضًا مثل أوديسيوس. في تقديرٍ آخر يبلغ عددهن ثلاثة آلاف حورية، ومن ثَمَّ سيفيض البحر بهن في الأمواج وزَبَد البحر ورذاذ ملوحته.

تتغذى الحوريات على الأمبروسيا الشهي ويعتنين كمربياتٍ بأبناء الأبطال ويحببن الرقص مع الآلهة المنحدرين من الأولمب لأجلهن. تضج الطبيعة بأسرها برقصهن حتى إن الليل كان ينعم بنور سيلين الفضي، القمر. رقص كثيرون مع الحوريات؛ هرمس وديونيسوس وأبوللو وبان الإله الأقرب إليهن الذي كان يندسُّ إلى رقصاتهن ليستعرض استثارته ويجتاحهن ويمتلكهن.

إن كان صحيحًا أمر وجود حوريات عفيفات، أولئك اللواتي كن يتبعن أرتميس، فلقد ارتبط اسمهن بشكل عام بالسحر الشهواني المنبعث منهن وبالفتنة التي يأسرن بها الآلهة والبشر على حدٍّ سواء. غالبًا ما كن يرقصن ويتحركن في جماعات ثلاثية، مثل الكاريتي، بنات زيوس وإورينومى ابنة أوقيانوس بدورها، تؤكد لنا الأنساب الأسطورية دائمًا أن الحياة برمتها تنبع من أعماق البحار.

أما الكاريتي الثلاثة فهن؛ أجلايا وإوفروسينى وتاليا التي تحمل الاسم نفسه لإحدى الموزيات. هن صديقات أفروديت وأبوللو، صبيات ذات هيئة مثالية، جوهر كل ما هو مُزخرف، كل بهجة وملء للحياة. ينبعث من أعينهن اللطف والحكمة واللذة والهدوء وكل ما يجعل الوجود البشري أكثر لذةً. أطلق الرومان عليهن لقب النعم، وعُرفن بكونهن قوى حضارية في القصيدة التي كرسها لهن أوجو فوسكولو؛ الشاعر مرهف الحسِّ لموضوعات الأسطورة وروحها ويرجع ذلك إلى كتابتها في جزيرة زاشنتو اليونانية:

[...]الصبي

الذي كان يعشق فينوس الإلهة.

ليست الحوريات، الربات الصغريات، خالدات كلهن، الخالدات منهن فقط من يسكنَّ البحر في حركته الأبدية، أما حوريات الينابيع فلم تكن خالدة؛ فالينابيع قد تجف ذات يوم، وحوريات الأشجار أيضًا؛ فالأشجار قد تتيبس أو تُصعق بالبرق، رغم ذلك، ليس هناك أي داعٍ للقلق بشأن مصيرهن؛ إذ إن بمقدورنا تحديد فترة حياتهن بصورة أو بأخرى.

إن كان عمر الغراب يفوق ثلاثة أضعاف عمر الأيل، وحياة النخيل تفوق تسعة أضعاف عمر الغراب، إذن، فعمر الحورية سيطول حتى يبلغ عشرة أضعاف عمر النخلة.

يبدو بالعمر القليل، لكن دعونا نحسب شيئًا: إن كان متوسط عمر الأيل يصل إلى خمسة وعشرين عامًا، فعمر الغراب سيصل إلى خمس وسبعين سنة، ومن ثم يكون عمر النخلة ما يقارب ستمائة وخمسة وسبعون سنة، وإن ضربنا هذا الناتج في عشرة سنحصل على الرقم ستة آلاف وسبعمائة وخمسين، وهذا هو متوسط العمر لأي حورية بحر أو أمادريادى.

من ثَمَّ، فربما أولئك اللواتي يسكنَّ مياه الينابيع ولحاء الأشجار منذ أيام أوديسيوس أو هوميروس لا يزلن على قيد الحياة إلى الآن، وليت أعيننا تستطيع رؤيتهن.

الساتير والسيليني

في أعماق الغابة يسكن الساتير، مخلوقات غريبة الأطوار، سريعة الانفعال، حاقدة على البشر إذا ما تجرأ أي منهم على الاقتراب منهم، بل وقد يصل الأمر إلى حد الخطورة. امتاز بعضهم بطول شعرهم، وامتاز البعض الآخر بروؤسهم الصلعاء تمامًا، وكان لديهم لحية وصدر مشعر وهيئة تُشبه القرود وأنف مفلطح وذيل وأرجل تكون تارة لماعز وتارة أخرى لفرس. بصورة مشتركة، امتازوا جميعًا بسمة واحدة: في الجزء السفلي من البطن الضخم يرتفع من عانة كل منهم قضيبٌ منتصب ذو حجم مثير للإعجاب.

كانوا شبقين نحو الجنس على الدوام، يتسكعون مفعمين بإثارة جنسية إلى درجة دفعت هسيودوس لوصفهم بأنهم لا يصلحون لشيء، مستعدين للمزج بين العبث والسخافات، ولا سيما ملاحقة الحوريات ومحاولة التمتع بجمالهن بأي طريقة.

اشتق اسم الساتير من المصطلح اليوناني «ساتيروس» الذي يعني في بعض الأحيان «ممتلئًا» أو «فائضًا». يكفي التمعن فيهم لمعرفة بما يمتلؤون: بالرغبة والمني والتوق إلى المضاجعة، كل ذلك يفيض من وجودهم. يستطيعون الرقص، بموهبة غير متوقعة، عندما يريدون، ويتأكد لنا ذلك من الصورة الجوية للساتير الراقص المعروف بـ مازارا دل فالّو(85)، التي سُميت على اسمه مدينة يحدُّها البحر من كل جانب حيث وُجد بها.

(85) ضمن (Mazaro) مدينة إيطالية في أقصى غرب جزيرة صقلية مطلة على البحر المتوسط عند مصب وادي المجنون مقاطعة طرابنش، تبعد عن مدينة طرابنش 55 كيلومترًا جنوبًا، كما تبعد عن الساحل الإفريقي ممثلًا بتونس مسافة 100 كيلومتر.

كانت جماعات السيليني تجوب الغابات جنبًا إلى جانب الساتير، كرفقاءٍ في اللهو مع الحوريات، وكانوا سكارى ويرقصون ببذاءةٍ ومجون، وقد رُسِموا على لوحات زهرية كمخلوقات ذات لحية طويلة بارزة وذيل حصان كثيف مبتهجين بحمل زقاق الخمر الذي يذكرنا بإلههم المعبود ديونيسوس.

لقد التقينا بالفعل بأحدٍ منهم؛ معلم ديونيسوس، وأما من بين الساتير فنجد المنكوب مارسيا الطائش الذي تحدَّى أبوللو في منافسة موسيقية أودت بحياته.

يتراءى لنا أن الساتير والسيلين يتمتعون بحضورٍ ومساحة أقل من الحوريات. لقد جُسِّدت الطبيعة بصورة أفضل من قِبل الشخصيات النسائية بلا شكٍّ، تاركات للذكور أدوارَ الفوضى والنزاع بل والكوميديا والهزل. كانت الحوريات مربِّيات للآلهة والأبطال، صديقات صامتات لأرتميس والقمر، عاشقات ومُحبَّات. إنهنَّ صور أخرى للأم العظيمة التي تُحيي الطبيعة في ملء روعتها ورجفتها، كما لو كن دليلًا على ميراثهن للنظام الأموي البدائي.

أما الساتير، من كلمة «ساتيروس»، فهم يفيضون بالمني، ورغم أنه لا غنى عنه بلا شك، لكنه أيضًا يدعو إلى الهزل والسأم بل والابتذال في بعض الأحيان. لا نعرف شيئًا عن مدة حياتهم كأنصاف آلهة، لكن بالتمعن في ملامحهم الرئيسة يتراءى لنا أنهم يحيون إلى الآن، في كثير من الذكور المعاصرين، عديمي الفائدة، المهووسين بالجنس، الحمقى والضعفاء بالمقارنة بأنظارهم من الإناث.

بريابس

تعد ولادة بريابس ثمرة لإغواءٍ شريرٍ أو نستطيع القول إنها نتيجة شيء أشبه باللعنة. كانت أفروديت حبلى، حتى وإن لم يكن واضحًا ممن، بسبب سلوكياتها غير المعتدلة على الإطلاق. ربما كان هرمس من خصَّبها، لص إيروس الذي على استعداد أن يستغل أي موقف، وربما يكون أدونيس أيضًا، الفتى الذي أحبَّت الإلهة جماله إلى حد الجنون، أو ديونيسوس الذي تمتعت بواسطته بقوة الخمر وروعة الإفراط، وأخيرًا قد يكون زيوس، سيد الأولمب، العاشق الذي لا يكلُّ حتى إن مقاومته صارت عبثًا.

كانت هيرا، ربة الزوجات والأسرة، تكره أفروديت. كانت هي مَن حصلت على التفاحة الذهبية كمكافأة على جمالها من باريس، ولم تغفر لها هيرا فعلتها قطُّ. لم يرُق لها أيضًا حبها المبالغ

وعواطفها المتقلبة وحريتها الجامحة. لم تتوافق كل تلك الأمور مع مبادئها الأسرية بل ووضعتها في أزمة بالفعل وقوَّضت أسسها، حبلى مِن مَن؟ وماذا إن كان زيوس زوجها الشرعي وراء ذلك؟ قررت هيرا أن تجعلها تدفع ثمن فعلتها، لا أحد يعرف كيف، ولكنها ربما استغلت لحظة نعاس أو إلهاء أو سُكرة فوضعت راحة يدها على بطن أفروديت وأطلقت لعنة.

نتيجة لذلك وُلِد الطفل بهذه الصورة: ذو ملامح وحشية ولسان ضخم طويل متدل، وبطن بارز، وأعضاء تناسلية عملاقة؛ خصيتان منتفختان كزِقاق النبيذ وقضيب يفوق طوله مرتين أو ثلاث مرات طول الطفل نفسه، غير متناسب، لا يُصدق، يزداد حجمًا دائمًا حتى الحشفة، منتفخ وأرجواني.

تُرك الصغير بريابس في إحدى الغابات، ولم يقو أي من الآلهة على تربية مخلوق مثله. التقطه راعٍ فقير وحمله إلى منزله وقَبِل تربيته. كان ذلك الرجل الطيب البسيط يتمتع بمكرٍ أيضًا؛ إذ إن بملاحظته أن المخلوق الصغير ذا الأعضاء التناسلية غير المتناسبة الحجم يمكنه رفع خصوبة الحقل بل وخصوبة قطيعه أيضًا. كلما نما بريابس تضاعف قضيبه حجمًا حتى إنه لم يستطع السير إن لم يكن قضيبه منتصبًا تمامًا، مدفوعًا إلى الأمام بقوة الطبيعة الخصبة، وأصبح بريابس حامي الرعاة والفلاحين وراعي الحقول والبساتين.

لا قصص لديه يلعب فيها دور البطل، إن لم تكن القصة التي نعرفها عن محاولته التعيسة الهزلية عندما حاول اغتصاب هيستيا، تلك التي كانت بمنزلة الإلهة الورعة بينهم، حامية الموقد المنزلي. عزيزتي القارئة، عزيزي القارئ، تتذكرون أن نهيق الحمار هو الذي أحبط ذلك الفخ. من ثم، يبدو الحمار بمنزلة الحيوان المقدس بالنسبة إلى بريابس، هو أيضًا مُذدرى به ولديه العضو الذكري الذي لا مثيل له. مَن يود أن يحظى برضاء بريابس كان عليه تقديم حمار كذبيحة له.

يُروى أن هيرا قد كلفته برعاية الشاب آريس الذي سيصبح الإله الشيطان للحرب، كثير الشجار ودائم الانتصاب. ممن أرادت سيدة الأولمب أن تسخر بهذا القرار؟ علّم بريابس آريس وجعل منه راقصًا ماهرًا قبل أي شيء، ولكن بعد ذلك صيَّره محاربًا لا يقهر.

لذا فإن بريابس يحتل مكانة بين ذلك الفيلق العجيب من المعلمين الذين تجسدهم الأسطورة على أنهم مخلوقات وحشية بذيئة، نتذكر مثلًا القنطور شيرون، نصفه رجل ونصفه حصان، الذي تعلَّم على يديه أخيل وسيلينوس بل وكان معلم ديونيسوس المخمور.

لم يتم تجسيد الإله ذي المظهر الفاحش بالرخام أو البرونز؛ تلك المواد النفيسة التي تتماشى مع الآلهة الذين يعتلون العرش في بلاط زيوس في أعالي الأولمب. كان كافيًا بالنسبة إليه أن يتم تجسيده بفظاظةٍ بالخشب من قِبل بعض الرعاة. لم يجد له موضعًا في المعابد وإنما على أسوار البساتين والكروم حيث يلقي قضيبه غير المألوف بظلاله الممتدة على الأرض ويؤدي أيضًا وظيفته كخيال مآتة.

من يجرؤ إذن على الاقتراب من ذلك النمو غير المألوف لذلك المتقلب اللص الطفل المنجذب إلى عناقيد العنب الممتدة من الفخذ إلى الحشفة، والذي يرغب دائمًا في شق طريقه واختراق جسد آخر مهما كان؟

في الجزء العاشر من قصائد كارمي بريابس(86)؛ مجموعة من خمسة وثمانين نصًّا لمؤلفين مجهولين (وإن كان يُقال إن ثلاثة منهم بخط فيرجيل واثنين لتيبولوس وقد كُتبت قرابة نهاية عصر أغسطس ونهاية القرن الأول الميلادي)، ووفقًا لاتفاقية أدبية فإن بريابس نفسه هو مَن يتولى زمام المحادثة. يسأل فتاةً، أسماها شديدة الغباء، ما الذي يُضحكها أمام صورته التي لم يصوِّرها فيدياس وبراسّيتيلى، وإنما صُوّرت بالخشب بواسطة عامل بسيط، مع الحفاظ على تجسيد ذلك العمود المندفع خارجًا من عانته.

(86) عبارة عن مجموعة من ثمانين (في بعض الطبعات خمسة وتسعين) قصيدة لاتينية قصيرة مجهولة بمقاييس مختلفة حول موضوعات تتعلق بالإله القضيبي بريابس. يُعتقد أنها تعود إلى القرن الأول الميلادي أو بداية القرن الثاني، وهناك نظرية تقليدية حول أصلها هي أنها مختارات من القصائد كتبها مؤلفون مختلفون حول نفس الموضوع.

في مواضع أخرى من القصائد، يُظهر بريابس رجولته بصورة شرسة، إذ تتنوع صور قوة قضيبه وعروضه المثيرة، ويهدد اللصوص، ويهاجم النساء العجائز الثائرات جنسيًّا، ويُعلِّق على الهدايا اللواتي يقدمنها إليه. نحن الآن في العصر الروماني، حيث أصبح بريابس محل هجاء ونكات بذيئة ومزحة دنيوية وقد فقد قوته الظلامية الطبيعية الكونية تمامًا والتي رأيناها في البدء من ذلك الراعي البسيط الذي تبنَّاه.

من ناحية أخرى، ظلَّت ذكراه وآثار قوته تجسدها إلى الآن تلك المواكب التي يُنقل بها قضيب منتصب هائل الحجم مماثل لقضيب بريابس. سُميت تلك المواكب الطقسية «فالّوفوريا» وقد بلغت عظمتها في الاحتفالات الريفية لتعزيز خصوبة التربة ووفرة المحصول. ينتهي الحفل برشِّ الماء

والعسل والنبيذ على التربة محاكيًا بذلك قذف السائل المنوي بخفة، الذي يبذر البذار ويبعث الحياة.

14

السقوط

من بين النزعات البشرية التي نعرفها جميعًا تلك التي تدفعنا إلى السقوط في المنطقة المظلمة للخبرة وللوجود. إن النفس دائمة التدفق والفيض ولا تحكمها قوانين الجاذبية. يمكنها الصعود والهبوط كالحب تمامًا مثلما كتب القديس أغسطينوس: «الحب إما أن يكون في حالة صعود وإما في هبوط». قد تهبط أنفسنا بغتة، ويخيفها النور، وتفضل المكوث في الظلمة والصمت والوحدة، ولا تعود تستطيع احتمال نفوس الغير. تكاد تكون عاجزة عن التواصل، تنطوي على نفسها وعلى شرورها، تعاني دون معرفة السبب، لا تعود تشعر بأي رغبة في شيء وترتجف إذا ما تفكَّرت بأن هناك مَن تذهب إليه لمعرفة سر العدم الرهيب.

حتى هذه النقطة يتسنى لنا القول إننا أمام حالة من الانهيار العصبي، لكن تلك النفس التي تنحدر إلى الهاوية تُنعت باسم أحد الآلهة، الإله هاديس. دائمًا ما يكون السقوط نزولًا بطيئًا من طابقٍ منحدرٍ يصل إلى الموت أو الموتى. تتوق النفس إلى مثيلاتها. أي مَن فَقَدَ محبوبه وكان قريبًا منه حتى اللحظات الأخيرة يعرف جيدًا شعور البقاء إلى جانب جسد أصابه السكون فجأةً، لا يتنفس، سرعان ما تنطفئ حرارته ولم يعُد ينتمي إلى واقعنا بعد الآن. أما من يبقى، فربما يغويه السقوط ويدفعه إلى توجيه عينيه نحو الجرف، حتى يبقى ساكنًا أمام حافة الهاوية، ويكفر بمباهج الدنيا وملذاتها التي تعطيها مذاقها، ويصبح كل شيء من حوله رماديًّا قاتمًا، حينها، يتحوَّل العالم إلى مقبرة كبيرة.

أحيانًا يتجسد السقوط ويظهر على هيئة تساقط للشعر أو رائحة منبعثة من الجثمان، حينها قد يكون هاديس موشكًا أن يقبض نفسك قبل أوانها. عندها فقط يمكن أن تنجو بك الطاقة الجارية، الكامنة في نفسك، المندفعة نحو الحياة والعودة إلى الأبدية والربيع.

يمثِّل هاديس مملكة الأموات المظلمة، ذلك المكان حيث عادت بيرسيفون إلى الحياة بموجب إرادة الآلهة ومشاركتها مثل الأم ديميتر وزيوس والرسول هرمس. بل إنه ذلك المكان حيث لم تفلح يوريديس الخروج منه؛ إذ إن أورفيوس الشاعر العظيم كان بمفرده، ولم تكفِ أنشودته لتحريرها. جيدٌ أن يذهب المرء إلى الصلاة أمام قبور أحبائه، لكن عليه أن يتجه بعينيه إلى ما

هو أبعد من حجر القبر حيث بوابات مملكة العالم السفلي، بل يصوِّبهما نحو الشمس التي أنارت لهم، نحو حياة أنفسهم الجديدة في النور.

هاديس

لا يحب الإغريق الحديث عن الموت كما لا يؤمنون بوجود أي سبيلٍ للعزاء أمامه. هذا ما يعرفه أخيل، أقوى رجال اليونان، وتحدَّث به إلى أوديسيوس عندما قابله في العالم السفلي. كان الموت بمنزلة اللا حياة، الموضع الرمادي القاتم، غياب الشمس، إنه ظلمة لا جوهر لها.

تم تصوير الآخرة على أنها مملكة الظلمة، موضع في أعماق الأرض على حافة بحرٍ مظلمٍ غائمٍ ناءٍ، بلدة من الضباب تتقاطع مع أنهار ستيكس وأشيرون وفليجيتون وكوكيتوس وليثي. يقع نهر أشيرون تحت سلطة الشيطان الذي يحمل النفوس على مركبه المتجه صوب التارتاروس. وصفاه فرجيليو ودانتي بقوة تعبيرية تفوق العقل حتى إن خارون «الشيطان خارون ذا عيني الجمر» ظل عالقًا في أذهان الكثيرين؛ العجلات النارية المحيطة بعينيه، والشعر واللحية البيضاء الملبدة، وصوته الشرير، والمجداف الذي كان يستخدمه لضرب الأنفس وتحفيزها في ذلك المستنقع الباهت الجهنمي، فكانت هيئته بأكملها توحي بعالم الأشباح والكوابيس.

يحرس هاديس كلبٌ يُدعى سيربيروس (تجدر الإشارة إلى أن اسمه يدل إلى الآن على أي شخص قاسٍ، وحشي، صعب المراس)، ابن إيكيدنا التي كانت نصف امرأة ونصف أفعى، وتايفوس الذي تنسدل منه سلسلة من الوحوش لا نهاية لها.

كان لسيريروس نباحٌ مدوٍ كما لو كان ينجم عن ارتطام أشياء برونزية بعضهًا ببعض، وكان آكل لحوم نهمًا، ذا خمسين رأسًا حسب ما ذكر هسيودوس، أو ثلاثة رؤوس حسب الأقاويل الأكثر رواجًا. كان يقوم بأعمال الحراسة بطريقته الخاصة على حدود العالم السفلي، وعلى الرغم من أن تلك الحدود كانت مرعبةً ومفزعة، فإنه لم يكن ليسمح للأموات بالعبور للعودة إلى الحياة، كما لم يسمح للأحياء باجتيازها والدخول إلى مملكة الموتى قبل الأوان.

كان هاديس سيد ذلك الكلب إلى جانب كونه حاكم تلك المملكة التي سُميت على اسمه نظرًا إلى شدة تأصلها وارتباطها به. يعني اسم هاديس «غير المرئي»، أو «مَن يجعلنا غير مرئيين». أما الاسم الآخر الذي يُعرف به إله العالم السفلي فهو بلوتو الذي يعني «الغني» أو «واهب

الثروة». من السهل فهم مضمون الاسم الأول؛ فغير المرئي يُراد به مملكة الموتى ومَن يموت فهاديس يجعله غير مرئي، أما بالنسبة إلى الاسم الثاني فنجد أن الأمر معقدٌ نوعًا ما: فأي نوع من الثراء يمتاز بلوتو؟ هل يُراد به الثراء المدفون تحت الأرض حيث طبقات الذهب والفضة؟ هل تبدأ مملكته هكذا من أسفل؟ أم أن الثروة التي يمنحها بلوتو تتمثل في خلودٍ بلا وجعٍ أو أهواء تحركنا في الحياة؟

يُعَد هاديس، أو بلوتو إن أردنا تسميته هكذا، ابن كرونوس وريا، وبالتالي فهو شقيق زيوس وشقيق بوسيدون أيضًا. بعد إخصاء والدهم وإضعاف قوته، كان على ثلاثتهم تقسيم العالم فيما بينهم. أراد زيوس السماء، واعتلاء عرش الأولمب، وأن يكون سيد النور، وأراد بوسيدون مملكة البحر الغائرة الغاضبة والمليئة بالوحوش والعجائب، أما هاديس فأخذ مملكة العالم السفلي غير المحدودة، مملكة غير مادية، وسيادة غامضة على الأموات وكل ما لا يُرى.

حمل زيوس الصاعق بيده كعلامة على سلطته، وحمل بوسيدون الرمح الثلاثي، وأما هاديس فلم يحمل شيئًا؛ فالسمة الوحيدة التي تجلَّى بها أن رأسه كان مستديرة نحو الخلف، نحو الظلمة التي لا يعود منها المرء إلى النور إلى الأبد.

هكذا امتاز هاديس عن شقيقيه؛ فلم ينخرط في أي مغامرات ومن ثَمَّ فلم نعرف أيًّا من مهامه المنوط بها.

لم يكن يحب الخروج من المنزل رغم أن منزله كان مصنوعًا من الرماد والضباب. كان يشعر براحة حيث يمكث، ولم يكن يحب أيضًا مجالسة الآلهة الأخرى. لا يتراءى لنا أبدًا أنه زار أعالي الأولمب ذات مرة، أو أنه عرج على ضفة البحر حيث يبعث بوسيدون بأمواجه وجياده. لم يبرح هاديس موضعه، نتخيل أنه لم يكن صارمًا أو كئيبًا وإنما غائبٌ، خاوٍ من المشاعر، صامتٌ أبدًا.

كان هرمس الإله الوحيد الذي أُجبر هاديس على رؤيته؛ إذ إن ذلك الإله الرسول الصغير كان مرشد النفوس في طريقها إلى العالم السفلي. كان هرمس يحب اللهو والحكي -وإن كان أكاذيب- والضحك، لكني أخشى أن أقول إن سلوكه لم يكن قادرًا على إخراج هاديس من لا مبالاته الصامتة. لم يتمتع هاديس بروح الدعابة، وإن كانت لتنفعه وسط كل تلك المعاناة والظلمة الرمادية لمملكته الأمر الذي كثيرًا ما سعى هرمس، السعيد بدوره كجسرٍ بين المرئي وغير المرئي، إلى إيضاحه له ولكن بلا جدوى؛ ظل هاديس منغلقًا في نفسه، وسط شعور الحرمان والعوز.

مقارنة بشقيقيه، لم يحظَ هاديس بالسمعة نفسها حيال النساء أو الغريزة الجنسية. إن زيوس، على الرغم من وجود زوجته هيرا وغيرتها، كان عاشقًا نهمًا، يتنكر بأكثر السبل خيالية ليحظى بالنساء ما إن يقع في حبهن، أما بوسيدون فلم يختلف عنه كثيرًا؛ فهو الآخر دائم البحث عن أي مغامرات يمكنها أن تُشبع رغبته.

لم يكن لهاديس أي دوافع بشكل عام، ولم يشعر بأنه مدعو إلى هذه الأعمال المثيرة العظيمة. لم تشغل الغريزة الجنسية حيزًا في طبيعته من الأساس، لم يكن فقدان شهيته مثالًا للعفة أو اختيارًا من جانبه، بل كان أسلوبه في الوجود ليس أكثر؛ غارقًا في الظلام.

أدركتُ الآن أنني بوصف هاديس أنني ذكرتُ تقريبًا مظاهر الاكتئاب العصبي. كل من على درايةٍ بأعراض هذا المرض يعرف جيدًا كم يؤدي إلى إحساس بالفراغ يصبح بها المرء وحيدًا، غير مرئي، كما يؤدي إلى الضيق بالآخرين، واستحالة الحفاظ على حياة اجتماعية سليمة وتواصل مناسب مع العالم المحيط. يعد الاكتئاب مرضًا «حديث العهد»، وأما هاديس؛ إله العالم السفلي الذي يُغرقنا في هاوية الظلمة واللا رؤية، فهو بمنزلة سيده القديم.

ما إن يبرح هاديس مملكته حتى يشعر بنداء الرغبة، ويصل حيث يكون الضوء أكثر إشراقًا بين الأزهار الملونة، ويختطف لنفسه إلهة شابة، لا بدافع المتعة أو الشهوة كما يفعل شقيقاه، وإنما بدافع الحب لأنه يسعى إلى وجود زوجة بجانبه، إلى كسر درع وحدته الحديدية، إلى اقتناء شريك ثابت، ملكة فاتنة للعالم السفلي.

هل يعني ذلك أن المخرج الوحيد من الاكتئاب يتمثَّل في درب الحب؟ درب الطبيعة والنور والشمس؟ بالنسبة إليَّ كان الأمر هكذا، منذ عدة سنوات، عندما كنت موشكًا على الاستسلام للمرض العصبي.

تسمى الإلهة، الزوجة، التي اختطفها هاديس إلى العالم السفلي بيرسيفون، وأما الرومان فيدعونها بروسربينا، لقد عشتُ فترة في عبادتها وذلك في كتابي: رسالة لليائسين عن الربيع، وقد أطلقتُ عليها طبيبتي الإلهية النفسية الفاتنة.

15

ولادة نورانية جديدة

لا تتبع النفس مضمارًا محددًا لأنها متدفقة بطبعها، تشبه في مسيرتها حركة الأمواج؛ إذ تتمتع بحركة باطنية عميقة مظلمة ومنخفضة، في حين أن قمَّتها تبدو مضيئة ومليئة بالزَبَد. إن النفس الغارقة التي انتهى بها المطاف في بطن الموجة، لديها كل الاحتمالات الكامنة في أصل طبيعتها للقيام من جديدٍ. الفرد الذي تدفعه رغبة النهوض والإشراق مجددًا يعرف هاديس أشد المعرفة، وقد سَبر أغوار ظلمته حتى منتهاها. لكنه لا يستسلم إلى الأبد؛ إذ إنه ينتظر فرصة العودة إلى نورٍ من دون كلل. ينتظر استرداد حريته لأنه يؤمن بالحرية. بيرسيفون؛ ذلك الاسم العزيز بالنسبة إليَّ، الإلهة التي تحدثنا عن مسارٍ ينتقل من النور إلى الظلمة ثم من الظلمة إلى النور، وتحمل بذرة الظلام دائمًا معها؛ فهي تعرف أن الوعي بالموت لا يُمحى أبدًا من داخلنا.

الفتاة المخطوفة المعتدى عليها، استردَّت طبيعتها بعد العودة مع أمها ديميتر لتحيا تحت دفء الشمس بين ألوان الزهور المختلفة، شفتها الطبيعة وردَّت عافيتها، بمقدورها أيضًا أن تداوينا وتشفي أمراضنا عندما تلحّ علينا أعراض السقوط بلا هوادة.

إن شفاء النفس لا بد من أن يمر بالصعود نحو النور، والوعي بكونها جزءًا من الطبيعة، واكتشاف حجم الزهور التي تملأ الحدائق بل وقوتها في أن تخرج برأسها من داخل السور أو حول قضبان السكك الحديدية، والتطلع إلى أسراب النحل المحتشدة بشوقٍ حول بتلات زهور العشقية، وأعداد السحب التي تجوب السماء بأشكالٍ بلا حصرٍ، وبإيجازٍ، التطلع إلى جمال الطبيعة الخلّاق.

لنوال الشفاء الحقيقي، سنكون في حاجة إلى أفروديت، بالطبع، في حاجة إلى الحب، لكن قبل كل شيء، علينا أن نتعرف إلى بيرسيفون؛ فهي تعرف كل شيء عن السقوط والظلمة والركود والسحب الرمادية لمملكة الأموات. كانت هناك، بل وتسيَّدت على جوانبه، لكن أشواقها ظلَّت تدفعها نحو الحياة. وأما بالنسبة إلينا نحن التعساء، نحن الذين نفطن جيدًا ما هو العقم والصمت والألم، فنحتاج إلى نظرتها وصوتها وقصتها: تلك الصبية التي انتُشِلت من دوامة الظلام، ونجحت في العودة، بل ولن تكف عن العودة في نور الشمس وبين الأزهار.

بيرسيفون

وُلِدت الصبية كورى -دُعيت باسم بيرسيفون بعد ذلك أي «جالبة الدمار» ما إن أصبحت ملكة العالم السفلي رغمًا عن أنفها، من زيوس وديميتر، ربة المحاصيل العظيمة والحصاد والطبيعة المتجلية في الأزهار. كلما كَبرت الفتاة ازداد جمالها حتى فاق روعة حقل القمح الناضج أو ذلك المملوء بالخشخاش وشقائق النعمان؛ هكذا سقط هاديس، إله العالم السفلي في شباك حبها.

ذهب هاديس ليطلب يدها للزواج من زيوس، شقيقه السماوي، سيد الأولمب، أشد الآلهة بأسًا بل ووالد الفتاة نفسها. كان هاديس يُقدِّس المُثل؛ فلم يكن إلهًا متقلب المزاج أو شهوانيًّا، بل كان يسعى في البحث عن شريكة يتقاسم معها مملكته المتأسسة على الرماد والظلام. بدا له أن تلك الفتاة الشابة المبهجة ذات شعر وعينين ويدين وساقين ذوي جمال أخَّاذ، ستكون الأنسب له، وعلى النقيض، ربما تجلب نسمة حياة إلى ذلك الكون الكئيب الجامد للعالم السفلي.

وقع زيوس بذلك في ورطة؛ فحتى أقوى الآلهة ربما تواجه ذلك عندما تصبح علاقاتهم الأسرية على المحك أو يكون عليهم الحفاظ على التوازن بين الأقارب. لن يستطيع زيوس أن يُحبط التطلعات المخلصة لشقيقه الساكن بالأسفل، كما أنه لن يستطيع أيضًا أن يمنح ديميتر؛ شقيقته التي أنجبت له تلك الفتاة خارج إطار الزواج، شعور الحسرة لفقدانها ابنتها ورؤيتها تنتهي في مملكة الجحيم. لذلك لم يتفوه بكلمةٍ، بل بقي في اللا شيء، وقد لاحت عليه علامات الغموض التي تنم عن نية للهرب وعن إعفاء نفسه من أي مسؤولية كانت، أعلن أنه لن يستطيع السماح له بالزواج منها، ولن يستطيع منعه أيضًا.

حاول هاديس تفسير تلك الجملة، ولكونها غامضة بالفعل، كان في حاجةٍ إلى تفسيرها بطريقةٍ أكثر ملائمة له. في أحد الأيام، كانت الفتاة تلعب وتجري في أحد المروج برفقة صديقاتها الحوريات، امتازت جمالًا عن مثيلاتها لا بسبب روعتها فحسب وإنما لبراءتها ولتلك البهجة الطفولية التي تغطي عينيها، كانت تهيم حبًّا بالورد ولم تتوقف عن الركض أو الرقص إلا لجمع الورد فقط.

لم يعرف أحدٌ أين كان هاديس في تلك اللحظة، ففي العالم الإلهي تتماهى حدود الفضاء الثابتة ويعسر علينا تحديد أي مسافة قابلة للقياس كما في عالمنا. ربما كان في أركاديا أو أتيكا أو بيوسيا أو كريت. أي مكان يفيض بمساحات ممتلئة بالورد. بالنسبة إليَّ أميل إلى تلك النسخة من

القصة القائلة بأن الفتاة بصحبة بلاطها من الحوريات كانت في صقلية، بين البركان والبحر، في أعماق الجزيرة حيث تنتشر المروج التي تميل بلونها إلى الأخضر ما إن يقدم الخريف، وعندما تنتهي أيام الخماسين الحارة التي تُلوِّن كل شيء بلون بقايا المحاصيل، وفي هذه المروج، رأيتُ بأم عيني، نمو المزيد من زهور السوسن والنرجس والزعفران والخشخاش.

ربما انجذبت الفتاة للحظةٍ إلى زهرة النرجس فابتعدت عن رفيقاتها لقطفها، تلك الزهرة التي وُلدت إثر تحول الشاب المنكوب المزهو بذاته، ذات البتلة البرَّاقة والأريج الذي ينشر عطرًا رائعًا بالأرجاء.

كانت تضحك متهللة، وتدفع ذراعيها إلى الأمام. أوشك الجذع أن يكون بين يديها تقريبًا عندما انفتحت الأرض أسفل زهرة النرجس كالتشققات الناجمة عن الزلزال، وأخذت تتوسع تدريجيًّا حتى خرجت من باطنها الخيول السوداء الجامحة لعربة هاديس. رُفعت الفتاة والتحمت بجسد هاديس، وعبثًا كانت تتلوَّى وتصرخ، إذ إن الخيول السوداء ذات اللبدة والحوافر الملوَّنة بلون الزفت قد غاصت نحو العالم السفلي إلى سيراكوز حيث وُلد نبعٌ يدعى شيانا؛ «القاتم»، إثر جرح الأرض الغائر في ذلك الموضع.

تبدو القصة قاتمة بأسرها، إله العالم السفلي، العابس، الصامت، اللا مبالي بأي شيء بل وبالحب أيضًا، الذي سقط في حب تلك الفتاة، اختار أن يختطفها في تلك اللحظة عندما كانت تستمع بألعابها وبحزمة زهور الفجر ونور الشمس الذي بدأ يبزغ وشبابها.

زعم هاديس أنها ربما تقبل التنازل عن كل ذلك بأن تتسيَّد العالم السفلي في مملكة تأسست على الرماد والظلمة. لم يكن إلهًا عنيفًا، ولم يختطف الفتاة ليشوهها أو ليحظى بمتعة معها ثم يتخلى عنها. على العكس، فإن اختطافه لها كان يُشبه ما نسميه إلى الآن في صقلية بـ«فويتينا»(87)؛ أي هروب الشاب والفتاة اللذين يحب أحدهما الآخر حتى يرغما أسرتيهما على قبول زواجهما ووضعهم أمام الأمر الواقع. لكن الهارب في هذه القصة فرد واحد فقط؛ هاديس، ووحده كان يفكر في الزواج. أما عن الأسرة التي كان عليها أن تواجه الواقع فكانت أسرة واحدة فقط؛ أسرة الفتاة، ووالدتها ديميتر.

(87) تعبير دارج في صقلية بمعنى «الهروب المفاجئ»، أي هروب زوجين شابين من أسرهم الخاصة، ومواجهتها بـ«الأمر الواقع» من خلال حملها على الموافقة على زواج الهاربين.

تناهت إلى مسامع ديميتر صرخات ابنتها -كانت تحبها حبًّا جمًّا- المستغيثة القادمة من ذلك المكان السحيق حتى أدركت ما حدث معها. أحسَّت بالمخاطر التي تحدق بابنتها الموضوعة تحت الأذى. اجتاحها اليأس وتفاقم أضعافًا عندما تيقنت من عدم عودتها، واختلجها الكرب والذعر، تُرى، أي مصير تواجه ابنتها الآن؟ أي ألم يسكن في تلك الصرخة؟ سرعان ما أصبح وهم رجوعها بين لحظة وأخرى عبثًا أيضًا.

لم تنس ديميتر أمر كونها إلهة عظيمة؛ لم تنبطح، ولم يدُم شعور القلق الكامن داخلها كثيرًا، أحسَّت أن عليها فعل شيء ما، أن ترحل وأن تبحث عن ابنتها. تجولت وبيدها مشعلين متقدين لمدة تسعة أيام وتسع ليال، كانت تتجول فقط، تبحث في أي مكان عن ابنتها الضائعة. لم تذق طعامًا أو رحيقًا بل ولم تغسل جسدها بالماء النقي، إذ كانت تجول فحسب. طرحت عن جسدها بهاءه الإلهي وتنكرت في صورة امرأة عجوز منحنية بأردية طويلة سوداء، هكذا بات بمقدورها التطلع من حولها وطرح الأسئلة من دون إثارة الخوف أو الشك.

أخذت رحلة بحثها الأليمة تتقدم على مراحل مختلفة. قابلت هيكات؛ الإلهة الودود رغم تصويرها بثلاثة رؤوس في الكثير من الأحيان؛ رأس أسد وحصان وكلب، كشفت لها هيكات أن صرخة ابنتها كانت صرخة استغاثة وأنها لم تمت بعد ولكنها في خطر.

في اليوم العاشر وصلت ديميتر إلى مدينة إلفسينا، وبينما كانت تتحرك بالقرب من نافورة هناك، اقتربت منها بنات الملك كيليوس وابتدأن بالتحدث إليها، تراءت لهن طيبتها وحكمتها، فأخذنها إلى القصر حيث كانت هناك حاجة ماسَّة إلى مربية للرضيع ديموفونتى؛ ابن الملكة ميتانيرا.

وافقت ديميتر كما لو أن البقاء هناك متنكرة هكذا ربما يساعدها في معرفة أي شيء عن مصير ابنتها. في تلك الأثناء كانت تعتني بالصغير ديموفونتى وتطعمه الأمبروسيا، وأما في المساء فكانت تُقرِّبه من النار الطاهرة، كشكلٍ من أشكال الطقوس والسحر، بعد أن عزمت أن تهبه طبيعة إلهية.

ذات ليلة باغتتها ميتانيرا إبَّان إتمامها طقوسها السرية المقدسة، لم تفهم الملكة ما يدور، فنادت زوجها، وظنَّت أن المربية أرادت أن تحرق طفلها حيًّا داخل النيران، ضاعت مفاعيل التعويذة هباءً من جراء اقتحامها المباغت وصراخها المستمر وشكوكها الدنسة.

لم يكن أمام ديميتر سوى الظهور بهيئتها الحقيقية؛ فلم تعد تلك المربية وإنما ربة المحاصيل والحصاد التي تبحث عن ابنتها المفقودة في ظروف غامضة. بُهِت الإله سيليو وزوجته ميتانيرا، وتساءلا ماذا في إمكانهما فعله من أجلها، طلبت منهما بناء معبدٍ في إلفسينا حيث يُحتفل بأسرارها إلى الأبد.

في تلك الأثناء، عاد واحدٌ من أبناء سيليو وماتيرنا إلى القصر، شابٌّ قوي البنية، يتشح برداء راعٍ، وقد انتهى لتوِّه من مباشرة قطيعه في الحقول. كان يُدعى تريتّوليمو، وبعد سؤاله من قِبل الإلهة، غمغم بنبرة راعٍ أكثر من كونه أميرًا بأنه أبصر عربة تجرها خيول سوداء وقد أمسك قائدها بفتاة بذراعه الجبارة وحملها معه.

تساءلت ديميتر باضطرابٍ عن هوية سائق تلك العربة، لكن تريتّوليمو لم يعرف بماذا يُجيب؛ إذ إن الرجل الممسك بلجام الأحصنة الستة السوداء كان يلتفُّ بوجهه إلى الوراء وهكذا لم يستطع الشاب رؤية وجهه.

انطلقت ديميتر مسرعة لمقابلة هيكات، وطلبت منها أن تصحبها إلى هيليوس، إله الشمس. اعتاد هيليوس أن يحوم في السماء بعربته يوميًّا، وكان يرى ويعرف كل ما يدور في عالم البشر والآلهة. لم يتمكَّن من إخفاء الحقيقة أمام تساؤلات ديميتر المُلحَّة؛ فأقرَّ لها أن سائق العربة التي صعدت إليها الفتاة بعد أن أحاطها بذراعه هو الإله هاديس، إله العالم السفلي.

في الحال انتهت تساؤلات ديميتر، وقد أصبحت على دراية بكل شيء. بلغت معاناتها وكربها وغضبها حدَّ النجوم، شعرت بخيانة زيوس، وبإهانة هاديس المميتة، وأحسَّت بوحدة دون رِفقة ابنتها المحبوبة.

اختلط غضبها برغبتها في الانتقام؛ سيدفع العالم بأسره ثمن ألمها. إنها إلهة المحاصيل والإزهار، وباستطاعتها إيقاف نمو سنابل القمح والشعير والشوفان النامي لتوِّه من التراب، ومنع الثمار من النضج على الأشجار، وإصابة العشب والزهور في الحقول بالجفاف.

هكذا، في تلك السنة، لم ينعم الفلاحون بأي محصول، وأمست القطعان بلا مرعى، والنحل بلا رحيقٍ، والبشر بلا طعامٍ. تسبَّب الجفاف في إحداث مجاعة؛ ونَفَقت الطيور والكلاب والجياد والأبقار حتى تحيَّن دور البشر بعد ذلك.

كان زيوس، من أعالي الأولمب، يهزُّ رأسه متابعًا ذلك العرض المميت، كان يعرف من أين بدأ الأمر، ولم يسمح أن يترك للموت مقاليد الأمور. بعث بإيريس إلى ديميتر، رسول السماء وابنة أحد الأوقيانوسيات ومالكة قوس قزح، في محاولة من جانبه ليجعلها توقف لعنتها.

لم يتلقَّ جوابًا، واكتشف أن محاولته باءت بالفشل، وقرر أن يرسل وفدًا من الربات الكُبر إلى ديميتر؛ هيرا وأفروديت وأثينا، اللواتي كن يتألمن لما آل إليه البشر والكون. لم تصغِ إلهة القمح والعشب والأشجار العظيمة إلى أي منهن، لن يهدأ غضبها إلا بنصرتها على موضع الظلمة الذي أُلقيت فيه ابنتها.

فَطِن زيوس الأمر، وأرسل هرمس، الرسول الأكثر ذكاءً وتأثيرًا بين رسله، إلى شقيقه الساكن في باطن الأرض، إلى هاديس ليخبره بضرورة تحرير الفتاة المخطوفة، والسماح لها بالعودة إلى الأرض، وأن يضع حدًّا لمعاناة الأرض نفسها. بعد ذلك أرسله إلى ديميتر حاملًا إليها تلك الكلمات: «تهلَّلي يا شقيقتي، سترجع ابنتكِ إلى النور ما دامت لم تذق طعام الموتى».

امتنعت بيرسيفون عن تناول الطعام طوال فترة إقامتها في العالم السفلي، لم يكن لحب زوجها أي قيمة، أبدى لها هاديس كل عواطفه الرقيقة ولم يتوانَ في تحقيق رغباتها؛ فأطلق سراح يوريديس وأعادها إلى أورفيوس بعد شفاعات زوجته الشابة، لكنه سيفقدها بعد ذلك حسبما سنرى لاحقًا. نجح في إيقاف هجوم بيريتوس وثيسيوس عندما نزلا إلى الجحيم في محاولة اختطافها، وأنزل عليهما أشد العقوبات. لكن بيرسيفون كانت تتوق إلى العودة ورؤية أمها من جديدٍ، أن ترى النور والشمس والزهور التي تحبها كثيرًا. لم تستسلم لكونها ملكة على مملكة يسودها الضباب كأمواجٍ تفيض على الشاطئ، حيث كل شيء يتشح بالسواد، أشبه بالمستنقعات، وتهيمن الظلمة وانعدام الرؤية.

عندما أخبرها هاديس أن في إمكانها العودة إلى الأرض، صفقت بيرسيفون بيديها كطفلة، وقفزت متهللة، وأشرق وجهها، ذلك الوجه الذي كادت تكسوه تجاعيد الظلمة ولونها.

استغل هاديس الأمر، وبينما كانت بيرسيفون تصعد على العربة، وقد ألهتها شهوة الرحيل، فقام زوجها بحركة ماهرة ماكرة مداعبًا شعرها وشفتيها بحنوٍ ورفقٍ، في الحقيقة، تمكَّن من رمي حبة رمان في فمها، وكانت أشهى من العسل، لم يعرف أحدٌ إن كانت فعلت ذلك بقصدٍ من عدمه، لكنها أكلتها على أي حالٍ.

هكذا، صعدت بيرسيفون نحو أعالي الأولمب على عربة تجرُّها جياد بيض، بين أناشيد ورقصات مجموعاتٍ ثلاث تتكوَّن من ثلاث راقصات: المويراي؛ ربات القدر، كلوثو ولاشيزي وأتروبوس، اللواتي كنَّ يغزلن ويجتثثن أيام البشر، إلى جانب ربات الفصول يونوميا وديكى وإيرينه، اللواتي يرتبن الفصول ويحرسن الأولمب، ثم تأتي ربات الحسن، أو الحسناوات الثلاث حسب اللاتينية، وقد تم تصويرهن كثلاث فتيات في مقتبل العمر تعانق إحداهن الأخرى وينبع منهن كل حلاوة العالم كما يمنحن البهجة إلى البشر. كان موكبًا كونيًّا جليلًا لا مثيل له، انهمرت دموع الفرحة من عينيها وهي تعانق أمها التي اختلطت دموعها بدموع ابنتها.

سرعان ما انتهى الحفل، اعترف البستاني بالعالم السفلي أسكالافو، برؤية ملكته تقترب من شجرة رمان وقطفت إحدى ثمارها وأكلت سبع حبَّات منها. هكذا خان أسكالافو ملكته بغية إرضاء ملكه. دفع الثمن لاحقًا لأن ديميتر احتجزته في هوة عميقة ووضعت حجرَ جلمود أعلاها، عندما حرَّره هرقل، أصرَّت الإلهة على تحويل أسكالافو إلى بومة بيضاء.

توجَّب على زيوس التحقق من أن بيرسيفون ذاقت طعام الموتى، وذكَّر ديميتر بالميثاق الواضح القديم: ستبقى ابنتها معها إلى الأبد شريطة ألا تتذوق ذلك الطعام.

ولحل عقدة هذا الموقف الشديد التعقيد، ولمنع حدوث أي خللٍ جديدٍ في التوازن بين الآلهة، استدعيت ريا، أم زيوس وديميتر، جدة بيرسيفون، سيدة الحكمة العجوز.

توصَّلت ريا إلى حلٍّ وسطٍ يُرضي كلا من ديميتر وهاديس بل ولن يكون مؤلمًا للفتاة الساكنة في باطن الأرض أيضًا.

ستقضي بيرسيفون ثلثي العام برفقة أمها على الأرض لتستأنف اللعب مجددًا مع الحوريات وتجمع الزعفران والخشخاش، أما الثلث الآخر من العام فسوف تنحدر إلى زوجها الساكن في باطن الأرض الذي ينتظرها، وستضع تاجًا على رأسها، وأما بيدها فتمسك صولجان مملكة الظلال؛ تلك المملكة التي لن ننكر مدى حجمها وحدودها المتزايدة باستمرارٍ.

في نهاية الشتاء، من كل عام، ستعود بيرسيفون وستُكلف بمهمة جديدة بأن تحدد قدوم الربيع وساعات النهار التي تطول، والرغبات المتجددة في أجساد جميع الكائنات الحية.

تم تفعيل هذا الاتفاق وكُلِّفت هيكات بتطبيقه، وفي تلك الأثناء رُفِعت لعنة ديميتر؛ استأنفتْ سنابل القمح والشعير والشوفان نموها من جديدٍ، وتحوَّل لونها إلى اللون الذهبي، وعاد التين

بأوراقه الكبيرة يكسو الأغصان الملتوية الذابلة، وامتلأت الكروم بعناقيد العنب، والحقول بالخشخاش وشقائق النعمان، هطلت الأمطار المباركة، وحصلت الحيوانات والبشر على غذائهم مرة أخرى.

استأنفتْ الحياة تدفقها مرة أخرى، ومنح الربيع طاقة وعصارة جديدتين إلى الحياة، ويمكن القول بأن كل ذلك كان مصدره: بيرسيفون.

16

الغضب والمراوغة

من بين نزعات النفس البشرية نجد تلك التي تدفع المرء نحو سلوكٍ ثائرٍ، حذرٍ، عدواني، أو على أي حالٍ، يبدو مفعمًا بالادعاءات إزاء الآخرين، ودائمًا ما يحثُّ على تأكيد حق المرء أن يكون مراوغًا، منيعًا، أن يكون نفسه وأن يختلف عن نفسه أيضًا.

عندما ينتابنا الغضب أو السأم أو العزلة أو الانطواء، لا نعود نشعر بأننا على صلة بالأرض، وإنما نشعر كأننا أعزاب في حركة موجية، ساكنون في الأعماق، ولكن في حركة مستمرة كالبحر، ليس من قبيل المصادفة أن كل الآلهة التي تترأس تلك الميول آلهة بحرية، كما أنها الآلهة الأقدم من بينهم.

أتى بوسيدون لاحقًا؛ بعد أن حُدِّد الترتيب الأولمبي للكون. نحن نرتبط به أيضًا؛ إذ إن الرومان يدعونه نيبتون، سيد البحر، بل وفكرة البحر نفسها. كتب إرنست جانجر: «لا يعرف البحر من لم يرَ إله البحر». للوهلة الأولى تبدو أنها واحدة من أكثر الحقائق التي يصعب تصديقها، ولكن رغم ذلك أنها أكثر الحقائق المطلقة التي أعرفها. قبل بوسيدون كانت هناك آلهة أخرى يتعذر علينا رواية قصصهم جميعًا.

يُعَد المحيط كائنًا هائلًا بدائيًّا، تيارًا يغلي من المياه يحيط بالأرض من كل ناحية، ينبثق من ذاته، ويتفرع إلى البحار والأنهار والبحيرات ثم يعود من جديدٍ إلى نفسه بقوةٍ ولَّادة حتى قال هوميروس إنه أصل كل الأشياء. تزوج من تيتي، وكان والد الأوقيانوسيات، وظل دائمًا خارج دائرة آلهة الأولمب، مستقلًّا عنها، مثل الشمس والفاتو.

هناك أيضًا نيريوس؛ «شيخ البحر» بامتيازٍ، الذي قال عنه هسيودوس إنه بعيدٌ عن أي أكاذيب، شيخٌ نقي حكيمٌ جدير بإعطاء نصائح سليمة، ساهم أيضًا في ميول الآلهة إلى تغيير هيئتهم كسائر الكائنات البحرية؛ إذ كان في إمكانه أن يصبح ثعبانًا أو ماءً أو نارًا أيضًا، وأما إن باغته أحدٌ على اليابسة فكان يجعل من نفسه شعلة هائلة من النيران.

أما بروتوس؛ شيخ البحر أيضًا، فحسب رواية هوميروس كانت لديه موهبة العرافة والقدرة على تغيير مظهره وطبيعته في طرفة عين. كان باستطاعته أن يتضاعف أو أن يصبح أسدًا في

لحظة، أو نمرًا أو فهدًا، وسرعان ما يتمدد جسده ويأخذ أنياب خنزيرٍ بري، أو جسمًا لزجًا ذا حراشف للتنين، أو يتحول إلى نيران المدفأة، أو شجرة، أو مجرى مائي. إن ابتغاء نصائح أو نبوءات منه كان يعني وجوب مواجهة مهنته هذه في التحوُّل الثائر الذي تصعب السيطرة عليه حتى إن ذكراه إلى اليوم تحيا تحت مسمى «المُتلوِّن».

لهذا الصدد، يمكن القول بأن جميع آلهة البحر تتميز بكونها شديدة القِدم، يصعب تحديدها، حكماء، تتغير من آن إلى آخر، غاضبة، قادرة على توليد الوحوش. في إمكان النفس البشرية التعرف إليهم في طيشها من دون عقل، أو في توقها إلى التغيير بلا خوف. تتكون ثلاثة أرباع أجسامنا من الماء، كالكوكب تمامًا إذ يتكون ثلاثة أرباعه من مياه البحار. من المؤكد أن أنفسنا تحمل في نفسها أعماقًا بحرية بصورة كبيرة، وتود أن تكون مثل نيريوس و بروتوس، بتوهجها وظهورها، وتخاطر بذلك بأنها تفعل ما لا رغبة لها به، وتحتجز في صورة واحدة إلى الأبد، وتنغلق في نفسها في بعدٍ واحدٍ.

من خلال شيخي البحر العجوزين تجد النفس الطاقة التي تسنح لها بتغيير هيئتها المرئية لتنجو بالجوهر الأساسي من وجودها، فتتماهى حدودها ويزداد عمقها حتى إن أحدًا لا يستطيع أن يسبر أعماقها.

بوسيدون

في المتحف الوطني بأثينا الزاخر بأصول الجمال وحكمة الغرب، ينتصب تمثال بوسيدون البرونزي ويجذب أنظار الزائرين بعظمته وكماله، مكثتُ أمامه مبهوتًا فترة طويلة، حتى يتسنى لي إدراك ذلك النوع من الظهور والتخلص من آثاره.

بالنسبة إلى اليونانيين يظهر إله البحر هكذا؛ برأس موضوع على جسم أمامي يتجه بطبيعية مطلقة نحو اليسار كما لو كان يلقي بأنظاره بعيدًا، ووجه بملامح ثابتة، ولحية طويلة مدببة، وشعر قصير مجعد تمامًا كشعر العانة، له وضعية مرنة، وقدم يسرى بالكاد مرفوعة، وساقان صلبتان متباعدتان، وذراعان ممدودتان أفقيًّا، إحداهما مستقيمة والأخرى منحنية بعض الشيء كما لو كانت تطلق شيئًا إلى بعيدٍ؛ الرمح الثلاثي، الذي لم يكن موجودًا بالفعل وإنما وضعية الإله جعلته مرئيًّا تقريبًا.

يحظى إله البحر بتعبيراتٍ عزيزة ملكية منفصلة، ويبعث إحساسًا بالطاقة والحركة والمرونة الحرة الكاملة، لم تكن لديه ملامح شاب، ولا تلك التي لرجلٍ بالغٍ، وإنما اكتست هيئته بملامح الأبدية واللا نهائية.

في تمثال ليسيبوس الذي يرجع إلى القرن الرابع قبل الميلاد، (احتُفِظ بنسخة في روما في متحف لاتيران)، يظهر بوسيدون وقد تقدَّم به العمر؛ بلحية كثيفة وشعر طويل مجعد بصورة لافتة وكتفين منحنيتين كما لو كانت تحت وطأة ثقلٍ شديدٍ، وقدم يسرى مثنية تتكئ على قاعدة، ويد يسرى تحمل رمحًا ثلاثيًّا ذا أطراف مدببة، يمتد عموديًّا لكنه ثابتٌ أشبه بالعصا، أما وجهه فلقد اكتسى بملامح قاتمة وغاضبة ومفعمة بالحزن.

إن إله البحر إلهٌ لكل العصور؛ يتمتع بكرامة الإلوهية الأولمبية لكنه يحتفظ بشيء من القِدم في نفسه، سجية برية يمكنها احتواء الأشياء والتخفِّي أيضًا، غضب مهدد يتأهب للانفجار، شغف عارم بالحركة والاستحواذ.

وُلِد بوسيدون من كرونوس وريا، وكان شقيق زيوس، وحسب ديودور الصقلي، فإن أمه لجأت إلى حيلة لتنجيه من أهداف أبيه الأنثروبولوجية، تمامًا كما فعلت حيال زيوس، وأرسلته رضيعًا لدى تلكينس.

لا نعرف ما إذا كان عدد التلكينس، يدعون «أبناء البحر»، يبلغ تسعة أم أنهم شعبٌ كاملٌ، الأمر المؤكد هو أنهم يخضعون لريا، وكهنتها السريين. ذاع القول بأنهم شيدوا مدينة في جزيرة رودس، بما في ذلك لندوس الموجودة إلى الآن كنصبٍ أبيض يقع بين شواطئ الحصى البيضاوية متعددة الألوان ومرتفعات صخرية شديدة الانحدار.

تسلَّمت جماعة التلكينس الصغير بوسيدون وثقَّفته مظهرة فنونها له. كانوا أول من صاغوا المعادن ونحتوا صور الآلهة من خلالها في العالم أجمع، كما تمكَّنوا من صُنع الرمح الثلاثي الذي سيصبح بمنزلة الصولجان؛ رمز ملكه وسيادته.

هكذا ترعرع الإله متصلًا بكائنات روحانية، شياطين أكثر من كونها آلهة، ذات طبيعة ماكرة جهنمية. ما إن بلغ بوسايدن حتى تزوج أليا، ربة بحرية، وأنجب منها أبناء ذكورًا وأنثى تُدعى روديس التي سُميت جزيرة على اسمها.

امتاز هؤلاء الصغار بصفاتٍ متعجرفة حتى إنهم منعوا أفروديت من العبور إلى رودس وهي تتجوَّل بحثًا عن موطنها بين الأمواج. من ثَمَّ، عاقبتهم الإلهة بأن أعمت بصيرتهم التي لم تكن قد نمت بعد، فمسَّهم الجنون حتى اغتصبوا أمهم. أنزل بوسيدون عقابه عليهم بدوره، فانحدر بهم إلى أسفل الأرض بينما ألقت أليا بنفسها يأسًا في أعماق البحر؛ موضع التحوُّلات كلها، ومنذ ذلك الحين سُمِّيت ليوكوثيا، «الإلهة البيضاء»، وصارت محل تبجيل الجزيرة بأسرها.

أما عن الزيجة التي جعلت من بوسيدون إلهًا بحريًّا فكانت مع أمفيتريت، ابنة نيريوس ودوريس، سيدة الأمواج والأعماق والوحوش التي تسكنهم، وقد حدث ذلك في عمرٍ يُظهر آثارًا قوية لماضٍ أمومي طويل للغاية.

تعرَّف بوسيدون إليها في جزيرة ناكسوس وهي ترقص بين شقيقاتها النيريدات، فاشتهى نيْلها مفعمًا برغباته المتقدة. إبَّان فرارها، بلغت أمفيتريت حدود الشواطئ البعيدة، ما وراء أطلس، حتى وصلت إلى قصر أوقيانوس الرائع أسفل البحر. بعث بوسيدون سفيرًا إليها هناك، يُدعى دلفين، ويقول آخرون إنه أرسل مجموعة من الدلافين، رسل الأمواج الأخيار، حتى يأتوا بها إليه.

عادت أمفيتريت وتحققت الزيجة؛ أخيرًا، يحظى بوسيدون بالسلطة المطلقة على البحر خاصة بعد أن باتت من نصيبه جراء التقسيم الذي قام به شقيقاه زيوس وهاديس، أصبح الحاكم الفعلي على البحر بعد أن أدرك الجانب الأنثوي والغامض منه.

كان ترايتون ابن بوسيدون وأمفيتريت وقد اتخذ جسده هيئة إنسان من أعلى وأما من الخصر إلى الأسفل فاتخد شكل سمكة. كان مشاكسًا، شهوانيًّا، عنيفًا في الحب، لا يندم قطُّ، غاويًا للحوريات التي كان يحيطهن بجسده الوحشي الحلزوني. كان بوسيدون يبتهج بذلك؛ فهو أيضًا كان ولا يزال عاشقًا لا يقاوم. سنرى كيف أنه بهجومه العاطفي، سيحكم على ميدوسا بمصيرٍ تعيسٍ للغاية، وسيغوي ديميتر متخذًا صورة فحل بعد أن كانت تحاول الفرار منه وجعلت من نفسها فرسة، وأما حيال ثيوفاني؛ ابنة هيليوس إله الشمس، فلقد اتخذ لنفسه صورة كبش، ومن ذلك الجماع وُلد الكبش ذو الصوف الذهبي.

أصبح بوسيدون، النهم نحو النساء، جشعًا أيضًا إزاء الأراضي التي يريد الهيمنة عليها، كان مشاكسًا وعلى أتم الاستعداد للدخول في أي صدام مع أقوى الآلهة.

بلغ حد طموحه سيدة أتّيكا ودخل في صدام مع أثينا. نحن الآن في عصر أسلاف الملك كيكروبس، ملك أثينا الأول، (نصفه العلوي كإنسان والسفلي كثعبان)، المتمدن الماهر الذي أسس الزواج الأحادي ودفن الموتى وعبادة زيوس وأثينا. لتحديد أي منهما؛ بوسيدون أو أثينا، يتسلط على أتّيكا، طلب الإله كيكروبس من كليهما إحضار هدية له. أتت أثينا بشجرة زيتون، وأتى بوسيدون بحصانٍ، ولم يكن أمام كيكروبس سوى الفصل بينهما فحسب؛ إذ إن الآلهة المجتمعين في الجلسة العامة بالأولمب لديهم الحق فقط في الإقرار بالهدية الأثمن. امتنع زيوس عن التصويت، وانحازت كل الربات إلى صف أثينا، وكل الآلهة في صف بوسيدون.

الأمر الذي صنع الفارق تمثَّل في امتناع زيوس عن التصويت، فازت أثينا بفارق صوت واحد، وصارت أتّيكا لها. انصرف بوسيدون غاضبًا إلى أقصى حدٍّ؛ فأمر الأمواج أن تغمر السفن، وتُغرق السواحل، وأطلق الزلازل برمحه الثلاثي في جنبات الأرض، حتى إن هوميروس سمَّاه مزلزل الأرض.

حتى أتّيكا ستدفع ثمن هزيمته هذه؛ سيحرر بوسيدون جياده الحاملة أعتى الأمواج من أحد المعابد، فتثير الفوضى في السواحل، وتغمر المروج، وتجرف الأشجار بعيدًا، وتُغرق قطعان الثيران والأغنام. في إمكان البحر جلب خراب أكثر من هذا إن شعر بإهانة. لن يتمكَّن سكان أتّيكا من تهدئته إلا بهذه الطريقة: التعهد بتخلي النساء عن حقوقهن في التصويت الذي استخدمته الربَّات ضده، وألا يحمل الرجال أسماء أمهاتهم، الأمر الذي يسري إلى الآن؛ كان ذلك بمنزلة بداية نهاية النظام الأمومي.

لكن بوسيدون لا يمكن إيقافه أبدًا مثل البحر الذي يتسيَّده. بعد أن قاتل لصالح أتّيكا في أثينا، استهل صراعًا آخر مع هيرا بشأن أرجوليذا، واستدعت هيرا الأنهار إيناكو وكافيسو وأستريونى لتحديد أي من الإلهين يمنح السيادة.

لم تكن هيئة محلفين لتختاره، فبوسيدون قد اجتاحته نوبة غضب تقترب إلى الجنون. وعد شقيقه زيوس، أخاه الحكيم، أنه لن يتسبب في أي فيضانات قاتلة كتلك التي أهلكت أتّيكا، وللوفاء بكلمته، لكن من دون أن يتخلى عن الثأر لنفسه، أشهر بوسيدون تلك المرة السلاح المعاكس؛ جفَّف جميع مجاري المياه في أرجوليذا من منابعها، وضيَّق عليهم بين الأحجار والركام والجذوع المتكسرة والأقصاب. لم يتبقَّ حتى بركة ماء، كان كل شيء جافًّا قاحلًا حتى هجرت طيور البجع والبط مواضعها بعيدًا. أُرسل دانايدى تُدعى أميمون للتوسط مع بوسيدون من أجل إيقاف تلك

اللعنة التي تفتك بالعديد من المخلوقات وتجلب العطش إلى نايادى، بما في ذلك الرعاة والقطعان. في أثناء عبورها إحدى الغابات، رآها ساتير، وتتبعها، وزلَّت قدمه أمام طبيعتها، وأوشك أن ينال منها، في تلك اللحظة ظهر بوسيدون يمتطي أحد جياده ذات اللبدة البرَّاقة، وما إن ترجَّل ورمق الساتير بنظرة حتى ولَّى هاربًا.

افتُتنت أميمنون بتلك الحضرة الودودة التي أنقذتها من هاتين العينين المحفّزتين، من ذلك الجسد المرن ذي البأس الدائم الشباب. اقترب منها بوسيدون دون أن ينبس بكلمة، ابتسم لها، وألقى الرمح الثلاثي بإحدى الصخور حتى أحدثت ثلاثة شقوق بثلاث مضخات اندفعت من داخلها المياه النقية الصافية.

أمسكت أميمنون بزمام الأمور في هذه المرة؛ فلقد تم إغواء المغتصب المتسلسل؛ اضطجعا معًا، وأقسم بوسيدون لها بأن النهر الذي يتدفق من هذا النبع لن يجف أبدًا حتى في أشد فصول الصيف حرارةً. وُلد ناوبليو من حبهما، الذي سيصبح ملَّاحًا متمرسًا، وسيبتكر فن اتباع الطريق عن طريق تصويب العينين ناحية الدب الأكبر.

تباهى بوسيدون بأنه أولد جواده الأول، وباختراعه اللجام، يبدو أن الخيول كانت موجودة بالفعل في اليونان من قبله، كما يبدو أن اللجام كانت مبتكرة سابقًا بفضل براعة أثينا وصبرها.

يتبقى لنا سباقات العربات التي تجرها الخيول، تلك أجل، كان هو من ابتكرها وروَّجها، ذاع صيتها في رودس، الجزيرة المرتبطة به، وانتهت بسقوط العربات في البحر إذ كانت تنطلق بسرعة شديدة.

صُمِّمت عجلات العربات على غرار صورة الشمس، يقال إن البشر هم من ابتكروها من قبل لتسهيل عملية انتقالهم ولتكريم آلهتهم بصورة أسمى. يُعَد ذلك الغرق الأخير بين الأمواج بمنزلة تكريم قرباني من أجل بوسيدون، يبدأ أصل الأشياء من البحر وينتهي فيه كل شيء.

17

الوجود الغامض للوحوش

تفيض الأسطورة اليونانية بقدرٍ هائلٍ من الكائنات الوحشية، إنها بمنأى تمامًا عن أي هدوء أو توازن شمسي مُشرق تجسدت من خلاله آلهة الأولمب في صورة مرنة. تتناقض تلك الكائنات بشكلٍ قاطعٍ مع ذوق الإغريق نحو الجمال والتناغم بين الأشياء، كما لو كانت نظيرًا بارزًا أمام الأبطال؛ أولئك الذين يلعبون دور عدوهم اللدود، ويقاتلون ضد طبيعتهم التي تميل دائمًا إلى الخراب والعنف الأعمى.

تزهو الوحوش كافة بالتجاوزات والمناظر المشوهة. قد تبدو عمالقة بعين واحدة أو مائة عين، أو حيوانات برأسين أو ثلاثة أو آلاف الرؤوس، إلا أنها في أغلب الأحيان تُعَد كائنات هجينة؛ إذ إنها تشترك في الطبيعة الإنسانية والحيوانية. لدى بعضهم وجه امرأة وأقدام أو أجنحة طير، والبعض الآخر لديهم رأس امرأة وأطراف أسد، وآخرون نصفهم العلوي لرجلٍ، أما من الخصر إلى الأسفل فيتخذ هيئة الخيل، وآخر لديه جسم إنسان يعلوه رأس ثور.

نقول إن الوحوش، وسط ألغاز أجسادها المختلفة والمزج بين البشر والحيوانات، تضرب بجذورها في ماضٍ سحيق قبل التاريخ إذ لم تكن الحدود بين المخلوقات واضحة بصورة لا رجعة فيها، إنها تعد الذكرى المطوية، غير المحبوبة، المحكوم عليها عندما لم يكن الإنسان إنسانًا كاملًا بعد يصارع من أجل تحرير نفسه من الطبيعة الحيوانية رغم إدراكه أنه لن يستطيع التحرر من براثنها بصورة تامة، في نعومة دون حاجة إلى ريش، وانسجام الملامح مع بعضها، وجمال تقسيمات جسده، وانجذاب روحه نحو النور.

إن زيوس وبوسيدون وأبوللو وأفروديت وهيرا وأثينا من خلال طاقتهم المتناغمة العزيزة المنبعثة من كل منهم يمثِّلون المثال الأسمى لكيفية أن يصير الإنسان إنسانًا وإلهًا معًا. حتى في القصص التي ترويها لنا الأسطورة نشهد أن الآلهة تتخذ مظاهرَ حيوانية في أكثر من موضع، ولم يكن ذلك بمنزلة انحدارًا من مرتبتهم، وإنما اتخاذ أشكال أخرى لا متناهية لطبيعتهم. نتذكر زيوس مثلًا الذي جعل من نفسه بجعة وثعبانًا وثورًا، وفي بوسيدون الذي تشبَّه بالحصان والكبش، بل كانت الآلهة تسخر الوحوش نفسها في خدمتها مثل سيربيروس حارس العالم السفلي.

في وقتٍ لاحقٍ سنرى أن الأبطال فقط، هرقل على رأسهم، هم من سيظهرون معارضة شرسة نحو الوحوش؛ فهم من سيطاردونهم وسيعملون جاهدين على تحرير العالم من آثارهم، وتطهيره منهم، واضعين بذلك أسس التمدن والحضارة. لم يخضع الأبطال لأي عمليات تحوُّل قطُّ، فنرى أن أخيل وأوديسيوس لم يظهرا بأي هيئة سوى أنفسهم.

تبدو الوحوش عنيفة بشكلٍ عامٍّ، قبيحة للنظر، شرسة ومشوهة، تسكنها قوة وحشية، ذات غرائز لا تُقهر، عاجزة عن التمييز بين الخير والشر، تتمتع بصفاتٍ ساحرة مراوغة، وتأثيرات شريرة، وقوى في إمكانها أن تغير جوهر المادة ذاته.

يجب إذن ألا ننسى، عزيزتي القارئة وعزيزي القارئ، حتى وإن تعذَّر علينا تصديقها، حقيقة أن الجزء الأشد عمقًا وظلمة في نفوسنا، حيث تقبع ذكرى العالم البدائي، حيٌّ إلى الآن. سنجد أرضًا خصبة للوحوش لن نتمكَّن من ردعها وإضعافها إلا بأعمال استصلاح داخلي بلا كللٍ حتى يُسلَب منها كل ما يُعزِّز بقاءها حية.

على صفحات الصحف الإخبارية، وبنوعٍ من التعجُّل الهشِّ، يطلقون لفظ «الوحوش» على مرتكبي الجرائم البشعة ولا سيما ذات الطابع الجنسي. رغم ذلك، لم أسمع قطُّ أنهم يطلقون كلمة «الوحوش» على أولئك الذين يجنون المليارات بالغش أو بالابتزاز، أو على تلك المضاربات المالية التي تتسبب في جوع شعوب بأكملها، والعمليات الاقتصادية التي تتجاهل دائمًا سلامة الطبيعة والكوكب. هذه حزمة من الجرائم التي يمكن نعتها بالجرائم «المعاصرة»، وربما نجد شخصًا يرفض وصفهم بالجرائم من الأساس. ومع ذلك نرى أن الجرائم ذات الصبغة الجنسية ترتبط ارتباطًا وثيقًا بوجود الدوافع السحيقة والاضطرابات البدائية في وجداننا. إنها ذات صلة بمخاوفنا وتشوهاتنا وشكوكنا حول أصول أنفسنا بين الجسد والروح، بل وترتبط بوحوشنا الداخلية بصورة قاطعة. حتى وإن وجدنا أنفسنا نزعم بصورة مطمئنة مبتذلة أن القتلة والمغتصبين وقاتلي الآباء وقاتلي الأمهات ومغتصبي الأطفال والقاتلين المتسلسلين وأولئك الذين يرتكبون جرائم الصفحة الأولى هم دائمًا الآخرون المميزون باضطرابات نفسية أو أسرية أو اجتماعية.

كل ذلك هراء محض؛ فالوحوش كامنة في داخلنا بالفعل، بل وهناك ما هو أسوأ من ذلك؛ كل من يمتنع عن الاعتراف بذلك سيسقط فريسة لهم بسهولة متناهية. كم من إنسان، حتى بعد ارتكاب أبشع الجرائم، يصفهم جيرانهم بأنهم أشخاصٌ صالحون أسوياء، وليس من المستبعد

أنهم هكذا بالفعل، ولكن من دون أدنى شكٍّ بحقيقة وجود شياطينهم وكوابيسهم وبقايا الوحشية لعالم لم يتخذ شكلًا إلى الآن، عالم بلا قواعد أو حدود.

إذن، وحتى لا يخشى المرء من تلك الوحوش عليه التعرف إليها وهزيمتها، في نفسه، قبل كل شيء.

دُفنت كل وحوش الأسطورة اليونانية في عمق نفوسنا، خامدة، تتأهب لعودة عبر الكوابيس، عبر نسيج الأحلام المشوه غير المكتمل، نعرف منها أنماطًا بلا عددٍ.

الهاربيز؛ التي تعني حرفيًّا «السارقين»، من الفعل اليوناني هاربازين أي «يسرق»، يظهرون برأسٍ ونصف علوي لامرأةٍ، وبقية جسدهم لطيور خاطفة، بأجنحة ضخمة ومخالب حادة، يطيرون معًا في أسراب لتلتهم وتلوث الموائد إبَّان إعداد ولائم البشر.

القنطور، أبناء إكسيون الشهوانيون، وسحابة أعطاها زيوس مظهر هيرا كي يحافظ على الإلهة من عنفهم، سلالة تمتزج من البشر والخيول، جسدانية، هجومية، عنيفة، لا تشبع قطُّ من الخمر والنساء. صوَّرهم خيال دانتي الرفيع كحراس شيطانيين لصور العنف في أنشودته الثانية عشرة من الجحيم، حيث نقابل نيسوس وفولو وشيرون، والوحيد الوديع الحكيم بينهم، معلم أخيل.

الصقاليب، أبناء أورانوس وجايا، عمالقة أقوياء بعين واحدة على جبهتهم، برونتي وستيروب وأرجي، مخلوقات انجرَّت وراء الصراعات الأولى بين الآلهة بهدف السيطرة على العالم. آخر أحد أحفادهم، ذي القسوة الساذجة، وهو الصقلوب الأشهر بينهم، بوليفيموس الذي خدعه أوديسيوس وأخبره بأن اسمه لا أحد.

أما السيرانة، بنات إله الأنهار أخيلوس وإحدى الموزيات، ربما تكون كاليوبى، من هنا نشأت الدعوة إلى أناشيدهن الرائعة المميتة. لهن رؤوس ونصف علوي لنساء غاية في الجمال، ذات أعين مشرقة وشعر طويل لامع، وأما بقية أجسادهن فيتخذن هيئة طيور، بأجنحة ومخالب تشبه النسور. في وقتٍ لاحقٍ فقط تم تجسيدهن بجسمٍ يشبه السمكة من السرة وحتى الأسفل. هاجرت منهن ليجيا وبارثينوبي إلى ماجنا جراسيا، وعادت الأخيرة إلى أصولها الأسطورية لمدينة نابولي. قال بورخيس إن إحدى السيرانات أُمسِك بها في القرن السادس على سواحل ويلز وتم تعميدها على اسم مورجن وأصبحت قديسة. في الفترة نفسها، قبالة سواحل برطانية، عندما

غُمرت مدينة إي إس، أصبحت الأميرة داهوت سيرانة لتدفع ثمن خطاياها الفظيعة. أما بالنسبة إلى البحَّارة البريطانيين فكانت لا تزال هناك، مستعدة لإغوائهم بأغنيتها، وسحبهم إلى قاع البحر.

الكمير؛ هو كائن ذو رأس أسد وبطن ماعز وذيل تنين، لعب دورًا بين صغار الوحوش المولودين من قِبل تايفوس وإيكيدنا. كان يتقيأ لهيبًا من فمه، ومع النيران وأنفاسه النتنة كان يجف القمح في الحقول، وتتعفن الثمار في الحدائق وأوراق الأشجار في الغابات. قتله بيليروفون، وفقد كل شيء، حتى مصداقيته؛ هل يُعقل أن يكون هناك أي كائن لا يوجد فيه شيء بشري حيث يسكن جنبًا إلى جنب أسد وماعز وثعبان؟ سرعان ما صار ظلًّا، لا شيء. في يومنا هذا، يلاحظ بورخيس أن لفظة «كمير» تتضح في المعجم على أنها «فكرة خاطئة، أو خيال أجوف».

سفنكس؛ ثمرة زنا المحارم للكلب أورثروس والأم إيكيدنا، لها وجه وصدر امرأة وجسد ومخالب أسد وجناحان كبيران. كان هذا بمنزلة أندروسفنكس؛ إذ نجد في هذا المزيج البدائي الجامح بين الكائنات والطبيعة، يوجد أيضًا هيراكوسفينكس، برأس صقر، وكريوسفينكس، برأس ماعز. كان يتجول في ثيفا ويزدري البشر ويطرح عليهم الأحجية التي إن تعذَّر عليهم إجابتها كان يعذبهم حتى يصل أوديب.

نجد أيضًا، في معرض الوحوش هذا، أرجو ذا المائة عين، وهيدرا ذات الألف رأس (أو تسعة في قولٍ آخر)، وهناك أمفيسبينا الأفعى ذات الرأسين المثبَّتين في أقصى طرفي الجسم، والكلب سيربيروس ذو الثلاثة رؤوس والمعطف المرصع بالثعابين، ولستريجوني العمالقة الشرسة آكلو لحوم البشر.

ميدوسا

ميدوسا، الوحش الذي نستطيع أن نروي قصته، كانت بشرًا عكس بقية الوحوش، وتجرَّعت صنوف العنف والظلم، عنف إلهي مزدوج، قبل أن تصبح هي نفسها رمزًا لأفظع صور العنف التي شهدها العالم.

يقصد بالجرجونات الثلاث شقيقات اللواتي يسكنَّ على حدود أوقيانوس بالقرب من أقصى جزء من نيكس حيث توجد حديقة هيسبيريديس. إنهن شينو؛ القوة، ويوريال؛ المنتمية إلى

.البحر الشاسع، وميدوسا؛ الخادمة

كانت شقيقتها الأولى والثانية إلهتين خالدتين أما ميدوسا فلم تكن كذلك. يتعذَّر علينا تفسير ذلك؛ نظرًا إلى أن ثلاثتهن أبناءٌ للإله البحري فوركيس وكيتو «ذات الخدَّين الفاتنين»، وشقيقات جراياي؛ أي «الجرايات» الثلاث المسنَّات منذ ولادتهن، وبعين واحدة وسن واحدة لكل من ثلاثتهن، كن وحوشًا أيضًا وإن كن خيِّرات.

قبل أن تصبح وحشًا مخيفًا أو تكتسب قوتها المروعة، كانت ميدوسا فتاة ذات خدَّين ورديين كتلك التي لأمها كيتو أو كغيوم الفجر، وجسم ليِّن كالموج، وشعر طويل لامع الذي كان محل تباهيها الأكبر. كانت تحيا بالأسفل على حدود العالم، بعيدًا جدًّا عن الجرايات، على حدود نيكس حيث تسكن هيسبيريديس في حديقتهن ذات أشجار التفاح الذهبي.

لم يمر جمالها هكذا من دون جذب أنظار أي من الآلهة، راقبتها أثينا منزعجة، ذلك الانزعاج الذي يستحضر في أذهاننا صورة أفروديت، جراء تلك العبادة النابعة من جمال شعر ميدوسا إذ كانت تقضي يومها بأكمله تغسله وتعطِّره وتمشِّطه.

لم يمر جمالها أيضًا هكذا من دون ملاحظة إله البحر بوسيدون الجامح القاتم، ورغم ذلك نجده جائعًا لأي علاقاتٍ عاطفية جديدة منافسًا بذلك شقيقه السماوي. لم يكن من الطبيعي أن تحيا ميدوسا بعيدًا عن البحر، بل كانت تذهب للوقوف على ضفافه، تترك نفسها تُغمر بزَبده، وتهدهدها تياراته السفلية. تراءى بوسيدون أمامها خارجًا من البحر ممتطيًا جياده البيضاء ذات اللبدة الكثيفة جدًّا يكسوها شفافية خضراء وزرقاء كسطح الأمواج، وذات حوافر نحيفة مدوية سريعة كما لو أنها تحلق في السماء.

سقطت ميدوسا في حب تلك المشاهد، وفكرت في قلبها أن سيد البحر قد عزم على الزواج بها، وأنها ستصبح عما قريب سيدة تلك المملكة اللا محدودة ذات الأعماق الزاخرة بالعجائب والثروات.

ذات يومٍ، ظهر بوسيدون صاحب الشعر الأسود الكثيف والذراعين القويتين العزيزتين، ورفعها من على الرمال وحملها على ظهر حصانه. أحسَّت بدماء الحيوان تسري من تحتها، وقلب الإله ينبض من خلفها؛ انتباتها رجفة وتسارعت وتيرة نبضات قلبها وجعلتها تنتفض وتلتقط أنفاسًا متسارعة.

كان يومًا مشمسًا، وقد حفَّز دفء النهار الرغبات الساكنة، تمامًا كما يحدث بين الحوريات والساتير. قفز بوسيدون من حصانه نحو الأسفل، لتجد ميدوسا نفسها منطرحة على الأرض تعانقه، في مكانٍ قريبٍ حيث يوفِّر معبدٌ المأوى من حرارة النهار، وهناك وجد بوسيدون بغيته من الظل ليضاجع ميدوسا كما يشاء.

في غمضة عين اعتلى ميدوسا، وانزلقت ملابسهما على اليابسة، وأخذ يداعب شعرها بلا هوادة كفحلٍ يستحوذ على فرسة، أو كبش يقترب من شاة، فنال منها بوحشية قاسية، برية، بلا رقة تُذكر، كما اعتادت الحيوانات والآلهة أن تفعل.

نظرًا إلى أن الآلهة أكثر تقلبًا في أمزجتهم مقارنة بالبشر، فما إن أشبع بوسيدون رغبته حتى امتطى حصانه وانطلق بعيدًا وساقاه ما زالتا ترتعشان من فرط النشوة.

كان هذا بمنزلة الظلم الأول الذي تجرَّعته ميدوسا. لم تكن قد عرفته بعد إلا أن ذلك الجماع الذي جرى بسرعة البرق سيجعل منها أمًّا عما قريبٍ.

أما بخصوص الظلم الثاني الفظيع فكانت أثينا هي مَن ارتكبته بحقها. رأت أثينا أن ما حدث في معبدها بين ميدوسا وبوسيدون يمثِّل دنسًا كبيرًا، ورغم ذلك فلم تُلقِ باللوم على بوسيدون بل ولم تفكر به من الأساس؛ ثمة تكاتف رفيع لا يُمسُّ بين الآلهة، وويلٌ للبشر الذين يتجاهلونه.

صبَّت أثينا كلَّ غضبها على الفتاة، وبينما كانت تعاقبها لتدنيسها معبدها بجماعها مع بوسيدون من دون أن تفكر أنه لم يكن أمامها سوى الخضوع أمامه، كانت تعاقبها أيضًا، بغدرٍ دفين، بسبب شعرها الفائق الجمال الذي كانت تزهو به.

تشوَّه وجه ميدوسا بصورة مخيفة، فارتسمت حول عينيها دوائر حمراء ملتهبة، وبرزت أنياب خنزير بري على فمها من الجانبين، وتمدَّد لسانها وتدلى من بين أنيابها، بزغ جناحان ذهبيان من جانبيها واكتست يداها بالبرونز.

كان أكثر ما شوَّه الفتاة تلك الثعابين التي جعلتها أثينا تنمو على رأس الفتاة بدلًا من شعرها، مجموعة متشابكة من الثعابين اللزجة الزاحفة التي تلتف حول رأسها ثم تهبط وتحيط بخصرها. لم تقو ميدوسا على النظر إلى نفسها دون أن تطلق صرخة مفعمة بالذعر، أدركت أنها صارت وحشًا، مخلوقًا آتيًا من الظلمات. إثر تلك الصرخة اشتعلت في داخلها كل الكراهية التي يمكن أن تتقد، كراهية بلا قيودٍ، بلا حدودٍ، من دون أن تخالطها أدنى شفقة أو رأفة؛ فانمحت من داخلها

أي صفات بشرية، واختارت أن تنحاز إلى المادة والموت بدافع الكراهية، وأصاب الفتور والشر قلبها كما تعاملت قلوب الآلهة حيالها.

كل تلك الكراهية المتراكمة اتخذت قوة، وما إن اكتشفت ميدوسا ذلك حتى أحسَّت ببهجة هائلة قاتمة. كل من كان ينظر إليها، حيوانًا كان أم إنسانًا، يُصاب بشللٍ في الحال في موضعه بعد أن يجتاحه الذعر لرؤية وجهها الذي تعلوه وتحيطه جماعات الثعابين المحتشدة المتشابكة. لم يكن هذا سوى البداية فحسب؛ شيئًا فشيئًا يشعر بتقشر في جلده وتصلب في لحمه حول عظامه، يختنق، ولا يستطيع أن ينبس بكلمة أو نفس، ويغشي عينيه لوحٌ من الأردواز الرمادي، وسرعان ما يتحول إلى حجر بأكمله.

استغلت ميدوسا تلك القوة على الفور؛ تُحجِّر الأشياء حالما تظهر فقط. في كل مكان عبر الحقول وطرقات البلاد شاع رؤية تماثيل وحشية تُحاكي بشرًا رأوا ميدوسا وقد صاروا أحجارًا في الحال (حسبما جاء على لسان أوفيد).

كان بيرسيوس هو مَن قتلها، حيث علَّمته وأرسلته أثينا الحكيمة الماكرة. أجبر بيرسيوس الجرايات أن تكشف له المسار الذي يسلكه للوصول إلى الجورجونات، وبمجرد ما رأى ميدوسا نفَّذ الحيلة التي اقترحتها الإلهة: سيقترب منها ويتقدم نحوها من الخلف، ويكتفي بالنظر إليها عبر مرآة من دون أن يعرض نفسه لخطورة النظر في عينيها مباشرة.

قطع رأسَها بمنجلٍ من دون أن يستدير ناحيتها، وخرج الحصان المجنح بيجاسوس مهرولًا من رقبتها الذي حملها أيضًا في أثناء جماعها مع بوسيدون، ثم خرج كرياسور أيضًا (صاحب السيف الذهبي)، ويقال إن أمفيسبينا وُلدت منها أيضًا.

بالنسبة إليَّ أميل أكثر إلى القصة القائلة إن من دماء ميدوسا المسفوكة إثر قطع رقبتها وُلِد المرجان في أعماق البحار، شيء يبدو أن لا علاقة له بعالم الوحوش على الإطلاق، ودعونا نتذكر، عزيزتي القارئة وعزيزي القارئ، أن ميدوسا قد انحدرت إلى ذلك العالم بلا ذنبٍ يُذكر.

إن قوة ميدوسا التي تؤدي إلى التحجُّر، تُعَد من أكثر القوى التي تجلب انعدام الهوية، إنها ضياع، اضطراب جسيم في نظام الأشياء، حرمان غير معقول من الحركة، والحرارة، واللحم والدم، التجريد من كل أشكال الحياة العضوية، والاحتقار الأبدي لتمثال الجثمان الذي لا يمكن دفنه من الأساس.

أصبحت ميدوسا هكذا، رغمًا عنها، صورة تجسد نزعة أنفسنا نحو الكراهية المطلقة من دون أهداف محددة، نحو العنف المطلق، ذات قدرة حاسمة تجلب الهلاك والتجريد. أن تصير حجارة هو الشيء الذي تهابه أنفسنا على الإطلاق. إنه فخ انعدام الحياة، تجريد الذات من اللحم والروح، وأن تغدو أنماطًا خاوية، كائنات زومبي حجرية.

برزت ميدوسا بين العديد من الوحوش التي تسكن نفوسنا بفضل قدرها اللغوي أيضًا. أصبحت بعض الوحوش مألوفةً بالنسبة إلينا في لغتنا المحلية؛ القنطور أصبح ببساطة يُطلَق على سائق الدراجة النارية، السيرانة تدل على أي شيء خلاب، الكمير تعبر عن فكرة مستحيلة، الصقلوب يدل أي شيء «ضخم» عملاق، وسفنكس أتى إلينا بلفظ «سفينجيو» أي غامض، وهاربي التي اتخذت صورة ساخرة مريرة، قد تبعث على الكوميديا، لزوجة أو حماة أو مديرة مكتب، حسب الظرف، عدوانية ومتطفلة.

إن ميدوسا، المرأة ذات شعر الثعابين، المتحجرة، تسكن في أعمق أعماق أنفسنا، وتخبرنا أن الكراهية تنشأ من ظلم تعانيه أنفسنا، من تشوُّه، ومن تدهور الجمال. تؤدي بنا إلى الخمول والخواء، إلى ما يشبه أطروفة سخيفة عن الموت. ونظرًا إلى أن البحر هو العنصر الأقرب إلى العمق والحركة المستمرة للنفس، فإن ميدوسا تسكن البحر إلى يومنا هذا.

يطلق اسمها في لغات عديدة على اللا فقاريات من عائلة اللاسعات وتتكون من مظلة لبنية ولوامس تحتوي على خلايا لاذعة تسمى الخلايا اللاسعة وهي سامة بل وتؤدي إلى الوفاة في بعض الأحيان. تبث ميدوسا الخوف حتى يومنا هذا؛ بمجرد وصولها على الشواطئ يُصاب الأطفال بالذعر، وتترك مخالبها ندبات في الأوجه أو الأكتاف لكل من يلمسها.

لكنها لم تكره أحدًا، بل إنها مكروهة. إنها أقدم حيوان تجلّت عبره الحياة العضوية. يتكون جسمه من تسعٍ وتسعين في المائة من الماء، ومن ثمَّ، فإن خرج من البحر ولفظ روحه على الرمال، سرعان ما يتبدَّل من مخلوق فائق الجمال إلى مخلوق باهت هزيل كخيطٍ، ويكتسب إكتوبلازم عديم اللون، كمستحضر طبي شديد القذارة. في النهاية، يلقى المصير نفسه الذي لاقته الفتاة القديمة المُسمى باسمها.

18

صائدو الوحوش

بما أننا ذكرنا أنه في أعماق النفس البشرية تقطن وحوش أكثر ذعرًا، مختبئة كأنها غارقة، علينا أن ندرك الآن كيف تتعامل الأجسام المضادة الكامنة في النفس ذاتها لتحد من مفعولها، تطاردها وتفتك بها. إن نزعة اصطياد الوحوش والإيقاع بها، والحاجة إلى إبطال أذيتهم، تتجسد في العديد من النماذج البطولية التي تؤدي دورها على نطاقٍ واسعٍ، من دون أن تقنع بوحشٍ واحدٍ فقط، وتجعل من أعمالها مجازًا لاستصلاح حضاري حقيقي.

عادة ما تسكن الوحوش في مستويات النفس الدُنيا، هناك يغفون ويحيون حياة اليرقات غير المكتملة، ولكن بمجرد ما يصحون يكون بمقدورهم إخراج نار التنانين من بين فكيهم، ويتمتعون بحيوية الخيل في ركبتيهم، وقوة عمياء جامحة.

أما في مستويات النفس الأسمى، فهناك يسكن الصيادون الأبطال، لا يتخاذلون أبدًا عن دورهم في الحراسة، فهم على دراية كاملة بانتصاراتهم وأمجادهم لكنهم يعرفون أيضًا أنه يتم استدعاؤهم بين لحظة وأخرى للمشاركة في حملة صيد جديدة، وأن الخطر يحدق بهم إلى الأبد.

يدعى هؤلاء الأبطال بيرسيوس وثيسيوس وهرقل وأوديب، تُعَد مغامراتهم ولا تحصى، كما أن أسماءهم عادة ما تبث الطمأنينة في الأنفس. إن كان شر الوحوش يسكن في داخلنا، فهناك النقيض أيضًا، القوة المُخلِّصة للأبطال الذين لا يكفون عن مصارعة الوحوش وهزيمتها.

يُعَد بيرسيوس بمنزلة المنقذ المتجول للعذارى، مثل أندروميدا، ويُعَد صائدًا للوحوش مثل ميدوسا؛ حيث تقبع في أسافل النفس ويصعب تدميرها بصورة فائقة.

أما ثيسيوس فكان يقاتل ضد المينوتور بعد أن يحصل على مساعدة حاسمة من امرأة؛ أريادني، التي لن يدوم امتنانه لها طويلًا، بل وسيتخلى عنها (لا تسكن البطولة في منأى عن الخيانة وخاصةً في مجال الحب).

تمتع هرقل بشعبية واسعة أكثر من كل هؤلاء الأبطال. انقضت مهمته الحضارية في مجابهة الوحوش في أوسع نطاق، وذات سلسلة طويلة من المغامرات التي سُمِّيت باسم «مهامه»، وكانت برهانًا على شجاعة وقوة وإنكار الذات والتفاني في واجبه. في اللغة المعاصرة، لا تزال

التي تعني قوة جسدية فائقة، لكن النفس تدرك جيدًا أن الأمر لم يتعلق «erculeo» لدينا صفة بالقوى الجسدية فحسب سواء بالنسبة إلى هرقل أو إلى بيرسيوس أو إلى ثيسيوس.

من بين هؤلاء الأبطال، هناك مَن استخدم عقله فحسب للظفر بالوحوش؛ إنه أوديب الذي أبطل حيلة سفنكس وأنقذ ثيفا من الخراب وأصبح ملكًا عليها. إن قصته كقاتلٍ بلا وعي لأبيه لايوس وكزوجٍ غافلٍ للأم جوكاستا قد بلغ مداها أقاصي الأرض بسبب أعمال سوفوكليس، مؤلف الملك أوديب، وأوديب في كولونوس، التي تُعَد بمنزلة حجر الزاوية في المسرح العالمي.

في القرن العشرين، تردد كثيرًا اسم أوديب بعد أن استخدمه بلا توقف أبو الطب النفسي سيجموند فرويد وأسماها «عقدة أوديب»، التي احتلت الصدارة بين سائر العقد النفسية. ذلك من دون الأخذ في الاعتبار أن أوديب ارتكب بالفعل جريمتي قتل أبيه وزنا المحارم، لكن دون أن يريد أو يعرف ذلك، من جانب آخر فإن مواجهة سفنكس تعد ثمرة حقيقية لذكائه وإرادته.

تسكن في داخلنا هذه القوى إلى جانب مغامرات هؤلاء الأبطال، وتُبقي النفس في نظامٍ. إنهم نوعٌ من مكتب التحقيق الفيدرالي الكوني؛ ما إن تظهر فرضية خبيثة وحشية، وإن كانت حلمًا، حتى يتدخل هؤلاء الأبطال، ويعلنون معارضتهم لوجودها، ويجتثونها من جذورها؛ إنهم الأسماء التي نمنحها لمدخلات الحضارة وأعداء التشوهات والميول البربرية.

بيرسيوس

يمكن أن تُروى قصة بيرسيوس على أنها قصة خرافية عظيمة مليئة بالسحر والعجائب، يبرز فيها شخصية الصبي صاحب الأصول الإلهية، لكن القدر يلاحقه، وينهض للدفاع عن أمه، ويتحدى سلطات الظلمة، ويصارع الوحوش سواء التي يذهب إلى اصطيادها أو تلك التي يصادفها إبَّان مسيرته: إنه يعيد النظام والعدالة.

إنه بطل الخير، بلا عيبٍ، تمامًا كمَن يُعثر عليهم فقط في الصور الخيالية للعالم بأسره. بل إن العالم بأسره يُعَد خلفية لبطولاته؛ بدءًا من أرجوليذا وحتى أقصى أطراف العالم حيث العملاق أطلس، ومن هناك إلى سماوات هيبربوريانس، ومن هناك مرة أخرى إلى الشرق..

وُلد بيرسيوس من داناي ابنة أكريسيوس وأجانيبي، وملكة أرجو، كانت داناي ابنة الملك الوحيدة، وتتوق إلى وريث ذكر. عندما تشاور أكريسيوس مع الأوراكل(88)، كانت إجابته تقشعر لها الأبدان: «لن تنجب أي أبناءٍ آخرين إلا بواسطة داناي، وسيكون ابن داناي قاتلك».

(88 شخص أو مجموعة يعتبر «وسيطًا روحيًّا» أو مصدرًا للتكهنات أو الحكمة التنبؤية واستبصار المستقبل المستوحاة من الآلهة وأيضًا كقارئ للبخت، عُرف هذا النوع في مدينة دلفي الإغريقية وذكر الأوراكل في التراث والأساطير الإغريقية.

انزعج أكريسيوس وقرر أن يحتجز داناي ومربيتها في برج برونزي محاط بكلاب مزمجرة لحراستهم. لكن زيوس المفتون بناداي منذ زمن، لم يتوان في امتلاكها؛ فأنزل من سقف البرج وابلًا من الأمطار الذهبية، وأسرعت داناي في رفع ملابسها لجمعهم الأمر الذي كان كافيًا لزيوس ليجعلها حبلى، وُلد بيرسيوس بين جدران السجن.

استشعر أركسيوس ما جرى داخل البرج، واكتشف ما جرى ما إن سمع صوت طفل يلهو بالداخل يتداخل مع نباح الكلاب. حكم على المربية بالموت، شريكة زوجته، ولم يجرؤ على قتل ابنته وحفيده بيده، فاحتجزهما في فلكٍ صغير وأودعهما إلى البحر حتى يضلَّا طريقهما ويختنقا أو يغرقا ويصيرا فريسةً للوحوش.

على النقيض، كان الفلك على مرأى من ديتي الصياد الذي يرمي شباكه في بحر جزيرة سيريفوس. كانت داناي وبيرسيوس على قيد الحياة، واستضافهما الصياد بصورة طيبة كما لو كانا هدية غير مألوفة أهداه البحر إياها، أخذ ديتي داناي وبيرسيوس إلى البلاط حيث يقطن شقيقه بوليدكتس ملك الجزيرة.

سعى بوليدكتس إلى نوال داناي إذ لم يتبدد جمالها الذي فتن زيوس رغم المحن العديدة التي حاقت بها، لكنها ظلَّت تقاوم تحت حماية بيرسيوس. حينئذٍ تظاهر بوليدكتس بالإعداد لزواجه من هيبوداميا ابنة بيلوبس، إعداد زفاف عظيم تتحاكى به الأرض كلها، وحتى لا يظهر بصورة باهتة لملك يحكم جزيرة صغيرة أراد أن يرحل برفقة مجموعة كبيرة من الخيول، لذا أعلن أن كل واحد من رعاياه عليه أن يأتي بجوادٍ إلى قصره كهدية زفاف حيث سيقيم مأدبة عظيمة.

خشي بيرسيوس أن تلك الدعوة تهدف إلى إهانته؛ فهو يسكن لدى ديتي، بين الصيادين، والصيادون لا يمتلكون أي جياد، لذا، حضر إلى القصر ومعه اقتراح آخر عظيم ومفعم بكل قوة الشباب الطائشة. لم يُحضر حصانًا وإنما رأس جورجون، وتلك كانت هديته. سادت غمغماتٌ بلا حصرٍ في البهو، وضحك أحد الحاضرين. قبل بوليدكتس الهدية بابتسامة غامضة، ولا نعرف إن كان قد أُغرم بتلك الفكرة كهدية فحسب أم أنه أراد أن ينفذ الفكرة ذاتها للتخلص من ذلك الفتى.

في الحقيقة لم يتهور بيرسيوس في شيء كما يبدو. كان قد أعدَّ لمهمته بدأبٍ شديدٍ داعيًا أصدقاءه الآلهة؛ فأهدته أثينا درعًا لامعةً براقة استخدمها كمرآة، وعلَّمته كيف لا يلقي بأنظاره

مباشرةً نحو نظرات ميدوسا التي تمسخ الرائي حجرًا، وأما هرمس الرسول والمسافر الذي لا يكلّ، فلقد منحه منجلًا حاد النصل، وحذاءً مجنحًا، وخوذةً تُخفي كل مَن يعتمرها عن الأنظار.

هكذا استأنف بيرسيوس رحلته بعد أن تجهَّز بأعتى المعدات؛ فبمقدوره التحليق بسرعة البرق من خلال حذاء هرمس المجنح، والتخفي من أنظار الجميع إن لاح بالأفق أي خطر، وأما بيده فكان يُمسك بالمنجل الذي سيفصل به رأس الوحش عن جسمه.

حتى يهتدي إلى الطريق نحو الجورجونات، زار بيرسيوس الجرانييه؛ الشقيقات المسنات الطاعنات في السن اللواتي يقضين حياتهن بعين واحدة وسن واحدة لثلاثتهن، ويتبادلونها فيما بينهن كلما اقتضت الحاجة. بذكاءٍ حاد اعترض بيرسيوس طريق العين والسن خلال طريقهما من يد إلى أخرى، وقد صارتا بحوزته الآن، وحتى يعيدهما إليهن سألهن عن مكان سكنى حوريات ستيكس اللواتي بحوزتهن الشيء الوحيد الذي ما زال يفتقر إليه؛ حقيبة السرج التي سيضع فيها رأس ميدوسا بمجرد أن يقطعه.

استأنف رحلته، وأدرك أنه أوشك الوصول بالقرب من الجورجونات إثر تغيُّر مناظر الطبيعة المحيطة حوله. كل شيء كان رماديًّا، وبدت الأشجار مصنوعة من الرماد، ولكن أشد ما أثار قلقه كان وجود التماثيل الكثيرة بأشكال أجساد رجال ونساء -وقد أدرك شيئًا شريرًا في تكوينهم- الذين كانوا كائنات بشرية متحجِّرة بقيت هناك كمحاكاةٍ تجرفها الأمطار وتتعرض للتآكل جراء الريح والجليد وقد اتخذت وضعية توحي بالنكبة التي تعرضوا لها إثر تقاطع أنظارهم بأنظار ميدوسا.

انتظر بيرسيوس حلول الليل وباغت الجورجونات في نومهن، واقتفى العلامات التي أهدته إياها أثينا، وظفر بميدوسا وقطع رأسها.

نجح في الهرب بسهولة من الجورجونات الاثنتين الأخريين، سيثنو وأيرلن، بمعاونة الأجنحة المثبتة في قدميه، إلى جانب بيجاسوس الجواد الطائر الذي بعد أن قفز خارجًا من رأس ميدوسا، امتطاه بيرسيوس في الحال، نجا بنفسه وقد حصل على رأس الوحش في حقيبة السرج، باتت بين يديه الآن قوة هائلة.

سرعان ما اختبر بيرسيوس قوته أمام العملاق أطلس الذي رفض أن يأوي ذلك المسافر خائر القوى، وقد كانت تلك بمنزلة خطيئة عظمى يمكن اقترافها، ووقف زيوس في صفه. لم يتردد

بيرسيوس في إخراج رأس ميدوسا من الحقيبة وفي الحال تحوَّل العملاق إلى جبل مرتفع يُمكن رؤيته إلى الآن بصورة واضحة على الحدود الغربية للصحراء.

إبّان تجواله، زار بيرسيوس أيضًا أرض هيبربوريانس بين الجليد اللامع وقطعان البجع الناصعة البياض، ثم عبر السماء من الشمال إلى الجنوب وزار أثيوبيا حيث نخيل التمر والفيلة، وفي النهاية حلَّق أعلى مصر وعاد إلى البحر المتوسط ليبصر من بعيدٍ، على الساحل القريب من يافا في فلسطين، صورة تُجذبه بشدة وتدفعه إلى الاقتراب في الحال.

كانت فتاة فائقة الجمال، عارية، ترتدي أساورَ ذهبية كثيرة في معصمها، وقلادات لؤلؤية عديدة وخلاخل فضية. كانت مقيدةً ومربوطةً بنتوء صخري مقابل البحر؛ حيث يقف تنين مروع مغطى بقشور مخضرة ولزجة من الرقبة إلى الأسفل، برأس خنزير خشن الشعر، وأذنين منتصبتين، وأنياب بارزة، وكان على وشك التهامها.

اندفع بيرسيوس بوازعٍ من طبيعته لمقاتلة الوحش حتى قبل أن يُعجب بتلك الفتاة الفاتنة. كانت مواجهة عنيفةً، لكن بيرسيوس كان لديه ما يكفي من المكر إلى جانب المنجل حاد النصل الذي أهداه هرمس إليه. حلّق بيرسيوس منحدرًا ببطء أعلى البحر حيث خرج الوحش، وامتد بظله بطول سطح البحر المتموج. سقط التنين في تلك الخدعة، تلك الكائنات سهلة الخداع، الشرسة، رغم أساليبها البدائية في ردود أفعالها. أخذ يفتك بذلك الظل وينقض عليه، وفي الحال سنحت الفرصة لبيرسيوس ليهبط بذراعه الممدودة والمنجل المنتصب في يده، ويفصل رأس التنين عن جسده، ضاعت رأس الخنزير بين الأمواج، وغرق الجسد الخامد القشري إلى قاع البحر.

في هذه المرة، لم يفكر البطل في أي غنيمة يجنيها إثر فعلته. قام بكل ذلك بدافعٍ من نفوره الشديد إزاء الوحوش، وإزاء كل شيء يخل بالنظام والجمال. تحرَّرت الفتاة من أغلالها، وبدت فاتنة بحقٍّ؛ ذات شعر طويل أشد لمعانًا من الشمس، وعينين أشد زرقةً من البحر، وذلك الجسد المربوط بالصخرة الأمر الذي زاد من توهجه وجعل خوفها أكثر حماسةً.

كانت أميرة وتدعى أندروميدا، ابنة كيفوس وكاسيوبيا، وقد أوشكت أن تدفع ثمن غرور والدتها التي تباهت بحُسنها حتى إنها تجرأت وقالت إن جمالها يفوق جمال النيريدات بصورة لا توصف. رأينا سابقًا كم الخراب الذي يلحق بكل من يتحدى الآلهة. شعرت النيريدات بإهانة بالغة، وطلبن مساعدة بوسيدون، ملك الموضع الذي يعشن في داخله، وبالفعل تأهَّب الإله الثائر

بطبيعته للتصويب برمحه الثلاثي والقضاء على البشر، فرفع أمواجًا عاتية ضد البلدة التي تملك عليها كاسيوبيا وكيفوس. دمر بوسيدون بغضبه الجامح السواحل واكتسح القرى وأطار القوارب واجتاح السهول وأغرق الرجال وقطعان الحيوانات: لن يُهدئ من روعه سوى تقديم ذبيحة، كانت أندروميدا هي الذبيحة المنشودة؛ تُقدَّم العذراء كوجبةٍ للتنين الخارج ليلًا من أعماق البحر.

حينئذٍ، ذهب بيرسيوس، قاهر التنين، ليطلب يد الأميرة للزواج من كيفوس وكاسيوبيا اللذين وافقا في الحال، فلا أحد يعرف مدى سعادتهما. أرادت الأميرة الاحتفال بعرسها بصورة مهيبة بعد أن تحوَّلت حياتها في لحظة من ذعر تحولها إلى أشلاء من قِبَل وحش إلى بهجة تغمرها إثر حب ذلك البطل المِقدام.

إبَّان وليمة الزفاف، اندلعت قوى جديدة معادية حيال بيرسيوس المُقدَّر عليه أن يحارب وينتصر. أبدى شقيق الملك فنيوس عداوة بالغة حيال بيرسيوس مرددًا الإدعاءات التي أُشيعت بشأن ابنة شقيقه الفاتنة. أتى أيضًا إلى بهو البلاط خطيبٌ قادمٌ من بعيد، أجنور، الذي تجاهل بيرسيوس وجوده تمامًا، وأيضًا أندروميدا تناست أمره مأخوذة بدوامة عُرسها.

طالب أجنور بحقوقه، وليجعل الجميع يهابونه أحضر معه جيشًا بأكمله. قاتل بيرسيوس بكامل بطولته حسبما استطاع، واستطاع بواسطة منجله ذبح الأعداء من حناجرهم، ولكن عندما خرج من بلاطه أبصر وميض الأسلحة لمائتي محارب يقتربون منه، فلم يجد بيرسيوس مخرجًا أمامه إلا أن يُخرج رأس ميدوسا من حقيبة السرج وأن يختبر قوتها السحرية الوحشية مرة أخرى؛ في غمضة عين، أمام البلاط، تحوَّل جيش بشري من لحم وعظم إلى تماثيل حجرية رمادية باهتة.

بعد فوزه، عزم بيرسيوس على الرجوع إلى سيرفيوس أخيرًا، عانق أمه داناي والصياد الذي أنقذهما ديتي. لجأ كلٌّ منهما إلى أحد المعابد للهرب من بطش الملك بوليدكتس الذي لم يتوان في مطاردة داناي، مشتهيًا نوالها بأي صورة كانت؛ زوجة أو خادمة أو عبدة.

في هذه المرة حان دور بيرسيوس أن يقتحم إحدى حفلاته ويفسدها بكل ما أوتي من قوة. أبصر بوليدكتس يقف بين المدعوين الملتفين حوله بشكل دائري، وهم يلتهمون الطعام وينهلون من النبيذ حتى صاروا سكارى، فقال له بيرسيوس بصوتٍ عال حتى يسمعه الجميع رغم جلبة المأدبة: «انظر، لقد أحضرتُ الهدية الموعودة».

كان بوليدكتس أول من ضحك، ليتبعه بعد ذلك جموع المدعوين، ويسخرون في وجه بيرسيوس، وأراد أحد الحضور أن يحظى بإعجاب الملك فبدأ يسبُّه ويقول: «ما الذي سيجلبه ذلك الصياد المُعدم، الشاب المُفلس، الكاذب، المخادع..». صاح آخر مختنقًا من فرط الضحك: «كم أنه أكثر غباءً من البطة الصغيرة»، تردد صدى آخر يقول: «إنه محتال، بماذا يريدنا أن نقتنع ذلك الشاب المتفاخر المهرج..».

لم يكن بيرسيوس مستعدًّا لذلك النوع من الترحاب الذي قابله بغضبٍ عارمٍ يصعب السيطرة عليه؛ فهؤلاء المدعوون الفاسدون ينكرون ما تمكَّن من إتمامه، من دون أن يعلموا أن البرهان مخبَّأ في حقيبة السرج خاصته. لم يكن ليفتحها لولا ضحكاتهم الساخرة المتصاعدة والسُّباب الذي دفعه إلى ذلك. لوَّح بالرأس التي تعلوها الثعابين الكثيفة نحو الأعلى بعيدًا عن عينيه، وصوَّبها ناحية جماعة الأوغاد تلك، فأتمت معجزتها على أكمل وجه: مسخت الجميع حجرًا.

منذ ذلك الحين صارت سيريفوس أكثر الجزر الصخرية في بحر إيجة، يزعم البعض رؤية آثار أقدام وأذرع بوليدكتس ورجاله من النتوءات الصخرية التي بليتها الرياح والمطر.

أنقذ بيرسيوس الأم داناي، ونصَّب ديتي، الصياد الصالح، حاكمًا على عرش سيريفوس. بات الآن بمقدور قاهر الوحوش والكِبَر والظلم العودة إلى دياره إلى الأبد، إلى أرجو، حيث وُلِد ووطأت أقدامه للمرة الأولى ذلك البرج البرونزي المُريع.

لم يجد الجد أكريسيوس الذي فرَّ خوفًا من عودته. كان في إمكان بيرسيوس الصفح عنه ولكن لم يكن بمقدوره تغيير مخططات القدر. إن ذلك الـ أكريسيوس الذي كان عليه أن يقتله ثأرًا لنفسه، سوف يقتله دون أدنى رغبة من جانبه، إبَّان منافسة رياضية كان يشارك بها. أطلق بيرسيوس القرص بعيدًا، فهبَّت رياح مباغتة أخرجته عن مساره، وضاعفت من قوته، وجعلته يسقط مباشرة على قدم أكريسيوس الذي لقي مصرعه في لحظات. تنازل بيرسيوس عن البقاء في أرجو بعد وقوع المأساة، واستبدل بمملكته مملكة ماجابنتس، ملك تيرنز.

تمثَّلت أعمال بيرسيوس الأخيرة، المسافر الرحَّال الطائر، في أعمال البناء وتشييد المدن. أحضر الصقاليب جاستروكيري(89) (جميعهم «بطون وأيادٍ» كما يُفهم من الاسم)، لبناء أسوار تيرنز. في حقيقة الأمر، فإن كل مسافر إلى أرجوليذا حتى يومنا هذا، يقف أمامها، ويتساءل كيف يمكن لأذرعٍ بشرية بلا معدات النجاح في بناء أسوار بيضاوية من صخور عملاقة بهذا الشكل.

(89) اسم مشتق مركب من اللاتينية بمعنى بطن ويد.

في الجوار، أسفل الشمس الحارقة نفسها، بين المرتفعات شديدة الانحدار وأشجار المصطكي، أسَّس بيرسيوس مدينة موكناي. يقال إنه سمَّاها هكذا إذ إنه في أحد الأيام، بينما كان حلقه يحترق من شدة العطش وقد هيمن الجفاف القاحل على كل شيء من حوله، تدفق مجرى مائي بصورة سحرية من أحد نباتات الفِطر، ميكوس باللاتينية، وهكذا تمكَّن من إخماد عطشه.

كثيرًا ما يساعده السحر، سحر خيالي، أو ليس من الخيال أن فِطرًا ينبت وسط جفاف أرجوليذا القاحل ويعطي جدولًا من المياه الحياة؟ أليس من الخيال أن ذلك الفِطر تُسمَّى على اسمه مدينة أصبحت بعد ذلك مهدَ الحضارة الموكانية المليئة بالأحداث والروعة والمآسي؟

ربما لكونه مصبوغًا بالسحر، نرى بيرسيوس لا يُعتَد به ضمن الأبطال الأكثر شهرة مثل هرقل أو ثيسيوس، رغم ذلك فإن أنفسنا تراه وجهتها الأولى التي تهرب إليها في كل مرة تحارب وحوش الظلام، أو عندما تختار درب المروءة والشجاعة وإعادة تأسيس العدالة، تختار دربها وهي تتجول وتحلق برشاقة مثل جناحٍ أو ظلٍّ يهيم على موجة أو نبع ماء نقي يتدفق من مكان وفي زمان لا تتخيله أبدًا.

من يُكرِّس نفسه لهرمس عليه بالتأكيد أن يفعل الأمر مثله حيال بيرسيوس، تذكرا هذا جيدًا عزيزتي القارئة وعزيزي القارئ.

ثيسيوس

لم يحظ ملك أثينا، أيجيوس، بأبناءٍ من زوجتيه ميليت وكالسيوب، فتزوج الساحرة ميديا أملًا في سحرها الذي ربما يمنحه الطفل المنشود.

في أثناء عودته من دلفي، حيث كان من المفترض أنه سيشاور أوراكل، توقف أيجيوس ليلًا في تيريزين، حيث كان بيتيوس حاكمًا لها، أحد أكثر حكماء عصره، وربما الأكثر ذكاءً أيضًا. علم أن أيجيوس يبتغي طفلًا، وكان هو لديه ابنة في سن الزواج تُدعى أيثرا وكانت على عهد بالزواج من بيليروفون؛ البطل الذي قتل المخلوق كمير، لكن يوم زفافهما لم يأتِ قطُّ.

هكذا، إبَّان المأدبة، ظل بيتيوس يقدم أكوابًا مليئة دائمًا بالنبيذ، بلا عددٍ، إلى ضيفه، ما إن ثَمِل الضيف تمامًا حتى أشار إليه بيتيوس بالطريق المؤدي إلى غرفة ابنته أيثرا.

بعد أن فرغت علاقتها مع أيجيوس الذي اجتاحه التعب والنوم إثر النبيذ والمتعة، نهضت الفتاة من فراشها، واتجهت إلى شاطئ البحر حتى بلغت معبرًا -كان أمرًا هيِّنًا نظرًا إلى مد البحر

المنخفض- حيث تقع جزيرة سفيريا على مقربة، وأنهت الليل في أحضان عشيقها الإلهي؛ بوسيدون.

في صباح اليوم التالي، وقبل أن يستأنف أيجيوس مسيرته إلى أثينا، حيث لا يزال الألم والاضطراب يدور برأسه، فأمسك سيفه ذا المقبض العاجي والثعبانين التاريخيين وزوجي الصندل الجلدي ووضعهم أسفل حجر يفوق ارتفاعه الحصان ويفوق اتساعه عربة الخيل. أبلغها أنها إن أنجبت ابنًا تسري قوة كافية في ذراعيه تمكِّنه من تحريك ذلك الحجر، فحينها، وعندما يتمكَّن من الإمساك بالسيف في قبضته وانتعال الصندل في قدميه، عليها أن ترسله إليه في أثينا.

وُلد ثيسيوس الصغير، ابن تلك الليلة التي تمتعت بها أيثرا بجماعين؛ أحدهما بشري والآخر إلهي، وكَبر الصغير كأميرٍ على مملكة بيتيوس. قدّم الصغير أدلة عدة تنم عن شجاعة مبكرة؛ ففي أحد الأيام، حلَّ هرقل ضيفًا لدى بيتيوس ونزع عن كتفيه جلد الأسد الخاص بنيميا وألقاه على مقعد، فهرول جميع أطفال البلاط مذعورين، ما عدا الصغير ثيسيوس ذا السبع سنوات الذي أمسك ببلطة وأظهر تأهبًا ورغبة في القتال.

عندما بلغ سن السادسة عشرة، نجح في رفع الحجر الضخم واكتشف ما يخبئه تحته. حان وقت الرحيل عن تيريزين والانطلاق نحو أثينا، عارضت أيثرا وقد تسلَّطت غريزة الأمومة على جوانبها. لم يتردد ثيسيوس في التلويح بسيفه أمامها يهددها؛ بالنسبة إلى أي بطل فإن نداء قدره تفوق قوته أي عاطفة أخرى.

ها هو الشاب ذو الشعر الأشقر المجعد الضارب إلى الحُمرة، والقبعة الحمراء مثل السترة، والعباءة الصوفية التي يرتديها في مسيرته عبر الطرقات. لم يختر البحر، الطريق الأكثر أمانًا واختصارًا، وإنما أراد الذهاب عبر اليابسة كما لو كان يشهي أن يستغل كل الفرص الممكنة لإظهار قوته التي ستوفرها له تلك الرحلة الساحلية.

لم يكن ثيسيوس ليبحث عن المتاعب أو يعمد استثارة أي أحد، ولكن حالما يرى الشر أو استغلال النفوذ أو سرقة أو عنفًا يبدأ في القتال حتى وإن لم يمسه الأمر مباشرة. أما المخلوقات الشريرة المتعطشة إلى الدماء المنتشرة في الطريق بين تيريزين وأثينا فلم تجد مهربًا أمامها قطُّ. اعتاد ثيسيوس مقابلة العنف بعنفٍ مماثلٍ وربما بصورة أكثر قوة، هل هناك طريقة أخرى تُمكِّن من محاربة الوحوش ومحوها إلى الأبد؟

كان بريفيت ابن هيفستوس أول من قابله، ذلك الذي ورث عن أبيه حرفة الحدادة وقدميه الهزيلتين العارجتين. قطع الطريق أمام ثيسيوس وحاول قتله بصولجانه البرونزي الهائل كما يفعل عادةً مع سائر العابرين، كان لثيسيوس حيلة رائعة لتمزيقه إربًا والقضاء عليه.

وحده سيني اللص كان من الصعب إبطال شروره إذ إن لديه القوة لثني أشجار الصنوبر أكثر من رياح البحر العاصفة. يستطيع سيني بقبضته أن يجعل قمة الشجرة تلمس سطح اليابسة. بعد أن يطلب مساعدة أحد العابرين، كان يتراجع فجأة وإذ بالمسافر يحلق عاليًا ويسقط منطرحًا على الأرض بعنفٍ ويفقد حياته. الأسوأ من ذلك كان قدر المسافرين الذين يأسرهم. أسَّس سيني أسره في منتصف الشجرتين المثنيتين وربط أذرعة سجنائه المفتوحة على مصراعيها بالشجرة وبالأخرى. عندما يترك سيني يديه بغتة وينزلهما عن الجذوع، تنفصل الجذوع في الحال ويشطرون الضحية نصفين، تمكَّن ثيسيوس من هزيمته وأنزل به العقوبة الرهيبة عينها.

التقى بعد ذلك بالخنزيرة المسماة فيا، وكانت وحشًا ضخمًا تتسكع في الحقول وتثير الذعر داخل القرى وتقتل الأطفال والنساء وحتى الصيادين والمحاربين الذين حاولوا الإمساك بها، واجهها ثيسيوس بسيف ورمية حجر لينجح فيما جرَّبه الآخرون من دون جدوى.

واجه شيرون المسيطر على طريقٍ متعرجٍ ضيقٍ معلق بين السور الصخري المرتفع والبحر. كان يطلب جزية بسيطة؛ إذ كان يجلس في منتصف ذلك الزقاق ويسدُّه، ومن يريد المرور عليه أن يركع أمامه ويغسل قدميه. كان قد أعدَّ حوضًا مليئًا بالماء إلى جانب خرقة نتنة لتجفيفهما. لكن بمجرد ما ينتهي العابر من تلك الخدمة المهينة، وكعادة الأشرار الذي لا يحفظون عهدهم، يقذفه شيرون في الأمواج لتلتهمه سلحفاةٌ تسبح دائمًا بالأسفل. فَطِن ثيسيوس لنواياه، وقذف الوعاء في رأسه، ثم صعقه وأسقطه إلى الأسفل حيث تقبع السلحفاة تنتظر طعامها.

أما في إلفسينا تقابل ثيسيوس مع سيرسيون؛ المقاتل الذي لم يُقهر حتى ذلك الوقت. كان سيرسيون عملاقًا، ذا جسم ممتلئ، ورقبة منتفخة، تبرز عضلات ذراعيه وساقيه بصورة مخيفة. نظرًا إلى اعتياده إنزال الهزيمة بالخصم وسحقه، وجد سيرسيون نفسه تلك المرة أمام شاب يقاوم قوته الغاشمة بقوة يضيئها ذكاءٌ وطرازٌ فريد. بأناقة شديدة، الأمر غير المعتاد على الإطلاق من جانب سيرسيون، أمسك ثيسيوس خصمه من ركبتيه، وبحركةٍ غير متوقعة وغير مُدركة قلبه وأطاح به في الهواء حتى تهاوى على الأرض. يقال إن زيوس هو مبتكر قواعد المصارعة الحرة التي سيكون لها باعٌ كبيرٌ بين ألعاب الإغريق.

أما بخصوص العدو الأخير الذي جابهه ثيسيوس فكان الأشد دهاءً بينهم ويسمى بروكرست، وحش كابوسي، الأمر الذي لم يكن من محض الصدفة أن يبقى إلى الآن في اللغة المعاصرة ليُشير إلى أي حالة مخيفة من التعذيب. يحيا بروكرست في موضعٍ حقير بسريرين، كان يتظاهر بأنه يستضيف المسافرين ويوفر المأوى لهم ويجعلهم يستريحون على السريرين، ثم يتأكد بمكرٍ من أن قصار القامة يرقدون على السرير الكبير، وطوال القامة يفترشون السرير الصغير. في الحال يتحول السريران إلى سندانين، وباستخدام معدات تشبه الكماشة يبدأ بروكرست في تمديد الأجسام القصيرة عن طريق خلع الكتفين وشدِّهما، إلى جانب الجذع والرقبة حتى يتوافقون تمامًا مع أبعاد السرير. أما الأجساد الطويلة فكان كافيًا أن يستخدم أداةً قاطعة مثل المنجل؛ فيبتر الساقين وكل ما يتجاوز أبعاد السرير الذي يغرق في بركةٍ من الدماء.

أيضًا في حالة بروكرست تبنَّى ثيسيو قاعدته نفسها؛ فقاتله وظفر به حتى جعله يتجرع الآلام ذاتها من كلا السريرين، تلك الآلام التي كان يستمتع بإلحاقها، ذلك الوحش، بالعابرين الأبرياء.

إلا أن المغامرة التي أذاعت صيت ثيسيوس حتى يومنا هذا تتجلى في ذهابه إلى جزيرة كريت وقتله المينوتور، وهذا ما قد حدث.

بلغ ثيسيوس أثينا أخيرًا، تلاحقه أصوات الانتصارات الحارة على قطَّاع الطريق ووحوش الطريق الساحلي، لكن سرعان ما سقط في معاداة ميديا التي تحفَّزت للقضاء عليه وحاولت إقناع أيجيوس أنه جاسوسٌ أو قاتلٌ هاربٌ وليس بطلًا كما يزعمون.

كان لميديا طبيعة انتقامية وقدرة على الكراهية بلا حدود. ما إن رأت أن أيجيوس لم يتخذ أي خطوة لطرد الوافد الجديد حتى أخذت تقمعه بوسائل السحر المُسخَّرة لخدمتها. إنها ساحرة خبيرة في كل أنواع التعاويذ، تعرف جيدًا كيف تستخدم العشب والمساحيق ومصل الحيوانات حتى يتسنى لها إعداد جرعة مميتة في الحال، سكبت جرعتها في كأس من النبيذ وقدَّمتها إلى ثيسيوس في إحدى الولائم.

أنقذت لحظةٌ من التردد البطل الشاب؛ إذ رأي ثورًا مشويًّا عالقًا بسيخين كبيرين يوضع على المائدة، فأشهر سيفه متهللًا ليقطعه. في تلك اللحظة تعرَّف أيجيوس إلى المقبض العاجي، والثعبانين المتقاطعين، ثم أخفض أنظاره ليرى الصندل الذي تركه في تيريزين أسفل ذلك الحجر منذ سنوات عديدة. في الحال صعقه برقٌ مشرقٌ؛ هذا هو ابنه، وعلى الناحية الأخرى ضرب

ميديا صعقٌ مريبٌ؛ إذ إنها لم تكف عن إظهار كل عداوة ناحية ثيسيوس وحاولت تسميمه بهذه الكأس بإلحاحٍ شديدٍ وابتسامة ضالة ماكرة.

نجح أيجيوس في إسقاط الكأس من يد ميديا بضربة واحدة من يده. انسكب السائل على الأرض حتى أخذت تتآكل وتصاعد منها أبخرة دخانية مُزرقة. انكشف أمر المرأة وفرَّت من أثينا بعد أن تخفَّت بأبخرة ملوَّنة الناتجة من سمِّها، وهكذا نجحت في الهرب من جزاء أيجيوس المنتظر.

في تلك الآونة سادت حالة من الحداد أنحاء المدينة؛ كان الناس يبكون في كل مكان بلا انقطاعٍ وخصوصًا النساء منهم، والأمهات، اللواتي أظهرن فجيعتهن بدموع منهمرة كالأنهار، ويضربن صدورهن صارخات بعبارات اليأس والألم.

أدرك ثيسيوس أن وقت تضحيته قد حان. منذ عدة سنوات، منذ وجود الثور الأبيض ذي الخياشيم النارية الذي لم يكف عن التجوال وبثِّ الرعب في سهل ماراتونا، بل إنه قتل ضحايا بلا عددٍ من بينهم أندروجيوس ابن مينوس. حينها طالب ملك كريت بتعويض من قِبل أثينا؛ سبعة غلمان وسبع فتيات عذارى يُؤخذون من أثينا إلى كنوسوس حيث سيتم إطعامهم للمينوتور، الوحش المحتجز في المتاهة.

اعتادوا تقديم الأضحية إليه في كل عامٍ، وربما كل تسع سنوات. تبقى جزية الدم باهظة للغاية، فيتطوع ثيسيوس بين السبعة غلمان بغرض قتل المينوتور وإنهاء كل شيء.

وضع ثيسيوس خطة؛ حيث زجَّ بغلامين يتمتعان بسماتٍ أنثوية بين الفتيات السبع، وكان في إمكانهما إظهار مهارة في استخدام السيف إن لزم الأمر.

تحمل السفينة ثلاثين مجدفًا، وترفع أشرعتها السوداء علامة على الحداد جرَّاء الأرواح البشرية الشابة التي تحملها إلى الموت. أعطى أيجيوس، ذو العينين المنتفختين من شدة البكاء، شراعًا أبيض إلى ثيسيوس، وتوسَّل إليه أن يرفعه عاليًا ما إن يعود سالمًا ظافرًا.

ينتمي ربَّان السفينة إلى الفياكس؛ إذ كان سلفًا لجماعات الفياكس الذين استقبلوا أوديسيوس بحفاوةٍ سابقًا، واستأنفت السفينة مسيرتها على الأمواج بسعادة بعد أن دعا ثيسيوس وكل طاقمها أفروديت، حامية السفن وكل سالكٍ عبر البحر.

رست السفينة في الميناء بعد بضعة أيام، واندفع مينوس إلى رؤية الفتيات السبع ليُغرم بإحداهن على الفور ويرغب في التمتع بها على سطح السفينة؛ تدخل ثيسيوس لحمايتها باسم الإله بوسيدون، والده.

سخر مينوس مما قال؛ حيث إن بوسيدون لم يكن ليتراجع خطوة واحدة أمام أي عذراء يقابلها حتى ينال منها ما يريد.. ولكن ماذا إن كان هذا الشاب المهرج المتعجرف ابن بوسيدون بحقٍّ؟ إبَّان تفكيره، نزع الخاتم من إصبعه وألقى به في البحر وقال: «إن كنت حقًّا ابن بوسيدون كما تقول، فألقِ بنفسك وأحضره..».

للحظة لم يتردد ثيسيوس، فألقى بنفسه في أعماق البحر حتى إن الدلافين وفرس البحر كانوا يرافقونه. وصل إلى قصر أمفيتريت التي أطلقت سراح حورياتها البحرية النيريدات في كل مكان ليجدن الخاتم مخبئًا تحت شجيرة من الطحالب البحرية، فيحضرنه خارجًا بكل لمعانه.

عاد ثيسيوس إلى السطح وأعاد الخاتم إلى مينوس وأظهر له التاج الذهبي الذي أهدته إياه أمفيتريت سيدة البحر.

للدخول إلى المتاهة، حيث تُحتجز ثمرة الحب الآثمة التي أنجبتها باسيفاي من ثورٍ، لجأ ثيسيوس إلى طلب العون من الأميرة أريادني. كانت فتاة نقية عاطفية حتى إنها سقطت في حبِّه على الفور. كان من السهل الدخول إلى المتاهة، فالجميع يعرفون ذلك، لكن بمجرد أن يدخل المرء إلى قلبها يصبح رجوعه دربًا من المستحيل. كان تصوُّر ديدالوس؛ النحَّات الحرفي لدى العائلة المالكة في كريت، أن وحشًا كالمينوتور يجب أن يحيا في معزلٍ عن الجميع من دون أدنى إمكانية لخروجه إلى النور حتى يفقد الذاكرة من تلقاء نفسه.

لسنوات عديدة عاشت أريادني في كربٍ بعد علمها أنها الأخت غير الشقيقة لذلك الوحش، تلك التي لن تستطيع أن تحب أمًّا أو أبًا كخاصتها، لذلك فإنها سترشد ثيسيوس لما يجب أن يفعل. كانت قد أغرمت بالأمير الآثيني الوسيم، أرادت الرحيل معه تاركة من خلفها حجم هذا الرعب الذي عانته خاصة بعد أن وثقت به. أعطته سيفًا ووضعت مغزلًا سحريًّا بين يديه، كان من صنع ديدالوس أيضًا، الذي سيمكنه من الوصول إلى المينوتور ومن ثَمَّ العودة من جديدٍ.

كان مغزلًا وكرة من الخيط ولم يتم التأكد إن كانا يرتبطان ببعضهما من عدمه. الأهم في ذلك، هو أنه بمجرد ربط عقدة مصنوعة من أحد طرفي الخيط بحلق الباب مع الاستمرار في فكِّ كرة

الخيط باليد، سيسهِّل اتِّباع الخطوات ذاتها عند العودة. يكفي اتِّباع خيط أريادني؛ تعبير شاع استخدامه حتى يومنا هذا للإشارة إلى حلٍّ آمن يرشد المرء ليس فقط في متاهات القصر وإنما في الحياة برمتها.

هكذا، تمكَّن ثيسيوس من إدراك المينوتور، الوحش الذي يقترف أي ذنبٍ بمحض إرادته، وعندما رآه ثيسيوس وحيدًا، كئيبًا، بعينين بارزتين على رأس ثور ويبدو أنهما مليئتان بالدموع، هاجمه على الفور وزهق روحه. لا أحد يعرف إن كان قتله بسيف أريادني أم بيديه العاريتين، ولا ننسى أن ثيسيوس يُعَد مؤسس قواعد المصارعة الحرة ويعرف كل أسرارها بما في ذلك الحركات المميتة، أو ربما قتله بالهراوة التي يحملها دائمًا معه.

أُطيح بذلك المينوتور، وانكسرت سلسلة الأضحيات الشريرة، وحان الآن موعد العودة إلى السفينة وأخذ طريق الهروب. عاد ثيسيوس ممسكًا بأريادني بيده، وقد غمرتهما فرحة فائقة تصل إلى حد الشراسة، وركضا معًا إلى الميناء.

في تلك الأثناء كانا الغلامان ذوا الملامح النسائية اللذان زجَّ ثيسيوس بهما وسط مجموعة الفتيات قد استردَّا طبيعتهما الحقيقية وتمكَّنا من القبض على الحراس على حين غرة، وقتلاهم مطلقين سراح رفيقاتهم ورفاقهم.

ظل الفياكس في مقدمة السفينة متأهبًا للإبحار.. ووصل ثيسيوس بصحبة أريادني إلى الميناء ثم صعدا إلى السفينة وسط ظلام ليلة ذات قمر محاق، وارتفعت المرساة واستأنف الثلاثون مجدافًا شقَّ المياه بصورة إيقاعية، عبثًا أرسل مينوس أسطوله حتى يمنع فرار أولئك الذين لم يبدوا له سوى خونة فقط.

خانت أريادني عائلتها ووطنها بدافع الحب، لكنها لن تحصل على المكافأة التي كانت ترجوها. كانت تلك النقية الساذجة على قناعة أن ثيسيوس سيأخذها معه إلى أثينا، ولكن بمجرد أن تيقَّن ثيسيوس أنه بات في مأمنٍ من أي مطاردة، ووجد مأوى في جزيرة ناكسوس لسفينته، غادر ناكسوس في النهاية من دون أن يصطحب أريادني معه.

يبدو غامضًا كيف ولماذا تخلى ثيسيوس عن الفتاة الشابة التي يدين لها بامتنانٍ غير متناهٍ إزاء المساعدة التي قدمتها له. إن كان قد نجح في مهمته، فمن المؤكد أن ذلك يرجع جزئيًّا إلى شجاعته، ولكن من جانب آخر، فإن الفضل في نجاح المهمة يرجع إلى نصائح أريادني وحبها

وأدواتها السحرية. من دون الخيط خاصتها، كان ثيسيوس سيظل يبحث عن مخرج من تلك المتاهة إلى الآن.

لماذا تخلى عنها إذن؟ لم تفسِّر لنا الأسطورة أي شيء، علاوة على ذلك، فإنه ليس من دورها تقديم أي تفسيراتٍ أو شروحاتٍ. ربما أن ثيسيوس لم يحب أريادني قطُّ، ويكون قد ادَّعى ذلك ليحظى بدعمها له، ربما يكون قد اجتاحته رهبةٌ مباغتة لمجرد التفكير أنه سيصحب معه إلى أثينا تلك الأجنبية، ابنة ألدّ أعداء المدينة، أو ربما أن ديونيسوس تراءى له في حلمٍ وأمره أن يترك تلك الفتاة على شواطئ ناكسوس لأنه أحبها.

انتهى الأمر بوصول ديونيسوس بالفعل برفقة بلاطه من جماعات الباكانتى والحوريات والساتير والسيلين في سحابة وردية معطرة بالنبيذ. أصبحت أريادني زوجة لإله السُّكر، ترقص بصحبته في موكبه، وتضفي الحياة إلى زوجين عادة ما يلجأ المرء إليهما كلما أراد الاحتفال بالجمال والشباب والمتعة، هكذا لورينزو دي ميديشي يؤله الفرحة المختلسة من رحلة الزمن ويقول:

ها باخوس يقف إلى جوار أريادني

يُشعَّان حماسة وجمالًا.

كان لثيسيوس مصيرٌ آخر. خلال رجوعه إلى أثينا كان قد نسي الوعد الذي قطعه مع أبيه: ما إن يرى ساحل أتيكا عليه أن يُهبط الأشرعة السوداء التي بدأ بها رحلته، ويرفع أشرعة بيضاء علامةً على انتصاره. ربما لم يتذكر بسبب ثِقل الهجران القاسي الجاحد المُلقى على كتفيه، أو لتلك المزاعم التي تفترض إرغامه على التخلي عن أريادني انصياعًا لرغبة ديونيسوس، أو بسبب الكرب المتنامي في قلبه الممزق.

لم يفلح أيجيوس في مقاومة المعاناة واليأس اللذين يخنقانه، واندفع ناحية النتوء الصخري حيث كان يتعيَّن عليه الوقوف لينتظر قدوم ابنه الذي زعم فقدانه، وترك نفسه يتهاوى بين أمواج البحر الزرقاء الدافئة الذي تم تسميته باسمه بعد ذلك.

تُوِّج ثيسيوس ملكًا على أثينا وضمَّ إليها جميع الضواحي والبلدان المجاورة، وفتح الأبواب أمام الأجانب، ليعلن بذلك بداية مرحلة عظيمة لمدينته. ابتكر الألعاب البرزخية(90)، ولمع كلاعبٍ رياضي وبطل للمصارعة الحرة، وسكَّ عملة معدنية رُسِم عليها رأس ثور. نجح ثيسيوس أن

يكون مدافعًا لأثينا، وفعل ذلك ببراعة أمام الهجوم الذي شنَّه جيش الأمازونيات، وأحب إحداهن وتزوجها وتُدعى أنتيوبى.

90) مهرجان إغريقي قديم كان يُقام مرةً كل سنتين، في شهر أبريل على الأرجح، تكريمًا لإله البحر بوسيدون، وذلك في حرمه الواقع على برزخ كورنث، ومن هنا جاء اسمه. يرجع تاريخه إلى نحو العام 570 قبل الميلاد، وكان يشتمل على مباريات في الألعاب الرياضية وفي الموسيقى والخطابة، وعلى سباقات خيل ومركبات، وقد ألغي في القرن الرابع للميلاد بعد انتشار المسيحية.

بمرافقة صديقه المخلص بيريثوس ملك لابيثس الذي تضامن معه وقام برحلة إلى العالم السفلي -من دونها تصبح قصة الأبطال غير مكتملة- إلا أن المهمة المتمثلة في إنقاذ بيرسيفون باءت بالفشل، واستسلم بيريثوس أمام هاديس ليعود ثيسيوس بمفرده بفضل هرقل ويرى النور مرة أخرى.

حتى يومنا هذا، تتجلَّى أعماله باستمرارٍ وسط أولئك الذين يعاونهم في تحرير الأرض من الغزاة والعمالقة والوحوش المروعة، وفي قتل المينوتور وسط المتاهة، وأمام أي شخص أو شيء تخجل منه الطبيعة البشرية، بل وتجعله يخجل من نفسه ومن هاوية وجوده.

يُعَد ثيسيوس حامل النقاء، والنهج، والنظام، فهو يزيل أي عائق في الطرقات يحيلنا دون الوصول، ويُنزل أشد العقوبات على أولئك الذين يروِّعون المارة، ويحبط الذعر الناتج عن أي تضحية بشرية بعد أن يفتك بالوحش منبع مخاوفنا.

لم يكن معصومًا من الخطأ، لكنه ينجز أعماله بصورة محددة كريمة، ويأتي بها من الجانب المُنير؛ إذ إنه يحيا في الجزء الأسمى من نفسك، عزيزتي القارئة وعزيزي القارئ، حيث يُبعد أي شيء يبدو شاذًّا أو عنيفًا أو مظلمًا. يسكن الميناتور داخلنا، ويعاوننا ثيسيوس إلى الآن للفتك به، مظهرًا لنا طريق الشجاعة والحكمة والفطنة. يلزمنا الكثير لإلحاق الهزيمة بالوحوش، لكن ثيسيوس ما زال يخبرنا أن بمقدورنا أن نفعل ذلك: ندخل في متاهة الشر ونخرج منها بمساعدة خيط أريادني، رمز العقل الذي لا يُسجن، أو يسقط في فخٍّ، بل ربما يسمح لنا بالهبوط إلى الجحيم والعودة منه سالمين.

هرقل

يُعَد هرقل أعظم أبطال اليونان كافة. تمتاز دورة مغامراته الواسعة المعقدة لتجعل منه بطلًا فريدًا يعرفه أيضًا أولئك الذين لا يفقهون شيئًا عن الأسطورة اليونانية. من اسمه اللاتيني،

المستخدمة إلى الآن للتعبير عن فرط القوة والصلابة. من «erculeo» هيركولى، انشقَّت الصفة المؤكد أن هرقل كان من أولئك الأبطال الذين يمتازون ببنية ضخمة وقوة لا تُقهر، لكن أعماله لم تكن برهانًا على الشجاعة ومهارات القتال فحسب، وإن كان الأمر هكذا، فلم نكن في حاجة إلى تفسير مكانته الرفيعة بين سائر الأبطال.

تتسع بطولات هرقل لتشمل في جوانبها أكثر من ذلك. إنها رغبة دائمة في تأكيد النور والحياة عن الظلمة والموت، صراع دائم لمطاردة الأشباح والوحوش من الأفق الإنساني والإلهي. لم يكن هرقل ملكًا مثل بيرسيوس أو ثيسيوس، ولم تكن لديه أي سلطة سوى الطاعة والخدمة ومواجهة كل صنوف الصعوبات بلا خوف، كواجب سائر الأبطال، ويعبر سالمًا دروب الجنون والعبودية والرعب.

وُلد هرقل من ألكيمنى زوجة أمفتريون الصالحة الجميلة، وكان حفيدًا لبيرسيوس، في المنفى في ثيفا. لم يختطفها زيوس وإنما أحبها برقة شديدة. بطبيعة حال الأساطير القلطية، نرى حيلة سحرية تُشرف على ولادة الملك آرثر، نتيجة الزنا، حيث اتخذ كبير الآلهة ملامح أمفتريون الذي كان يحارب بعيدًا، وقضى في فراش ألكيمنى ليلة سعيدة. كانت سعيدة جدًّا حتى إنها استغرقت ثلاث ليالٍ لأن المخلص هرمس طلب من هيليوس ألا يخرج إلى السماء بعربته، وأن تبطئ سيلينى من مسيرتها، وأن يهيمن هيبنوس على البشر ويُسقطهم في نومٍ عميقٍ.

عاد زيوس إلى الأولمب، ومضت تسعة أشهر من ذكريات السعادة الكاملة لتلك الليلة الطويلة جدًّا التي قضاها في الحب، بدأ يزهو بأنه أوشك على أن ينعم بطفلٍ من سلالة بيرسيوس، وسيصبح ملكًا ذا شأن.

طلبت منه هيرا بخبثٍ أن يعدها بأن المولود الأول من نسل بيرسيوس يصبح ملكًا، وما إن حصلت على الوعد حتى انطلقت إلى موكناي لتُسرع من ولادة نيكيب زوجة ستينلو -كان هو أيضًا سليل بيرسيوس- حتى أنجبت ابنها في شهرها السابع. في اللحظة ذاتها أرسلت مويراي إلى ثيفا وجلسن القرفصاء أمام باب غرفة ألكيمنى وأبقين حواف ملابسهم مرفوعة وأمسكت كل منهن بيد الأخرى واتحدن معًا وأخذن يطيلن مخاضها ويؤخرن من أوان الولادة بتعاويذ سحرية.

هكذا جنت ثمرة وعدها مع زيوس، ووُلد إورستوس ابنًا لنيكيب وستينلو الذي سيصبح ملكًا عظيمًا؛ رسم القدر مصير هرقل بالفعل: سيصبح ضمن رعايا إورستوس وعليه خدمته وطاعته.

كانت ألكيمنى تخشى غيرة هيرا الجامحة بالفعل، ولم تعرف أن غيرتها تجلَّت بالفعل في خداعها لزيوس، فآثرت أن تترك الرضيع في الحقول عند أبواب ثيفا. هبطت أثينا وهيرا إلى هناك، وقد أدهشهما جمال الطفل وقوته، فأقنعت هيرا أثينا بإرضاع الطفل، وبالفعل مدَّت هيرا ثديها الرائع إلى الصغير الذي أخذ يمتص اللبن بشدة حتى تسبب في إيلامها آلامًا مبرحة وجعل اللبن السمائي يتدفق حتى السماء، هكذا، يقال إن مجرة درب التبانة نشأت آنذاك.

من ثَمَّ، ابن هيرا الصغير بالتبني، الذي يُدعى في الأصل ألسيو أو ألسيدى، سيُدعى منذ الآن فصاعدًا هيراكليز، أو هرقل، أي «مجد هيرا». استعاده منزل ألكيمنى، وكَبِرا معًا هو وشقيقه التوأم إفكليس. في إحدى الليالي، تسلل ثعبانان إلى غرفة الطفلين، هرب إفكليس مذعورًا، وأما هرقل الهادئ المبتسم، أمسك برقبة الثعبانين وخنقهما، ما إن وصل أمفيترون حتى أدرك بوضوحٍ أي من الولدين يكون ابنه ومن يكون ابن زيوس.

تعلَّم هرقل على يد كبار المعلمين، وعلّمه أمفيترون قيادة العربة، وكاستور فنون المبارزة، وأوريت رمي القوس، وشيرون الجراحة والطب، وأوتوليكوس أصول الملاكمة، وإمولبوس الغناء، ولينو فن الكتابة، لم يقع أي حادث إلا مع الأخير فقط.

ذات يوم وبَّخ لينو تلميذه بتهورٍ وقسوة بالغين وصفعه، لم يكن هرقل ليبادر بالهجوم بطريقة هكذا لكنه لم يتمالك نفسه إزاء تلك الإهانة ورفع مقعدًا وضربه به على رأسه ليرديه قتيلًا في الحال.

عُفي عن الجريمة لأنها أُرتكبت للدفاع عن النفس حتى وإن كانت إزاء عنفٍ بسيطٍ، إلا أن أمفيترون فضَّل إرسال هرقل الناري للحياة في الريف، في مزرعة نائية، بين الفلاحين والرعاة.

تميز هرقل بمهارة فائقة في رمي القوس، وأصبح صيادًا للأسود وكل أنواع الحيوانات المفترسة. عاش حياة بسيطة، كان لديه عينان متقدتان وبنية كاملة تتناغم مع بأسه. كان يأكل قليلًا في الظهيرة ولكن بحلول المساء يلتهم قطعًا كبيرة من اللحم المشوي وكمية مفرطة من الخبز الأسود. كان يرتدي سترة قصيرة ولم يحب النوم تحت الأسقف بل يرقد تحت أغصان الأشجار في ضوء النجوم.

حتى قوته كعاشقٍ كانت جامحة أيضًا، إذ إن الملك ثيسبيوس أراد أن يشكره على مطاردته أحد الأسود في مدينته، وكنوعٍ من الامتنان منحه بناته الخمسين، وذاع القول إن هرقل كان

يضاجع كل ليلة واحدة منهن وفي قول آخر مَن يقول إنه ضاجعهن جميعًا في ليلة واحدة فقط، الأمر الذي يُعَد إنجازًا خارقًا لا يقوى على التفاخر به أكثر الأشخاص مهووسةً بالجنس في يومنا هذا.

بوصفه عاشقًا لم يرفض هرقل أيضًا الصبيان والرجال؛ فنجد بين رفاقه في المغامرة لولاوس وأبديرس وهيلاس ودريوبى وهم بمنزلة عشَّاقه من الذكور، ووصلت الشكوك إلى افتراض أن استسلامه أمام إوريثيوس كان من باب علاقتهما العاطفية المستترة.

دفعته طبيعته الباسلة إلى الانخراط دفاعًا عن ثيفا ضد أعدائه، وكتعبيرٍ عن امتنانه أعطاه الملك كريون ابنته ميجارا لتصبح زوجةً له. كانت زوجة هرقل الأولى، لكنها لم تذُق طعم الحياة الزوجية الأسرية الهادئة، كمصيرٍ طبيعي لسائر الأبطال.

بشهادة الجميع كان هرقل صيادًا ومحاربًا ماهرًا، وذات يوم أبلغه الأوراكل أن عليه الانطلاق نحو تيرنز، والاستعداد للخضوع لأوامر إوريثيوس. رغم أن القوة المهيبة لذلك المولود في شهره السابع فاقت بكثير قوة ذلك الضعيف الماكر، فإن هرقل قَبِل الأمر عازمًا على تحقيق ما رآه أنها إرادة الآلهة. وهب نفسه لخدمة إوريثيوس، وأخذ يُنجز تلك «الأعمال الشاقة» واحدةً تلو الأخرى، حتى أصبحت نبراسًا في قلب أسطورته ومجده الأبدي.

كان يبحث عن أسد نيميا، ومَن يعرف مناطق أرجوليذا القاحلة المشمسة البرية، ذات النباتات القزمة التي لا يتعدى طولها شجيرات المصطكي، سيدرك على الفور المشروع الأول في سياقٍ جغرافي دقيقٍ، بينما تذهب المشاريع الأخرى في أماكن تمتاز بجغرافيةٍ خلابة مستقبلية من المحيط إلى الشرق.

كان أسد نيميا، ابن إيكيدنا وأرثوس وشقيق سفنكس، بمنزلة وحش مفترس يبث القتل والدمار، ويقاوم أي قتال بالسهام أو الحربة أو الحجارة. بدا أنه لا يقهر أبدًا حتى وصول هرقل. دخل الكهف حيث يكمن عرين الأسد، وأغلق مدخله، ثم انحدر في الظلام الحالك ليقابل ذلك الوحش. إن كان الوصول إليه استغرق ثلاثين يومًا فكم يكون عمق الكهف إذن؟ يبدو بعيدًا عن الأرض وعن تارتاروس نفسه حيث مدينة الأموات. وأما إن كان هرقل قد نام ثلاثين يومًا أخر عقب مواجهة والفتك بالأسد بلا أي أسلحة، فدعونا نتخيل حجم الإرهاق الذي حاق بالبطل الذي لا يصح وصفه بالبشري على أي حال. إن النوم ثلاثين يومًا يعد بمنزلة غيبوبة أو مستهلٍّ للموت. في أي حالة من الصورتين السابقتين فإن هرقل اصطدم بمبدأ الموت منذ خطواته الأولى.

لقد سار على حافته وجازه وخرج منه ظافرًا، محددًا جوهر البطولة على هذا النحو: البطل ليس ذلك الشخص الذي يحقق مهمته بدافع السلطة أو الثراء، أو ليحظى أي مكافأة، وإنما البطل يفعل ذلك بدافع الموت الخالص، والخضوع لمبدأ الحياة ومعارضة فكرة الموت، حتى يخرج من الظلام جالبًا النور في جعبته.

ينتقل بعد ذلك إلى عُدار ليرنا، كمهمة شاقة ثانية، التي تشبه أحد وحوش العالم السفلي. كانت تحيا بمستنقعٍ لا يبعد كثيرًا عن البحر، وتمتلك عرينًا أسفل إحدى الأشجار الدُّلب تنعكس أغصانها على الأمواج. كان للعُدار جسد ثعبان مائي، لزج ويمتلئ بالقشور كجسد التنين، وكانت تمتلك رؤوسًا عديدة، وقد اختلفت الأقاويل حول عددهم الصحيح، فهناك من يقول إنها ثلاثة رؤوس أو ثلاثون أو مائة أو عشرة آلاف. كانت أنفاسها تنشر الوباء والأمراض في الهواء من حولها. وصل هرقل إلى ليرنا على عربة يقودها لولاوس، ابن أخيه المحبوب، واسترشد بنصيحة أثينا مقتربًا من العرين وقد حبس أنفاسه وأطلق السهام الملتهبة ليجبر العُدار على الخروج من عرينها. خرجت العُدار بغتةً وأخذ هرقل يفصل رؤوسها الواحد تلو الآخر، ولكن بلا جدوى إذ إنها سرعان ما كانت تنمو من جديدٍ. حاول لولاوس إنهاء الأمر، فقطع أغصان الأشجار الصلبة وأشعلها من جانب واحد وأخذ يمرِّرها على رقاب الوحش التي تسيل منها الدماء كما لو كان يكويها. في النهاية، تمكَّن هرقل من الوصول إلى رأس العُدار الخالد الذي يتميز بشرايينه الذهبية، ففصله عن جسدها ودفنه، بعد ذلك فتح جيفة الوحش وغمس طرف سهامه في مرارته حتى أصبحت أكثر فتكًا.

كانت ظبية كيرينس ترتدي عباءةً مرقطة ولديها قرون كبيرة ذهبية، إنها حيوان إلهي، ومهما أكلت من أطعمة من فاكهة الأشجار أو دهست البساتين بحافريها، لم يكن هرقل ليقتلها ولم يستطع رفع قوسه أو هراوته ضدها. أخذ يتتبع الظبية المدهشة التي سحبته من أحد جانبي عالمه المعروف إلى الجانب الآخر حيث ضفاف نهر لادون، ليتمكَّن من الاقتراب منها وربط حافريها ثم حملها معه إلى تيرنز.

تمثَّلت المهمة الرابعة في الإمساك بالخنزير البري أيرمانسيو الذي أراده إوريثيوس حيًّا، فأرسل هرقل بين شعوب القنطور. استقبله فولو وشيرون معلمه القديم، بحفاوة بالغة، فأكل هرقل معهم اللحم المشوي، أكلته المحببة إلى قلبه، وأكلوا هم اللحم النيء وبعد ذلك أرادوا الاحتفال معًا ففتحوا زقاقًا من النبيذ الذي كان تحت حراسة مشددة عدة سنوات. أما بقية

القناطير، فبمجرد ما اشتموا رائحة النبيذ، اقتربوا في ريبة كما لو أن أحدًا يريد سرقتهم، ودفعتهم سجيتهم البرية الطائشة إلى مواجهة هرقل الذي لم يجد أمامه سوى الدفاع عن نفسه بإطلاق السهام المميتة بسمٍّ غُدار. لسوء الحظ أصيبت ركبة شيرون بسهمٍ طائشٍ كان يشقُّ طريقه نحو أحد المهاجمين، فحَزِن هرقل وحاول إخراج السهم ومداواة معلمه القديم حسب تعليماته، لكنَّ شيئًا لم يخفِّف ألم الجرح الشديد. تساءل فولو كيف لجرحٍ بسيط كهذا يجلب ألمًا طاحنًا هكذا، فأمسك بسهمٍ وتحسَّسه ولسوء الحظ الشديد سقط على قدمه وقتله في الحال. دفن هرقل فولو في مراسم جنائزية مهيبة، ثم توقف لمساعدة شيرون الذي أصبح ألم ركبته لا يُحتمل؛ أحسَّ بمسؤولية تجاه كل ما يجري من حوله، في الحقيقة لم يكن ذنبه على الإطلاق. تذكر أمر أوريثيوس، فاستأنف هرقل رحلته لصيد الخنزير البري، ووصل إلى الغابة حيث يختبئ، وأخذ يطلق صيحات معذبة غاضبة تحمل داخلها كل الحنق والمعاناة التي تسري في وجدانه. خرج الخنزير البري من عرينه مذعورًا من تلك الصرخات دون أن يدري مصدرها، ومن يصدرها. كان ضخمًا أخرق، وسقط في هوة تفيض بالثلوج، لم ينتظر هرقل أكثر من ذلك بل انقضَّ على ظهره، وشلَّ حركته، ثم قيَّده بسلاسل وحمله على كتفيه.

امتد حيز الحيوانات الفتاكة الضارة للإنسان وأعماله إلى طيور ستمفاليوس، موضوع المهمة الجديدة. كانت تلك الطيور تتجمع حول مستنقع ستمفاليوس وكانت ذات مناقير وأجنحة ومخالب من البرونز وتحلق عاليًا مثل سحابة سوداء فيتساقط ريشها الحاد على البشر والقطعان وتنتشر فضلاتهم السامة في كل مكان لتحرق العشب والمحاصيل والفاكهة المتدلية من الأغصان. لم يستطع هرقل الاقتراب منها أو دخول المستنقع على قدميه أو الإبحار إلى هناك بقاربٍ لأن العمق كان محفوفًا بالمخاطر إذ إن الماء يعلو في جزءٍ وينخفض بشدة في جزءٍ آخر. بناءً على نصيحة أثينا صعد أحد التلال وضرب صنجين برونزيين أحدهما بالآخر، وقد صنعهما له هيفستوس في ورشته، أصاب الذعر طيور ستمفاليوس وأخذت ترفرف بعشوائية من حوله فقتل هرقل منهم عددًا لا بأس به بسهامه.

في المهمة الشاقة السادسة لا نرى هرقل يتشح بملابس صائد الوحوش وإنما بطل حضاري. كان في صراع مع إسطبلات أوجيا أكثر الرجال الأثرياء في العالم، صاحب القطعان والماشية والحيوانات المذهلة، المحصَّنة من أي مرض كان، وذات خصوبة عالية غير معقولة، لكن روثها كان قد تُرِك ليتراكم فوق بعضه سنواتٍ وسنواتٍ، فملأ الإسطبلات والوادي حيث كانت الحيوانات

ترعى، حتى لوَّث الهواء المحيط، بل وتسبب في نشر الوباء في جميع أنحاء بيلوبونيز. اختلفت هيئة عدو هرقل هذه المرة؛ إذ تجسد في القذارة وحمى المستنقع والوباء. ربما أراد إوريثيوس، الذي لم يربح شيئًا من جراء تلك المهمة الشاقة، أن يرسله إلى هناك بدافع اللعبة النفسية المستترة للانتقام والتنافس بين الاثنين؛ فلإتمام المهمة على هرقل أن يحط من قدر نفسه وأن ينزح الأوساخ إلى ما لا نهاية، كانت هذه نوايا إوريثيوس. لكن الأمر لم يسر بهذه الصورة. لم يمسك هرقل المجرفة بيده وإنما بقوته الخارقة يحوِّل مجرى نهر ألفيوس وبينيوس، فتتدفق مياههما النقية في الوادي وإلى الإسطبلات وحظائر الأغنام، وتنقي البيئة، وتجعل الهواء قابلًا للتنفس من جديدٍ، ووضع حدًّا للوباء المتفشي.

كان دايوميدس، ملك طراقية، ويجب ألا نخلط بينه وبين دايوميدس بطل الإلياذة، لديه أفراس بحرية تبث الذعر في سائر مملكته. ترتبط الأفراس بطيور الهاربيز، والجورجونات، ولكونهم ذوات أجنحة فكنَّ على علاقة بما يدور في الجحيم وعالم الأموات، يركضن ويسحقن ويقتلن كل مَن في طريقهن، ثم يتغذين على أجساد ضحاياهن في الإسطبل في معالف برونزية. داهم هرقل الأسطبل وقتل حراسه، وبقوته تمكَّن من تلجيم الأفراس وأخذهن إلى شاطئ البحر وتركهن تحت حراسة أبديرس، رفيقه وعشيقه أيضًا. كان عليه العودة لمقاتلة دايوميدس ورجاله الذين يتبعونه، قهرهم، وطرح دايوميدس أرضًا بضربة واحدة من هراوته، وسحبه معه إلى الشاطئ حيث يكتشف أن الأفراس انصاعت مرة أخرى لغريزتهن الشيطانية والتهمن أبديرس المسكين. قدَّم لهن دايوميدس ليلتهمنه، وبعد أن شبعن تمامًا تمكَّن هرقل من ترويضهن إلى الأبد. أسس هناك مدينةً حملت اسم أبديرس، ثم استأنف مسيرته في طريق موكناي. بعد أن استلم إوريثيوس الأفراس، كرَّسهن إلى هيرا، وتركهنَّ أحرارًا، كانت مهمة هرقل الشاقة بمنزلة غاية في نفسها واختبارًا نقيًّا لقوته وتفانيه.

هذا ما حدث أيضًا في المهمة التالية. بعث إوريثيوس بهرقل للإمساك بثور كريت، لم يكن واضحًا من الأساس أي ثور كان يريد، هل يقصد الثور الذي حثَّه زيوس أن يأخذ أوربا على ظهره التي أُغرمت به؟ أم الثور الأبيض الذي يقطر زَبد الأمواج الذي أخرجه بوسيدون من البحر ووقعت الملكة باسيفاي في حبِّه بجنون؟ كان الثور الذي يتعيَّن هرقل إحضاره ينفث نارًا من أنفه، ويجول بشراسةٍ في الحقول محدثًا الدمار في كل مكان، ويقتلع الأشجار من جذورها ويدكُّ الأسوار حتى تتهاوى. كان على هرقل أن يقاتله بلا أسلحة. دام القتال المروِّع الشرس فترة لا

أحد يعلمها، بل إن نتيجته لم تكن حاسمة، حتى أثبت هرقل أفضليته، وأمسك بالثور وحمله إلى إوريثيوس الذي كرَّسه لهيرا وتركه حرًّا يركض حيث يحلو له في أنحاء أتيكا حتى عُرف باسم ثور ماراتونا الذي أسره ثيسيوس لاحقًا.

في المهام الشاقة الثلاث القادمة، نلاحظ أن هرقل لم يكن منشغلًا باصطياد الوحوش ولكن بالبحث عن الجمال. ستظل الوحوش والحيوانات البرية والعمالقة عائقًا في طريقه أينما ذهب، وسينبغي له أن يصارعهم، لكن الغاية من تلك المهام هذه المرة تتجسد في إيجاد وامتلاك حزام مصنوع من جلد التنين، أو ماشية مسالمة، أو فراء برتقالي داكن لامع، أو أجمل حيوانات في العالم، أو ثلاث تفاحات ذهبية قديمة كهدية لزفاف من الأم جايا إلى هيرا، تلك الإلهة التي يبدو أن مصير هرقل، بدءًا من اسمه، يرتبط ارتباطًا شديدًا بها.

في الواقع كان حزام هيبوليتا، ملكة الأمازون، مطلبًا من جانب أدميتا ابنة إوريثيوس، ولم يكن يتوجب على هرقل سوى الخضوع فحسب. هكذا ينطلق هرقل بسفينته حتى مصب نهر ترمودونت، ويرسو في ميناء تيميسيرا عاصمة الأمازون. كانت جماعة من المحاربات اللواتي أسسن مجتمعهن على المبادئ الأمومية؛ إذ إنهن يلزمن الرجال للقيام بالأعمال المنزلية حتى يتسنى لهن التفرغ للحروب والقتال. شاع القول بأنهن أزلن صدورهن حتى يتمكَّنَّ من الإمساك بالقوس بصورة أفضل، كما يكسرن أقدام الرضَّع من الذكور حتى لا يستطيعوا مجرد التنافس معهن على دورهن وقوتهن الحربية ما إن يبلغوا. نجحت الأمازونيات في القتال باستخدام دروع من البرونز ودروع صغيرة هلالية الشكل، وكن فارسات مقتدرات، بل يقال إنهن أول مَن يحارب على ظهور الخيل. صُنعت أحزمتهن، كسائر ملابسهن، من جلود الحيوانات المفترسة، كانت تمتلك هيبوليتا، ملكتهن، واحدًا من جلد التنين وكان مزركشًا لامعًا. لم يتعين على هرقل القتال للحصول عليه لأن هيبوليتا سرعان ما وقعت في حبه وتركت نفسها له لتمنحه متعةً لا يقدمها أحدٌ إلا لعشيقه فحسب. أبدت رفيقاتها تمردهن وامتعاضهن من ذلك الغريب الوافد إلى بلدتهن، متباهيًا بقوته الذكورية الكريهة بالنسبة إليهن. هجمت جحافل من الخيول السفينة التي لم تبرح الميناء، وتساقط وابلٌ من الأسهم على متنها. زعم هرقل أن هيبوليتا خانته، فقتلها في مؤخرة السفينة، حتى تراها سائر الأمازونيات تسقط صريعةً ضربة هراوته. انتشر الرعب في قلوب أولئك الفارسات الجامحات، لتقتلهن سهام هرقل بمجرد ملامستهن، ويسقطن واحدة تلو الأخرى، يتهاوين من أعلى جيادهن، وقد فاضت أعينهن بالدموع حزنًا على ملكتهن الراحلة.

جيريون، ملك طارطيس، ابن كرياسور، الخارج مع بيجاسوس من رقبة ميدوسا المقطوعة، والحورية كاليروي. قيل إنه الأقوى بين الأحياء، لديه ثلاثة رؤوس، وست أذرع، وثلاثة جذوع تلتئم معًا عند خصره. كان يمتلك ماشية لا يفوقها جمالًا شيء، وكي يحصل عليها إوريثيوس، أمر هرقل بتلبية مطلبه العاشر لأعماله الشاقة. ترعى تلك الماشية في جزيرة إرتسيا على الحدود الغربية من العالم. وصل هرقل إلى هناك، وقبل أن يفعل أي شيء اهتم برسم الحدود بين أوروبا وإفريقيا المواجهة للمحيط. نصَّب العمودين اللذين يحملان اسمه منذ ذلك الحين، ومن غير المؤكد ما إن كان هرقل هو مَن فصل الضفاف الأوروبية عن مثيلاتها الإفريقية -التي كانت متحدة حتى ذلك الوقت- أو أنه عمل على تضييق القناة بينهما بطريقة تحيل عبور الحيتان والتنانين وسائر الوحوش الأخرى عبر المحيط. بلغ اليابسة مرتحلًا بقاربٍ يتخذ شكل كأس، وقد استخدم جلد أسد نيميا كشراعٍ، الذي وضعه على كتفيه منذ المهمة الأولى. وصل إلى جزيرة إرتسيا ليجد أمامه في مشهدٍ خلابٍ قطيعَ الماشية يرعى في سكون وهدوء، وكانت ذات جمال أخاذ يضاهي جمال شمس الفجر وغروبها. ضرب هرقل الكلب أورثوس بهراوته والراعي إوريسيونى حارس الماشية، وما إن اندفع أمامه جيريون حتى أسقطه قتيلًا بثلاثة رماح قاتلة تندفع بسرعة فائقة لتصيب جذوع جسده الثلاثة. زخرت عودة هرقل إلى أرجوليذا بالعديد من المواجهات الوحشية؛ الراعي المتوحش كاكوس، والعملاق أنتايوس، والأقزام الشريرة، وشعب ليجوريا المحارب. حيثما ذهب، كان هرقل يحارب ببسالة منتصرًا، ويؤسس المدن ويدفع بطاقات عميقة تحمل في ثناياها النهج والحضارة.

حتى يستأنف هرقل رحلته للبحث عن حديقة حارسات التفاح حيث تلمع الأشجار ذات الفاكهة الذهبية، المهمة قبل الأخيرة بين مهامه، كان عليه أن يعثر على مَن يشير إليه بطريق الوصول لأنه لم يكن ليعرف مسارها. وصل إلى مصب نهر إريدانو واتجه إلى سيد البحر الشيخ العجوز نيريوس، الذي كانت له موهبة التبصر والتحول كسائر آلهة البحار وكان على هرقل ردعها.

اتخذ نيريوس جميع الأشكال الممكنة لينجح في الهرب؛ ثعبان وأسد ونار.. قاتل هرقل ببسالة وبشتى أنواع القوى المناوئة للخوف من تلك التغيرات المباغتة في مظهر شيخ البحر. في اللحظة التي اتخذ فيها هيئة الأسد، قبض هرقل بسرعة البرق على رقبته بذراعه ليجبره على الحديث. أخبره أن حديقة حارسات التفاح تتطلب رحلة أخرى نحو حدود العالم الغربية حيث ينزل هيليوس كل ليلة بمركبته وجياده، يقوم العملاق أطلس بحراسة الحديقة برفقة التنين لادون.

بمجرد وصوله، آثر هرقل أن يستخدم ذكاءه أولًا -كان أمرًا غريبًا عليه لكننا في مهامه الأخيرة وربما فعل ذلك كدليلٍ على الإنهاك البشري- وأما في المرحلة الثانية فاستخدم هراوته. أصبحت التفاحات الثلاث الآن في جعبته. لقد وصل إلى الكنز، وظفر بالجمال، ولكن ليس لنفسه، مرة أخرى يثبت هرقل بأفعاله أنه لا يفعل شيئًا أبدًا لحساب مصلحته الشخصية. يبدو كما لو أنه لا يقتني أي اهتمامات لذاته، أو مصالح خاصة، وإنما اعتاد النضال لإدراك نهج موضوعي؛ تحطيم الوحوش واقتناص الجمال.

لنتوقف لحظة عزيزتي القارئة وعزيزي القارئ ونتساءل إن كانت هذه بحق صورة البطولة الأسمى بالنسبة إلينا -نحن الذين لسنا أبطالًا- وبالنسبة إلى أنفسنا، في حركة مستمرة بين الهاوية والظلمة والشر من جهة، والوعد بالسماء والنور والخير والروعة التي تحلم بها حارسات التفاح خاصتنا أينما كنَّ، من جهة أخرى.

أما عن المهمة الأخيرة، الأكثر عنفًا، تلك التي فكر بها إيريثيوس في الفتك بهرقل، وفي رؤية هزيمته ولو مرة واحدة. كان عليه الانحدار إلى العالم السفلي والإيقاع بحارسها الكلب سيربيروس ذي الرؤوس الثلاثة. هكذا، استأنف هرقل رحلته إلى الجحيم مثلما فعل أورفيوس وثيسيوس وبيريثيوس من قبله، وأوديسيوس وإينياس ودانتي برفقة فيرجيليو من بعده، في عصور قريبة إلينا إلى حدٍّ كبيرٍ.

انتابت خارون -الشيطان مسؤول العبَّارة، المتغطرس دائم الوحشية مع النفوس البشرية- رعدة بمجرد أن رأى أمامه مظهر هرقل المعتد بنفسه بعينين متقدتين. سمح له بالعبور من دون أن يفتعل أي مشكلات، حتى إن القارب المصنوع من لحاء الأشجار تأثَّر بثِقل جسد هرقل، وارتفعت مياه الجحيم عن عارضة القارب بضع بوصات.

اجتاز نهر ستيكس، ودخل هرقل العالم السفلي حيث يقبع هاديس، وقابل ثيسيوس وبيريثيوس اللذين انحدرا إلى الأسفل لإرجاع بيرسيفون، ثم احتُجِزا هناك على أسرَّة تعذيب من البرونز. اقتلع هرقل ثيسيوس من فراشه محررًا إياه من المرة الأولى، لكن قوته لم تفد بشيء لتحرير بيريثيوس المسؤول الأول عن تلك المحاولة الدنسة. بات هرقل الآن في مواجهة هاديس، إله الجحيم، وأدرك أنه سيتنازل له عن سيربيروس إن تمكَّن من الإمساك به من دون استخدام الأسهم أو الهراوة.

مرة أخرى تصبح قوة ذراعيه العاريتين الوحيدة التي يمكنه استخدامها، وسيستخدمها الآن للقبض على سيربيروس من رقبته التي تتفرع منها الرؤوس الثلاثة؛ فأمسك بها بقبضة مميتة يبادلها سيربيروس بضربات عديدة من ذيله المليء بالأشواك. كان ظهر هرقل محميًّا بجلد الحيوان الذي لم يقوَ عليه أي شيء، واستمر سيربيروس في إصراره أملًا في استسلام هرقل، فأخذ يكافح ويحاول أن يطرحه بذيله. لم تفلح مقاومته، وشعر سيربيروس بالاختناق، ولم يقوَ إلا على هزِّ رؤوسه الثلاثة مستسلمًا.

بعد تلك النُصرة التي يتعذر على عقل أي أحد تصديقها، بدءًا من إوريثيوس نفسه، نال هرقل لقب كالّينيكو أي «صاحب الانتصار الجميل»؛ ليس هناك انتصارٌ أجمل من ذلك الذي يتحقق في ظلمة الجحيم.

عاش البطل خبرات لا تُحصى، خبرات بلا حدود كقوته، فذاق العبودية لدى الملكة أونفالى، والجنون الذي أثارته داخله هيرا حتى جعلت منه قاتلًا. قبل قبائل الأخيون بفترة طويلة، شنَّ حربًا على طروادة والملك لاوميدون وتمكَّن من هزيمتهم، ارتحل أيضًا مع ملَّاحي الأرجو بحثًا عن وادي الذهب برفقة حبيبه الشاب إيلا إل دريوب الذي أسرته الحوريات وكان على هرقل ترك سفينة أرجو والحملة بأسرها للبحث عنه. كما أسَّس الألعاب الأولمبية التي تُعقد إلى الآن كل أربع سنوات، وتزوج أيضًا مرة ثانية بعد زيجته الأولى من ميجارا.

كانت زيجته الثانية التي ستودي بحياته، تدعى دايناريا، ابنة ديونيسوس، وقد تقهقر كل خاطبيها ما إن علموا بوجوب مواجهتهم هرقل حتى يتنازل عنها لأي منهم. وحده أخيلوس لم ينسحب، بل آثر مجابهته، ذلك الذي كان إله النهر وفي إمكانه التحول واتخاذ هيئة ثعبان أو ثور أو رجل برأس ثور وذي فراء مموج بتيارات المياه القذرة. قاتل هرقل للمرة الأخيرة ضد وحش، لينهم بدايناريا التي غمرتها فرحة جامحة لنُصرة هرقل في تلك المعركة الطاحنة.

على أي حال، لا يلائم الزواج حياة الأبطال، من دون قصد، كانت دايناريا لتتسبب في إنهاء حياة هرقل. انتباتها غيرة من اهتمام هرقل الملحوظ بالشاب لولى، فألبسته سترة منقوعة بمرهمٍ يتكون من بعض البذور ودم وزيت زيتون. كان القنطور نيسوس قد وصف لها تلك التركيبة كتميمةٍ تُجلب الوفاء في الحب ولكن على النقيض كانت وسيلة أراد بها القنطور الثأر لنفسه، وجلبت عذابًا مفجعًا لهرقل الذي ما إن تلامس جسده مع نسيج السترة حتى اضطرمت النيران في

جسده بالكامل، ولقي مصرعه. أراده زيوس برفقته في أعالي الأولمب، ومنحه زوجة سماوية؛ هيبي ابنته وابنة هيرا أيضًا، حاملة أقداح الآلهة، وربة الشباب الأبدي.

هكذا لم يترك هرقل شبابه قطُّ؛ فبقيت أعماله ذكرى فحسب، تتجلى في أعمالنا في كل مرة يتوجب علينا الخضوع بدافع الحب أو القدر، ومطاردة الوحوش المفترسة التي تسكن الجانب المخفي من أنفسنا، أو نذهب للغوص في ذلك القاع حيث يكمن جمال العالم البدائي السحري اللامع.

أوديب

في التراجيديا اليونانية، يُعَد أوديب بطلًا لأعمالٍ ذاع صيتها لسوفوكليس مثل الملك أوديب وأوديب في كولونوس، اللذين يعدان بمنزلة حجر الزاوية في تاريخ المسرح والثقافة الغربية.

على جانبٍ آخر نرى كم أن أوديب يُعد بطلًا لأحداث علم التحليل النفسي الجديد. كان اسمه، من بين أسماء أبطال اليونان، الأكثر رواجًا منذ أن اختاره سيجموند فرويد ليجسِّد بُعدًا رئيسًا في نظريته. في مثلث الأب- الأم- الطفل، يشعر الأخير، ثنائي القطب المائل إلى الفساد، بعداءٍ قاتل ناحية أبيه ورغبة بزنا المحارم حيال أمه: وهذا ما يسمى بالضبط «عقدة أوديب».

سيطرت الفرويدية «الأوديبية» على جانبٍ كبيرٍ من ثقافة القرن العشرين سواء على المستويات العليا أو على المستويات الشعبية الجماهيرية، حتى إبَّان معارضة النظرية وتنفيدها، ظلَّت الإشارة إلى أوديب حاضرة كما هي مثلما نجد في كتاب كتبه جيل دولوز وفيليكس جوتاري بعنوان معاداة أوديب. صادفتُ ذلك النص مأخوذًا بحماسة شديدة في أثناء مرحلة شبابي كقارئ مفعم بالشغف لديفيد هاربرت لورانس وهنري ميلر، اللذين عبرت صفحاتهما عن فيض من الجنسية الحرة خارج أي منطق أسري، وكانا رائدي نقد التحليل النفسي الفرويدي.

حان الوقت الآن للكشف عن ماهية ذلك البطل. لا تندهشا، عزيزتي القارئة وعزيزي القارئ، أن تجداه في هذا الفصل من الكتاب، في هذه المرحلة من الرحلة التي نخوضها معًا، بين الأبطال مصارعي الوحوش. بالنسبة إليَّ أرى أن أوديب الخصم الحقيقي لسفنكس، لا أدري كيف تسنى لنا نسيانه.

نحن الآن في ثيفا، حيث عاد الملك لايوس، ابن لابداكوس، من منفاه برفقة الشاب كريسيبوس «صاحب الخيول الذهبية»، الذي كان مفتونًا به بجنون. من غير المؤكد إن كان هو

أم القنطور ثاموريس أول من يمارس الجنس مع كائنات من النوع نفسه، لم يخفِ لايوس عواطفه، مثيرًا الريبة بين رعاياه، والغيرة داخل زوجته جوكاستا، والغضب في قلب هيرا.

تنبَّأ الأوراكل وأخبر لايوس أن ابنه سيقتله، ربما لهذا السبب يكرِّس الملك كل نفسه بحماسة شديدة لحبٍّ عقيمٍ كذلك الحب مع كريسيبوس، دون أن يضع اعتبارًا لعلاقته بجوكاستا التي ظلَّت بمنزلة زوجته الشرعية. لم تتنازل جوكاستا عن حقها الأمومي، فأثملت لايوس ذات ليلة بنبيذٍ معطرٍ بالعسل والراتنج، وجعلته يتمدد عاريًا على فراش الزوجية، وأثارت بداخله الرغبة في نوالها.

بعد تسعة أشهر، وضعت طفلها، ولم يكترث لايوس باحتجاجات جوكاستا، بل ولم يتردد في إصدار أوامره بأخذ الطفل وتركه على جبل شترون بعد أن اخترق قدميه بدبوس كبير وقيدهما معًا.

وجد الراعي إوفربوس الرضيع ورقَّ قلبُه وأخذه معه وسلّمه لملكه في كورنث. حينذاك، كان يحكم المدينة الملك بوليبوس وزوجته بيريبيا اللذان لم يحظيا بأي أبناء؛ أصبح الصغير بمنزلة هبة بالنسبة إليهما. أسمياه أوديب الذي يعني «الأقدام المتورمة»، نظرًا إلى الإصابة التي بلغت أقصاها، وتربَّى في البلاط وحظي بكل صنوف الإجلال التي يحظى بها أميرٌ صغيرٌ.

عندما بلغ أوديب مرحلة الشباب، تناهت إلى مسامعه أقاويل بثَّت الشكوك حول مولده، وقد أذاعها شخصٌ مليء بحسدٍ أو بحقدٍ خبيث. انطلق أوديب يستشير الأوراكل وكان ردُّه مروعًا: تحدد قدره بأن يقتل أباه ويتزوج أمه. اصطدم أوديب بتلك الحقيقة بعدما كان يزعم أن بوليبوس وبيريبيا هما والده الحقيقيان، وقرر الهرب بعيدًا، كان قد أحبهما، ولم يود أن يلحق الأذى لأي منهما على الإطلاق.

في أثناء رحلته إلى دلفي في ذلك الطريق الضيق حيث تصطف الصخور وشجيرات الروبوس على جانبيه، تصادف بعربة منطلقة بالطريق المعاكس. كانت عربة ذهبية تجرُّها جياد بيضاء، يمتطيها لايوس ملك ثيفا بجانب قائد العربة، وينطلق نحو دلفي ليطلب رؤية الأوراكل بشأن بلاء سفنكس الذي يستنزف مدينته.

طلب لايوس من أوديب بأن يفسح الطريق أمامه، آمرًا إياه بوقاحة متغطرسة واثقة لا تأتي إلا من شخص في مكانته. لم يستسلم أوديب ولم يتراجع خطوة واحدة إلى الوراء. حينها، أصدر

لايوس أوامره لقائد العربة بأن يتقدم إلى الأمام، لتمر عجلة العربة على قدم أوديب وتجدد آلامه القديمة. هكذا أنزل الشاب عصا المسافر خاصته على لايوس ليرديه قتيلًا، وبعد ذلك قائد العربة الذي عبثًا استمر يحاول الدفاع عنه.

لم يعرف أوديب أي شيء عن ذلك الرجل الذي أعاق الطريق أمامه عدا كونه ثريًّا ومقتدرًا ومتغطرسًا، استأنف رحلته من دون تفكير أو شعور بالذنب لفعلته. كسائر الأبطال مجتمعين مثل بيرسيوس وثيسيوس وهرقل، لم يكن أوديب هو البادئ بالنزاع أو الإهانة أو العدوان؛ تمثَّلت فعلته في الرد على عنف الآخرين وعاقبتهم بالموت.

في هذه الأثناء، لم يعد لايوس إلى ثيفا، فتولى كريون، شقيق جوكاستا، الحكم في تلك المدينة الموضوعة تحت رحى وجود سفنكس المهلك.

كان الوحش برأس امرأة وجسم أسد وذيل ثعبان. أرسلت هيرا –ربة حماية العلاقات الأسرية- سفنكس في البدء إلى ثيفا لمعاقبة لايوس الذي أهمل زوجته علانية هكذا وترك نفسه تمامًا ليأسره حب الشاب الوسيم كريسيبوس. لكن بعد موت لايوس، استمر الوحش في معاقبة سكان ثيفا باعتبارهم موالين له أو ربما قد خال له أن جُرم لايوس لا بد أن يسقط أيضًا على رعاياه. كان يقف على أحد النتوءات الصخرية على حدود المدينة، ثم يستأنف تحليقه حتى يستولي على قمة أحد الأعمدة الهائلة في منتصف الميدان، كما تفعل طيور اللقلق في أعشاشها، ويطلق سفنكس أحجياته حتى يجرؤ أحد الشجعان ويحاول فك طلاسمها، وما إن يجيب إجابة خاطئة حتى يقتله الوحش ويلتهمه.

اكتست ثيفا بحُمرة دماء ضحاياها؛ فحتى إيمون، ابن شقيق جوكاستا، التهمه الوحش. نزل وجوده الشرير على المدينة كلعنة جسيمة تتجسَّد في هيئة أحجية عسرة الحل يسخر بها ذلك الوحش. من ثَمَّ، لم يجد كريون سبيلًا، والذي لم يجرؤ على المحاولة من نفسه، سوى إصدار مرسوم على مضض مفاداه بأن أي أحد ينجح في إيجاد إجابة صحيحة لأحجية سفنكس، سيحظى بجوكاستا وسيتولى حكم المدينة بأسرها.

عندما علم أوديب بذلك المرسوم خلال تجواله، أخذ الطريق إلى ثيفا، ونظرًا إلى أنه لم يكن ليلزمه إحباط أو شجاعة أكثر من ذلك، فسيذهب هو لمواجهة سفنكس.

ربما أن ذلك الوحش الذي يشعر بسحر الكلمة في رأسه البشري، تعلم فنون الأحجية من الموزيات، وإن صاغها بعد ذلك في أهداف مهلكة فذلك يرجع إلى جسد الأسد وذيل الثعبان اللزج اللذين يمتاز بهما.

لم تكشف لنا الأسطورة عن صوت سفنكس الحقيقي، ربما كان أنثويًّا ولكنه عميقًا ومدويًا أيضًا. إليكم الأحجية التي طرحها أمام أوديب ما إن وصل أسفل قدميه معتمرًا قبعته وممسكًا بعصا المسافر بيده:

مخلوق يمشي على الأرض

دون أن يتغير اسمه أو طبيعته

على أربع أرجل ثم اثنتين ثم ثلاث

ويزداد بطئًا رغم زيادة أرجله.

سرعان ما عثر أوديب على الإجابة تمامًا كما يحدث عندما يهبط الحدس إلى حيث لا يصل التفكير أبدًا. أجاب قائلًا: «إنه الإنسان؛ إذ يزحف مترددًا ومتباطئًا على أربع دعامات في طفولته، ثم كرجلٍ بالغٍ يمشي متفاخرًا على اثنتين، ويتقدَّم بصعوبة على ثلاثة أرجل في شيخوخته بعد أن يصبح عكازه بمنزلة قدمه الثالثة».

أما سفنكس الذي لم يزعم قطُّ أن أحدًا سيفلح في حل أحجيته، انتابه غضبٌ جامحٌ يلائم طبيعته الوحشية، حتى إنه تهاوى على الأرض من موضعه، وتحطَّم في مكانه، ومات.

حُرِّرت ثيفا، واستقبل أهلها الضيف بحفاوة بالغة، ذلك الغريب الذي تمكَّن من هزيمة سفنكس. كان على كريون الوفاء بوعده: يتزوج أوديب بجوكاستا ويتولى حكم ثيفا، أنجبا أربعة أبناء، ذكرين؛ إتوكليس وبولنسيس، وأنثتين؛ إيسميني وأنتيجون.

لم تنته المصائب عند ذلك الحد في تلك المدينة المنكوبة. ضرب الأرض وباءٌ شديدٌ بدأ بإصابة طيور السماء التي أخذت تتساقط على اليابسة بأعدادٍ ضخمة بجناحين ذابلين ومنقار غارق بالدماء، ثم اجتاح حيوانات المجاري كالفئران، وحيوانات الفناء كالقطط والكلاب، حتى أصاب البغال والخيول والثيران. زعم البشر أنهم أفلتوا من العقاب لكن سرعان ما اجتاحهم المرض والموت واحدًا تلو الآخر؛ فبرزت الغدد الليمفاوية الملتهبة تحت الأبطين ممتلئة بسوائل خضراء، وتدفقت دماء سوداء من الفم.

استُدعي الأوراكل لاستشارته، وضاعفت إجابته من حدة الكرب الرهيب المخيم على المدينة: «عليكم بطرد قاتل لايوس من ثيفا».

لقي لايوس حتفه بعيدًا عن مدينته ولم يعرف أحدٌ هوية قاتله، لم يتطرق أحدٌ إلى التفكير في أوديب أو حتى جوكاستا أو كريون.

من ثَمَّ، استُدعي تيريسياس إلى القصر، ذلك الرجل الأعمى الذي عاش حياته كرجل وأنثى، ونال نعمة التبصر الإلهي، أعظم من أتت بهم اليونان. مثل العجوز في البلاط متشحًا بملابسه الرثة وعكازه، منحنيًا تحت وطأة الأعوام، يتحسس طريقه. مَن يتخيل أن ذلك الكائن المسكين يستطيع قراءة المستقبل ومعرفة بواطن الأمور حتى أصبح أقوى من أي ملك أو محارب؟

تردد تيريسياس بعض الشيء، إذ كان عليه مواجهة أمراء المدينة الذين سيتحدث بشأنهم. بعد ذلك، خرجت حقيقة مروِّعة من فمه، من صوته الهادئ العجوز، سيتوقف الوباء على الفور بمجرد طرد قاتل لايوس، أجل، هذه حقيقة، لكن قاتل لايوس يمثل أمامه الآن. سدَّد كريون وأوديب النظرات أحدهما إلى الآخر، وقد زاغت أنظار جوكاستا بين كليهما.

أردف تيريسياس الحديث بذراع مرتعشة في الفراغ يقول: «قاتل لايوس هنا، إنه ابنه، أوديب».

في البدء سادت الريبة الجميع، ريبة هائجة، كَربة، ولكن لم يمر وقت كثير حتى جاء رسول بيريبيا، ملكة كورنث التي أحسَّت بحرية بعد وفاة زوجها بوليبوس في كشف حقيقة أن الصغير أوديب لم يكن من نسلهما وإنما وجده أحد الرعاة، مثقوب القدمين ومقيدًا على جبل شترون. تم تعقب الراعي إوفربوس الذي أصبح عجوزًا هرمًا، وأكد كل كلمات الملكة.

بات كل شيء واضحًا بصورة مروِّعة، خيَّم قصر ورثة ىبداكوس يأسٌ قاتلٌ مثل سحابة عاصفة قاتمة، تحققت النبوءات، وقُتل لايوس على يد ابنه، وقتل أوديب أباه وتزوج بأمه.

اجتاح جوكاستا البريئة الذعر حتى أسرعت إلى شنق نفسها في إحدى عوارض غرفتها، أعمى أوديب نفسه بعد أن وخز عينه بدبوسٍ نزعه من ردائه؛ أصبح كريون ملك ثيفا.

أوديب، الذي تحوَّل إلى شحاذٍ بعد أن كان الظافر المغوار قاهر سفنكس وملكًا على ولايته، أصبح رمزًا، بعد زوبعة المحنة المروِّعة التي حلَّت به، إلى هشاشة المجد والسعادة البشرية، مثلما عبَّرت الجوقة في تراجيديا سوفوكليس في شعر صوفي متواتر.

نفى أوديب الأعمى نفسه، وانطلق في مسيرة بلا هدفٍ، عاش الجزء الأخير من حياته متجولًا تلاحقه الربات إيرينيس، ربات الانتقام القديمة، ألكتو وتيسيفون وميجايرا، نساء مسنات سوداوات ذوات شعر ثعبان وصوت يشبه نباح الكلاب.

كانت ابنته أنتيجون عزائه الوحيد؛ حيث ساندته إلى أن بلغا كولونوس، في أتيكا، في غابة مقدسة حيث هدأت الربات إيرينيس وانتهت أوجاع أوديب إلى الأبد، هذا ما نقرأه في أوديب في كولونوس:

بلا نحيبٍ أو مرض أو أوجاع (...)،

يهاجر إلى المعجزة، كما لم يفعل أي أحد من البشر.

بإطاحته بعيدًا عن التحليل النفسي للقرن العشرين، يعود أوديب ليصبح البطل الذي قهر سفنكس وألغازه الملتوية، وجوانب الفكر المنحدرة لخدمة الشر، ليتماشى مع ما قام به الأبطال الآخرون من معارك لصالح الصفاء، وتوازن الحياة، والنور.

19

البناء والعطاء والمشاركة

منذ قديم الزمان، تتأصل نزعة في النفس البشرية تدفع إلى تطويع الطبيعة لتلبية احتياجاتها، وشغل مساحاتها، وصُنع الأدوات التي تسنح لها الفرصة لإتمام أعمالها بسهولة وأصالة، والبناء حيث لم يكن هناك سوى الأراضي المعشوشبة والغابات. تلك نزعة بشرية غاية في القِدم، ترجع أصولها إلى ما قبل التاريخ، وقد ساعدت أسلافنا البدائيين على اتخاذ خطواتهم الأولى نحو الحضارة.

بدأ كل شيء عندما سُرقت النار السماوية وحُملت إلى الأرض لطهي الطعام وتدفئة الكهف وتسخين المعادن بدرجات عالية لإعادة تشكيلها، ومن ثَمَّ نشأت بين النفس والطبيعة العلاقة المثيرة للجدل.

إن النفس طبيعة في أصلها، لكن ثمة شيئًا متسلطًا ومناهضًا يدفعها إلى ترويض الطبيعة داخلها وخارجها، إلى بناء الحصون والمعابد والقلاع والطرق، وبمرور العصور أخذت تبني القصور والميادين والمصانع والمدن الكبرى ذات ناطحات السحاب الشاهقة. قُلِّصت المساحات البرية والحسية والجمالية لصالح تلك الحضارية والعملية والنافعة. إنها عملية بلغت ذروة قوتها عبر الحضارة الصناعية الغربية، التي بفضلها، وإلى جانب التكنولوجيا بصورة محورية، تمكَّن البيض من سيادة العالم.

يُعَد بروميثيوس، العملاق، بمنزلة الإله المهيمن على كل ما ذكرنا، إنه الرب المتمرد الذي سلب النار السماوية من زيوس وأنعم بها على البشر، مما جعله مرشحًا ليصبح القديس الأول للتقويم الشيوعي كما كتب ماركس (حتى المادية العلمية لم تكن بمنأى عن التلميحات الأسطورية!)؛ فالصناعة الثقيلة بمداخنها ذات الأبخرة المتصاعدة، والبنية التحتية الهائلة، والحفَّار المستخدم في استخراج البترول من عمق البحر، وسفن الحاويات العملاقة، وأوعية الغاز، وخطوط أنابيب الميثان، كل ذلك أساسه بروميثيوس.

لكن في القرن الواحد والعشرين، تغيَّرت علاقة النفس بقوتها البروميثيوسية[91] بعد أن تسمَّمت الطبيعة الجريحة، واحترقت الغابات، وفاضت البحار بالبلاستيك، وفسد الهواء بالغبار

الناعم، وتغيَّر المناخ بصورة مدمرة، وبالكاد بقيت أنواعٌ من الحيوانات على قيد الحياة، بل وأصبحنا نحن البشر تحت تهديد أوبئة جديدة مجهولة.

(91) نسبةً إلى بروميثيوس الإله.

تستأنف النفس تدفقها من جديدٍ، وتغدو نسمةً حية، وتنسى وربما تشير بأصابع الاتهام نحو بروميثيوس. يسعى أن تسترد النار قداستها، وأن يرى خلاصه هناك، وأن تسترد الأمواج والغابات والسحب قداستها مرة أخرى، إن ما يعمل الآن في النفس من بناة الأساطير العظماء، ليس شعور السلطة أو تحدي الطبيعة بقدر ما هو شعور بالمشاركة والخلاص.

كان ابن بروميثيوس، دياكاليون، هو الذي شيَّد الفلك للنجاة من الطوفان، في تشابه عجيبٍ بينه وبين نوح الكتاب المقدس، لإحياء الجنس البشري. أما عن البناة العظماء الآخرين نجد دايدالوس الذي كان طوع شهوات باسيفاي في كريت، وسلطة مينوس، وقبل كل شيء هو الذي صنع الأجنحة لنفسه وللابن إيكاروس إبَّان هروبهما من الجزيرة، ولدينا أيضًا بجماليون، القبرصي، الذي نحت تمثالًا من العاج ورعاه وأحبه كما لو كان بشريًّا.

ترغب النفس في أن تهب نفسها، في أن تطير، وتخلق، وتنشئ حياة حيث يستحيل البناء.

بروميثيوس

يُعَد بروميثيوس بطلَ القرن التاسع عشر، عاش بين صنوف الهوس نظرًا إلى طموحه نحو التطور، وقلقه الرومانسي، وروحه الخيرية. كتب عنه كبار شعراء الغرب؛ جوته، الذي أعاره صوته في أنشودة للمطالبة والتمرد إزاء عوز الآلهة ولا مبالاتهم:

أنا هنا أصنع الرجال

في مخيلتي

نسلٌ يُشبهني في كل شيء

في المعاناة والنحيب

يستمتع ويفرح

جعله شيلي(92) بطل الرواية التراجيدية الكاملة؛ بروميثيوس طليقًا، أصبح من خلالها البطل المتحدي السلطة ضحيةً للسلطة الأكثر قتامةً، وأعاد اتصال الجانب الشرقي الأنثوي منه بالطبيعة والسحر والتأمل.

(92 بيرسي بيش شيلي، وُلد في 4 أغسطس 1792 وتوفي في 8 يوليو 1822، وهو شاعر إنجليزي شهير، يعتبر أحد أفضل الشعراء الغنائيين باللغة الإنجليزية. يُعرف بقصائده القصيرة أوزيمانديس، وتتضمن أعماله المهمة قصائده الرؤيوية الطويلة: ألاستور، أو روح العزلة، أدوناي، بروميثيوس طليقًا، وعملًا غير منتهٍ يُدعى انتصار الحياة.

نستطيع القول، ونحن في القرن الحادي والعشرين، أن الطبيعة كانت القوة الأسمى التي تحدَّاها بروميثيوس؛ فإلى جانب هرقل ومهامه الشاقة، أخذ بروميثيوس أيضًا زمام المبادرة في ترويض الأرض، وتلجيمها، ثم استخدامها، إلى أن دمَّر الطبيعة وكل ما يرتبط بها.

إن النار السماوية المسلوبة التي أُعطيت للإنسان كانت نفسها التي دمرت هيروشيما، وأسقطت طيور السماء في عمق البحار، وحلَّقت بالأسماك حتى الأشجار، وغيَّرت المادة وقوانينها الداخلية لتجلب الموت والدمار الشامل.

سيبني بروميثيوس اليوم المزيدَ من المطارات والطرق السريعة ومصانع الصلب وناطحات السحاب، إنه بطلٌ نبيلٌ، لكن للماضي فحسب. إن الطبيعة وكوكب الأرض اليوم في حاجة إلى آلهة وأبطال يثيرون رغبات جديدة في النفس البشرية، نحو هياكل مجتمعية جديدة وأنماط جديدة للتعايش بين البشر والكون.

كان بروميثيوس ينتمي إلى الجبابرة، ابن كليمينى إحدى الأوقيانوسيات، وإيابيتوس، أسماء مشابهة ليافث العهد القديم، ابن نوح. أما أشقاؤه فهم أطلس مينوتيوس ولا نغفل أيضًا إبيميثيوس الذي يبدو من ملامح اسمه أنه أحمق مزدوج، الكومبارس الذي يؤدي دور البطل الهزلي. يعني اسم بروميثيوس «من يرى أولًا»، أما إبيميثيوس فيعني «من يرى لاحقًا». يجسِّد الأول الاحتراز والحنكة والشجاعة والمكر إن لزم الأمر، أما الثاني فيمثِّل الحماقة والتشوُّش الذي لم يفلح في فعل شيء ودائمًا ما يصل متأخرًا.

عندما أعلن الجبابرة حلفاء كرونوس التمرد أمام زيوس عازمين على تقويض الركائز الأولمبية، انحاز أطلس ومينوتيوس إلى جانبهم ودفعا ثمن هزيمتهما باهظًا: حُكم على الأول بأن يحمل السماء على كتفيه، وصُعق الثاني من قِبل زيوس.

انحاز بروميثيوس أيضًا، ومعه إبيميثيوس الذي تدفعه طبيعته إلى تقليد شقيقه بحماقةٍ، إلى جانب زيوس. بروميثيوس الآتي من عالم الجبابرة الوحشي البدائي نراه يختار النظام المُنير للسلطة الأولمبية الجديدة وآلهته. يُعَد أكثر الجبابرة ذكاءً، وقد وطَّد علاقته مع أثينا، الإلهة الأكثر

حكمةً وذكاءً في صفوف الآلهة الجديدة. رغم ذلك لم يمر وقتٌ طويلٌ حتى نشب الصراع بينه وبين زيوس، كان مصيره المحتوم الذي لا الآلهة أو الجبابرة يمكنهم مقاومته.

يقال إن بروميثيوس خالق البشر الأولين، لقد عجنهم في أنماطٍ باستخدام الطين والماء، ثم زادهم صلابةً بعد ذلك بحرارة النار، وطلب من أثينا أن تنفخ في تلك المخلوقات الطينية نسمة النفس، نسمة الحياة. منذ ذلك الحين أغدق على جنس البشر بالعطف والإحسان. رآه جنسًا هشًّا، تحت رحمة قوى الطبيعة الساحقة حتى سعى إلى مساعدته وإبقائه على قيد الحياة برغبة صادقة طوعية. كان هو الذي أراه كيف يُشعل النار، وتعلّم من أثينا الهندسة المعمارية وعلم الفلك وفنون صياغة المعادن وفن الملاحة، ثم نقل كل أمتعة المعرفة هذه إلى البشر ليتسنى لهم استخدامها واستغلالها بالطريقة المثلى.

يرى بروميثيوس أن سلطة زيوس على البشر لا بد أن تتجلى بصورة قمعية يصعب إرضاؤها بشكلٍ كبيرٍ. عندما تعلق الأمر بتحديد أي جزء من ثور التقدمة سيذهب إلى الآلهة وأي جزء سيذهب إلى البشر، كان بروميثيوس -يتم استدعاؤه ليبت في الأمر لأهليته وذكائه- يقوم بحيلة ماكرة لخداع زيوس. يأخذ من ثور التقدمة المعدة، الجزء الأقل شهيةً، ويجعل منها كيسًا يملؤه بقطع اللحم السمين والأحشاء الشهية، وبعد ذلك يأخذ العظم ويلفُّها في طبقة شهية من الدهن الأبيض الغني بالعصارة.

يدعو بروميثيوس زيوس إلى الاختيار، فينخدع سيد الآلهة بالمظاهر وينبهر بذلك البياض الرطب السمين. ما إن أدرك أنها لا تحتوي إلا على عظام فحسب حتى اجتاحته موجة غاضبة عارمة، وقرر معاقبة بروميثيوس في رعاياه؛ أي البشر. قطع عنهم النار؛ فلم يَعُد في إمكانهم إنارة الليل، وتدفئة ملاذهم، وأكلوا اللحم الشهي الذي خصَّصه بروميثيوس لهم نيئًا تمامًا، حتى صارت عادةً لهم في كل مرة يتقدمون بتقدماتهم إلى الآلهة. تسبب حرمان البشر من النار في انبطاحهم؛ فتراجعوا إلى تلك الصورة الوحشية التي انتشلهم منها بروميثيوس بكل تعاليمه السابقة.

لم يكن بروميثيوس الجبَّار الخيِّر ليسمح له بذلك. من ذلك المنطلق، سُرِقت النار السماوية، مهمة المهام كلها، التي جعلته الأعظم والأحبَّ إلى الجميع، لم يُحدد مكان السرقة بوضوحٍ؛ فهناك من يزعم أنه في ليمنوس(93) حيث سُرقت النار من هيفستوس الذي كان يمتلك العديد من

ورش العمل المهمة آنذاك. لكن من المرجح حدوث ذلك في أعالي الأولمب حيث نجح بروميثيوس في الصعود إلى هناك متشفعًا بأثينا.

(93) جزيرة يونانية تقع في الجزء الشمالي الشرقي من بحر أيجة.

لم يُعرف أي شيء عن حياة الجبَّار العاطفية، ويبدو أنه لم ينعم بأي علاقة عاطفية قطُّ. كان زاهدًا، منهمكًا في واجبه، غارقًا في طموحاته، مدفوعًا بتصوُّره عن الخير والشر، إذ لم يكن لديه متسعٌ من الوقت ليخصصه للملذات. على نقيض ثيسيوس وهرقل، لم يعرف أي حورية أو أحبَّ أي صبي؛ طافت حوله هالة من القداسة الحقيقية. رغم ذلك فإن معاونة أثينا التي أدخلته واقتادته سرًّا إلى قصر الأولمب، ثم كشفت له أين يمكن له أن يجد النار ليعيدها إلى الأرض من جديدٍ، حتى أثارت من حولها الشائعات -قوبلت بالتكذيب على الفور- بأنهما سقطا في الحب معًا في تلك الليلة.

ترى مع مَن يمكن أن يرتبط أي منهما إن لم يرتبط أحدهما بالآخر؟ فالذكاء، والروح البراجماتية وجدية الهدف يتطابقون مع نظائرهم في الطرف الآخر، رغم ذلك، لم تكن كل تلك المؤهلات سوى موضع سخرية واستهزاء من قِبل أفروديت وإيروس وهرمس.

ساعدت أثينا بروميثيوس لأنه محقٌّ، تحمل عربة الشمس النار الأبدية، ويتمكن بروميثيوس من إشعال شعلة من خلالها، ثم يفصل منها بعض الجمر المتقد ويخفيه في باطن قصبة كبيرة. هكذا، يستطيع إطفاء الشعلة، ويخرج من القصر من دون أن يراه أحدٌ، ويركض بسرعة الرياح وفي جعبته عطية لجنس البشر.

هذه المرة، تفاقم غضب زيوس ولم يحده حدٌّ. قُيِّد بروميثوس بالسلاسل وحُمل إلى أقصى العالم، أعلى أحد جبال القوقاز، ليبقى هناك عاريًا تحت رحمة المطر والضباب والعاصفة، وقد سمَّره هيفستوس (دائمًا هو) في عمودٍ كما يزعم البعض، أو في جُرفٍ كما يزعم البعض الآخر.

يبزغ من أعماق السماء نسرٌ يقترب ويدور في الهواء، ثم يهبط ببطءٍ، ويستقر على بروميثيوس الجبار الذي أسرع لحماية عينيه بشكل غريزي. لم يستهدف النسر هاتين العينين، وإنما شقَّ جلد خصره بضربات منقاره ومساعدة مخالبه، ليجد الكبد أمامه، فيستأنف التهامه ببطءٍ شديدٍ، حتى تغرب الشمس، ويبتعد النسر ويعود أدراجه.

بحلول الليل، ينمو جسد بروميثوس غير الميت من جديد، ويتشكَّل الكبد مرة أخرى، وفي صباح اليوم التالي سيكون الجبَّار بهيئة سليمة كاملة ليتجرع العذاب ذاته طوال اليوم. شاعت

الأقاويل أنه ظل هكذا لمدة ثلاثين ألف سنة، لكن إن كان هرقل قد حرَّره بحقٍّ، فإن مدة عذاب بروميثيوس ربما استغرقت فترة أقصر.

لم ترضِ تلك العقوبة البشعة قلب زيوس، فشرع يفكر في عقوبة أخرى. طلب من هيفستوس أن يخلق امرأة فائقة الجمال تتمتع بجسد أخاذ باستخدام الطين والماء. كان هيفستوس قد نجح من قبل في تصميم نساء ميكانيكيات من الذهب والفضة يحتفظ بهن كخادمات في مسبكه الخاص؛ فلديه نموذج الحوريات على سبيل المثال، ولن يتمكن أحدٌ من صياغة ذلك الكائن، المرأة البشرية الأولى، أفضل من ذلك الحداد المتمرس.

كانت بمنزلة المرأة البشرية الأولى، وسرعان ما لقَّنتها أثينا سائر الفنون النسائية، وأغدقت أفروديت على وجهها بسحرٍ فائق شديد الإثارة، وأما هرمس فقد أوصاها بكيفية استخدام الدهاء والخدع الماكرة. هكذا تمَّت صياغتها، وأُرسِلت إلى الأرض، ودُعيت باندورا أي «المرأة التي مُنحت كل شيء»، وزُجَّ بها للزواج بإبيميثيوس.

كان بروميثيوس مدركًا لبلادة شقيقه، وقد فرض عليه -كان لا يزال مقيدًا بالسلاسل- إبَّان رحيله من القوقاز ألا يقبل أي هدية مرسلة من زيوس؛ لقد تنبأ، حسب طبيعته البصيرة، بأن هناك فخًّا يُعَد له.

كان إبيميثيوس يشعر بالذعر لفراق أخيه، ولم يكن بمقدوره النظر إلا إلى أسفل قدميه، فإذا بفتاة فائقة الجمال تُدعى باندورا تمثل أمامه وفكر بأنها على الأقل ستقبل مرافقته المسير. بالفعل وافقت باندورا ذات الصندوق الطيني المُغلق من الأعلى، والذي كان بمنزلة عطية من زيوس أيضًا شريطة ألا يُفتح أبدًا.

غمر الفضول الشديد وجدانها لفتح الصندوق، ولم تقوَ على الصمود أكثر من بضعة أيام، ولم يتمتع إبيميثيوس بشيء من الفطنة أو المقاومة ليحيلها دون ذلك، هكذا فُتح صندوق باندورا بأيدٍ أربعة (ذلك التعبير أصبح مثلًا حتى وإن لم يُستخدم بصورته الصحيحة).

هذا ما كان ينتظره زيوس. من أعلى تلك الجرة المنتفخة، ظن كلاهما أنهما سيستخرجان كمًّا هائلًا من الثروات من باطنها، لكن على النقيض، خرجت كل صنوف الشرور التي لم تعرفها الإنسانية السعيدة القديمة؛ فخرج الشيخوخة والتعب والضعف والمرض والوباء والرذيلة

والموت وتفشوا بين البشر؛ هكذا حُدِّد الخط الفاصل الحاسم الذي لن يُمحى أبدًا بين الآلهة وبين البشر مرة واحدة وإلى الأبد.

لم يستطع بروميثيوس القيام بأي شيء حيال ذلك، انقضى عذابه فور وصول هرقل الذي بلغ القوقاز إبَّان جولاته بين جوانب الأرض إلى أقاصيها، ليسأل بروميثيوس عن الطريق المؤدي إلى حديقة حارسات التفاح، وعندما رأى النسر ينزح ليستقر على بروميثيوس أصابه في الحال بقوسه الذي لا يخيب أبدًا وصرعه بضربة سهم واحدة.

حينها فقط شعر زيوس أنه أنزل عقابًا يليق بفِعلة بروميثيوس إلى حدٍّ ما.

لم تتبقَّ سوى عقبة واحدة كان عليه تجاوزها؛ أن يتنازل إله عن أبديته ويهبط إلى العالم السفلي وفي المقابل يسترد بروميثيوس حريته. كان لهرقل حلٌّ سريعٌ؛ القنطور شيرون الذي أُصيب بالخطأ بأحد سهامه في خضم إحدى مهامه، أخبره وهو يذرف الدموع أنه لم يَعُد يحتمل ذلك الألم المبرح إلى الأبد، وأنه يفضل أن يموت كأي بشرٍ مَن كان. جرت الصفقة، فبهذه الطريقة سيتمكَّن شيرون وبروميثيوس من وضع حدٍّ لمعاناتهما، وسيتحرر هرقل من العبء الثقيل الذي يحمله في قلبه.

بعد ذلك، لم تخبرنا الأسطورة بالمزيد عن بروميثيوس أو عن قرينه الهزلي المسكين إبيميثيوس. سنلتقي فقط بأحفادهما؛ بيرها الصهباء(94)، ابنة إبيميثيوس وباندورا، ودياكاليون ابن بروميثيوس و.. حسنًا لم أعثر على اسمٍ دقيق لأمه.. باندورا أو بريليا أو برونوى أو إسيون.. لا أحد يعرف من كانت. بينما نرى أن باندورا الحمقاء المختالة كانت جديرة بأن تكون زوجة إبيميثيوس، فمن العسير أن نتحرى عن هوية واسم زوجة بروميثيوس المستحقة، من الممكن أن تكون الإلهة أثينا، وربما قد اتحدتا معًا في تلك الأمسية، أمسية سرقة النار من القصر.

(94) ذات اللون الأَصفر الضارب إلى شيءٍ من الحمرة والبياض.

دياكاليون

كان دياكاليون ملكًا على فثيا في تيساليا، وكان رجلًا صالحًا تقيًّا. كان على دياكليون، ابن بروميثيوس الذي خلق الجنس البشري بالأرض والماء والنار، أن يعيد الحياة إلى البشر بعد أن اندثروا جميعًا من جراء كارثة مروعة، عبر الأحجار والتحول السحري، هذا ما حدث.

لايكاون؛ ابن بيلاجسوس وإحدى الأوقيانوسيات وتُدعى مليبيا، كان يملك أركاديا. أنعم عليه زيوس بهبة لكنه لم يُحسن استخدامها. للحظةٍ ظن أن بمقدوره التباهي أمام سيد الآلهة لينعم بمكانة أسمى، فقدم له على مذبحه ذبيحة بشرية، انتاب الذعر زيوس وانحدر إلى الأرض ليعاقب لايكاون ويجعله ذئبًا.

كان للايكاون خمسون طفلًا، ولم يفهم أحد منهم الدرس القاسي برؤية ملابس أبيهم تتحوَّل إلى فراءٍ وذراعيه إلى مخالب وقد أصبح رأسه طويلًا وفمه فاغرًا وعيناه فاترتين تمامًا كالذئاب. استمروا في ممارسة طقوس التقدمات البشرية، ولا سيما من الفتية، وكانوا يلتهمون أطرافهم بعد ذلك في مائدة طقسية مروِّعة.

هذه المرة انحدر زيوس في وسطهم، واتخذ هيئة مسافر بسيط يطلب الضيافة؛ نجح في الدخول إلى منزلهم القذر الشاسع وجلس على الطاولة الطويلة جدًّا معهم جميعًا، لم ينقصهم سوى أحد أبناء لايكاون.

قُدِّم وعاء من الحساء إلى زيوس. بالعين المجردة كان من السهل تمييز وجود أحشاء الأغنام والماعز في وسط المَرق، لكن زيوس لم يفُت أي تفصيلة وحشية؛ إذ يرى في وسط هذه الأحشاء أنواعًا أخرى بشرية، للشقيق المفقود، الشاب نوكتيموس، الذي تم ذبحه كتقدمة.

أمام كل ذلك القدر من الغطرسة والذعر لم يجد زيوس أمامه، بجلالٍ وبأس، سوى أن يقلب المائدة التي رغم طولها تمكن من القيام بذلك بيدٍ واحدة، وسكب ذلك الحساء الدَنس، وقبل أن يدرك أبناء لايكاون التسعة وأربعون مصيرهم، حوَّلهم جميعًا إلى ذئاب، من ناحية أخرى، أعاد إلى نوكتيموس جسدًا جديدًا ومنحه الحياة مرة أخرى.

عاد زيوس إلى الأولمب، ولم يسكن سخطه، بل على العكس تفاقم جدًّا، لم يشمل الأمر لايكاون وأبناءه فقط -صاروا ذئابًا تجوب غابات أركاديا الآن- بل إن الجنس البشري برمته بدا فاسقًا نجسًا يستحق عقابًا مثاليًّا. بشكلٍ غريزي أمسك زيوس بالصاعقة بيده، وكان عليه أن يطلق الكثير منها حتى يصيب سائر البشر، وبصورة متدفقة حتى لا يخاطر ويُصاب أحدٌ منهم ويسقط على مقربة من الأولمب ويتسبب في إشعال النار به. في أحد الأمكنة كان الكلمة (القدر) قد كتب بأن نارًا هائلة ستبتلع الكون بأسره، ولكن ذلك لن يحدث إلا في مستقبل بعيد حتى إن الفكرة لم تطرأ في ذهن زيوس من الأساس، لم يحن الوقت بعد للنار المدمرة، ومن ثم فكر زيوس في الماء.

أطلق عنان الرياح حاملة السحب، وأبعدها إلى كل مكان، فأصبحت السماء قاتمة رمادية، ومرَّت في الهواء النسمات الباردة، ثم بدأت تمطر بغزارةٍ. كان مطرًا أخفى كل شيء، كثيفًا جدًّا، غزيرًا، بلا هوادة. بعد ذلك طلب زيوس معاونة شقيقه بوسيدون؛ إذ علت أمواج البحر الهائلة واندفعت لتغمر الشاطئ، وفاض منسوب الأنهار بلا حدودٍ واجتازت السدود حتى فاضت في السهول. صار الأمر أشبه بالانهيارات الطينية والفيضانات، وارتفع منسوب المياه دون أن يتمكن أحد من إيقافه، بصورة فائقة السرعة. لم ينج أي عمل من أعمال الإنسان على وجه الأرض. قضت الأمطار الغزيرة المصحوبة بالطوفان والفيضانات على المعابد والمدن والحقول المزروعة والغابات والسفن والقطعان وحتى البشر؛ النساء والأطفال والعجائز، لم يسلم أي منهم.

لم ينجُ سوى دياكاليون وزوجته بيرها الصهباء، الزوجين المخلصين النقيين. كان زيوس قد أبلغه مسبقًا بنيته إرسال طوفان ليزيح الشر عن سطح الأرض، وأرشده أن يحمل معه في فلكٍ كل شيء نافع للحياة، وهكذا نجوا.

هكذا استأنف دياكاليون -لم تكن صدفة كونه ابن بروميثيوس- بناء الفلك. ليس من السهل تصور الفلك يقف هناك، بعيدًا عن البحر، لكنه لم يكن سفينة حقيقية ولم يدخل أو يخرج من أي ميناء قطٌّ، وإنما يجب أن يكون منزلًا كبيرًا، مستقرًّا، عائمًا، آمنًا بدرجة كافية تجعله يصمد ويقاوم غمر المياه الهائلة.

احتاج بكمياتٍ كبيرة إلى الخشب والحبال والقماش والمُشاقة(95) والقار. جلب كل شيء، وتحت أنظار سكان فيثا المندهشة، الذين لم يدركوا الهدف من إرساء فلك كهذا في وسط التلال والسهل الأخضر.

95) مستحضر من الألياف المقطرنة يستخدم لسد الفجوات.

عمل دياكاليون بلا كللٍ أو مللٍ، وأصبح نجارًا ماهرًا وحرفيًّا بارعًا في أعمال الفأس والجلفطة(96)، ذلك الذي لم يكن بحارًا من قبل، هكذا، عندما تهطل الأمطار العنيفة المروعة من كبد السماء، سيكون الفلك جاهزًا، وسيجد دياكاليون وبيرها ملاذًا آمنًا بداخله.

96) حِرفةُ مَن يَخرِز أَلواحَ السفن ويجعل في خَلَلِها القار، وهي عملية سد الشقوق بمادة كيميائية. من المواد شائعة الاستخدام في الجلفطة كل من القار أو يسمى بالقطران، التي تستخدم بشكل خاص في ملء وسد الشقوق في السفن في الماضي، نظرًا إلى خواصها في مقاومة للماء.

لم تسنح لدياكاليون فرصة التحكم بالفلك الذي لم يحتوِ على دفة من الأساس. لم يكن سفينةً، وإنما أشبه بتلك السفينة الراسية في الميناء أو في عرض البحر، لتداهمهم عاصفة مستعرة

يجدون نفسهم تحت وطأتها من دون سابق إنذار. صُمِّم الفلك من دون صوارٍ أو أشرعة أو مجاديف. سيستأنف إبحاره حالما يرتفع منسوب المياه، ثم يجوب سطح الأرض المقفرة من جراء البحر الجديد، سيد الواقع.

استمر هطول المطر تسعة أيام وتسع ليالٍ، ليتوقف بعد ذلك وتبدأ المياه في الانحسار شيئًا فشيئًا. كان دياكاليون يقبع بأمان على إحدى القمم الجبلية المتبقية فوق الغيوم، أحدهم يقول إنه كان على جبل بارناسوس ويزعم آخر وجوده على جبل آثوس وآخر على جبل إتنا.

في حذرٍ شديد يخرج دياكاليون وبيرها من الفلك، يقدمان الشكر لزيوس ويتقدمان إليه بذبيحةٍ. نظرا من حولهما ليجدا السماء صافية، وعربة الشمس تجوبها متلألئة، والآلهة تعتلي عروشها في مجد الأولمب. لكن البشر اندثروا على بكرة أبيهم ومعهم كل آثار وجودهم على سطح الأرض.

محا الطوفان كل شيء، وبشعورٍ من الارتياح ممزوج بالكرب أو ربما الذعر، أدرك دياكاليون وبيرها أنهما الكائنان الباقيان الوحيدان على سطح الأرض كلها.

جدَّد دياكاليون عهده مع زيوس، سيد الآلهة، الذي يُقدِّر ذلك الصالح، فبعث له هرمس ليبلغه أنه سيلبي أيًّا من رغباته. التمس دياكاليون منه -لم يكن ابنًا لبروميثيوس بمحض الصدفة- عودة إحياء الجنس البشري.

رضخ زيوس أمام روح دياكاليون المفعمة بالإحسان والإيثار، ونصحه باستشارة الأوراكل طاميس الإلهة القديمة. تنتمي طاميس إلى الجبابرة، وكانت ابنة أورانوس وجايا، التي أنجبت من زيوس الباركى(97) وربات الفصول، وتُشرف على قوانين الطبيعة وعلى الفصل بين الحلال والحرام.

(97) في الدين والأساطير الرومانية القديمة تعد بمنزلة تجسيد أنثوي للقدر.

وصل دياكاليون وبيرها إلى معبدها ليجداه لا يزال رطبًا، وتنتشر على أعمدته الكثير من الأصداف، وتحتشد على أسقفه الأعشاب البحرية الكثيفة. كشفت طاميس عن ردِّها: «إن كنتما تريدان إعادة الحياة إلى الجنس البشري، فعليكما بالانبطاح وتغطية أنفسكما ثم إلقاء عظام أمكما من خلفكما». كانت إجابة مبهمة كما يجب أن تكون، لكن اليأس لم يتسلل إلى دياكاليون قطُّ. استمرَّت بيرها تقول إن الأمر أشبه بالمستحيل؛ فلم تنجبهما الأم نفسها، كما أن أمهما لم تعُد على قيد الحياة، ابتسم زوجها وأخبرها باختصارٍ: «أمنا الأرض»، ففهمت بيرها.

الحجارة هي عظام الأم الأرض، ويوجد الكثير منها من حولهم، على ضفاف أحد مجاري المياه وفي السهول. لم يتبقَّ أمامهم سوى الخضوع؛ فحنيا رأسيهما، وتغطَّيا، وأخذا يجمعان الحصى ويلقيان بها من خلفهما، دون أن يلتفت أي منهما، دون أدنى ارتباك، وعزما على إنجاز كل ما أمرتهما به طاميس، وإن لم يفهما مضمونه. سارا كثيرًا من دون أن يكفَّا عن إتمام تلك المهمة الحمقاء في مظهرها، وذات المعنى في باطنها حسب قول الأوراكل.

في نهاية المطاف، عزم دياكاليون وبيرها الالتفاف بانسجامٍ في المرة نفسها، وسرعان ما أصابتهما الدهشة من جراء ما شاهدا. لم يعُد الحصى الذي ألقياه معًا من الخلف إبَّان عملية البذار الحمقاء هذه كما هو، بل تنامى حجمه، وتبدَّل شكله، وصارت طبيعته أكثر رقة، وتغيَّر جوهره، فالحصى الذي ألقاه دياكاليون اتَّخذ شكلًا آخر وبدأ يتحوَّل شيئًا فشيئًا ويشبه الرجال، وأما الحصى المُلقى من قِبل بيرها فرويدًا رويدًا كان يأخذ هيئة النساء.

نظر الزوجان أحدهما إلى الآخر، وقد غمرتهما الدهشة والسعادة، وفطنا أن من تلك الحجارة، من عظام الأم الأرض، يولد البشر ليملؤوا العالم من جديدٍ:

هكذا نتراءى كنسلٍ صامد يتحطَّم أمام المتاعب

ونوثِّق من أي نسل قد أتينا

في هاتين البيتين المقتطفين من الكتاب الأول لـ التحولات(98)، يكتب أوفيد الذي يروي بأسلوبٍ فائقٍ تلك الأسطورة والعديد من الأساطير الأخرى مفصلًا حالتنا الأبدية كبشرٍ في سخرية قاتمة، أن أصول البشر جميعًا تنبع من الحجر، فسلوكنا وقسوتنا واحتمالنا خير شاهد على ذلك.

(98) قصيدة سردية لاتينية للشاعر الروماني أوفيد، وتعتبر رائعته، وتضم القصيدة خمسة عشر كتابًا وأكثر من 250 أسطورة، وتسرد تاريخ العالم من خلقه إلى تأليه يوليوس قيصر.

حتى يومنا هذا يُقال: انظر، إن قلبه كالحجر! نقول هكذا على من لا يعرف قلبه الحب والشفقة ويتقنون فنون اللا مبالاة، عكس دياكاليون، ابن بروميثيوس بحقٍّ، ومن بعده ابنه هيلين، سلف الهيلينيين، والأب السحيق لجميع الإغريق.

دايدالوس

كان ابن ميتيون وإيفيون أو على الأرجح ميروب، ذلك الأثيني من سلالة ملكية، سليل إيريخثيوس، يُعَد دايدالوس أشهر بنَّاء ومهندس ونحات ومخترع في الأساطير كافةً.

تتلمذ على يد أثينا، وتعلّم منها جميع الفنون، ليطبِّقها بمهارة خارقة من دون أي دافعٍ أخلاقي تخلق الحيرة في نفوس مشاهديها. لم يشيد شيئًا بدافع نشر الخير في الجنس البشري، وإنما كان يفعل ذلك من أجل عملائه، باختلاف هوياتهم وأغراضهم، فيبني مدفوعًا بالمتعة، والطموح نحو التميُّز، وتحدي قوانين الطبيعة نفسها.

من ثم، نرى أننا أمام شخصية غامضة، وقد حانت لحظة تألقه في كريت، حيث وصل هاربًا من ماضٍ مبهم.

أتى تلميذ إلى دايدالوس في أثينا الذي كان بمنزلة ابن شقيقته بوليكاستى أيضًا، أظهر الصبي مهارة غير مألوفة للتعلم، فكان دائم الاستعداد وينعم بسرعة فائقة في تحصُّل أكثر من تعاليم أثينا وهيفستوس.

عندما بلغ الثانية عشرة من عمره، كان تالو، اسم التلميذ، يتحرك كسيدٍ بداخل المسبك، وخرجت من تحت يديه مسبوكات من البرونز والذهب والفضة وكانت تتلألأ من فرط كمالها أكثر من تلك التي صنعها دايدالوس.

كيف يمكن هذا؟ تساءل دايدالوس المعتاد على كونه مهندس أثينا الأول كما لو كان معينًا من قِبل الآلهة. كيف له أن يقبل أن يقوّض أسبقيته ذلك الصبي الأمرد المتغطرس المدلل؟ دفعته الشكوك إلى الظن أنه سقط في زنا محارم مع شقيقته بوليكاستى، ودفعته الكراهية نحو تالو بالتخطيط لقتله. نظرًا إلى كونه رجلًا اعتاد أن ينفذ كل ما يفكر به، هكذا خطط ونفذ جريمته.

صباح أحد الأيام طلب من تالو أن يتبعه إلى سطح معبد أثينا مدعيًا أنها تريد رؤيته.. هناك، تمتم بشيء لم يفهمه تالو. تبع الخال المعلم واثقًا به، وعندما بلغ سطح المعبد رأى المدينة برمتها، وتل ليكابيتوس، والبحر البعيد وبقي مبهوتًا. اقترب منه دايدالوس، مشيرًا بذراعه الممدودة إلى نقطة بعيدة في الأفق، ليدفعه إلى الأمام باليد الأخرى ويسقط قتيلًا.

نزل بعد ذلك ليستعيد جثمان تالو، وأخفاه في كيسٍ واستأنف طريقه لدفنه في مكان مقفر. ومن يسأله «دايدالوس، ماذا تحمل على كتفيك؟»، كان يجيب بأنه اصطاد ثعبانًا وقتله وفي طريقه ليرمي جيفته بعيدًا. رغم كل حيطته اليقظة، افتضح أمره؛ إذ انصبغ الكيس بنقاط حمراء تتزايد بلا توقف، نقطة، اثنتين، ثلاثة، حتى تدفقت خيوط الدم من داخله.

انكشفت الجريمة، وحُكم على دايدالوس بالنفي ورحل إلى جزيرة كريت، قول آخر يقول إنه لم ينتظر أوان المحاكمة بل وجد ملاذًا وفرَّ إلى جزيرة مينوس.

كانت قصور ملك كريت الأكثر ثراءً في العالم، كما أن أسطوله بمنزلة الأشد قوةً. تدفقت ثروات طائلة إلى الخزائن الملكية، وأُعِدَّ لبناء العديد من الأسوار والمعابد والمدن، واستقبل مينوس بحفاوةٍ بالغة المهندس والحرفي الأثيني القدير ذائع الصيت.

كرَّس دايدالوس نفسه لتجسيد مجد مينوس بأعمالٍ عظيمة فائقة الجمال. حتى عندما ذهبت إليه باسيفاي، الملكة، وكشفت له عن مشروعها الوحشي، لم يتراجع دايدالوس، ولم يتوان، ولم يحذِّر الملكة على الإطلاق، على العكس، بدا له الأمر بمنزلة التحدي الأعظم بين سائر أعماله السابقة رغم صعوبتها.

أخذ يدرس الجوانب القوية للثور الأبيض الذي يقطر منه الزَبد والذي وقعت باسيفاي في حبه، وتمعَّن في دراسة بُنيته الجسدية، ورفع مقاساته، وفكر في كيفية وضع جسم الملكة، وتخيَّل كل أوضاع المضاجعة غير الطبيعية.

كنحاتٍ، صنع البقرة من الخشب الخام ثم كساها بالجلد، وكمخترعٍ، ثبَّت أربع عجلات في حوافرها، لمنحها القدرة على الحركة.

كان ماهرًا إلى درجة أن الثور نفسه ظنَّ أنها بقرة حية وركض ليضاجعها.

عندما وُلِد المينوتور من جراء هذا الجِماع الوحشي، بجسدٍ بشري ورأس ثور، أراد مينوس أن يظل محتجزًا في قصرٍ حيث لن يستطيع أحدٌ رؤيته، أراد أن يمحو ذلك العار الذي لا يُمحى، أو على الأقل أن ينزعه تمامًا من الذاكرة.

وحده دايدالوس من يُمكنه إنشاء بناية كهذه، قَبل دايدالوس التحدي، ربما لم يكن ليفعل سوى ذلك، الذي ارتبط باسمه إلى الأبد. استطاع بناء المتاهة؛ القصر - السجن، حيث تسمح الممرات المتشابكة غير المنفصلة بالدخول لأي أحد، وفي الوقت نفسه تجعله يضل الطريق عند العودة. في منتصف المتاهة، يقبع الوحش البريء الذي من شدة ضراوته كان في حاجة دائمة إلى تناول لحم البشر.

شعر مينوس بالرضا لذلك الصنيع، لكنه لم يستطع الصفح عن فعلة ديادالوس الأولى، تلك البقرة الزائفة التي وعد بها باسيفاي لتشبع شهواتها الوحشية الجامحة.

في تلك الآونة كان دايدالوس بمنأى عن أسرار البيت الحاكم في كريت. فاض الكيل بعد أن تمكَّنت أريادني من إنجاح مهمة ثيسيوس بابتكارها المتمثل في الخيط والبكرة. أُسِر دايدالوس في المتاهة نفسها برفقة ابنه المحبوب إيكاروس الذي أنجبه من ناوكرات، إحدى خادمات مينوس التي أُغرمت بمهارته الحِرفيّة.

عندما نجحت باسيفاي في تحريرهما، فَطِن دايدالوس أنهما لن يستطيعا البقاء في كريت يومًا واحدًا. شرع يعمل في مهمة، من داخل مخبئه، بدت سحرية له بل وأكثر ملاءمة كإله منه كبشري، شيء سيمكنه من منافسة هرمس وبيرسيوس اللذين حلَّقا نحو السماء.

لم يكن دايدالوس ليمتلك أحذية مجنحة أو جيادًا مثل بيجاسوس تأتمر لأمره، لكن يبدو أنهم كانوا سببًا في أن يستلهم دايدالوس فكرة اختراعه؛ إن كان يرغب في الطيران فعليه اقتناء الأجنحة، ومن ثَمَّ قرر ابتكار أجنحة صناعية.

نجح دايدالوس في الهرب جوًّا، يحلق برفقة ابنه، أسرع من أي عربة أو سفينة في مواجهة مينوس وجنوده الذين قلبوا الجزيرة رأسًا على عقب بحثًا عنهما، وأسطوله المتأهب لسدِّ أي سبيل ممكن لفرارهما عبر البحر.

أعد دايدالوس الأجنحة باستخدام الريش والشمع، كان يُشبِّك الريش الكبير ببعضه، وأما الريش الصغير فكان الشمع الذي يلصقهم معًا، بعد ذلك أعد حمالة من الجلد ليتمكَّن بواسطتها من تثبيت الأجنحة على الكتفين.

انتهى العمل بحلول المساء، وانتابت دايالوس وإيكاروس رعشة من فرط رغبتهما في الرحيل. كان من الصعب استئناف تحليقهما وسط الظلام، فآثر دايدالوس النوم طوال الليل لينال قسطًا من الراحة. أما إيكاروس فلم ينفك عن الحلم بالطيران طوال الليل، والقفز في السماء، وحرية التحرك مثل طيور الكركية والبجعة. بدت الأجنحة البيضاء الكبيرة المصنوعة كأجنحة البجع، ولم يطق الانتظار أكثر من ذلك لارتدائها.

بحلول الصباح، أخذ دايدالوس يستطلع السماء، ويستمع إلى الرياح. كانت هناك شروط للرحيل وأعطى لإيكاروس بعض التعليمات الأساسية: «لا تتمادى في الهبوط لئلَّا يبتل الريش من جراء رذاذ الموج ويزيده ثقلًا، ولا تتمادى في الصعود، وبالأحرى لا تقترب كثيرًا من الشمس

حتى لا يذوب الشمع. حلِّق في مستوى معتدل، واتبعني، وابق على مقربة من والدك الذي سيرشدك».

يا لها من لحظةٍ عندما انفتح الجناحان الكبيران ببطءٍ، ترفرف في هدوءٍ، وتقفز للمرة الأولى كما لو أنها تمزَّقت من الأرض، حتى صعدت بحريةٍ في هواء الصباح الأزرق.

مرة أخرى يبرهن دايدالوس على عظمته كمخترعٍ، لم يحلق أي إنسان قط، وهو أول من ابتكر الأجنحة للقيام بذلك. استمر واثقًا بنفسه، وملامح الفخر تكسو وجهه، وبالفعل بدأ يرى ملامح سيكلادس وناكسوس وديلوس وباروس.

استمر إيكاروس يتبع اتجاهات والده فترة، لكن بعد ذلك، وبسبب الاتصال بالهواء المنعش، سيطر الحماس على جوانبه حتى شرع يرتعش ويتوتر ويتماهى مع رحلته الجوية. ترك والده يزهو به بعض الشيء، ثم استدار نحو الأعلى، حيث يصبح الضوء أشد ذهبية، وحيث يلتقي بالغيوم الخفيفة التي تحلق مثله وتعبر جسده وتترك حبَّات الصقيع على وجهه. بات التحليق إلى الأعلى أمرًا تتضاعف روعته، فاستمر في الطيران إلى أعلى، وقد نسي كل ما أوصاه به والده، وتجاهل ما تريد الرياح أن تهمس به في أذنه.

عندما استدار دايدالوس ولم يرَ ابنه في الخلف، فهم الأمر. أذابت الشمس الشمع، فانصهرت الأجنحة، وأخذ الريش يتطاير ويلتف من حوله في الهواء، استمر إيكاروس في السقوط حتى ابتلعه البحر.

نجح دايدالوس في إنجاز مهمة جديدة تتمثل في الانزلاق على سطح الماء، مرة، مرتين، ثلاث مرات، واستمر يمدد ذراعيه مع إبقاء جسده في مأمنٍ عن الأمواج العاتية حتى تمكَّن في النهاية من الإمساك بجسد ابنه الغارق، للمرة الأولى يُصيغ مهارته هذه المرة في خدمة الرحمة، وصل إلى جزيرة قريبة وكرَّم ابنه بدفنه بصورة لائقة.

سميت الجزيرة منذ ذلك الحين باسم إيكاريا.

بعد هذه السلسلة من المغامرات الغريبة، تابع دايدالوس ممارسة عمله بنَّاء وحرفيًّا من دون اهتزازت عنيفة. في البدء كان في صقلية، في كاميكوس، في بلاط الملك كوكالوس، الذي يصعب مقارنته بمينوس من الأساس، وسَعِد بالعيش هناك، وبصنع الدمى الذهبية لبنات الملك، تلك الدمى التي كان بمقدورها الحركة والحديث كسائر بنات البشر.

لم يتوقف مينوس عن مطاردته، فوصل إلى صقلية وبلغ قصر الملك كوكالوس، وسأل عن ديدالوس، الأمر الذي انتشر بسرعة كبيرة في أرجاء صقلية. لكن الملك أخفاه في غرفة بناته بعد أن توسَّلت إليه بإلحاحٍ رقيق، بل وأكَّدن أنهن لن يصفحن عنه أبدًا إن حرمهن من ذلك الساحر الحرفي.

كانت الغرفة وحمام الضيوف بالقصر تجاور مسكن الأميرات الصغيرات. اقترحن على دايدالوس، ربما بدافع المرح، طريقة تمكِّنه من التخلص من مينوس إلى الأبد. كان كافيًا أن يمرر أنبوبًا ممدودًا من السطح الذي يعلو المسبح مباشرة حيث كان مينوس يُرخي جسده، ليمر الماء المغلي عبر ذلك الأنبوب الموجه، أو ربما القار، الذي سيغمره من أعلى ويسقطه قتيلًا في الحال. هكذا انتهى مينوس إلى الأبد، أقوى ملوك العالم، عاريًا في مسبحٍ، يحترق حتى الموت، أو يُغمر بمادة سوداء ولزجة وخانقة!

ارتحل دايدالوس عن صقلية بوصول لولاوس حفيد هرقل وعشيقه، انتقل معه إلى ساردينيا وشيَّد مباني عديدة بطول الجزيرة، يستطيع المرء رؤية آثاره إلى الآن في أبراج النوراك(99).

(99) برج حجري مخروطي الشكل، يرجع تاريخه إلى الألفية الثانية قبل الميلاد، منتشر في جميع أنحاء جزيرة سردينيا.

في اللغة المعاصرة، يعد «دايدالوس» اسمًا شائعًا ويقصد به المتاهة، وتشابك الشوارع، وبصورة مجازية تشابك الأفكار والكلمات بصورة لا تنفصم، أما الصفة من «دايدالوس»، فتستخدم في وصف شيء معقد ورائع بدرجة تُثير الإعجاب.

تكون أنفسنا «دايدالوسية»(100) عندما تود البناء بلا حدودٍ، عندما تنصاع إلى قوى خارجية كانت أم داخلية، عندما تتصور أن بناءها يمثِّل تحديًا لها من أجل الحصول على أسبقية منشودة، عندما تتدحرج في فكرتها الخاصة عن البناء لتصبح متاهة في حد ذاتها.

(100) الصفة من دايدالوس حسب وصف المؤلف باللغة الإيطالية.

لم يصطبغ دايدالوس بشخصية بروميثيوس مثل دياكاليون، بل إن خير البشرية لم يكن هدفًا من أهدافه. كان يبني بهدف البناء. عندما تختبر النفس تلك الحالة، يوُلد بها ذلك التشابك، ويصعب الخروج منه، لرؤية نور السماء أو الهرب، دون الوقوع في هاوية أعمق من تلك التي عرفها إيكاروس، لا تكتفي النفس بالمهارة، وإنما الحب هو الذي يُشعرها بالنقص في أغلب الأوقات.

بجماليون

كان بجماليون ملكًا على قبرص، الجزيرة التي باركتها أفروديت حيث رست بها بعد تجوالها في البحر، في مكان يسمى الآن حجر الرومان، حيث تبرز صخرة تشبه سنفكس من البحر باتجاه الشفق. كان ملكًا، وكان مخلصًا لأفروديت. ربما يكشف لنا اسمه عن شيء آخر؛ فإن كانت كلمة بيجاميوس تُعني «قزمًا» في اللغة اليونانية، فمن المحتمل أنه ينتمي إلى سلالة الحرفيين الذين يتميزون بقِصر القامة والبنية العرجاء، والتي يعد الإله هيفستوس، زوج أفروديت التعيس، بمنزلة راعٍ لها.

تجسَّدت تعاسة بجماليون في وحدته، لم يحظ بأي علاقة سليمة بجنس النساء. أو ربما أن النساء هي التي لم ترغب في نيْل أي علاقة معه إذا كان ما يكشفه اسمه لنا صحيحًا. الحقيقة الواضحة تتمثَّل في أن بجماليون حكم على سائر النساء بأنهن شريرات وكاذبات وكثيرات الشجار وحمقاوات، وآثر الحياة بعيدًا عنهن سنواتٍ عديدة، كان يمكث منفردًا في قصره المترف المجهز بورشةٍ لا ينقصها أي شيء.

وجد بجماليون الراحة في عمله وسط معاناة الوحدة ومهارته كحرفيٍ. ابتدأ يعمل بالعاج، المادة اللامعة المصقولة بالرخام والبرونز، ذات الذكرى البعيدة المحفورة بداخلها لكونها تنتمي إلى حيوان حي. اتخذ العاج أشكالًا عدة تحت إزميله، وذات مرة افتخر بجماليون بنفسه لأن الهيئة التي تشكَّلت أمامه في تلك اللحظة كانت هيئة كائن أنثوي.

خطرت في ذهنه فكرة بغتة، تمامًا كتلك الأفكار التي تغيِّر مصير حياتنا إلى الأبد: سيصنع تمثال فتاة، وبالطبع سيصيغه في صورة رفيقة مثالية كما يرغب بها تمامًا، وستكون قريبة منه إلى الأبد.

بدأ يعمل بحماسٍ، بلمسة من الجنون، نهارًا وليلًا، حتى انتهى من تحفته الفنية. وقف أمامها محدقًا إليها مليًّا. تمتعت الفتاة العاجية بقدمين طويلتين ممشوقتين، وخصر مستدير متّسق، وأرداف بارزة تشبه أرداف أفروديت كاللييبيجوس، وذراعين ويدين مثاليتين، وشعر طويل مموج، ووجه يمتاز بملامح زاد العاج حلاوتها وإشراقها.

هكذا سقط بجماليون في حب الفتاة العاجية، صنعة يديه. لم يكن ليصدق نفسه، فلقد اختبر تلك العاطفة التي كان ينكرها حتى ذلك الحين: الحب، والفيض بالحب، وأحسَّ بسعادة جديدة غير

متوقعة.

سرعان ما طفق يتجاذب أطراف الحديث مع التمثال، وتظاهر بأن بمقدورها الرد؛ كم من محادثات رائعة عن الحب كانت تدور في ذهنه! بعد ذلك همَّ بتقبيلها زاعمًا أنها ستقبِّله بالمثل، احتضنها، وضمَّها إليه بشدة، وعضَّ شفتيها، وبدأ يداعب جسدها بكثرة.

لم يمر الكثير من الوقت حتى أحضر لها الهدايا التي تحبها الفتيات، من أصداف وطيور وجواهر، ألبسها أقراطًا من الألماس، ووضع في رقبتها قلادات بمئة لؤلؤة خفيفة، كان يمشِّط شعرها وقد عطَّره بأغلى أنواع العطور.

أعدَّ لها خزانة ملابس ملكية، وملأها بملابس مصنوعة من أغلى حرير الشرق، وعباءات من الأرجوان، وأحزمة من جلود التنين. كان يُلبسها بنفسه بعد أن يتخيل ما وقع عليه اختيارها.

اعتاد التحدث إليها ورأى أنه من الطبيعي أن يكشف لها بعض أساسيات معرفته. بدأ يعلِّمها ويطلعها على أسرار الشعر، وكتب لها بنفسه بضعة أبيات بإيقاعٍ موزون بدقة يسهل حفظه في الحال. علَّمها علوم الفلك وأسماء كل النجوم التي تظهر في السماء بحلول الظلام. أعطاها أيضًا بعض دروس التشجير: تقليم شجيرات الورد، وكيفية زراعة البصيلات التي ينمو منها الزعفران.

كثيرًا ما يمكث معها في الحديقة، يزيِّن هامتها بالورد ذي البتلات الخفيفة مثل شقائق النعمان والحوذان. جعلت الشمس العاج كمادة منسكبة مُضيئة، عندما تمر الغيوم في السماء، تحدد بظلالها ملامح الفتاة وتجعلها شبه متحركة.

بحلول الليل، كان بجماليون يحمل التمثال معه إلى غرفته، ثم يجردها من ملابسها برقة فائقة بيديه الضخمتين كأيدي الحرفي القزم. يدخلها إلى فراشه، ويغطيها بأغطية إن برد الهواء، ويزيلها عنها إبَّان حرارة الجو، ويُريح رأس التمثال على وسائد ناعمة كما لو أن العاج يمكن أن يحسَّ بتلك النعومة ويسعد بها.

طوال الليل كان بجماليون يضم التمثال بشدة ناحيته، فلم يعُد يتخلى عنه بعد أن فاض حبه في قلبه، كان يداعبه في جميع أنحاء جسده من دون إهمال أي جزءٍ، ثم يتظاهر بأنها تداعبه بدورها.

دامت تلك السعادة بضعة فصول، ولكن نظرًا إلى أن السعادة ليست كذلك الخبز المصنوع لأسنان الملوك أو عوام البشر، فلقد بدأ بجماليون يدرك أن كل ذلك لم يكن سوى وهمٍ، حتى وإن كان رائعًا. مضى في حب فتاة العاج، ولم يحب أي امرأة أخرى على وجه الأرض، لكن منذ تلك اللحظة، تمنَّى أن يسري نسيم الحياة بحقٍّ في ذلك العاج اللامع.

حتى الآن، كان هو مَن يتخيل إيماءاتها وقبلاتها ومداعباتها الليلية، كان لديه القدرة على بناء ذلك التمثال الذي يبدو حيًّا، لكن كان عليه الاعتراف بأن قوته لن تكفي لبثِّ الحياة في جوانبه، يقتصر هذا العمل على الآلهة فحسب.

حينها، أتى يوم الاحتفال العظيم الذي يُحتفل به سنويًّا بإلهة جزيرة قبرص، تحتشد جموع الشعب تحت المذبح، وتُقدَّم ذبيحة من ثورين أبيضين، وترتفع الأناشيد وسط النيران وسحب الدخان تكريمًا لأفروديت التي تحمل الحب إلى قلوب البشر، وإلى الأراضي المعشوشبة، وأغصان الأشجار، وأمواج البحار.

سادت الاحتفالات أرجاء قبرص؛ بدءًا من الجبال التي تبزغ من بين منحدرات أشجار التنوب وأشجار الأرز، وحتى الصحاري ذات بحيرات الملح بانعكاساتها متعددة الألوان المتقزحة. لم يرغب أي كائن في تفويت تلك الحفلة، تفتح شجيرات الخطمي أزهارها الأكثر حمرة من النار والدم في ضوء الشمس ويهبط البجع على الموانی وشواطئ البحر الرملية.

هام بجماليون في أفكاره الخاصة، ووحدها الآلهة كانت قادرة أن تتم عمله، وحدها أفروديت كان بمقدورها أن تستجيب لتوسلاته، وهكذا برأسٍ منحنٍ، وإيمان ثابت، توجَّه بجماليون إلى الإلهة، وأخذ يتمتم إليها وسط أناشيد الجموع التي ارتبطت برقصاتٍ تزداد جنونًا أكثر فأكثر.

طلب مساعدتها، تلك التي كان يحبها كثيرًا ويراها سيدة كل صنوف الجمال، بل وكان يفكر بها في أثناء نحت ذلك التمثال العاجي ليضفي على ملامحه شكلًا لتلك الفتاة، طلب منها أن تلبِّي رغبته، أن تمنحه ما زال ينقصه، أليست الرغبات هي كل ما ينقصه؟

تمثَّلت رغبته التي أعرب عنها بجماليون بنبرة منكسرة وهو يقرع صدره في أن يتزوج.. لم يجرؤ أن يقول إنها الفتاة العاجية، وإنما اكتفى بأن يود: «فتاة تشبه تلك الفتاة العاجية التي بنيتها وأحتفظ بها في منزلي».

في تلك اللحظة، انفجر بجماليون بالبكاء، كانت أفروديت تتطلع إليه بأذنين مصغيتين، وعندما رأت ذلك الإله، الرجل الضعيف، الحداد والحرفي مثل هيفستوس، يمثل أمامها بعينين متورمتين وصدر جائش من فرط النحيب، عزمت أن تساعده، سيتمم الحب المعجزة الآن!

بالعودة إلى المنزل، اندسَّ بجماليون في فراشه، حيث تتمدد الفتاة العاجية، ومثل كل ليلة يهمُّ بجماليون بالاقتراب منها سعيًا في قبلة، لكن تلك المرة شعر بإحساسٍ دافئ جعل الرعشة تدبُّ في جسده، عانق التمثال، وازداد الإحساس أكثر فأكثر. أحسَّ أن الفراش أكثر دفئًا من المعتاد، وأن ذلك العاج قد صار أكثر نعومةً أيضًا، وعندما تحسسه لم يعُد يشعر بنعومته فقط وإنما بشيء أكثر من المرونة، فوجدت أصابع يده المُداعبة فجوة مثيلة ناعمة، لتغوص في شيء لا يشبه ملمسه سوى جسد بشري، واستقبل فمه شفتان حقيقيتان هشَّتان، ولسان رطب. لم يستطع بجماليون تصديق ما يحدث، لكنها كانت الحقيقة، أحسَّ أن قبلة الفتاة لم تعد دربًا من الخيال، وأن جسدها يرتجف مثل جسده، وبأن شبكة الأوردة تسري في جوانبها، وبقلبٍ ينبض في صدرها.

هكذا، في تلك الليلة، تمكَّن من مضاجعة الفتاة كما لو كانت فتاة حية، واستطاع إشباع شغفه بصورة كاملة.

استجابت أفروديت لطلبه، استيقظ بجماليون بعد أن هنأ بنومٍ عميق، وأول ما جال بفكره أن يشكر الإلهة على صنيعها.

انحنى بعد ذلك على الفتاة، كان لديها عينان واسعتان، وابتسامة تضيء وجهها، وشعر منسدل على الوسادة، طويلًا جدًّا كما نحته بالضبط؛

كانت فائقة الجمال، لم يكف عن حبها إلى الأبد.

سمَّاها جالاتيا، توالت ليالي الحب بلا نهاية بعد تلك الليلة المفعمة بالحب، ولم ينفك بجماليون عن أن يغدقها بالهدايا ولا سيما الثمينة منها، واستمر في تعليمها على أكمل وجه. اكتشف أنها تلقّنت كل شيء بالفعل عن التشجير والفلك والشعر وكل ما أفهمها إياه عندما كانت لا تزال تمثالًا من العاج.

أنجبت طفلًا بعد تسعة أشهر، ودُعي بافو، كما يزال يُطلق إلى الآن على ساحل قبرص الغربي، تلك البلدة التي يتحدث كل ما بها عن أفروديت ومرورها محفورًا على الواقع المترب

الفقير المعاصر.

عكس البنائين الآخرين، كان بجماليون حرفيًّا لحرفة واحدة. اهتم بروميثيوس ودياكاليون في عملهم بالخير نحو البشرية، شيَّد دايدالوس الكثير رغم أن أعماله لم تستحق الإشادة دائمًا. أما بجماليون فلقد نصَّب قدرته الحرفية على تلك الفتاة العاجية التي أصبحت حبه المطلق حتى في طبيعتها الأولى كتمثالٍ ثم كامرأةٍ حقيقية بعد شفاعة أفروديت، لم يكن لبجماليون أي هدف سوى الحب، فطوَّع أدواته كلها في خدمة حلم الحب.

أتى إلينا مصطلح «بجماليون» ليُشير إلى كل من يكتشف ويعزز مهارات شخص فظٍّ في مرحلة الشباب جاعلًا منه شخصية راقية عن طريق الحب، تمامًا كما حدث للبروفسور هيجينز في مسرحية بيجامليون لبرنارد شو التي تجسَّدت في فيلم سيدتي الجميلة بعد ذلك؛ حيث كثيرًا ما تسلك الأسطورة في تلك المسارات، إذ تعاود الظهور مجددًا من حيث لا نتوقع.

ربما أزعجك، عزيزتي القارئة وعزيزي القارئ، الجزء التربوي من حلمه الذي لا يزال يُخلِّد اسمه إلى اليوم، فدعني أخبرك أن إخلاصه للحلم وإخضاع تقنياته للحب، يبدو لي الآن جديرًا بالثناء أكثر من أي وقتٍ مضى.

إن أنفسنا في حاجة إلى التعلُّم والبناء، ويُعَد الحب أيضًا ثمرة مشروع وبناء إلى جانب العاطفة، عندما نشعر بذلك، فحينها فقط يمكن القول إن بجماليون لا يزال يتحدث إلينا.

20

الرحمة والقصاص للدم

نادرة هي تلك النزعة التي تدفع الإنسان نحو الرحمة والعدل.

سواء الرحمة أو العدل، بالمعنى الدقيق للكلمة، يعدان بمنزلة مشاعر تُولد من موقفٍ أخلاقي سام تجاه الحياة أكثر من كونهما دوافع أولية غريزية. لا تختلف آلهة اليونان عن الطبيعة، ومن الصعب التفكير بأن زيوس، في مملكة السماء، وبوسيدون، في مملكة البحار، وهاديس، في مملكة العالم السفلي، قد نجحوا في تجسيد الرحمة والعدل بقدر تجسيدهم للَّذة والغضب والظلمة.

ومع ذلك، لم يكن علينا انتظار تعاليم المسيح ووصاياه لنكون أكثر رحمةً، ذلك رغم أن المسيحية وحدها أقرَّت الرحمة بوسائط قوية ثورية ووضعتها كمركز رئيس لرؤية جديدة نحو العالم.

في أعماق النفس البشرية، قبل الدين، وقبل القوانين المجتمعية التي تعمل على مناهضتها أيضًا، ثمة نزعة إلى حماية أقارب الدم، إلى طلب الرحمة للميتين، إلى العدل الذي يُفهم على أنه عدالة المشاعر والأنساب.

يبدو بديهيًّا أنه عندما جسدت الأسطورة اليونانية كل ما ذكرناه، يقع اختيارها على امرأة شابة نبيلة، ليست أمًّا ولكنها شقيقةً، وقد اصطدمت بالسلطة والقانون حتى الموت، لتقر قانونها الخاص، بصلابة عذراء مطلقة لا تُقهر، قلّما نجدها في أبطال الذكور.

أتحدث الآن عن أنتيجون، ربما تكون الجانب الأنثوي الشاب العذري في أنفسنا، الذي علينا السماح له بالظهور حتى يتسنى للرحمة الوقوف في مواجهة القوة البالغة المتبلدة العمياء بالمقارنة بالمشاعر.

تُعَد أنتيجون أقوى مُضاد للسلطة وبلادة القانون والتعسف المنتشر في أي مؤسسة كانت، إنها الدفء والعاطفة الملتهبة وشجاعة الوصول إلى العمق. حتى الآن، ربما واحدة أو مئة أو ألف من أنتيجون ستكون قادرة على جعل العالم أكثر إنسانيةً وعدلًا.

أنتيجون

على عرش ثيفا، جلس قدموس، مؤسس المدينة والبشري الوحيد الذي في زفافه (تزوج هارمونيا ابنة آريس وأفروديت) اعتلت آلهة الأولمب عروشها الذهبية الاثني عشر للمرة الأخيرة، وتعاقب على عرش ثيفا بوليدوروس وبعده لابداكوس الذي سُمي أتباعه بعد ذلك بالـ لابداكوسيون، الذين تكالب عليهم سوء الحظ ومنهم لايوس وأوديب وإتوكلس وبولينيسيس.

في آخر سلالة اللابداكوسيون، كانت هناك امرأة شابة خارقة في شجاعتها وعزتها وقراراتها تُدعى أنتيجون، شهدت أنتيجون أقسى مراحل مأساة عائلتها، وكانت مقرَّبة إلى أبيها أوديب في منفاه الطويل بعد أن فقد بصره وحتى وفاته.

بعد فترة وجيزة، عادت أنتيجون إلى ثيفا، وهناك أدركت أن بلدها إلى جانب ما تبقى من أحبائها، لا تزال تحت وطأة الشر والدمار.

كان إتوكلس وبولينيسيس، اللذان خلَّفا أوديب، اتفقا على حكم ثيفا بالتناوب، لكن بعد انقضاء فترة ولاية إتوكلس، رفض أن يتخلى عن عرشه إلى بولينيسيس متهمًا إياه بعدم الأهلية، وهكذا انطلق بولينيسيس نحو طريق المنفى في أرجو حيث كان يملك أدراستوس في تلك الآونة.

التقى بهاربٍ آخر في أرجو يُدعَى تايديوس ابن إينيوس ملك إيتولي، الذي في أثناء إحدى رحلات الصيد قتل عمه عن طريق الخطأ، حسب قوله، ومن ثَمَّ طُرِد من كاليدون حيث كان إينيوس يحكمها.

زوَّج أدراستوس ابنتيه لاثنين من كبار الأمراء المشهورين؛ فتزوج أرجيا بولينيسيس وتزوجت ديفلي تايديوس؛ ومنهما يأتي دايوميدس أحد شجعان أبطال الإلياذة. بعد ذلك، وعدهما بالمساعدة لاستعادة عرش ثيفا وكاليدون.

تقرر مهاجمة ثيفا أولًا. اصطحب أدراستوس معه كابانيوس وهيبوميدون وأمفياراوس وبارثينوبايوس، ليصبح عددهم خمسة أمراء من أرجو، وانضم إليهم بولينيسيس وتايديوس، هكذا بلغ عددهم سبعة؛ واشتُقَّ منها مسرحية «السبعة ضد ثيفا» المشهورة، ملحمة إسخيلوس الشهيرة.

دارت بين الطرفين حربٌ ضروس، وشهدت فظائع لم يُسمع بها من قبل، كما كانت خاتمتها أكثر دمويةً، وإن أمكن القول، كانت أكثر إيلامًا. سارت الحرب في تقدُّمٍ مريبٍ، من دون فائز أو خاسر، ونظرًا إلى الخسارة المروعة في العنصر البشري الذين لقوا مصرعهم أسفل بوابات

المدينة السبعة، قرر الشقيقان إتوكلس وبولينيسيس أن يتحدى أحدهما الآخر في مبارزة منفردة، لتحديد من له الحق النهائي في تولي حكم ثيفا.

دارت المبارزة حتى النفس الأخير، بغضبٍ وكراهية ضاعفت من شدة الجراح الأولية، ومن ثم أُريقت الدماء بغزارةٍ. في نهاية المشهد، وبتعادلٍ تقشعر له الأبدان، أصاب إتوكلس بولينيسيس بضربة مميتة الذي أصابه بدوره، بقوةٍ مفعمة باليأس، بضربة مماثلة وأرداه قتيلًا.

في تلك اللحظة، تمدَّد جثمان الشقيقين الملقيين على ظهرهما، غارقين بالدماء والطين، على السهل المنبسط أمام المدينة. حينها أمر كريون الذي تحيَّن دوره في الحكم لكونه شقيق الملكة جوكاستا وعم الشقيقين المتقاتلين، بدفن جثة أتوكلس بصورة لائقة كريمة لدفاعه بشرفٍ عن وطنه. أما الخائن بولينيسيس، الذي باع وطنه وجلب الموت أسفل أسواره، فأمر أن يُترك في موضعه بلا حراكٍ ليصبح وليمة للطيور والكلاب.

عادت أنتيجون إلى ثيفا في الوقت المناسب لتشهد الفساد الذي يعيث بجسد أخيها بولينيسيس، وتبدأ رحلتها الثورية.

ترى أنتيجون أن المشكلة تفوق أمر اقتتال أحد أشقائها بجانب الحق وآخر بجانب الباطل، كان ما يهمها هو الرحمة الروحية التي تُلزِم بدفن جثة الميت، خاصة وأن ذلك الجثمان المُحاط بأسراب الذباب والنسور التي تحوم من فوقه، كان لأخيها الذي يجمعه بها رباط دم لا ينفصم إلى الأبد.

هكذا، تشجعت الفتاة تعيسة القدر التي أمضت شبابها في دعم أبيها الضرير المنفي، ولم تجد أمامها سوى عصيان مرسوم كريون الملك.

ذكَّرتها شقيقتها إسميني أنها امرأة، وأنه ليس بمقدورها تحمُّل مواجهة الرجال، كانت تسعى إلى إعادتها إلى المنطق الواقعي السطحي المُساوم: «لا يجب على المرء البحث عن المستحيل»، لكن أنتيجون كانت عازمة على مناهضة هذه المبادئ بعينها.

أجابت إسميني المسكينة قائلة: «لن تنالي سوى كراهيتي إن تحدثتي هكذا، سأكرهكِ بحق إن سعيتي إلى إبعادي عن الخطر ولو بغرضٍ نبيلٍ، إذ إنه بلا شكٍّ أن قوة قراراتي، وقوة أحلامي، لغرضٍ نبيل أيضًا».

رأت أنتيجون أن المرأة في إمكانها الصمود أمام الذكور، أليس هذا بعينه ما تفعله الآن بمواجهتها العم كريون الأعظم والأشد بأسًا بين الرجال؟ بالنسبة إليها أن المستحيل دائمًا على صواب، بل ومن الخير أن نسعى نحوه بلا توقفٍ.

لذلك، يبدو أن أنفسنا عليها استعارة عبارة أنتيجون ذاتها أمام كل مَن يعزم على قصِّ أجنحتها وتقول: «ستنال كراهيتي إن تحدثت هكذا». ولكن، كما تقول أنتيجون عن نفسها، لم تولد أنفسنا لنشر الكراهية وإنما لحب من يحبها.

دفنت أنتيجون شقيقها خفية من دون أن تعطي لمرسوم كيرون أدنى أهمية تُذكر.

لا يقبل كريون أي حديث يحمل الحب في ثناياه، لم يرَ في بولينيسيس سوى جاسوس خائن، حتى إن الآلهة لا يتعين عليها الاهتمام لأمره. لم تكن الروابط الأسرية ذات قيمة بالنسبة إليه، إذ كان بولينيسيس ابن أخيه، بل وربما كان يتساءل ما شأن ذلك بقوانين الدولة!

يجسد كريون السلطة بمنطقها الصارم وأنماطها العقلية وجنون عظمتها، ربما زعم كريون أن أعداءه هم من أرادوا دفن بولينيسيس، أو أن علامات العصيان تلك تحوي داخلها هجومًا خفيًّا على سلطته، وربما يقف وراء تلك العملة أناس جبناء من عوام الشعب المأجورين بعد أن أغواهم المال؛ ذلك الذي في إمكانه تسخير النفوس ودفعها إلى أعمال مشينة، حيث الجريمة وتدنيس المقدسات. سواء كانت امرأة شابة تمكنت من قلب نظام حكمه، أو أنها كانت مدفوعة فقط بذلك الحب والقصاص لشقيقها، فلم يستطع كريون التحقق من ذلك.

لم تحاول أنتيجون مجرد إخفاء فعلتها؛ انتابها فخرٌ مؤلمٌ لِمَا فعلت، متيقنة من كونها في صفوف الحق. كان كريون هو مَن أقرَّ قوانينه بنفسه، فلم تصدر من قِبل زيوس أو من قِبل دايس ربة العدالة. لم تتمكن أنتيجون من التأكد أن الجميع يقفون إلى جانبها، رغم مزاعمها بوجود كثيرين من سكان ثيفا يتضامنون معها ولكن من دون أن يجرؤوا على إعلان ذلك خوفًا من بطش الحكم الذي يتمتع بامتيازاتٍ لقول وفعل ما يشاء، وبإلزام الجميع بالصمت.

تُعَد معارضة أنتيجون لحكم كريون معارضة راديكالية رغم عدم وجود أي أسسٍ سياسية، لم يكن هناك أي جانب أخلاقي بالمعنى السليم، بل جوانب فطرية، تهدف إلى قلب قوانين الدولة تحت شعار عدالة أسمى طبيعية وغير إلهية، غامضة، أساسها الدم، ليس هناك أي قانون أو دولة تعادل قيمة الأخ، تساوي هدفها ورحمتها التي قدمتها له.

لم يكن كريون شرًّا في حد ذاته، بل أعمته قوانينه وفكرته عن السلطة، أعمته إلى حد نسيان كل شيء آخر، فلم يرَ رحمة أنتيجون في بُعدها الصحيح، ولم يرَ الحب الذي يكنُّه ابنه إيمون نحوها، أو الحب الذي تكنُّه يوريدس الأم نحو ولدها إيمون. انغمس بجملته في مفهوم الصالح العام للدولة، وكل ما يتعلق بدائرة المشاعر الحميمة، كان غريبًا تمامًا عنه.

سيدفع ثمن تلك الغُربة باهظًا؛ حيث يفوت الأوان ليمنع أنتيجون من شنق نفسها، مثلها مثل أمها جوكاستا المحتجزة في سجنها الصخري، وسيدفع ابنه إيمون بالسيف في حلقه إثر رؤية جثمان حبيبته، لتلحق زوجته يوريديس بالميتة نفسها.

تبقى السلطة منفردة، غارقة في الدماء، ميتة، عازمة على التعاظم بشكلٍ مخيفٍ على حساب الحب والعاطفة.

يرى هيجل الفيلسوف الألماني العظيم في أنتيجون للمسرحي اليوناني سوفوكليس «واحدة من أرقى الأعمال الفنية وأكثرها اكتمالًا على مرِّ العصور»، ويشير إلى أنه في مقابل عدالة البشر، تستدعي أنتيجون عدالة الآلهة، ذلك رغم أنها تكرم آلهة العالم السفلي، آلهة الهاوية. لم تكن آلهة النور هي مَن تزود عن المجتمع، أو عن الحياة الحرة الواعية للدولة والشعب. تُعظِّم أنتيجون الآلهة الباطنية للمشاعر والحب والدم.

بالنسبة إلى هيجل، يجسِّد كريون فكر الدولة، وبالنسبة إلى جوته فهو جريمتها، أما أميرة ثيفا، بطلة الحرية والشجاعة والحب، الفرد الأخير في سلالة اللابداكوسيون اللعينة، فلقد وقفت أمام كريون لتجسِّد العدالة كحركةٍ بشرية، ونزعة أولية، شيء لم يستطع العقل الهيمنة عليه بل ولم يكن ليفعل ذلك. جسَّدت الرحمة غير المحدودة المتجذرة في الأوردة، رحمة نافعة وباذلة حتى الموت، وعكس ما قالته الحكيمة المسكينة إسميني، فإن نسمة النفس لا يسعها إلا البحث عن اللا محدود.

21

السفر نحو الهدف

تصوِّر الأسطورة اليونانية الرحلة، قبل كل شيء، كمهمة أو تحدٍّ بطولي بغرض الحصول على غنائم هائلة أو لاستعادة وطن إلى حدودهم، في حين أن الشعوب نفسها لم تسع إلى تحدي البحر اللا محدود، بل وكانوا يبحثون دائمًا عن توازن منشود في أمورهم ويبقون سفنهم قريبة من البر قدر الإمكان.

قبل رحيل أتباع أخيل إلى طروادة تحت قيادة أجاممنون بهدف استعادة هيلين، وقبل عودة أوديسيوس المضطربة إلى عرشه في جزيرة إيثاكا، احتلت رحلات بحَّاري الأرجو مقدمة الأسطورة اليونانية بامتيازٍ، الخمسون بطلًا، زهرة زهرات اليونان، يقودهم جاسون ابن أيسون ملك لولكوس المخلوع، للإتيان بالصوف الذهبي.

تميل النفس إلى السفر؛ فهي في حركة دائمة حسب طبيعتها، إنها نفخة، وتحمل في ذاتها شيئًا من طاقة الرياح، تسافر النفس بغرض السفر. إنها تتحرك وتنتقل وتتبع إيقاعها العشوائي. يقول الشاعر بودلير في أكثر من موضع إن المسافر الحقيقي يسافر من أجل السفر، يجوب الشوارع والميادين بسرعة تفوق التحولات التي تطرأ على مدينته باريس؛ إذ تتغير بصورة أسرع، للأسف، من وجدان البشر.

أي رحلة في إمكانها خلق خبرات وذكريات، حتى تلك التي تنطلق بدافع الإلزام أو العقاب؛ كرحلة الشاب بودلير إلى موريشيوس حيث عاش بضعة أشهر في منزلٍ صغيرٍ أبيض أنيق في عاصمتها بورت لويس، (أزعم أنه من بين العديد من صيادي مارلين وبين أنواع شواطئها الغريبة فإنني الوحيد، إيطالي الجنسية على الأرجح، الذي تمكنتُ من رصدها) ستبقى في مخيلته ذكرى النخيل والسماء وبشرة نساء المدن الاستوائية ذات اللون العنبري، بل وستغذيها من آنٍ إلى آخر.

إلا أن النفس، في أزمنة البطولات، تسافر أيضًا لتحقق قدرها وتنجز هدفًا يعطي المعنى لوجودها، يجعلها ذلك الدافع تنطلق بحثًا عن كنزٍ أو شيء مفقود ذات قيمة يسعى أولئك المسافرون إلى استعادته مرة أخرى إلى وطنهم. هناك أيضًا ذلك السفر نحو المجهول، كما فعل

كريستوفر كولومبوس بارتحاله إلى جزر الهند، والسفر بغرض الوصول إلى وجهة محددة وغامضة في الوقت نفسه، أو للحصول على الضوء والشهرة، أو للبحث عن الصوف الذهبي، هناك شيء سحري، مدهش، غامض، يدفعنا إلى احتمال آلاف الصعوبات والمحِن حتى ندركه.

في العصور المسيحية نجد أن الكأس المقدسة، السر المقدس، يمثِّل دافعًا يُحرك النفوس والفرسان، في سلسلة متوالية من المغامرات ذُكرت في تلك الأعمال المسماة «دورة بريتون»، أساس الخيال الغربي.

وفي عصور اليونان نجد أن المسافر البطل هو جاسون، قبطان سفينة أرجو، لم يذع صيته كسائر الأبطال رغم أن قصته تضج بالمغامرات. لا أعرف السبب حقًّا، ولكن يبدو أن شهرته ظلَّت مرتبطة بالترحال، وكيفية تنظيم رحلاته وحياته على متن سفينة أرجو برفقة زملائه من بحَّاري الأرجو. خلاف ذلك، لم تكن حياته نفسها مثيرة للاهتمام حتى إن نهايته أعادت فكرة البطولة ذاتها.

أما بالنسبة إلى النفس، فإن ما يهمها هو القيام بالمهمة بغض النظر عن منفِّذها، ثم تأتي الخطط والشجاعة في مقدمة المهمة ذاتها. إنها نزعة نحو مستقبل يدعونا من بعيدٍ، بعيد المنال: ذلك الصوف الذهبي، وتلك الكأس، وتلك الجزر الهندية، ذلك المستقبل الذي ربما يغدو حلمًا لكل واحدٍ منا، وعكس جاسون، ربما لن نكون قادرين على إدراكه، ونظل في رحلة سعي دائمة، لا تنتهي.

جاسون

في لولكوس، يخلع بيلياس الشيخ المتغطرس ابن بوسيدون أخاه أيسون عن العرش ويبقيه على قيد الحياة، وإن جعله سجينًا. تنبَّأ أحد الأوراكل بأن أحد أبناء أيسون سيمثِّل خطرًا على مُلكه، وأبدى بيلياس رغبته في قتله. أتقن أيسون التظاهر بأن ابنه من ألسيميدي وافته المنية، بل وعقد جنازة صغيرة مذرفًا أنهارًا من الدموع. في تلك الأثناء، تمكَّنت ألسيميدي من التسلل إلى خارج القصر وحمل ولدها بعيدًا، إلى جبل بيليو، حيث عهدت به إلى القنطور شيرون، معلم الكثير من الأبطال.

سُمِّي الصغير باسمٍ جديدٍ من قِبل شيرون، فدُعي دايوميدس، بالنسبة إلى شيرون وإلى كثيرين من بعده، سيصبح جاسون «الشافي الذي يجلب العافية».

في العشرين من عمره، كان جاسون أكمل تعليمه، ومن ثَمَّ علِم بحقيقة نسبه، فانطلق في رحلة نحو لولكوس. وبينما كان يخوض أحد الأنهار، قَبِل مساعدة امرأة عجوز ترتسم التجاعيد على وجهها، وتتشح برداءٍ أسود، فحملها على كتفيه، وأحسَّ بثقلٍ لا يتناسب مع بنيتها؛ ففي الحقيقة كان يساعد آنذاك الإلهة القادرة هيرا في عبور النهر، والتي ستكنز له هذا المعروف إلى الأبد، في أثناء عبوره، انزلق أحد زوجي صندله وحمله التيار بعيدًا.

ذهب إلى لولكوس في عنفوان شبابه، طويل القامة، وصاحب الشعر المنسدل على كتفيه، يرتدي سترة جلدية ويتدلى جلد فهد على كتفيه، وينتعل فردة صندل واحدة بإحدى قدميه. أثار هذا قلق بيلياس بعد أن أخبره الأوراكل بقدوم رجل ينتعل فردة صندل واحدة، فدبَّ الخوف في قلبه ووضعه تحت الحراسة.

لم يرفض بيلياس طلب جاسون بعودة حقوقه واسترداد عرش أبيه أيسون المغتصب، بل فرض شرطًا واحدًا: يذهب الشاب لاستعادة الصوف الذهبي؛ الأمر الذي سيكون أشبه اليوم بالذهاب إلى القمر لاستعادة ما تركه نيل آرمسترونج على سطحه.

كان الأمير فرسكوس، ابن أثاماس، قد هرب منذ زمن بعيدٍ حتى لا يتم تقديمه كتقدمةٍ للآلهة، وقد طار شرقًا يمتطي كبشًا ذا صوفًا ذهبيًّا. لم يكن لأحدٍ أن يعرف أين موضعه، لكن المؤكد أنه ذهب إلى كولخيس، إلى موضعٍ ناءٍ مظلمٍ من العالم، لا يبتعد كثيرًا عن المكان الذي يقضي به بروميثيوس عقوبته.

لم تذق لولكوس طعم السلام أو الرخاء حتى عودة الصوف الذهبي إلى أحد معابدها، ومن ثم لن يهدأ ظل فرسكوس إلى الأبد.

قبل جاسون الشرط؛ فالجدال والمراوغة ليس من شيم الأبطال، قبل لأنه بعد عشرين عامًا قضاها على جبل بيليو بين القناطير، أدرك أن لحظة السفر قد حانت، قد أتت ساعة اكتشاف العالم.

في البدء، عزم جاسون على بناء سفينة، كانت أثينا إلى جانبه، تعلمه، وتعطيه كل المؤشرات المهمة. قام أرجو دي تيسبي بدور البنَّاء؛ إذ كان ضليعًا بالأخشاب والحبال والأقمشة، وسوف تُسمى السفينة على اسمه، أرجو، وستكون سريعة رشيقة بفضل الخمسين مجدافًا، وقادرة

بمفردها على الإمساك بزمام الأمور عند اللزوم، الأمر الذي لم يحدث حتى في عصرنا هذا، قال البعض إنها كانت السفينة الأولى من صُنع البشر ولخدمة البشر.

رغم ذلك، لم يرحل جاسون بمفرده؛ فهو يختلف عن بيرسيوس وثيسيوس وهرقل الذين يتمِّمون مهامهم في فردية مجيدة. كان يفضِّل أن يحظى بكليهما؛ المهمة والمجد. لم يكن صيادًا للوحوش وإن باغتوه في أثناء مسيرته، كان قبطانًا وملَّاحًا؛ فهو الذي ينقذ ويشفي عبر ترحاله. أنا الذي كثيرًا ما شُفيت جروحي في أثناء السفر، رأيته بالفعل يقف في مؤخرة سفينة الأرجو، ويصرخ بنبراتٍ تفوق قوتها الرياح والأمواج مصدرًا أوامره ناحية الملاحين.

في الحقيقة لم يتألف طاقم سفينة أرجو من بحَّارة حقيقيين، استدعى جاسون جميع أبطال اليونان ليأتي إليه اثنان وخمسون بطلًا، لا علاقة لهم بمشاكل لولكوس المتعلقة بالأنساب، يطاردون شبح فرسكوس ابن أثاماس، وربما لا يدرون شيئًا عن الصوف الذهبي حتى ذلك الوقت. كانوا أبطالًا تجذبهم فكرة الترحال، واجتياز الطرق المجهولة، والتعرف إلى بلاد غامضة مثل كولخيس، واختبار قوتهم في مواجهة العواقب والخصوم الجديدة غير المتوقعة.

على عكس ما يُفكر به الحداثي، في أفقهم شديد الضحالة، فإن البطل ليس ملزمًا بالقيام ببطولات مؤثرة ذات جدوى، تحمل الخير للبشرية. يسعى البطل أن ينثر نوره من داخله، ومثل تشارلز الثاني عشر ملك السويد في قصيدة بورخيس:

من يفوز أو يصبح فائزًا

يكون وجهًا لحالةٍ لا تُبالي

بأنه لا توجد فضيلة للمرء سوى أن يكون شجاعًا.

لهذا السبب سافر ملَّاحو الأرجو، أبحرت سفينة الأرجو وعلى متنها تنطلق الأناشيد ونذور الآلهة؛ إلى الإلهة أفردويت حامية الملاحين، والإلهة أثينا التي سمحت ببناء السفينة نفسها.

من بين الاثنين وخمسين نفسًا على متنها، كان هناك أكاستوس ابن بيلياس، وأمفياروس الرائي، وكاستور وبولوكس الملقبان بالديوسكوري ابني ليدا، وإيخيون ابن هرمس المرسال، وهرقل التيرنيزي، وهيلاس ابن دريوبى مساعد هرقل الشاب وعشيقه، وميلياجروس ابن كاليدون، وموبسوس العرَّاف، وناوبليوس البحَّار، وأورفيوس المغني، وبيليوس الميريدون، وتيفيس الربَّان، وفي النهاية، المرأة المدعوة آتالانتا، العذراء المحاربة الصيادة.

إن كان سجل السفينة حفظه أحدهم إلى الآن لكنا عرفنا جميع مَن على متنها، لكن أحداث الرحلة البارزة فقط لملاحي الأرجو هي التي تم تناقلها وإن كانت بطريقة موجزة ولم تخبرنا شيئًا مفصلًا عن حياة الأبطال المسافرين على متن السفينة. تروي لنا فقط حلقة سباق التجديق أنه لم يكن هناك بحارة عاديون بين المجدفين، أو عبيد وضيعون، ولكن هم ملوك عظماء وأبطال، وقبطان السفينة نفسها.

كان التوقف على جزيرة ليمنوس بمنزلة منعطفٍ ممتعٍ للبحَّارة. كانت نساء الجزيرة قد قتلت سائر أزواجهن باتهامهم بأنهم قضوا حياتهم في الزنا، وحدها هيبسيبيل، الأميرة، أنقذت الأب ثاوس وأرسلته إلى بعيدٍ. من ثَمَّ، لم يسكن الجزيرة في ذلك الوقت سوى النساء، وتم الاحتفال بوصول ملَّاحي الأرجو كما لو كان احتفالًا بنزول المن من السماء. انتشرت المضاجعات في كل الأرجاء بحرية تامة تحت ضوء الشمس، في أجواء مفعمة بالمجون والعربدة. لم نعرف كيف تصرفت آتالانتا، المرأة الوحيدة في الطاقم، والعذراء الصديقة لأرتميس.

في الحقيقة، ما نعرفه جيدًا هو سلوك هرقل عندما ازدادت مدة التوقف بصورة كبيرة وأصبحت الأجواء العربيدية أكثر بهجةً. دعا هرقل رفاقه لتنظيم صفوفهم ونجح في ذلك بصورة جليَّة ملوحًا بهراوته، يقال إن هرقل أبحر برفقة حبيبه هيلاس ولم يشارك رفاقه في الاهتمام الملحوظ الذي أبدوه لنساء جزيرة ليمنوس.

انطلقوا عبر البحر من جديد، وترك جاسون هيبسيبيل خائبة الأمل من خلفه، بعد أن وقعت في حبه.

اقتربوا من بلدة دوليوني، ووطأت أقدام ملَّاحي الأرجو اليابسة في شبه جزيرة أرتو حيث استقبلهم الملك كيزيكوس ابن أونيوس وصديق هرقل بحفاوةٍ شديدة وأعدَّ لهم مأدبة كبيرة. في المساء تعرَّض ملَّاحو الأرجو لهجوم بالحجارة والهراوات من قِبل الجبابرة ذوي الأذرع الستة، وفي النهاية تمكنوا من صدِّ عدوانهم من دون أي خسارة في صفوفهم.

بعد رحيلهم بفترة وجيزة هبَّت عاصفة شديدة لم يستطع الربَّان تيفيس والخمسون مجدفًا مواجهتها، فدفعت سفينة أرجو إلى الشاطئ مرة أخرى. كانت ليلة قمرية، ولم يبصر الواقفون شيئًا سوى هياج الموج الأسود. خال لكيزيكوس أن أصدقاءه البحارة هم مجموعة من القراصنة، ونشبت المعركة بينهم وبينه من دون أن يدركوا مَن يحاربون، وزاد الظلام حدة المعركة، كان صباحًا مروَّعا عندما أبصر جاسون ورفاقه جثة كيزيكوس ورجاله على شاطئ البحر.

أقاموا جنازةً لتكريم كيزيكوس، واستأنفوا إبحارهم من جديد، وسرعان ما عزموا على إطلاق مسابقة للتجديف ربما بدافع تهدئة وطأة التوتر المتراكمة، فشقَّت سفينة أرجو مسارها عبر البحر الساكن الهادئ. تُرى مَن سيمكنه التجديف فترة أطول؟ لم يتبقَّ سوى الشقيقين كاستور وبولوكس، وهرقل، وجاسون الذين قاتلوا بحيوية مخيفة بلا هوادة. استسلم كاستور واستسلم بولوكس وفقد جاسون وعيه من شدة التعب ليفوز هرقل بالسباق الذي وهو يضرب ضربته الأخيرة بالمجداف، انكسر من شدة قوتها، وكان على هرقل العودة إلى اليابسة للبحث عن جذع مناسب يصنع منه مجدافًا جديدًا.

بينما كان هرقل يبحث بين الأشجار عن ضالته، كان هيلاس الشاب عشيقه، ابن ثيودامانتى ملك دريوبي، قد تغلغل إلى أعماق الغابة، فانجذبت الحوريات إلى جماله الفتّان وأحاقت به من كل جانبٍ، وأخذنه معهن. عاد هرقل إلى السفينة ولم يجد هيلاس على متنها بعد، فانتابه كربٌ عميقٌ، ومع مرور الساعات، طفق يصرخ بأنه لن يغادر من دون هيلاس كما لو أن الجنون أفقده صوابه، فنزح عن السفينة مرة أخرى، وأخذ يجري متبعًا آثار قدميه، ويناديه بكل ما أوتي من قوة.

هكذا تخلى هرقل عن سفينة أرجو إلى الأبد، ونسي أمر الصوف الذهبي، ليعود ويستأنف مهامه الفردية الشاقة، ولم يُسمع أي شيء عن هيلاس في دريوبي إلى الأبد.

هل دفع جاسون ثمن رحيل هرقل؟ يبدو أن الإجابة ستكون بالنفي؛ فقانون السفر يُلزم بالمضي قدمًا، كما أن الانتظار ليس ضمن بنوده.

على جزيرة بيبريكو يحكم ملك يدعى أميكوس، ابن بوسيدون المتغطرس، وتحدى واحدًا من ملاحي الأرجو في مباراة ملاكمة، وكان يتباهى بكونه الأقوى في ذلك الميدان. إن فاز بطلهم، حينها سيسمح لهم فقط بالتزود بالإمدادات والرحيل من دون مهاجمتهم. كان بولوكس أقوى ملاكم بين صفوف ملاحي الأرجو، وقد فاز من قبل ببطولة الألعاب الأولمبية، حان دوره أن يقاتل ويقتل ذلك الملك.

في سالميديسوس، في تراقيا، قابلوا فينوس الملك والعرَّاف، ابن آجنور، الذي عرج عليه جاسون طلبًا في إرشاده للوصول إلى كولخيس. طلب منهم فينوس في المقابل أن يحررهم من طيور الهاربيز الذين لا ينفكون عن الطيران فوق مائدته، يعيثون بها الفساد في كل يومٍ، ويعيقونه عن تناول الطعام، ويحوِّلون ما عليها إلى جلدٍ وعظم. من بين صفوف بحاري الأرجو،

كان كالايس وزيتيس ابنا بورياس اللذان يمتازان بسرعتهما الفائقة، هما من تولَّيا مسؤولية مطاردة تلك المخلوقات المروِّعة ومواجهتها حتى الهرب، مرة أخرى يتوارى جاسون عن الأنظار منهمكًا في مهمته فقط.

من خلال نصائح فينوس الثمينة استطاع الملَّاحون عبور السمبليجاديس التي كانت عبارة عن مجموعة من الجزر الصخرية التي تستطيع الحركة وقادرة على خنق أي سفينة كما لو كانت كماشة تضيق عليها في أثناء عبورها. أُرسِل طائر مالك الحزين لاستطلاع الموقع، فانغلقت الصخور شيئًا فشيئًا وكشطت ذيله. بينما كانت تعاود الفتح مجددًا اندفعت سفينة أرجو مسرعة نحو ذلك الممر بحماسة غير بشرية، وطفق مجدِّفوها يتغنون في حيوية بأناشيد أورفيوس.

عند دخولهم البحر الأسود، تكبَّد ملَّاحو الأرجو خسارة فقدان الربَّان تيفيس بعد أن أخذته الرياح في طريقها بعيدًا عن السفينة، وعيَّنوا بدلًا منه أنكايوس، وساروا بمحازاة بلدة الأمازونيات وعانوا من وابل الريش البرونزي المتساقط من أسراب الطيور، حتى تعيَّن عليهم تفادي الأمر بالدروع التي أصبحت بمنزلة مظلة، وهكذا بلغوا جزيرة فيليرا، ابنة أوقيانوس محبوبة كرونوس وأم شيرون.

لم يمر الكثير حتى ظهرت قمم القوقاز العجيبة القاتمة على مقربة، وعبرت سفينة أرجو مصب نهر فاسيس الذي يتدفق عبر كولخيس.

وصلوا إلى إيا؛ المدينة المتلألئة تحت انعكاسات أشعة الشمس كما لو كانت قد نُحتت من العنبر والألماس، وكان يحكمها ملكٌ شريرٌ عابسٌ يدعى آيتيس، ابن إله الشمس وبيرسي، وشقيق باسيفاي. بعد موت زوجته الأولى تزوج من إيديا وأنجب منها ابنًا؛ الصغير أبسيرتوس.

أنجب ميديا من زوجته الأولى، إذ تتشابك قصتها برواية جاسون، تلك الساحرة المقتدرة البارعة الماكرة الشريرة، لقد أحبَّته وشجعته وعضدته ثم أنزلت به عقابها في النهاية وانتقمت منه بأبشع طريقة ممكنة.

طالب جاسون بالصوف الذهبي فارتسمت على وجه الملك آيتيس ابتسامة ساخرة وأجابه بأن في مقدوره نيْل مبتغاه شريطة أن يجتاز اختبارين أولًا؛ هذه شريعة الأبطال ولن يستطيع أي امرئ الإفلات منها أبدًا.

الاختبار الأول هو ربط ثورين بواسطة نير في محراثٍ، ثورين بأنف ملتهبة، وحوافر وخطم من البرونز، وأن يحرث بهما الحقل. لم ينجح إنسان قطُّ في الهرب من أمام ألسنة اللهب التي يطلقها الثوران إذ ينتهي به الأمر إلى الحرق والموت في الحال. ينجح جاسون باقتدارٍ في الحال بفضل المرهم السحري الذي وضعته ميديا في كل جسده، إذ كان به مادة مضادة للَّهب.

أما لاجتياز الاختبار الثاني، فلم يحتج جاسون إلا إلى ضربة واحدة ماكرة. كان عليه زراعة أسنان تنين بالحقل المحروث للتوِّ، وسوف ينبت عمالقة جبارة من تلك الأسنان، وسيتعيَّن على جاسون محاربتها وهزيمتها. كان اختبارًا تفوق قدرته قدراته كمحاربٍ بل وقدرة أي فرد آخر. يعرف آيتيس ذلك جيدًا، وعادت الابتسامة الماكرة ترتسم على وجهه. أيضًا جاسون كان على دراية بالأمر، وبالفعل بعد رمي البذار، رأى أشكالًا لعمالقة فظَّة قاتمة تنبت من باطن التربة، وبدت أعينهم كما لو كانت لا تزال معجونة بطين الأرض، وأخذوا يتحركون بصورة مرتابة متأرجحة. حينها، أمسك جاسون بصخرة جلمود وألقى بها لتتدحرج نحوهم. سرعان ما أُصيبوا جميعهم وانبطحوا أرضًا، لينهضوا مرة أخرى ويكيلون الضربات بعضهم في وجوه بعض؛ وفي لحظة واحدة أصبحوا أعداءً، فشرعوا يتقاتلون ويخنقون بعضهم، وأفنى بعضهم بعضًا في لحظات معدودة من دون حاجة من جانب جاسون إلى وضع يده على سيفه أو يطلق سهمًا من سهامه.

حان وقت المطالبة بالصوف الذهبي، لكن يبدو أن الملك آيتيس يريد أن يتراجع عن كلمته، لم يتبقَّ أمام جاسون سوى سرقته من أسفل الصخرة الموضوع أسفلها، لامعًا مثل شمس الظهيرة، لكن عليه أولًا هزيمة التنين الذي يحرسه. لم يكن الأمر هينًا، وربما ليس ممكنًا من الأساس، إلا في حالة لجوئه إلى طلب المساعدة من ميديا مرة أخرى. إلى جانب إتقان إعداد المراهم، كانت الساحرة بمقدورها الهيمنة على المواد والخامات الجوهرية السحرية، ونثرت إحداها على خطم التنين حتى أسقطته في سباتٍ عميقٍ.

هكذا لم يتعيَّن على جاسون سوى نزع الصوف الذهبي من أسفل الصخرة، وثنيه، وحمله مسرعًا إلى سفينة أرجو المنتظرة في الميناء. لم تُنفَّذ أي مهمة من دون إراقة الدماء هكذا حتى بدت كعملية سرقة ماكرة فحسب. لم يسع جاسون سوى الانطلاق مرة أخرى، واستئناف رحلة العودة.

لم يكن جاسون مثل أوديسيوس، لم يكن بمنزلة بطل العودة، لولا وجود ميديا التي ارتحلت معه بعد أن أصبحت زوجته، وقضت ليلتها الأولى برفقته مفترشة الصوف الذهبي الذي أصبح بمنزلة فراش زفافها، فإن رحلته في الذهاب والعودة إلى لولكوس لن يكون بها الكثير لحكيه. في الحقيقة أصبحت ميديا بطلة الرواية آنذاك، تلك المرأة الوحشية الماكرة المنتقمة المخيفة، التي لا تلائم طبيعتها على الإطلاق طبيعة جاسون الكريم المسالم.

من بين العديد من المهام الأخرى نجد لقاءه مع حوريات البحر اللواتي تمكَّن أورفيوس من إبطال مفعولهن بأغانيه المضادة العذبة، ولم يستسلم سوى واحد من بحاري الأرجو إذ سقط في إغوائهن يدعى بوتيس من أثينا، ويعمل نحالًا. كان هناك المتاهة الضالة التي تجول عبر الأنهار، بدءًا من إريدانوس وحتى نهر الرون، إلى جانب عاصفة بطول الساحل الليبي ألقت بالسفينة في أعماق الصحراء حيث سيتعيَّن عليهم حملها على الأكتاف إلى أن يجدوا مجرى مائيًّا. في جزيرة كريت، لاقوا هناك تهديدًا من طالوس، العملاق البرونزي الذي كان يطوف حول الجزيرة بخطى واسعة ويحرسها ويمنع الغرباء من النزول إليها، والذي ستحجمه ميديا وألاعيبها السحرية.

ماذا كان يفعل جاسون؟ يبدو بالفعل أنه يعيش على الذكريات. عندما بلغ لولكوس اكتشف أن بيلياس لا يزال يحكم، بعد أن قتل أيسون وألسيميدي. لم يستطع بحارو الأرجو مقاتلة بيلياس، وكان من بينهم أكاستوس، ابن بيلياس ووريثه الشرعي، مرة أخرى فكَّر في ميديا لتزيح بيلياس عن الحكم.

لم يصادف جاسون أي نصر. كان يحمل معه الصوف الذهبي الذي ربما لم يعرف أحدٌ شيئًا عنه من الأساس. انتقل إلى كورنث، وهناك، ما إن شعرت ميديا بخيانته حتى صبَّت عليه غضبها وانتقامها بأبشع الطرق. احتجب عن الأنظار، وعاش منفردًا يعاني الكرب؛ فاتسعت السترة الجلدية على خصره بعد أن زاد وزنه، وقَصِر شعره بعد أن صار رماديًّا أشعث، قضى أيامه أسفل سفينة أرجو التي حُملت إلى الجفاف على الشاطئ، منطوية على نفسها، بلا أسلحة، محطمة، وقد صارت شبحًا من الخشب والأعشاب البحرية، حتى بَلت وتآكلت، ولم يكترث أحدٌ حتى بالنظر إليها، وحده لم يكف عن النظر إليها بل لم يكن بمقدوره سوى القيام بذلك.

كانت السفينة بمنزلة حلمه، وآنذاك لم يكن لديه أي أحلام، أجل، إنها الذكريات، لكنها مشوَّشة. أصبح عقله مثل هيكل السفينة العظمي؛ يمكث هناك، يحمل معه زجاجة نبيذ، وأحيانًا لا يعود حتى إلى البيت، وينام في حماية تلك العارضة الخشبية المقلوبة.

عُثر عليه ميتًا هناك صباح أحد الأيام؛ فإبَّان الليل تزعزعت الألواح الخشبية، وأصابت عارضة رأسه لتصرعه في الحال.

22

السحر والثأر

تتشابك قصة جاسون والصوف الأبيض بقصة ميديا؛ البطلة التي غزت الشعراء بدءًا من يوربيديس وحتى بازوليني. تجسِّد ميديا نزعة النفس البشرية نحو السحر والكراهية والانتقام. تتميز الأسطورة بوجود العديد من الساحرات الأخريات، ولا سيما الساحرة سيرس التي في إمكانها تحويل البشر إلى ذئابٍ وأسودٍ وخنازير، وقد تمكَّن أوديسيوس من التغلب على سحرها بمعاونة هرمس، وأعاد رجاله إلى صورتهم الطبيعية بعد أن تحوَّلوا إلى خنازير برية. رغم ذلك، لن نجد أحدًا يضاهي ميديا في فنونها القوية وغرائزها البرية.

إن الثأر والكراهية يعدان ضمن النزعات الإنسانية الأولية في النفس؛ دوافع غير معلنة تبقى في الخفاء دائمًا لكنها تنبض بالحياة منذ العصور السحيقة وتتجلَّى في صورٍ عديدة من القتل والإبادة التي تذيعها الأخبار المحلية وتثير الذعر في وجدان القراء. ليست بالحوادث النادرة، التي تتبع في طريقها بالضبط ما يمكن تسميته بـ «طريقة ميديا» المشوؤمة.

مدفوعةً بالكراهية من جراء زوجها جاسون الذي تخلى عنها، قتلت ميديا أبناءهما، وفي رواية أخرى يقال إنها قتلت زوجة جاسون الجديدة المدعوة كريوسا، من ثَمَّ، نرى أن ميديا تصبُّ غضبها على كارهيها بمعاقبة ذويهم من منطلق أن الشخص المكروه يعاني بصورة أشد قسوة. إنها تُخرِّب موضوع الحب بطرقٍ ملتوية؛ فتصيبه إلى درجة الموت من دون الحاجة إلى سفك قطرة واحدة من دمائه، بل تسفك دماء الكائنات المقربة إلى قلبه، كيف للنفس أن تصمد أمام ذلك الشيء الشديد الفظاعة؟ لكن الرعب يسكن جوانبها بالفعل، يكمن في تحريفها للحب أي الكراهية وانتصار الوحش.

كانت ميديا على أتم استعداد للتضحية، بأبشع الصور، بالصغير المسكين أبسيرتوس، الأخ غير الشقيق الذي لاحقها إلى سفينة الإغريق بعد أن آثرت الهرب بصحبة حبيبها جاسون، كما حثَّت فتيات الملك الهَرِم بيلياس على قتله وتقطيع أشلائه بعد أن تعده كذبًا بعملية تحويل تجعل منه شابًّا يافعًا.نصبت ميديا فخًّا مسمومًا لثيسيوس عندما تدخَّل بينها وبين أيجيوس. يتحدث جنونها الجامح إلى الآن في نفوس أولئك المستعدين لفعل أي أمرٍ مشين بدافع الحب، أولئك

الذين يلجؤون إلى الخداع والمكر الشرير لتحقيق أهدافهم، الذين لا يخشون أن تُلطّخ أيديهم بالدماء في جرائم وحشية، الذين يجعلون انتقامهم هدفًا لوجودهم.

من هنا، وأمام تلك النزعة الجامحة العمياء التي لا تُقهر، نحتاج إلى نزعة أخرى مضادة تستطيع مواجهتها ومحاربتها ببطولية. لكن احترس؛ فإن كان سحر ميديا لا يزال يفوق سحر جاسون المسالم رغم مرور آلاف السنين، فهناك شيء يعنيه الأمر: تعشق النفس السحر والجنون في الحب؛ إذ يمكنها قبول الوحشية والعار والرعب والظلمة تحت مسمى العاطفة.

وحدها حكمة أثينا المؤثرة المنيرة يمكنها تحذيرها، ولكن ربما ينجح حب أفرودويت أيضًا في حملها نحو النور، نحو حب الشمس والبحر والشجر والأزهار والربيع والكون.

ميديا

كانت ميديا ابنة آيتيس ملك كولخيس، وأستيروديا. بالنظر إلى مسقط رأس آيتيس، نرى أن ميديا التي تعيش في إيا؛ المدينة المنحوتة في العنبر والألماس، كانت سليلة هيليوس إله الشمس مباشرة. إلا أن شخصيتها وقصتها كانت مليئة بالظلمات والسحر الأسود والجرائم ولا سيما الشنيع منها مثل وأد الأطفال.

لا نعرف كيف كانت حياتها قبل أن يطأ جاسون بأقدامه أرض إيا. كان قبطان سفينة أرجو يتألق في عنفوان شبابه، وينسدل الشعر الطويل على كتفيه ويرتدي جلد الفهد. رأته الأميرة ميديا المختبئة خلف حجاب فضي وهو يضع طلباته أمام الملك آيتيس لتُغرم به من دون سابق إنذار.

لا يمكن أن نتخيل طريقة مغايرة يمكن لميديا أن تُغرم بها: بشراسةٍ. حاولت المقاومة بلا جدوى إذ كانت تعرف أن ذلك الحب سيدفعها إلى خيانة أبيها ووطنها. حقًّا، جعلها الحب تنجرف إلى مساعدة الغريب بشتى الطرق ومهما بلغت التكلفة. نحن بذلك لا نقلل من شأن الشابة الفاتنة ميديا، بل إن جمالها كان جليًّا، لكن قوتها كانت أعظم: الدراية بشتى فنون السحر التي تجعلها تؤثر في الواقع وتغيره حسب رغبتها.

صارعت ميديا نفسها، بل كانت ترى وتقرُّ بعقلها بالسير نحو الأفضل، وفي الوقت نفسه تمضي وراء غريزتها نحو الأسوأ: «Video meliora proboque, deteriora sequor»، أي (أرى الحق وأصدِّق به ولكني أفعل الشر)، حسب صيغة أوفيد المأثورة، في الجزء الخاص بميديا في رائعته

التحولات. لاقت تلك العبارة حفاوة بالغة لِمَا تبرزه من حدَّة الصراعات الكارثية الداخلية في نفوسنا. لا يكفي معرفة مكان الخير، ولا يكفي الإيمان به؛ فالشر سحر يُفسِد معرفة الإنسان وإرادته، وهذا غالبًا ما يفعله الحب.

لا مجال للشك أن حب الغريب الآتي للمطالبة بالصوف الذهبي كان بمنزلة خيانة، لكن بالنسبة إليها، في العمق الحقيقي لوجدانها، لم تكن تبالي بشيء نحو الملك أو أسرتها أو كولخيس.

ذات صباح، أبصرت جاسون يقف مشرقًا بالجمال في إحدى الغابات، لم يسبق لها أن رأته جميلًا هكذا كذلك الصباح، واشتهته بشدة؛ تبددت كل الشكوك في الحال، وكانت هي من اقتربت نحوه، تقدِّم له الحب والمساعدة، حتى وعدها بالزواج وبأخذها بعيدًا على سفينة أرجو برفقته، ما إن يستأنف مسيرة عودته نحو لولكوس.

رضخ جاسون أمام رغبتها، ولا نعرف إن كان أُغرم بها بحقٍّ أم سقط تحت تأثير إغوائها فحسب، وربما أجرى حساباته بواقعية دقيقة؛ فبالطبع دون مساعدة ميديا لم يكن ليحقق أي شيء، وهذا ما انكشف في الحال عندما وضعه آيتيس تحت وطأة اختباراته.

لم يتأثر جاسون بالنيران المندفعة من أنف الثورين بفضل مرهمها المضاد للنيران، ومن يدري إن كانت هي من اقترحت الحيلة الماكرة لإرباك العمالقة الذين نبتوا من أسنان التنين المزروعة في التربة حتى قتل بعضهم بعضًا.

لم يكن الصوف الذهبي ليصل إلى يدي جاسون من دون أن يستمع التنين المخيف ذو العُرف والثلاثة ألسنة إلى عبارات ميديا السحرية -كانت تستخدمها أيضًا لتهدئة البحر وإعادة الأنهار في حالة الفيضان إلى مجاريها- ويرى فرع العرعر الذي أغرقته ميديا بمواد منومة يتدلى أمام فكيه، بل ولم يكن ليغفو في الحال كما لو أنه لم ينم من قبل كأنه تحت تأثير التنويم المغناطيسي؛ لم يمر الكثير حتى يعايش جاسون جوانب سحر زوجته الأشد قسوةً.

تعقَّب أسطول الملك آيتيس سفينة أرجو، من المؤكد أن ملك كولخيس لم يحظَ بسفن رشيقة سريعة مثل أرجو، ولكن بصفته ابن إله الشمس كان لديه قوارب تتخذ شكل كأس ذهبي على غرار تلك التي يعود بها هيليوس ليلًا، من أقصى الغرب إلى الشرق، لينعم براحة قبل أن يستأنف رحلته الأبدية في السماء. استمر أسطول القوارب الشمسية يقترب ويلاحق سفينة أرجو بلا هوادة.

كانت ميديا تفكر في كيفية منع آيتيس من الوصول إليهم وسط حيرة زوجها وملَّاحي الأرجو. كانت قد أحضرت معها الصبي أبسيرتوس، ابن آيتيس من زوجته الثانية إيديا، أخاها غير الشقيق. كان لا يزال طفلًا لا يدرك حجم المغامرة التي تجري من حوله، وثق بميديا ولم يكن ليتخيل ماذا يدور في رأسها المظلم المتعرج.

هذا ما فعلته: أمسكت بأبسيرتوس ووضعته في مؤخرة السفينة، ثم قتلته بضربة واحدة لخنجر طويل حاد النصل، لم تتردد لحظةً أمام الأنين الأول البائس، أو العينين الواسعتين المرتابتين المذعورتين لذلك الطفل الصغير. لم تتراجع أيضًا أمام أنهار الدماء المنسكبة من ذبحه المروِّع بل سعت تُكمل فعلتها المتوحشة؛ إذ قطعت الصغير إلى أشلاء، فقطعت رأسه وأذنيه وشقَّت جذعه من الرقبة حتى العانة، وبترت ذراعيه وساقيه وقدميه وكسرتهم إلى جزأين أو ثلاثة أجزاء، وفي النهاية طفقت تُلقي الأشلاء الممزقة من جسده في البحر خلف السفينة.

لم يجرؤ أي من ملَّاحي الأرجو على النظر، إلا أن تلك المذبحة تمكنت في النهاية من إيقاف أسطول أولئك المطاردين. جرفت التيارات أشلاء أبسيرتوس المتناثرة هنا وهناك حتى اكتشف الملك آيتيس الحقيقة المفزعة من قاربه، كان شريرًا بحقٍّ، إلا أنه لم يكن طاغية؛ إذ أمر آيتيس باستعادة ما تبقى من ابنه المنكوب حتى يدفنه.

في هذه الأثناء، استمرت سفينة أرجو تشق طريقها، وانتصرت ميديا.

بوصولها إلى لولكوس لم تسر الأمور حسبما زعمت. لم يُستقبل جاسون، زوجها الحبيب، استقبال الظافرين، وبدا أن الصوف الذهبي الذي سُرِق للتوِّ فقد قيمته؛ لا ينوي الملك العجوز بيلياس التنازل عن عرشه إلى ابن أخيه الذي نجح -عكس توقعاته اللئيمة- في المهمة المُكلَّف بها.

مرة أخرى تساعد ميديا جاسون، وتبذل من أجله قصارى جهدها، ولكن بأسلوبها الخاص المتزايد شراسةً. نزحت إلى لولكوس بمفردها، ونجحت في إقامة صداقة مع بنات الملك الأربع؛ تملك في جعبتها الفنون السحرية التي دائمًا ما تُثير فضول الآخرين وتحرضهم أيضًا. ادَّعت ميديا أمام هؤلاء الأربع فتيات الساذجات أنها تعرف طريقة تجدد شباب أولئك الذين تملَّكت الشيخوخة على ملامحهم.

كانت تقصد بيلياس، وكانت الفتيات يشعرن بقلق من جراء تدهور حالته؛ إذ إن قدميه غير مستقرتين، وفقدت ذراعاه قوتهما، وأصابه الصمم تقريبًا في أثناء حديثهن، واكتست عيناه بضبابٍ باهتٍ، هل في إمكان صديقتهن الجديدة ميديا أن تصنع المعجزة بحقٍّ؟

وافقت على طلبهن وبرهنت لهن ذلك، أمسكت كبشًا عجوزًا على أعتاب الموت، وذبحته بقطع حلقه، ثم قطعته إلى أشلاء، بعد ذلك وضعت الأشلاء في قدرٍ يمتلئ بالماء وبدأ في الغليان. تعالت بقبقة المياه المليئة باللحم المطبوخ، وفي أثناء ذلك تناهى إلى المسامع ثغاء قادم من تحت القدر، وإذ بحمل ذي صوف مجعد ناصع البياض يخرج من داخل القدر.

اندهشت فتيات بيلياس الأربعة، ولم يتساءلن في أنفسهن إن كانت ميديا قد لجأت إلى بعض الحيل من باب الصدفة، وهو أمر مقبول في عالم السحرة الذين كثيرًا ما يلجؤون إلى مخادعٍ، ومن ثَمَّ، قررن جميعن اتِّباع إرشادات ميديا عدا واحدة فقط انسحبت، ربما لم تقتنع أو لم تكن لديها الشجاعة الكافية لاستكمال المهمة. أسقطت ميديا والدهم في سبات عميق بألاعيبها، وما إن تيقنت الفتيات من نومه حتى ذبحنه بالطريقة ذاتها التي ذبحت ميديا بها الكبش، ثم قطعوا جسده العجوز أشلاء.

تغلي المياه بالفعل في القدر في تلك الأثناء، فألقت الفتيات الملطخات بالدماء بالأشلاء في المياه، متهللات ومنتشيات بفكرة رؤية أبيهم يستعيد شبابه المبكر، ثم جلسن ينتظرن.

طال انتظارهن، بلا جدوى، فشقَقن ملابسهن، ومزَّقن شعرهن، يصرخن ويجهشن بالبكاء ويسبُبْن الساحرة التي خدعتهن.

اعترتها الثقة مجددًا من حُسن صنيعها، فأبلغت جاسون بأن الطريق إلى المدينة أصبح حرًّا، لقد مات الملك. عندما علم ملَّاحو الأرجو -كانوا يتعاملون معها كفردٍ غريب على متن السفينة- حقيقة السحر الدموي الذي استخدمته ميديا للقضاء على بيلياس، انحاز جميعهم إلى جانب أكاستوس، رفيقهم، ابن الملك وخليفته.

لم تساعد جاسون فنون زوجته السحرية آنذاك، فلم يجدا أمامهما سوى الانطلاق للبحث عن مدينة أخرى للعيش فيها، إلى الآن، لم يعرف أحدٌ أي شيء عن الصوف الذهبي الذي كان سببًا في لقائهما.

استقرت ميديا في كورنث وعاشت هناك مع جاسون عشر سنوات وأنجبت له أربعة عشر ابنًا. كان البطل لا يزال يتمتع بشهرة طيبة حتى ذلك الوقت رغم مكانته المضطربة، وكان عليه أن يعزز مكانته بالزواج من كريوسا، أميرة شابة وابنة كريون ملك كورنث، بتلك الزيجة سيحظى بمملكةٍ أخيرًا.

بدأ يرتب أموره وحساباته كرجل برجوازي لا كأحد أبطال الأسطورة: «بعد مروري بكل هذه التقلبات في حياتي، أخيرًا سأنعم بالأمان، وأستقر في منزلٍ رفيعٍ، وأحظى بهدوءٍ إلى بقية حياتي».

أما ميديا التي لم تنفك عن حب جاسون، وخسرت كل شيء لتساعده وتتبعه، فما إن أعلن عن تلك الزيجة المزعومة حتى أخذت تدبر انتقامًا يصبح عبرةً لكل الخونة، ويظل الأشد قسوةً على مرِّ العصور، لم تكن تفكر كساحرةٍ وإنما كالمرأة التي ذكرها يوربيديس قائلًا:

عندما تتعرض المرأة إلى الظلم في حياتها الزوجية

فلن يوجد عقل دموي مثل عقلها آنذاك.

اتخذ انتقام ميديا شقَّين مع اتباعها المبدأ نفسه: أن تجعل الخائن يعاني وتأخذ منه كل شيء. تظاهرت بأنها لم تشعر بأي إهانة، وبرضائها إزاء قرارات زوجها جاسون، وأرسلت ابنيها ميسميرو وفيري لتقديم الهدايا إلى العروس: عباءة أرجوانية طويلة ملكية وتاج ذهبي. حسب الموقف السابق بدت ميديا امرأة سخية للغاية، افتتنت كريوسا بتلك الهدايا البرَّاقة التي لا ترسلها إلا سليلة إله الشمس بحقٍّ.

أتى يوم الزفاف، وارتدت كريوسا العباءة والتاج، ولم تفكر بأن ميديا هي سيدة الأطياب والألاعيب الشريرة؛ إذ إن تلك العباءة كانت منقوعة بمادة تحفز على التآكل والاشتعال، ولوقتٍ عانى جسد الشابة صنوفَ الآلام المبرحة، وتحوَّل التاج إلى دائرة من اللهب الذي يتزايد بقدوم أي أحد يصيح ويركض لإسعاف كريوسا، وهكذا، هلك الملك كريون وسط النيران، واشتعل القصر برمته؛ كانت مذبحة، نجا جاسون بصورة مشينة، علينا الإقرار بذلك، بعد أن قفز من النافذة.

لم ينتهِ انتقام ميديا عند هذه النقطة، كان ثأرها الأخير كعلامة على تدنيس الحب، فأبناؤها هم أبناء جاسون أيضًا، وكانت تحبهم، ولكن لتثأر منه مرة أخرى لم تسمح ببقائهم أحياء لأنها تعلم

أن مشاعر الأبوة تفيض داخله. أحبَّت أبناءها، وأحبَّت أيضًا أولئك الذين لم يحيوا برفقتها؛ إذ إنها أرادت لبعضهم الخلود، فاحتجزتهم وهم صغار في معبد هيرا حيث عُثِر على جثثهم الضئيلة الأمر الذي أذاع صيتها الشرير في وأد الأطفال. في تلك اللحظة لم تعُد ترغب في خلود ابنيها ميسميرو وفيري أيضًا، بل كل ما أرادت تخليده كان انتقامها.

قالت لجاسون: «لقد قتلتهم لمعاناتك، حتى أبيد لك كل مَن أحببته، لكي أقضي عليك من الألم، حتى يغدو ألمك أكثر فظاعةً من آلام الذين قتلتهم».

هربت ميديا سيدة الوحشية والسحر العظيمة من كورنث على عربتها التي تجرُّها التنانين الأربعة، وانطلقت إلى ثيفا، ثم إلى أثينا حيث تزوجت من أيجيوس بعد أن مارست ألاعيبها في الإغواء التي لا تقل سحرًا عن سحرها، لكن سرعان ما دمَّرت كل شيء بمحاولتها تسميم ابنه ثيسيوس فور رؤيته.

هيمنت الهواجس الأشد سوداوية على وجدان ميديا، مرَّت بإيطاليا، ربما بصقلية حيث علَّمت بعض الوقت فنَّ سحر الأفاعي، ومرَّت بتيسّاليا أيضًا، وآسيا حيث تزوجت من رجل مجهول أنجبت منه ابنها ميدوس.

في نهاية مطافها، وبعد أن علمت بإطاحة أبيها آيتيس عن عرشه، عادت إلى وطنها، إلى كولخيس، واستعادت مملكتها بمساعدة ابنها ميدوس. على عكس البطل الذي أحبَّته وكرهته، لم تكن ميديا ذات طبيعة بشرية ميتة.

ظهرت للمرة الأخيرة في حقول إليسيون الخالدة(101)، وقال أحدهم إنها تزوجت هناك بأخيل، لكنها رواية لا تصدق على الإطلاق.

(101) جزيرة الخالدين التي تقع في المغرب الأقصى من الأرض، ويحيط بها ويحميها أوقيانوس، وإليها يُرسل قُضاةُ الموتى الخالدين كي يقضوا حياةً أبديَّة كلها سعادة ونعيم. على النقيض من تارتاروس فإن جزيرة إليسيون دائمة الخضرة، وفيها حدائق نضرة، كثيرة الورد كأن فصل الربيع ابتدأ فيها، تجري فيها أنهار ماء كالرحيق، تنبثق من نبع ليثي، ومن يشرب من مائها ينسى كل أنواع الهموم والعذاب.

23

التحدي وقبول المصير

ثمة نزعة داخل أنفسنا جميعًا تدفعنا إلى تحدي القدر، سواء كنَّا في عنفوان الشباب حيث لا نعرف بعد كيف سنحقق ذلك، أو حتى في مرحلة الشيخوخة بعد أن نكون قد أتممنا جانبًا لا بأس به من مهمتنا بالفعل. تتمرد النفس ضد أي قيودٍ كانت؛ إذ تسعى إلى توطيد أسبقية حريتها بلا منازع. لكن القدر، الذي يمثِّل إرادة خارجية بالنسبة إلينا، يُعَد قيدًا، بل هو مَن يحكم في نهاية الأمر، إنه متسلطٌ وغامضٌ إلى درجة أن الآلهة نفسها كانت تهابه، إنه السلبية في مقابل الحياة، والقوة التي تقودنا نحو الفناء، والشيء الوحيد اليقيني في الحياة برمتها: الموت.

تلك النزعة لتحدي القدر تُسمَّى أخيل، البطل الذي سيتمرد ضد أجاممنون سيد البشر، لكنه يفوقه نضجًا وقوةً، ويحب بريسيس وباتروكلس بالقدر نفسه، ويمثِّل بجثة هكتور لكنه في النهاية سيشفق على بريام الشيخ الذي سيصل إلى خيام قبيلة أخيون ليبحث عن جثمانه.

بينما لم يعرف أي من الأبطال قدره، كان أخيل يعرفه، وعندما تكلم معه الحصان زانثوس في واحدة من أكثر أناشيد الإلياذة غموضًا، وأكد له أنه يمضي في طريقه نحو هلاكه، رفع أخيل كتفيه بصورة استثنائية؛ إذ كان يأمر الحصان بالصمت، فهو لا يبالي بذلك.

تشعر أي نفس شابة بغريزة فطرية لمجابهة القدر حتى وإن كان من باب اللهو. إبَّان شبابي، على الطرقات السريعة في ليجوريا، تلك الطرقات سيئة السمعة بسبب سلسلة الجسور شديدة الخطورة المعلقة في الهواء والأنفاق، عشتُ إحدى مغامراتي التي لا ترتبط بالبطولة بصلة. في إحدى الليالي الدامسة، ظهرت في مرآة الرؤية الخلفية مصابيح أمامية لسيارة تمرُّ من خلفي، ففكرتُ بأنها كعيني الموت تطاردانني، وضاعفتُ سرعتي حتى إنني لم أعُد أراهما، معرضًا نفسي لخطورة الطيران بعيدًا، ربما كان ذلك حسب أحد قوانيني على الأرجح.

يُعَد جيمس دين ومارلون براندو سليلي أخيل في العصر الحديث، فهما أيضًا شابان بطلان مفعمان بالحيوية، كُتب لهما الوصول إلى قمة السماء، ثم الهبوط منها: الأول بغتةً، والثاني ببطءٍ. إن براندو العجوز العابس ذا الوجه الجميل الذي يختبئ نصفه خلف نظارة شمس ضخمة، لم يجعلنا ننسى أنه كان ذات يوم فليتشر كرستيان في فيلم تمرد على باونتي، الأرستقراطي

الكئيب المتغطرس، المتمرد باسم الإنسانية ضد القائد بليغ الذي يجسِّد صاحب المتجر الوصولي الشرس، يبدو أنهما مثل أخيل وأجاممنون، إلى الأبد.

إن النفس الشابة، باختلاف الظروف الاجتماعية التي تتجسَّد خلالها، تميل أن تحيا أسطورة أخيل من دون وعي من جانبها؛ النادل الذي يترك الصينية المليئة بالأكواب والفناجين تتهاوى على الأرض كردٍّ على تأنيب سيده الفظ، والطالب الذي يرفع جبهته ونبرته أمام المعلمة كردٍّ على ظلمها، والجندي البسيط الذي يفضِّل حجرة العقوبة عن الانصياع لأمر ضابط يجلب له العار (حدث معي ذلك أيضًا).

إن النفس، التي تحب القصص، تجد صعوبة في سرد رواية أخيل في عملٍ واحدٍ معقدٍ مكتملٍ. تسبب الموت في منع الشاعر اللاتيني ستاتشيوس في إكمال كتابة قصيدته الملحمية لأخيل، وأما جوته فلم يحمل سوى شظايا عن أخيل من خلفه. ومقارنةً بالصدى الهائل الذي خلفه أوديسيوس، فإن أخيل لم يَثُر سوى النذير في نواحي الأدب.

امتازت نفسه الفتيَّة بالغموض والتناقض والتردد بصورة تفوق التمرد والحماسة النقية. ومن ثَمَّ، فإن تحديه للقدر لم يعرف حيلًا أو عوجًا أو طرقًا للهرب، فالقدر الذي كرس حياته لإتمامه قصير للغاية وعظيم جدًّا حتى إنه لم يسنح الفرصة لإيجاد كلمات ترويه.

هنا، عزيزتي القارئة وعزيزي القارئ، ستجد نفسك أمام لوحة بسيطة موجزة. أعترف أن الملخص الفاتر الذي يمكن أن يكون بمنزلة عملٍ عن أخيل، كنت في كل مرة أحاول كتابته، لكنني أقف مكتوف الأيدي أمام الورقة الفارغة.

أخيل

وُلد أخيل من بيليوس، رجل بشري، وثيتيس، ربة بحرية ابنة ميريوس ودوريس، لم يكن جماعهما بالأمر الهيِّن. كسائر ربات البحر، تمتعت ثيتيس بهبة التحولات اللحظية، وسرعان ما كانت تتخذ هيئة أفعى أو حصان أو أسد أو نار في كل مرة يسعى بيليوس إلى معانقتها. كان عليه المقاومة، وإمساكها بقوة خارقة بينما تتخذ هي مختلف أشكال الطبيعة، وفي النهاية تمكَّن من الإيقاع بها؛ كانت معركة ضارية، ومن الطبيعي أن يولد من جماعهما أكثر فتيان اليونان جمالًا وقوةً بين أبطالها.

ابتغت ثيتيس أن يصبح ابنها خالدًا مثلها، وبمجرد ولادته، غمرته في مياه نهر ستيكس في العالم السفلي، ممسكة به من عَقِبه. أصبح جسده بأكمله محصنًا ضد الموت عدا تلك العَقِب التي كان ينبغي لها أن تمسكها من خلالها بيدها حتى لا تفقده.

أودعته لدى القنطور شيرون معلم الأبطال الشهير. على قمم جبل بيليو، أطعمه شيرون نخاع الأسد والخنزير البري ودهن الدب ليزيد قوته، إلى جانب العسل ونخاع الإيل لتصبح قدماه أكثر سرعةً. علَّمه القنطور ركوب الخيل، واستخدام القوس، والصيد، وكذا عزف الناي. بحلول الليل كان يستدعي أيضًا كاليوبي ضمن الموزيات التسع لتلقنه أصول الغناء.

ببلوغه سن السابعة، قتل أخيل الخنزير البري الأول له، ولاصطياد الأيل لم يكن في حاجة إلى الاستعانة بالكلاب، إذ كان يفوقهم سرعة.

عندما علمت ثيتيس أن كالخاس العرَّاف تنبَّأ بأن طروادة لن تسقط أبدًا دون مساهمة أخيل، وبعد أن تناهى إلى مسمعها أن أجاممنون ومينلاوس يستدعيان كل أبطال اليونان لاستعادة هيلين، أرسلت أخيل إلى جزيرة سكيروس لدى الملك ليكوميديس.

في بلاط ليكوميديس، عاش الفتى البطل في الموضع المخصص للنساء تحيطه الفتيات من كل جانب. كان شعره يميل إلى ما بين اللونين الأشقر والأحمر، وأما قسمات وجهه فكانت تتمتع برقة خافتة جعلت من تماهيه وسطهن أمرًا منطقيًّا. نرى تناقضًا جليًّا هنا: هل من المعقول أن صبيًّا يقتل خنزيرًا بريًّا في عمر سبع سنوات ويقبل قضاء أيامه في أعمال هادئة وسط جموع الفتيات بعد بضع سنوات فقط؟ يبدو جليًّا أن أخيل كان يتصرف على سجيته، ولم تنتقص ملابس النساء أو تشكك في ذكوريته الأولية، أو في نهمه الكاسح إلى الحب.

نراه يتغزل في دايداميا ابنة ليكوميديس بحرية ومجون، ومن ذلك الجماع المبكر سيُنجب بطلًا سوف يدعى بيرو «الضارب إلى الحُمرة»، أو نيوبتوليموس «مجدد الحرب».

احتاج الأمر إلى دهاء أوديسيوس لإخراجه وإبعاده عن تلك الظروف الحياتية غير البطولية التي لا تلائم قدره. اكتفى أوديسيوس المتنكر في هيئة أحد التجار أن يظهر لامعًا بنصل السيف والدرع إلى جانب ملابسه الحريرية والمجوهرات الذهبية. أمسك بهم أخيل على الفور، ولم يعد تمويهه كفتاةٍ يفيد بشيء، إذ جُنِّد في الحرب المزعومة في طروادة، وتوجَّب عليه الرحيل معه.

رحل بين دموع الأم ثيتيس وعناق الأب المستسلم الذي أعطاه زوج الخيول السحري الناطق الذي كان قد استلمه من بوسيدون.

مرة أخرى يضعه دهاء أوديسيوس في المقدمة عندما اقترح على أجاممنون أن يقنع ابنته إيفيجنيا بأن الرحلة إلى أوليس غرضها الزواج من أخيل؛ كان فخًّا بارعًا يليق بذهن أوديسيوس. من ناحية أخرى، كانت نهاية الرحلة مروعة؛ إذ إنه كان سيتم التضحية بإيفيجنيا حتى يتسنى لأسطول أخيل العالق في الميناء بفعل السكون الراكد المغادرة أخيرًا.

ما إن علم أخيل بهذا حتى احتجَّ بشدة وعارض أوديسيوس وأجاممنون ودافع عن إيفيجنيا بكل ما أوتي من قوة، في النهاية، أرادت الفتاة الانصياع إلى رغبة أبيها والآلهة، ونعلم أن الإلهة أرتميس هي التي تدخلت لإنقاذها في اللحظة الأخيرة وليس أخيل.

كان أخيل بمنزلة البطل اليوناني الثاني الذي وطأت قدماه أرض طروادة. كان الأول يُدعى بروتيسيلاوس، وكان أول من يسقط أمام ضربات هكتور، بطل طروادة. وجد أخيل نفسه يُهاجَم من قِبل سكنوس ملك تراقيا، مخلوق بدائي مشوَّه، من مادة بيضاء تُشبه البذور واللبن أكثر من اللحم. كان سكنوس يتأرجح من علوه، وبدا إيقافه ضربًا من الخيال. نجح أخيل في ذلك بإلقاء حجرٍ كبيرٍ عليه فسقط سكنوس محطمًا، فتفرق الطرواديون إلى الوراء بعد مزاعمهم بكونه حليفًا لا يُقهَر، وتراجعوا حتى بوابات المدينة، يبحثون عن ملاذٍ خلف الأسوار، هكذا بدأ الحصار الذي دام عشر سنوات.

كانت الأبواب الشهيرة في طروادة تُدعى شيي، وكانت هناك بئر أمامها حيث تتجه نساء طروادة لملء حاجتهن من المياه بجرارهن، كان هناك أيضًا معبد لأبوللو ثيمبرايوس وقد اعتُبِر منطقة تخلو من النزاع المستعر بين قبيلة أخيون والطرواديين، أرضًا لا يملكها أحدٌ، منطقة محايدة.

لا نعرف كيف فكر أخيل في أن يتوارى وسط النباتات المحيطة بالبئر، كان بمقدوره تحدي أي أحد في حقل مفتوح بفضل قوته، لكن في ذلك اليوم آثر البقاء في مخبئه، يراقب النساء اللواتي يأتين في جماعاتٍ برفقة محاربهن الصغير جدًّا الأمير ترويلوس الذي ذكرته النبوءة القائلة بأنه إن بلغ سن العشرين من عمره، فلن تسقط طروادة إلى الأبد مرة أخرى، قفز أخيل من مخبئه ودعاه إلى أن ينازله.

كانت مقارنة غير متكافئة، لكن شيئًا حدث فاق توقعات الجميع، ومن بينهم النساء اللواتي يتطلَّعن خائفات والملك بريام وأعيان طروادة الواقفون يتابعون تطور الأحداث من أعلى الأسوار بوجوه شاحبة.

إبَّان تقاطع سيفه مع ترويلوس، أُغرم به أخيل على الفور، شيء ما في ذلك الصبي أطلق رغبته الجامحة من دون أن تخشى من تحطيم أي حدود. صاح أخيل في الصبي ترويلوس قائلًا: «سأنقذ حياتك إن وهبت لي نفسك!»، أمام ذلك الاقتراح المباغت، لم يجد ترويلوس أمامه سوى الهروب. لم يكن يعرف أن لقب أخيل بـ «سريع القدم»، لم تكن من باب المصادفة. للحظة تمكَّن أخيل من الإمساك به، منزعجًا بسبب رفضه، وقطع رأسه في الموضع نفسه الذي سيُقتل به بعد بضع سنوات. قول آخر يزعم أن أخيل أمسك بترويلوس بعد مسافة قصيرة، وانتهكه بعنفٍ وحشي شهواني حتى هشَّم ضلوعه وجعل وجهه متورمًا يصعب التعرف إليه.

استمرت الحرب تسع سنوات تمكَّن خلالها أخيل من إلحاق خسائر فادحة بطروادة ونهب العديد من المدن والجزائر المجاورة، إلا أن طروادة لم تكف عن المقاومة.

من هنا تبدأ ملحمة هوميروس، من كلمة مينين أي «الغضب»، ذلك الذي يتفاقم في أخيل بسبب معاناته من غطرسة وقمع واستبداد أجاممنون، قائد قبيلة أخيون الأعلى، الذي يفوقه في القوة وينقصه في البسالة، والذي يتعين على أخيل قتله، بل إنه كان قد وضع يده بالفعل على قبضة سيفه لولا تدخل أثينا، كما نعرف، لتهدئته وكبح غضبه بعد أن سحبته من شعره الطويل الأشقر المحمر.

لكن بعد ذلك كان لأخيل سببٌ ثانٍ للغضب، وفي تلك المرة كان ممزوجًا بألمٍ مبرحٍ.

بعد أن تراجع إلى خيمته لإعلان احتجاجه على أجاممنون، التقط الطرواديون أنفاسهم، وقاموا بغاراتٍ من حولهم، بل ووصل بهم الأمر إلى مناوشة معسكرات وسفن قبيلة أخيون.

كان أخيل يحيا برفقة باتروكلس في خيمته، لجأ باتروكلس إلى بلاط بيليوس هربًا من إدانته بالقتل في أعقاب مشاجرة اندلعت إبَّان لعبة النرد. لم يكن مؤهلًا جديرًا بالبطولية، رغم ذلك ارتبط أخيل بباتروكلس بصورة حميمية حتى أصبح عشيقه بطبيعة الحال.

ربما أجمل ما كُتب في حوار مع ليوكو لـ تشيزاري بافيزى، ذلك الفصل تحت عنوان «الاثنان» (وكان العنوان الأنسب في حقيقة الأمر) ومن خلالها تحدَّث الصديقان عن حتمية

الموت والنبيذ -هل فكرتم من قبل أن الأطفال لا تشرب الخمر لأنهم يجهلون هوية الموت؟- وعن عظمة أن تكون صبيًّا، إبَّان تلك الليلة عندما خرج باتروكلس يرتدي أسلحة أخيل مستعدًّا للقتال بشرفٍ بعد أن أبصر بعينيه مدى الانحدار الذي وصل إليه الإغريق.

في بادئ الأمر، تراجعت صفوف الطرواديين خوفًا، ولكن بعد ذلك أدركوا هوية من يواجههم، وبالنسبة إلى هكتور لم يكن من الصعب إلحاق الهزيمة بباتروكلس وقتله، ومن ثَمَّ، توجَّب على أخيل العودة للقتال مرة أخرى. لم يعُد من أجل أجاممنون، أو مينلاوس، أو هيلين، بل ولا من أجل اليونان نفسها، عاد ليحارب وينتقم لأجل صديقه المقرب إلى قلبه، ذلك الذي يحسُّ إلى جانبه بأنهما زوجان لا ينفصلان أبدًا. قاتل من أجله، مدفوعًا بواجب الصداقة والحب، وحتى يتمم قدره على أكمل وجه.

ذكَّرته أمه ثيسيس بذلك، بل وأتت إليه بأسلحة جديدة صنعها هيفستوس يفوق جمالها ولمعانها الأسلحة القديمة. إن قتل هكتور، فسيموت. رفع أخيل كتفيه؛ علامة الحماسة المطلقة، هل سيموت حقًّا؟ حسنًا، فليكن هذا! ذكَّره أيضًا الحصان زانثوس بذلك وهو يطلق صيحاته التشجيعية إبَّان مغادرته للقتال. حنى الحصان رأسه، وهبط بلبدته حتى لمست الأرض، ثم شرع يتحدث معه بصوتٍ بشري. أخبره حينها أنه وباليوس؛ ابني بودارجى العظيم، سينقذانه أيضًا تلك المرة، لكن ساعته الأخيرة قد اقتربت بالفعل، وإن لقي حتفه فلن يكون بسببهما، رغم قدرتهما على الركض سريعًا كنسيم زفيروس الفائق السرعة بين الرياح، ومع ذلك كان مقدرًا له أن يلقى هزيمته بقوة مزدوجة لإله وبشري، كانت إيرينيس هي التي حالت دون خروج صوت زانثوس، ليجيب أخيل ويرد هكذا:

زانثوس، بأي طريقة تتوقع أنني سأموت؟

الأمر ليس متروكًا لك.

يجب أن أسقط بعيدًا عن والديَّ العزيزين،

أعرف ذلك،

لكن أولًا سأجلب الحرب بإرادتي على طروادة.

قال هذا واندفع يصرخ عبر الممر.

هكذا اختُتمت الأنشودة التاسعة عشرة من الإلياذة، التي اقتبستُها هنا من فقرات وأبيات بلاغية مدوية لفينشينسو مونتي، إذ كانت ترجمته هي الأولى التي قرأتها إبَّان طفولتي، والتي تركت داخلي أثرًا لا يُمحى ممزوجًا بالسحر والخرافات.

تظهر ملامح أخيل مكتملة في هذه الأبيات؛ السأم من نبوءات غير مطلوبة، والوعي بالقدر، وفكرة الموت بعيدًا عن الأسرة، والحزن المحتوم للنهاية البطولية، ورغم كل ذلك فهناك تحدي القدر، والطيش الصبياني، وذلك النوع من البهجة المفعمة بالمدح والسخرية في السعي حتى مبتغاه، لم يتبقَّ سوى بضع كلمات حاسمة ليأتي في أعقابها السوط والرحيل صوب قعقعة المعركة.

لم يكن لأخيل شيء يخسره في مواجهة هكتور، أما هكتور، مروِّض الخيول، فكان يصارع للزود عن مدينته ووالده الملك بريام وزوجته أندروماكا والابن أستياناكس. كان رجلًا تبطِّنه أخلاق حميدة. لم يعرف التجاوزات أو القسوة أو النكاية أو العواطف الجامحة، أحبَّ زوجته وابنه برقةٍ بيِّنة، وكان يبكي في قلبه إذا ما تخيلهما، حال سقوطه، أسيرين لأحد سادة قبيلة أخيون القساة، لكنه كان خاضعًا للقدر، ولن يتحداه.

ألصق قرَّاء القرن التاسع عشر حب الوطن والشعور بالواجب بهكتور وصيَّروه بطلهم المغوار.

في المقابل، يقتني أخيل شيئًا وحشيًّا داخله، بل وتلزمنا الشجاعة الكافية لنقول إن لديه هيئة الوحشية المتناقضة، المسرحية بعض الشيء، التي تُشبع زهو المراهقين المتمردين بصورة كبيرة.

لم يقاتل أخيل من أجل أرضه، أكد ذلك بوضوحٍ، وليس لديه أي حسابات مؤجلة مع الأعداء الطرواديين، كما أنهم لم يمسُّوه بسوءٍ من قبل، إلا أنه كان هناك أسفل أسوارهم بصفته محارب قبيلة أخيون الأقوى، ولأن قدره حتَّم عليه الرحيل.

هل من الطبيعي أن يسقط المقاتل في حب عدوه؟ نحن بصدد اضطراب عقلي يعانيه، وكم هائل من النيران تتقد في جسده. من المؤكد أن أخيل وهكتور كانا في المرحلة العمرية نفسها، على الأقل من جانب التعداد، ولكن باعتبار أن الأزمنة عابرة في الأسطورة، فإننا نلاحظ من شخصياتهما، وهيئتي نفسيهما أن هكتور كان رجلًا أما أخيل فكان صبيًّا.

ما إن احتدمت المعركة بينهما حتى ظفر أخيل وسقط هكتور بشرفٍ، لم يتوقف أخيل عند هذا الحد وإنما ربط قدمي العدو المهزوم بمركبته، وسحبه من خلفه حول أسوار المدينة، ومزَّق جثته ومثَّل بها بطريقة مرعبة. لم يروِ كل هذا نهمه؛ فلم ينفك عن جرِّه وسط الغبار المتصاعد وحول محرقة باتروكلس الجنائزية، يقال إن كراهيته لم تحدها أي حدود.

بحلول المساء، اقتاد هرمس الملك بريام والد هكتور الذي ذهب إلى خيمة أخيل ليطلب أخذ الجثمان، ربما يتوقع المرء أن يثور أخيل ويرفض أن يمنح جثة هكتور التكريم اللائق بدفنها، لكن على العكس، أثار العجوز بريام عواطفه، ليبدو كم أن قلبه لم يتصلب أو يتحجر، بل ويمكن أن يذوب شفقة أمام دموع الأب.

في أثناء مراسم دفن هكتور التي دامت أحد عشر يومًا، ظهرت بنتسليا، ابنة أريس، التي كانت تجول هربًا من ربات إيرينيس في أعقاب اتهامها بمقتل الشقيقة هيبوليتا عن غير قصدٍ في إحدى مسابقات الصيد.

كانت الأمازونيات اللواتي يهيمنَّ على الأراضي الشاسعة بين كبادوكيا وسكيثيا، وكنَّ فارسات ومقاتلات يتمتعن بقوة فائقة. سرعان ما بحثت بنتسليا عن الأقوى بين أعدائها لمقارنة قوتها بقوته، وانتهى بها الأمر لمواجهة أخيل.

بارز كل منهما الآخر، وسدَّد أخيل سيفه إلى صدر بنتسليا حتى تداعت على الأرض على الفور، في تلك اللحظة فقط ينزع أخيل عنها درعها ليرى جمالها الأخاذ؛ الساقان الرشيقتان المصقولتان إثر امتطاء الخيل فترات طويلة، والذراعان اللتان لرامية قوس، ووجه بقسمات أجنبية مؤطر بشعر داكن طويل. عندما أبصر ذلك الجمال المخضَّب بالدماء، انطرح على الأرض، وشقَّ صدره؛ إذ كان قد أُغرم بها. اجتاحته رغبة لا تقاوم حيالها، فجثا على ركبتيه، وانحنى على جسدها، وقبَّلها، وداعب شعرها، إلى أن ارتمى بجسده فوقها.

يرى البعض أن ما فعله أخيل بمنزلة مضاجعة الموتى، لكن بالنسبة إليه يبدو عملًا ساميًا لتكريم محاربة الأمازونيات الرفيعة، إقرارًا بحُسنها الذي لا يمكن للموت أن يزعزعه، إنها ملاحقة سامية مستحيلة للحياة وحتى أعتاب الموت، وعلامة على تمردٍ رفيعٍ، لا يدرك الجبناء هذا، وكان أول هؤلاء الجبناء في معسكر قبيلة أخيون يُدعى ثيرثيتيس.

نهض أخيل تاركًا تحت قدميه بنتسليا جثة خامدة، ناصعة البياض كما لو كانت مخلوقةً من الأصداف والزَبد، وطلب معاونة المحاربين اليونان لدفنها. تمثل رد ثيرثيتيس في الاقتراب منه وعلى وجهه ابتسامة ساخرة، ثم سدَّد رمحه في عيني الميتة وأخرجهما من مكانهما، في هذه الأثناء لم ينفك عن الصراخ في وجه أخيل بشجاعة الجبناء المليئة بالبذاءة والافتراء والخسة، واتهمه بارتكاب أفعال مشينة بجسد تلك الفتاة الأمازونية، وأخذ يحاكي ما فعله بإيماءات بذيئة، ويقهقه ويصيح بتوبيخات يسمعها الجميع.

لم يكتفِ أخيل بضربات العصا التي انهال بها أوديسيوس إثر وقاحة ثيرثيتيس، وقتله. حينها فقط استطاع أخيل إقامة جنازة بنتسليا بصورة مشرفة، ابنة أريس التي أحبها حتى الموت، في لحظة تشابك خلالها الحياة والموت، الفرح والحزن، الشغف والوجع، داخل نفسه بطريقة لا تنفصم.

كان القدر يتربص به عند بوابات شيي، حيث هوجم أخيل من قِبل ترويلوس، بعد أن اتفق بوسيدون وأبوللو على الانتقام منه، إلى جانب سكنوس، على كل الضحايا الذين أسقطهم البطل اليوناني.

تنتفع الآلهة من شاب غندور، من بطل غرف النوم، من سارق زوجات مثل باريس. لا نعرف السبب وراء اتجاه أخيل في تلك المرة نحو بوابات المدينة أمام النبع بالقرب من معبد أبوللو ثيمبرايوس حيث الأرض المحايدة. قال البعض إنه اتجه إلى هناك حتى يتعقب محاربي طروادة الهاربين بعنفه المميت، ويزعم آخرون أنه ذهب إلى هناك من أجل بوليكسينا. كانت بوليكسينا أميرة من طروادة تتمتع بجمالٍ مبهرٍ ينافس هيلين، أُغرم أخيل بعدوته تلك المرة أيضًا، ذلك البطل المتذبذب في مشاعره، الذي يسهل استثارته في غمضة عين. طلب من بريام أن يسمح بزواجهما مما تسبب في انتشار الأقاويل الغريبة في معسكرات اليونان. إبَّان حفل الزفاف، أو إبَّان لقائهما معًا، يذهب أخيل من دون أسلحة تُذكر، ويرتدي سترة بيضاء، حافي القدمين، وهنا، يسدد باريس المختبئ في أمانٍ سهمَه الذي يمضي في طريقه ويصيب عَقب البطل الذي خرج لتوه من مياه ستيكس، ومن ثَمَّ، يخضع لقانون الموت.

كان لأبوللو، رامي السهام الذي لا يخطئ، دورٌ في دفع السهم إلى مسارها الصحيح. هكذا رسم المخطط الأسطوري لذلك الشاب البطل الذي لا يقهر، مؤلف الألف مهمة المجيدة، حتى يُقتَل من أحمق، وليس من خلال مواجهة وجهًا إلى وجه، وإنما يستغل الجزء غير المحصن من

جسده، هو المخطط نفسه لقصة سيجورد في الميثولوجيا الجرمانية، وكريشنا في الأساطير الهندية.

كان أخيل قويًّا بريئًا شجاعًا مثل شمس ترتقي نحو السماء، ليسقط بعد ذلك في البحر أو خلف أحد الجبال، ويكفيه العدم حتى يُخفيه، حتى فقاعة الكلام يمكنها القيام بذلك.

اقتضت الحاجة إلى القتال فترة طويلة حول جثته. ظهر آياس بين اليونانيين بكل ما أوتي من قوة، الذي كان يحتل المرتبة الثانية دائمًا بعد أخيل، وقد وجَّه نفسه يتحمَّل مسؤولية التواجد في الصفوف الأولى للدفاع عنه وإرجاع جثمانه سالمًا.

في أثناء جنازة أخيل، صعدت أمه ثيتيس من البحر بصحبة كل بلاطها من الحوريات البحرية، والنيريدات اللواتي يبلغ عددهن خمسين حورية، والأوقيانوسيات اللواتي بلغ عددهن الآلاف، والثلاثة مويراي ربات القدر. تعالت أناشيدهن الجنائزية ورثائهن، وفاق حزنها ضجيج الأمواج والرياح العاصفة التي تُغرق السفن حتى القاع، ودوى صداها في حقول اليونان بصورة مروعة حتى إن الكثيرين لم يقووا على سماعها واضطروا إلى سدِّ آذانهم وهم يرتجفون ويحتمون بخيامهم.

كانت الجثوة التي تراكمت فوقه بمنزلة الأعلى من أي جثوة أخرى في العالم، فاق ارتفاعها جثوة هلسبنوت، تخليدًا للذكرى الأبدية لأعظم بطل أنجبته اليونان، بقي هناك عدة قرون، وانحنى أمامه الإسكندر الأكبر بينما كان يقود جيوشه لغزو الشرق.

انتهت مراسم الجنازة وطقوسها بعد أن دامت ثمانية عشر يومًا، وأخذت ثيتيس نفس ابنها وحملتها معها إلى جزيرة ليفكادا عند مصب نهر الدانوب الغنية بالغابات والطبيعة البرية، وهناك اختلقوا قصة زواجه بميديا، وإيفيجنيا وهيلين في نهاية الأمر، هل ارتضى بكونه الزوج الخامس لها بعد ثيسيوس ومينلاوس وباريس ودوفيوس؟ بالإمعان في طبيعة أخيل، سيكون من الطبيعي الاعتقاد بأنه حتى في ليفكادا لم يكف عن حب الشباب والشابات من النظرة الأولى، متقدًا بالرغبة التي سرعان ما تأتي المتعة في أعقابها، كسائر منطق الآلهة.

لكن الصورة الأخيرة لأخيل التي نعرفها نحن القراء، هي تلك الصورة الشفقية التي تظهر في الأوديسة، عندما سمعه أوديسيوس، بعد أن انحدر إلى الجحيم، يقول إنه يفضِّل أن يكون أكثر الأحياء بؤسًا، من أن يكون ملكًا على مملكة الأشباح.

هذا الندم المفجع على الحياة الملموسة والجسد والدم لم يكن بالأمر الغريب على بطلٍ عاش حياته من أجل الموت، بطل تحدى القدر بالاستسلام له، ورأى شبابه يُبتر أمامه، بعد أن ضحى به من أجل محبيه.

هناك، كشبحٍ، تتجلَّى أكثر صور الإنسانية إيلامًا في كل معارك الإلياذة. نحن الآن على أعتاب الأوديسة، حيث تختلف القيم، وتنتمي إلى ذاك البطل الذي تستمد منه القصيدة اسمها، لقد تحدثنا بشأنه سالفًا، وحان وقت الختام به.

24

حتمية العودة

عندما ترغب النفس في العودة إلى نفسها وتتيه في خضم بحر الأشياء العظيم، عليها أن تتغلب على كل الإغواءات وصنوف الصعوبات الهائلة، والانعتاق من الإغراءات المميتة، وذلك حتى تنعم بالعودة بعد مصارعة قوات الأعداء والغاصبين بالقوس الممسوك بيدها. ما تحياه النفس حينها يُدعى «الملحمة»، ويعد أوديسيوس أو أوليس بمنزلة البطل الذي يترأس رحلتها.

حظي أوليس بنصيب الأسد في الثقافة الغربية، من هوميروس إلى جويس، وربما حتى ستانلي كوبريك 2001 أوديسة الفضاء، حيث لمست رحلته أكثر أوتار النفس نضجًا، وأصبح ضمن أكثر الأبطال الذين اقتُبس الكثير منهم، والتغنِّي بهم، وحكي حياتهم في التاريخ.

هناك أيضًا أوليس العصور الوسطى، المتمثل في كوميديا دانتى، الذي عبر أعمدة هرقل وتحدَّى بحر الجانب غير المكتشف في العالم بحثًا عن «الفضيلة والمعرفة». تروي نفس أوليس في جحيم دانتى قصتها الذاتية التي تختلف عن تلك التي وردت في هوميروس، إذ لم تعُد العودة إلى المنزل والعواطف الأسرية الحافز الذي يحركه، وإنما قلق عمودي مع بدء ظهور الكاتدرائيات القوطية، وفكرة لرحلة صوفية مستحيلة.

من ناحية أخرى نرى رأسية كل الأحداث التي جسَّدها ليوبولد بلوم في حياة أوليس في الرواية التي تحمل ذات الاسم لمؤلفها جويس؛ حيث يعتمد إطار هوميروس كما لو أنه يسعى إلى ترتيب مواد منهارة من اللا مبالاة والبؤس في الحياة اليومية، والذي يتوج في المونولوج النهائي لمولى بلوم، بيليلوب الخائنة المنحرفة.

يمثِّل أوديسيوس نفس الإنسان الناضج الذي طرح أحلامه، لم يعُد يتحدى القدر الذي عاناه ويصدُّ الإغراءات بحيلٍ ذكية، يفضِّل الدهاء الذي لم يُصنع للشباب أو حتى للشعراء. رغم ذلك فإن نمط الخبرات الذي يقدمه يصبح شاسعًا للغاية، وتتخذ مغامراته أشكالًا بلا حصرٍ وهذا طبيعي لأن عبقريته متعددة الأشكال أيضًا. كان منفاه أليمًا بشدة حتى إن الشعراء لم يكفُّوا عن الإبحار في تفاصيله، وأذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر فاسكولو وتنيسون وباسكولي ودانونسيو وكفافيس وسابا وكازانتزاكيس وأدونيس.

يقبع أوديسيوس في أنفسنا بمنزلة التحذير؛ أينما ذهبنا علينا أن نعود. يتحدث داخلنا عندما يُحكَم علينا بالنفي وتحت وطأة الأمواج، وعندما يتعيَّن علينا إيجاد طريق لا نراه في بحر الوجود العظيم ونصبح على أعتاب الغرق في أي لحظة، وعندما تحملنا آلاف التقلبات بعيدًا، بعيدًا جدًّا عن الموضع الذي نود البقاء فيه، في مواضع لم نخترها، وأخيرًا عندما نرغب في وضع نهاية لمنفانا، وفي ظهور جزيرتنا في الأفق، عندما ترشدنا شعلة نيران من نباتات الجنستاوات والهيذر كمنارةٍ نرسو صوبها ونستعيد وطننا.

إن لم يسمح لنا القدر بعبور أعتاب العدم وغير المرئي أولًا، وسط مصاعب لا تُحصى، وآلاف الآلام والأثقال الموضوعة على كاهلنا، فلا مناص من الرجوع.

أوديسيوس

في البيت الأول من القصيدة التي تحمل اسمه، نجد أن أدويسيوس يُلقَّب أيضًا بـ «بولتروبون» أي متعدد الجوانب، متعدد الاهتمامات، داهية، شديد المكر، أو الرحالة، «ذي السفر الطويل الأمد»، هكذا ترجمته ماريا جراتسيا شاني التي ندين لها بنسختين ممتازتين نثريتين من أشعار هوميروس. أما روزا كالسيكّي أونيستي، فضَّلت لقب «ذي الدهاء الغزير»، ونجد أيضًا لقب «البارع الكثير التحول»؛ الترجمة التي أصبحت بعد ذلك عبارة شائعة ترجع إلى إبوليتو بيندمونتى في العقود الأولى من القرن التاسع عشر.

بالفحص الدقيق نجد أن السفر والدهاء والبراعة تعد كلمات مفتاحية للتحدث عن ذلك البطل الذي اصطدم بالشدائد من ساحل إلى ساحل، وجزيرة إلى جزيرة سنواتٍ عديدة، وتهيأ لقلب المكر إلى خداع وأكاذيب، ولاختلاق أي أحداث حتى يوائم الواقع لصالح اهتماماته واحتياجاته.

تُدعَى أمه أنتيكليا، وهي ابنة أوتوليكوس اللص الحاذق الذي كان والده الإلهي هرمس حامي اللصوص. طالب البعض أن أنتيكليا، خطيبة ليرتس، تعاني عذاب سيزيف، مؤسس كورنث الذي ذاع صيته كملك المحتالين ومنظم التجارة والملاحة. يبدو إذن أن سيزيف قد انضم إلى شجرة الأنساب البطولية لملك إيثاكا وإن حدث ذلك بصورة منحرفة.

لم يتمتع أوديسيوس بأي صفات عسكرية، وأصبح محاربًا رغمًا عنه، على الرغم من إتقانه المناورة في القتال ومن قدرته كمقاتل ورامي سهام بصورة فائقة. ليس كأخيل، بل يبدو كنقيضٍ له لولا عدوهما المشترك في ثيرسيتس، وليس كآياس البريء المقدام، وليس كدايوميدس رفيقه

القاسي في المداهمات الذي ألحق الخراب بمعاقل طروادة. رغم كل ذلك، فإن محور قصته منذ بدايتها يدور حول حرب طروادة، التي من دونها لم يكن ليطأ بقدميه خارج إيثاكا، ولم تكن الأوديسة لتُكتب على الإطلاق.

بصفته خاطب هيلين، أدرك على الفور أنه سيكون الخاسر، ذلك الذي يملك على جزيرة صخرية صغيرة، أمام مينلاوس شقيق أجاممنون ملك موكناي. عندما دبَّ الخوف داخله بعد علم بأن كل المتقدمين للزواج بهيلين عليهم مقاتلة بعضهم، ذهب لنصيحة تينداروس، والد هيلين، بأن يجمع كل الطامحين بالزواج بابنته ويطلب منهم قسمًا رسميًّا؛ بالفعل لم يعارض أيٌّ منهم الاختيار، ومهما كانت هوية أي منهم، فلقد أقسموا جميعًا على أن الشخص المُختار يُسرع إلى معاونة الملك في حالات الخطر أو إن تعرض لأي إساءة. وهكذا، بفضل الحيلة المقدمة من أوديسيوس، بعد أن اختطف باريس هيلين، تشكَّل جيش قبيلة أخيون وسحب اليونان برمتها إلى حرب طروادة.

حاول أدويسيوس تجنب الرحيل من بلده، لكن أوراكل تنبأ أنه يتعيَّن عليه البقاء طوال عشرين عامًا بعيدًا عن منزله، ويقصد بذلك مدة لا نهائية. ما إن اتجه أمراء قبيلة أخيون إلى استدعائه حتى لجأ إلى أكثر حيله وألاعيبه التنكرية حبًّا: التظاهر بالجنون.

وقف أمام الجموع رثَّ الثياب يعتمر قبعة بالية، وبدأ يبذُر الملح على شاطئ البحر، ويشقّ الرمال باستخدام المحراث. كان بلاميدس، ابن ناوبليوس وكليمينى، ملك يوبيا، الوحيد الذي فَطِن لألاعيبه، لجأ إلى حيلة سليمانية(102) للتيقن من جنون أوديسيوس من عدمه. أمسك تليماخوس ابن بينيلوبي حديث الولادة، ووضعه حيث يتعيَّن على المحراث المرور.

(102) سليمان، ملك إسرائيل (القرن العاشر قبل الميلاد)، ويشير المصطلح إلى الحكمة العظيمة أو العدالة النزيهة حتى لو كانت شديدة الصرامة.

سرعان ما رفع أوديسيوس نصل المحراث الحاد الذي كاد يشطر الرضيع نصفين، فانكشف زيف جنونه أمام الجميع، ولم يتبق أمامه سوى الرحيل.

لم يُظهر أوديسيوس أي أدلة بطولية عسكرية تحت أسوار طروادة، لكنه أظهر براعته مرة أخرى للوصول إلى أهدافه.

كان يخطط لقتل بلاميدس في تلك الآونة الذي كشف خديعة جنونه ليُظهر بذلك بعضًا من الدهاء والمكر مثله. أراد أوديسيوس أن يثأر لذاته عن طريق الإطاحة ببلاميدس، حتى لو كان ما

ذاقه لا يمكن وصفه بأنه ظلمٌ، وفي الوقت نفسه يمحو من داخل المعسكر اليوناني الشخص الوحيد الذي يمكنه أن يطغي على مكره ودهائه.

للتخلص من بلاميدس، لجأ أوديسيوس إلى ممارسة جزء بغيض من دهائه؛ فنصب له فخًّا محكمًا قائمًا على أكذوبة، وأدانه رغم علمه ببراءته. دسَّ في خيمته كيسًا مليئًا بالذهب ثم أظهر لأجاممنون خطابًا مزيفًا من بريام، وقد كلَّف أحد سجناء فريجيا بكتابته، يحتوي على رسالة شكر من جانب ملك طروادة مُرسلة إلى بلاميدس نظير المعلومات التي أرسلها عن جيش قبيلة أخيون التي دفع مقابلها تعويضًا باهظًا.

كل ذلك كان كذبًا محضًا؛ إذ إن أوديسيوس -إلى جانب كونه كاذبًا- كان مزورًا وخائنًا أيضًا، كان نذلًا بحقٍّ، جديرًا بأسلافه أوتوليكوس وسيزيف، ومن جرَّاء مكيدته أُتهم بلاميدس بالخيانة العظمى وعوقب بالرجم من قِبل جنود قبيلة أخيون.

في أعقاب ذلك، نشهد كما لو أن شبح أوتوليكوس وشبح هرمس البعيد ما زالا يخيمان على سلوك أوديسيوس، فنراه يقوم بسرقتين أخريين؛ غارتين في صفوف طروادة قام بهما بدور العقل المفكر، ودايوميدس؛ اليافع، العنيف، ابن تايديوس الرهيب، بمنزلة العضلات.

تمت السرقة الأولى عقب اللقاء مع دولون الذي كان جاسوسًا لطروادة في السابق وأصبح خائنًا يمد أوديسيوس ودايوميدس بالمعلومات الثمينة إلا أن ذلك لم يفلح في النجاة بحياته البائسة. نجح في سرقة خيول ريسوس ملك تراقيا؛ خيول ناصعة البياض تمتاز بسرعة فائقة بل وتفوق سرعة الرياح، وقد قالت عنها النبوءة إنها إن رعت في المروج أسفل طروادة وشربت الماء من نهر سكاماندرو، فإن المدينة لن تسقط إلى الأبد.

أما السرقة الثانية فتمثَّلت في سلب بالاس؛ أيقونة أثينا المقدسة، التي تُعَد ضمن إحدى الخطايا التي أدان بها دانتى أوديسيوس ودايوميدس في جحيمه. ستظل طروادة في مأمنٍ من أي اعتداء ما دام بالاس محفوظًا في قلب المدينة. ترك أوديسيوس معسكر اليونان متخفيًا بعينين شاحبتين وآثار كدمات تعلو وجهه وذراعيه بسبب اللكمات التي سمح لدايوميدس أن يكيلها له، وكان يرتدي ملابس بالية، ويسير بقدمين حافيتين، كل هذا حتى يجعلهم يصدقون أنه ليس إلا عبدًا هاربًا. بالفعل نجح في ذلك، ودخل طروادة، وكان شديد الدهاء حتى إن هيلين لم تفضح أمره عندما تعرَّفت إليه في تلك المرة التي استضافته بها وجعلت جارياتها يغسلن ثيابه ويلبسنه من جديد. من خلال المعلومات التي جمعها من أوديسيوس، سيتمكَّن دايوميدس، ذراعه المسلح،

من دخول طروادة متسلقًا كتفي أوديسيوس وسينجح حينها في سرقة بالاس. كانت العودة إلى معسكر اليونان صادمةً نسبيًّا: لها جانب مأسوي وآخر هزلي. أراد أوديسيوس أن ينال مجد المهمة وشرفها بمفرده، فجعل دايوميدس يمرُّ أمامه الذي قد أدرك ظل سيف ملطخ بالدماء في الوقت المناسب. كان أوديسيوس يتأهب لقتل صديقه من الخلف، لكن يبدو أنه في تلك المرة لم تسِر الأمور بصورة طيبة. سيطرت قوة أوديسيوس على المشهد، فأمسك به، وقيَّد يديه خلف ظهره، وأخذ يركله حتى بلغا المخيم. رحل متنكرًا في زي عبدٍ، وعاد يُعامل كعبدٍ أيضًا. بالتأكيد لم يحظ أوديسيوس بالعودة المجيدة المنشودة التي أراد اغتنامها بالخداع والخيانة والجريمة.

في النهاية، نرى حصان طروادة العظيم، الحيلة التي أُسقِطت طروادة من خلالها بعد تسع سنوات من الحصار. إذا كان جامع المواد وبانيها هو آخر؛ إبيوس، القادم من سيكلادس، الحرفي الماهر والمخادع المشهور، إلا أن مؤسس ومدبِّر العملية برمتها كان أوديسيوس. تمثَّلت فكرته في حرق خيام اليونانيين والإبحار بالسفن فقط لإخفائها عن أعين الطرواديين، وبث الشائعات من خلال تلميذه المخلص سينون بأن ذلك الحصان صُنع من قِبل اليونانيين التماسًا للغفران من الإلهة أثينا الغاضبة بسبب سرقتهم بالاس، وأما عن ارتفاعه أمام أسوار المدينة فذلك بسبب أنهم لم يرغبوا في إدخاله من أبوابها.

صُنع الحصان من خشب الزان وكان خاويًا من الداخل ومزودًا بباب صغير مخبَّأ بأحد جانبيه، وكُتبت كلمة أثينا في الجانب الآخر بأحرف عريضة، ووُضع أمام أسوار طروادة. عقب التغلب على المعارضة الشرسة اليائسة لأولئك الذين لا يثقون أبدًا بنوايا اليونانيين محتجِّين على دخول الحصان إلى المدينة، أمر الملك بريام في النهاية بإحضاره أمام قصره. بدا الحصان لسكان طروادة بمنزلة برهان على انتصارهم، فانغمسوا في الاحتفالات الماجنة رجالًا ونساء، يشربون ويرقصون كأنما استردوا حريتهم من كابوسٍ قاتمٍ، لكن الكابوس كان قد أوشك أن يبدأ بالفعل مرتديًا وجه أوديسيوس.

كانت مذبحة دموية، واحترقت طروادة، ولم ينفك أوديسيوس عن إبادة نسل بريام على بكرة أبيه، ربما كان هو الذي رمى الصغير أستياناكس من أعلى حصن طروادة، ابن هكتور وأندروماكا، الأخير في سلالة الأسرة الحاكمة المجيدة. لكن ربما أيضًا أن بيرهوس المعروف أيضًا بنيوبتوليموس، ابن أخيل، أمسك بإحدى قدميه وجرَّه وسحق رأسه بإحدى الصخور؛ إذ

كان نيوبتوليموس أكثر ضراوةً ووحشيةً من أوديسيوس، كما أنه هو الذي أسر أندروماكا الأم وصارت عبدةً له.

أما أوديسيوس فقد اتخذ هيكوبا عبدة له، الملكة العجوز التي انهالت عليه بأكثر الشتائم بذاءة، فحكم عليها أوديسيوس بالموت؛ حيث إنه من الواضح أن قيمتها في سوق العبيد ستكون منخفضة، تلك المرأة العجوز البائسة، إن لم تكن هكذا، لتغاضى أوديسيوس عن أي إهانة وأبقاها على قيد الحياة.

إبَّان رحلة عودته الطويلة المؤلمة إلى المنزل، أنار أوديسيوس جانبًا آخر من بعض جوانبه الأخرى بصفته متعدد الجوانب، كان الدهاء والفطنة ولا يزالان ضمن مواطن قوته. يظهر الآن جانب الرحَّال المسافر عبر البحر، ذلك البحر الملون بلون الخمر والزَبد الذي يخفي داخله أخطار مروِّعة. إن أوديسيوس دائم التحول، ومتعدد الجوانب، ولم يكن ليحتمل في قلبه آنذاك ثِقَل الحرب التي أنارت بلا شكٍّ أكثر الجوانب قسوةً من كيانه وعززتها.

سيعود إلى الحرب من جديدٍ، وبصورة أبشع من سابقتها، حالما تنتهي رحلته بمجرد وصوله إلى إيثاكا. ما دامت حربه الآن في مواجهة البحر، مملكة بوسيدون، عدوه، فإن أسلحته ستتمثل في الصبر والذكاء والمقاومة والقدرة على السيطرة على رجاله، والقوة على ردع سحر وإغواء الحب الذي ربما كان يبقيه بعيدًا إلى الأبد عن وطنه، والمثابرة وصفاء الراوي الذي يتألق عند وصوله إلى ناوسيكا في بلاط سكيريا: «أنا أوديسيوس ابن لايرتس، أمتاز عن سائر البشر بفضل دهائي، وبلغت شهرتي حدود السماء، أحيا في إيثاكا المليئة بالشمس».

يُظهر أوديسيوس أفضل صفاته في رحلة العودة، تلك الملامح التي أهَّلته ليصبح البطل الأكثر شهرةً بين أبطال اليونان، جديرًا بأن يكون محط أنظار الجميع بمرور القرون مقارنة بالآخرين. كان يرتحل في أجواء ساحرة وبرية رغم وجود بعض اللقاءات الاستثنائية، بحساسية أكثر دقةً وحدة. كان يمعن النظر في التفاصيل والمشاعر الإنسانية حتى إن صموئيل بتلر الروائي والناقد الإنجليزي في القرن التاسع عشر رجَّح أن الأوديسة كُتِبت بيد فتاة شابة من صقلية، كما زعم روبرت جريفز، الكاتب الكبير وعالِم الأساطير في القرن العشرين أن ابنة هوميروس هي التي كتبتها.

تُعَد فكرة ملهمة؛ التفكير بأن الأوديسة كُتبت بيد امرأة، عمل فني نسائي، تحوي في طياتها مجموعة استثنائية من الشخصيات مثل كيركي وكاليبسو وناوسيكا وبينيلوبي. ستكون أيضًا

وسيلة لإلقاء الضوء على إشكالية تجلي الدور الذكوري في الأدب: امرأتان والمؤلفة الصقلية المجهولة وصافو، سيرجع إليهن الفضل في افتتاح الشعر الغنائي والملحمي في الأدب الغربي.

امتاز أوديسيوس بالدهاء وكان وصيًّا جيدًا لنفسه، لم يمتز رفاقه بالأمر ذاته، بل وكانوا يُسألون عن الأخطاء التي يرتكبونها التي تسببت في وقوع أخطاء فادحة.

أوشكت سفينة أوديسيوس على بلوغ إيثاكا بفضل زق الخمر الذي أهداه إياه أيولوس، إله الرياح، ذلك الزق السحري الذي تحتجز داخله كل أنواع الرياح المعاكسة، تاركًا الحرية للريح الوحيدة المناسبة لمساره تهب كيفما تشاء. حينها، زعم رجال الطاقم الحمقى أن الزق يمتلئ بالنبيذ، وبينما كان أوديسيوس يغط في نومٍ عميقٍ، فتح الرجال الزق للشراب، وأطلقوا عنان العواصف المباغتة التي حملت السفينة إلى بحر آخر، ليتركوا في نفس أوديسيوس الأذى والعار معًا.

بالوصول إلى أرض لستريجوني، ارتكب رجاله خطأ آخر بعد أن أرسوا السفن في موضع عرَّضهم بعد ذلك لهجمات شعب بربري من آكلي البشر. كان أوديسيوس أكثر دهاءً وفطنةً من قباطنة القوارب الثلاثة الأخرى في أسطوله، فأرسى سفينته عند مدخل الميناء، وأوثق الحبل السميك في حجرٍ كبيرٍ، وبهذا تمكَّن من استئناف رحلته نحو البحر بسرعة فائقة، في حين أن السفن الباقية تحطمت إثر وابل الأحجار المتساقطة عليهم.

عندما وطأت أقدام أوديسيوس اليابسة في صقلية، أمر رجاله بالابتعاد عن قطيع هايبريون المقدس تنفيذًا لوصية النبي تيريسياس، وحينما تملَّكهم الجوع أخذوا بعض الأبقار وأعدوا بها وليمة دنسة كبيرة، دفعوا ثمن فعلتهم باهظًا؛ ففي تلك المرة لم يعد بوسيدون وحده الذي سيطارد السفينة وإنما زيوس بذاته الذي اجتاحه الغضب قرر أن يُنزل بهم أشد صور العقاب؛ فبعث إليهم بريحٍ لن تستطيع أي سفينة الصمود أمامها. شتتت الأمواج الطاقم هنا وهناك، ولم ينج أي منهم سوى أوديسيوس الذي كُتبت له النجاة رغم هلاك السفينة ولم يتبقَّ له سوى طوف مصنوع من صاري السفينة وبعض من ألواح السفينة الخشبية. مرة أخرى يبلغ الشاطئ بفضل براعته ومهارته في السباحة ومقاومته الشديدة لضربات سوء الحظ المباغتة.

بطبيعة الحال، قابل أوديسيوس بعض الوحوش في رحلة عودته، لكنه ليس بيرسيوس أو ثيسيوس أو حتى كهرقل، لم ينطلق بهدف صيد الوحوش قطُّ؛ إذ كان يؤمن في إمكانية بقائهم

على قيد الحياة. عندما كان يواجههم في طريقه، لم يشتبك معهم بالسيف أو الرمح أو الهراوة وإنما بحيلٍ ماكرة للغاية حسب طبيعته.

إن الصورتين اللتين بلغ دهاء أوديسيوس بهما قمته تتجليان عندما نجح في تحرير نفسه ورجاله من الصقلوب بوليفيموس، وأما الصورة الأخرى عندما تمكَّن من تفادي المخاطر المميتة من إغواء حوريات البحر.

كانت الصقاليب كائنات عملاقة بعين واحدة تنتصف جبهتهم، ولم يكن لديهم تلك الكرامة التي امتاز بها جبابرة العصور السحيقة، بل كانوا شعبًا من الرعاة البائسين الذين يقضون حياتهم في رعي الأغنام والكباش على ضفاف بحر صقلية، انتهى الأمر بأوليس ورجاله كافةً بأن أصبحوا في قبضة أيديهم، محتجزًا في كهف أغلقه الصقلوب بوليفيموس بحجر صوان لن يقوى أحد على تحريكه من مكانه سواه. أخذ أوديسيوس يفكر في طريقة للخروج في أسرع وقتٍ ممكنٍ لأن بوليفيموس مثله مثل سائر غيلان القصص الخيالية، يتناول إفطاره وغداءه من لحم البشر، وقد التهم بالفعل أربعة من رجاله بلحمهم وعظامهم.

في أثناء غياب بوليفيموس؛ إذ ذهب للرعي، نجح أوديسيوس في إيجاد غصن زيتون بلا أوراق جعله مدببًا من قمته حتى أصبح يشبه رمحًا كبيرًا يمكن إخفاؤه بعناية. بحلول المساء، عاد بوليفيموس ولجأ أوديسيوس إلى زق النبيذ اللذيذ الذي أحضره معه. كان مدركًا أن بوليفيموس الأبله الساذج لم يشرب في حياته سوى الحليب، وأنه يحمل داخل دماغه شخصًا يتناسب حجمه عكسيًّا مع بنية جسمه العملاقة غير المتسقة.

قدم له أوديسيوس ليشرب، وجعله يكتشف متعة مخفية بالنسبة إليه حتى ذلك الوقت، ويتخلى عن حراسته بعض الوقت، سرعان ما استحوذ النبيذ على بوليفيموس وطلب المزيد. هذا ما كان يبتغيه أوديسيوس وعلى الفور أعطاه النبيذ ثلاث مرات. شعر المخلوق الوحشي بنوعٍ من الرقة البدائية إلى درجة أن النبيذ جعله لبِق اللسان تقريبًا فسأل أوديسيوس قائلًا: «ما اسمك؟» أجابه أوديسيوس باليونانية: «أدعى لا أحد، هكذا ينادونني رفاقي وأبي وأمي»، لم يلحظ صقلوب المسكين أي شيء غريب في ذلك الأمر.

غفا بوليفيموس ثملًا، وغطَّ في سباتٍ عميقٍ، وأخذ يصدر شخيرًا أشبه بصوت الكير. حانت اللحظة المناسبة، سخَّن أوديسيوس ورفاقه طرف الجذع المدبب ثم دفعوه في جوف العين

المفردة للصقلوب. أفاق الصقلوب من فرط الألم، وتعالت صرخاته الموجعة القوية حتى استيقظ أهالي الصقالبة وذهبوا صوب كهفه يتساءلون عما يجري.

صرخ بوليفيموس أن لا أحد أصابه، وبهذا تُعَد حيلة أوديسيوس المذهلة الماكرة كشخصٍ متعدد الجوانب على استعدادٍ دائمٍ لاكتساب هويات جديدة وإبطالها، تستحق أكثر بكثيرٍ من القوة نفسها التي لم تكن لتستطيع أن تحسم الأمر بمفردها.

لا أحد؟ يهزُّ الصقالبة رؤوسهم ذات العين الواحدة ويغادرون، ولم يستطع بوليفيموس الإمساك برجال أوديسيوس المختبئين في الكهف بعد أن فقد بصره. صباح اليوم التالي، زحزح بوليفيموس حجر الصوان الذي يقوم بدور الباب ووقف أمامها باكيًا ونازفًا الدماء؛ إذ كان على قناعة أن سجناءه لا طريق لهم سوى العبور من هناك. كان أوديسيوس قد تدبَّر لهذا الأمر أيضًا، فربط نفسه ورجاله ببطون الخراف والكباش من أسفل، وعندما خرج القطيع تحسَّس بوليفيموس ظهورهم بيديه وشعر بملمس الصوف بين أصابعه، ولم يساوره الشك في أي شيء، هكذا نجح أوديسيوس ورفاقه في استعادة سفينتهم.

عندما بلغوا جزيرة حوريات البحر كان على أوديسيوس أن يشحذ ذكاءه مرة أخرى.

يظهر هؤلاء الوحوش بجسدٍ لنصف امرأة ونصف طيور، ووجه فائق الجمال وأغانٍ شديدة العذوبة، ويقال إنهم رفيقات اللهو لبيرسيفونى، وقد حوَّلتهن ديميتر الغاضبة إلى تلك الهيئة لأنهن لم يفعلن شيئًا للدفاع عنها قبل اختطافها من قبل هاديس الغاصب، يؤكد آخرون أن أفروديت هي التي أنزلت بهن هذه العقوبة لإصرارهن على الاحتفاظ بعذريتهن وعدم ترك نفوسهن أمام أي من البحارة العابرين.

تعد فخاخهن شديدة الخطورة، فهن يفتنَّ البحارة بغنائهن، ثم يدفعونهم للقفز من سفنهم، ثم يقتلونهم، ويبدو أن أغانيهن التي يتغنين بها كانت لا تقاوم على الإطلاق.

لذلك، يضع أوديسيوس الحكيم الداهية، سدادةً من الشمع في آذان رفاقه، وأما هو، فأوثق نفسه بحلقة صلبة لحبل في صاري السفينة الرئيس؛ فحتى إن تناهى إلى مسمعه صوت وحوش الحوريات وعانى سحرهن المهلك، لن يصبح بمقدوره اتباعهن. بعد ذلك أخذ يتعرج بين الوحوش، متجنبًا سيلا وكاريبديس، ويبتعد عن الصخور المتحركة التي نجحت سفينة جاسون

في شقِّ طريقها عبرها. لم يرد أن يصطاد أيًّا منهم، ولم يرد أن يظهر بهيئة البطل، بل كان يراهم بمنزلة حوادث عابرة وعوائق أمام رحلته.

إن كانت الرحلة يمكنها أن تضع أمام النفس العنف (بوليفيموس) أو الإغواء (الحوريات)، فإن أوديسيوس يعلمنا أساليب التعامل معهم بحذرٍ عن طريق فتح طريقٍ للهرب أو إجبارهم على البقاء حيثما يكونوا. في إمكانه أيضًا التماهي حتى التخفي أو فقدان اسمه، أو ربما يضع مكبحًا حديديًّا ليس على رغبة المرء في التطلع إلى معرفة السحر والجمال، وإنما على تلك النزعة التي تجعله يتبدد بينهما.

لسنوات عديدة في عرض البحر، يرتحل أوديسيوس إلى بلد الكيميريين الرمادية الضبابية وينحدر إلى العالم السفلي، كان عليه استدعاء تيريسياس لمعرفة ما يخبئه له القدر في تلك الرحلة شديدة الصعوبة والمليئة بالعوائق للعودة إلى الوطن. تكاثفت السحب حول البركة حيث يوجد دم الذبيحة، وعليه أن يشرب منها ليستعيد قوته على الحديث. كان أوديسيوس واضحَ الهدف، ولم يسمح لإلبينور بالاقتراب، ذلك البحار الذي فقده وقتًا قصيرًا من قبل، كما لم يسمح لأمه أنتيكليا أن تفعل الأمر ذاته قبل أن يأتي تيريسياس ويقترب ويشرب ويتحدث أولًا.

كانت كيركي هي من أرشدت أوديسيوس إلى تلك الرحلة الجحيمية. والآن حان الوقت، عزيزتي القارئة وعزيزي القارئ، أن أتحدث عن النساء اللواتي كن يبعدن أوديسيوس عن إيثاكا.

المدهش في الأمر أن أوديسيوس لم يُغرم بإحداهن قطٌّ؛ كانت النساء هي مَن يقعن في حبه، ويردن أن يجذبنه إليهن بكل الطرق. كانت كيركي ساحرة وسيدة جزيرة إيا، ابنة إله الشمس وبيرسى مثل باسيفاي ملكة كريت وآيتيس ملك كولخيس. كانت تدعو البشر إلى مائدتها وسرعان ما تحيلهم إلى وحوش وهذا بالضبط ما فعلته برفاق أوديسيوس بعد أن حالتهم إلى خنازير. فقط بواسطة عشب المولي ذي الجذور السوداء والزهرة البيضاء التي أتى إليها هرمس، سلفه البعيد، وأهداها إياه، يمكنه ردع تعاويذ الساحرة. أُغرمت كيركي به، ولم يشعر أوديسيوس بأي ثقة ناحيتها، وقبل أن يدخل إلى فراشها طلب منها، من أجل حبه، أن تُعيد إلى كل تلك المخلوقات طبيعة البشر مرة أخرى، بارك فراشها وأنجبت منه ثلاثة أبناء منهم تيليجونوس الذي سيلعب دورًا حاسمًا في مصيره بعد ذلك.

أما عن المرأة الأخرى فتُدعى كاليبسو، حورية ابنة تيتي وأوقيانوس وتعيش في جزيرة أوجيدجا التي تفيض بشتى أنواع الورد حيث سيصل أوديسيوس بعد أن يخسر سفينته وكل طاقمه. كانت فاتنة وتتمتع بقوى سحرية أيضًا، وعرضت على أوديسيوس هبة الشباب الأبدي إن بقي معها ولم يرحل. بقي أوديسيوس في أوجيدجا سبع سنوات متواصلة، وأنجب منها توأمين ناوسيتوس وناوسينوس، ورغم ذلك لم تكف سوسة إيثاكا بالنخر في قلبه، إما الرحيل وإما أن يبقى في معاناة ذلك الحب إلى الأبد. لم يعرف أوديسيوس الحب المثلي رغم شيوعه بين سائر الأبطال المحاربين أمثال هرقل وأخيل. أراد الرحيل من ذلك الفردوس وأرسل إليه زيوس سفيره الأكثر كفاءةً، هرمس، ليقنع كاليسبو بأن ترضخ لمطلبه. يبحر أوديسيوس مرة أخرى على ظهر طوف يفيض بالمؤن من حبوب ونبيذ وماء ولحم مجفف.

عندما رأى بوسيدون، عدوه الأبدي، القارب حيث أوديسيوس يجدف من فوقه، أثار زوبعة من الرياح، مرة أخرى، والأخيرة، وبالفعل كانت لتغمره وتغرقه لو لم يفطن أوديسيوس أن ملابسه الثقيلة تساهم في سحبه إلى الأسفل وأن عليه خلعها في الحال والخروج عاريًا طافيًا على سطح المياه. تدخلت أثينا فاعلة الخير الأبدية وأطلقت العنان لأربع رياح معاكسة حتى تُسطِّح الأمواج، وتمكَّن أوديسيوس السبَّاح الماهر من الوصول في غضون يومين، وكان منهكًا وعاريًا، في المرحلة الأخيرة من رحلته المذهلة من ناوسيكا وسكيريا.

عند وصوله إلى إيثاكا استأنف أوديسيوس عاداته القديمة في التنكر واستعراض الأكاذيب، مما يلقي بظلال الريبة حول كل ما رواه في بلاط ألسينوس، حول كل الجوانب المذهلة والبحرية لمغامراته. دائمًا ما كَنَّ البحر، بوسيدون، كل عداءٍ له، ودائمًا ما كانت أثينا قريبةً منه. عندما عادت أثينا إلى الظهور على سطح إيثاكا وتراءت له في هيئة راعٍ شابٍّ، لم ينفك أوديسيوس عن إخبارها بالأكاذيب؛ فيروي لها أن أصوله من كريت وأنه لجأ إلى الهرب بعد أن قتل ابن الملك.. تضحك أثينا لأنها تعلم جيدًا أن تلك الأكاذيب ليست سوى جزءٍ من ذكائه الماكر التكتيكي الداهية الذي يمتاز به.

كانت أثينا نفسها هي التي جعلته يمتاز بجمالٍ مُلفتٍ وبطول القامة في ناوسيكا، لكنها الآن تحيله إلى صورة معاكسة، فجعلته عجوزًا وأضفت عليه هيئة متسول. وحدها الكائنات الأكثر احتقارًا وأمانة يمكنها التعرف إليه؛ إومايوس راعي الخنازير والكلب أرجو وفي النهاية المربية العجوز أوريكليا التي تعرَّفت إلى الجرح القديم الغائر في فخذه الذي يرجع إلى أنياب خنزيرٍ بري.

في منزله المليء بأولئك الطامحين إلى الزواج من بينيلوبي التي نجحت في تأجيل يوم اختيار العريس بفضل لوحة لايرتس القماشية الشهيرة التي كانت تنسجها نهارًا وتفسدها ليلًا، يدخل أوديسيوس متنكرًا، ويجول متسولًا، ويحتمل إهانات أنتينوس الأكثر غطرسة بين خُطَّابها، حتى إنه ألقى بمقعدٍ على رأسه، أيضًا بينيلوبي لم تتعرَّف إليه ولم نعرف إذا كان لم يثق بها تمامًا وأراد أن يتوجه إليها بالأكاذيب وأنصاف الحقائق.

أخيرًا حان موعد اختبار القوس الذي من خلاله سيُعلَن العريس المنتصر مرة واحدة وإلى الأبد، يتمثل الأمر في القدرة على تمرير سهم باثنتي عشرة حلقة حديدية، ولم يفلح أحدٌ في القيام بذلك حتى باستخدام القوس القديم العظيم الذي تركه أوديسيوس منذ عشرين عامًا، ينجح المتسول العجوز وحده، ويمرِّر السهم الأول نحو الهدف، وأما الثاني فاستقر في حلق أنتينوس.

كان ذلك بداية المذبحة؛ إذ قتل أوديسيوس برفقة رجاله القليلين مائة وعشرين من أولئك الطامحين إلى الزواج الذين وقعوا تحت رحمته بعد أن تمكَّن، الإستراتيجي العظيم، من أخذ أسلحتهم بعيدًا عن الردهة التي انعقد الاختبار داخلها حيث ترفرف أثينا الآن في هيئة طائر السنونو سعيدةً وراضية بالمجزرة. مجمل القول إن أوديسيوس أعدَّ مذبحة لرجالٍ غير مسلحين ولم يشفق على أي منهم، حتى الاثنتا عشرة جارية، وسط خمسين جارية لبينيلوبي، اللواتي وقفن في صفوف العدو، أجبرهن على تنظيف الردهة من بحار الدماء ثم شنقهن جميعًا.

أما ما حدث لأوديسيوس بعد ذلك فكل فردٍ يمكنه أن يتخيله كما يحلو له،

تخيله دانتي بقوة عظيمة فائقة، لكننا لا نتيقّن من حقيقة ذلك.

بعد أن توقف القتال بينه وبين المتمردين الإيثاكيين بفضل شفاعة أثينا، يقول البعض إنه انطلق بعيدًا عن البحر لإرضاء بوسيدون، وقدم له ذبيحة من كبشٍ وثورٍ وخنزيرٍ بري. أخذ يجول عشر سنوات أخرى، ثم رجع إلى إيثاكا حيث كان تيليجونوس، ابنه من كيركي، يرتحل أملًا في العثور على أبيه، لكنه لم يتعرف إلى أوديسيوس وقتله، أنهى سوء تفاهم حياة البطل الذي لم يكف عن اختلاق الألاعيب والتنكر والأكاذيب حتى باتوا قاعدةً لحياته برمتها.

بسبب تعقيداته متعددة الجوانب التي تصل إلى حد التناقض، الذكورية والأنثوية، البطولية والتي تعادي البطولية، الماكرة والمتألمة، التافهة والمجيدة، أوديسيوس أو أوليس أيًّا كان ما نحب أن نناديه، يتحدث إلى النفس البشرية بصوتٍ تعرفه هي جيدًا، صوت يحتقر الحرب تقريبًا،

ويُعلي من شأن العودة إلى الوطن، كما لو أنه يريد إخبار النفس بأن القتال ليس ضمن واجباتها، بل عليها الانتقال والسفر والبحث عن ذاتها وأصولها، يبدو أنه أراد الإقرار بالحاجة الماسَّة إلى العودة.

الجزء الثالث

صيانة النفس

في أي أسطورة نعيش الآن؟

دائمًا ما تفكرتُ أن جسر موراندي(103)؛ ذلك الجسر العظيم الذي يربط أجزاء جنوة الغربية بشرقها عابرًا بولتشيفيرا بأكملها، تهيمن عليه روح بروميثيوس. يبدو أن أحد جبابرة العاشقة لتحدي السماء هو من أوعز بتلك الفكرة الملهمة إلى صاحبه. عند الصعود بالسيارة أعلى ذلك الجسر، ودون حاجة إلى السير بسرعة عالية، سيراودك، عزيزتي القارئة وعزيزي القارئ، ذلك الانطباع بأنك تقلع في رحلة فوق أنحاء المدينة، وسترى مدى حجم أبراج الجسر وكبلاته الهائلة، بحجمٍ لا يُقارن بإنسانٍ أو سيارة.

(103) يُسمى جسر بولتشيفيرا وهو جسر في جنوا بإيطاليا بُني بين عامي 1963 و1967 على طول الطريق السريع فوق نهر بولتشيفيرا، الذي اشتق منه اسمه الرسمي. يُسمى الجسر على نحوٍ واسعٍ باسم «جسر موراندي» تيمنًا باسم مصممه الإنشائي، المهندس الشهير ريكاردو موراندي.

عندما كنتُ أمرُّ فوقه مع أبي، كنت ألاحظ الفجوة الثقافية التي شطرتنا عبر أحكامنا، رأى أبي الضابط في صفوف الجيش الإيطالي في لاتسيو إبَّان الحرب العالمية الثانية، الرجل العفيف، قديم الطراز، أن ذلك الجسر يُعَد برهانًا قاطعًا على تفوق الإبداع البشري على الطبيعة، ولم يكن يكف قطُّ عن إظهار حماسة متباهية. أما أنا كنت أتغزل في الثقافة الكاليفورنية المضادة آنذاك، الليبرتارية(104) الأيكولوجية، التي كانت تتمتع بسحرٍ آخاذ بالتأكيد، لكنها كانت بمنزلة إعلان على التجاوز والغطرسة للإنسان الغربي الذي يرغب في تحدي قوانين الطبيعة نفسها.

(104) التحررية أو فلسفة الحرية ويسميها البعض مذهب مؤيدي مبادئ الحرية، وهي المذهب السياسي الفلسفي الذي من أولوياته الحفاظ على الحرية الفردية، ويدعو إلى التحرر وإزالة القيود المفروضة على الفرد من قِبَل الدولة والمجتمع كالعادات والتقاليد وتقليص حجمها قدر المستطاع.

في صباح أحد أيام أغسطس الغائمة الممطرة، انهار الجسر ولم يستطع أحد منا نحن السكان المنتقلين عبره باستمرارٍ تصديق الأمر؛ بدا لنا الأمر أقرب إلى المستحيل. عندما وصلتنا الصور الأولى للحادث شعرنا كما لو أن هوة أرضية انفتحت تحت أقدامنا، كأننا انفصلنا بغتة عن جزءٍ من العالم وعن كل مصدر لسلامنا.

إن الجسر المعروف باسم موراندي الذي سُمي باسم المهندس الذي صمَّمه، تهاوى إلى الأسفل مبتلعًا ضحاياه المساكين بين أنقاضه، وتاركًا جزأين منشطرين منه يأنس أحدهما الآخر في الفراغ، وبدا كأن شيئًا لم يمسسهما بصورة تبعث على الضجر، كما أتذكر تلك الشاحنة الخضراء الواقفة على بُعد خطوة واحدة من الهاوية، دون أن تصاب بأي أذى، والتي تجعل المرء يتأمل في ديناميكية القدر التي يستحيل إدراكها.

على الفور بات واضحًا، وهذا ما تم لاحقًا بنصٍّ قانوني، أنه إن جرت صيانة كافية مسؤولة دؤوبة، لكان من الممكن تجنب تلك المأساة.

جميعنا نعلم حاجة موتور السيارة إلى صيانة مستمرة، ولقد مررنا جميعًا بتلك التجربة عندما نحمل سيارتنا إلى الورشة لإجراء الصيانات الدورية اللازمة، لكي يتمكن موتور السيارة من الصمود ومواصلة وظيفته؛ فكل قطعة بداخله يجب أن تقوم بعملها أيضًا. لهذا، يفتح الميكانيكي غطاء المحرك، ويبدأ في فحص أجزاء الموتور -دعوني أعترف لكم أن صوتها يبدو لي متناغمًا ولا ينم عن وجود أي خلل- التي أسعى إلى البحث عن معانيها في القاموس: الشمعة والكاربراتير وفلتر الزيت وفلتر الماء. ينبغي لي أن أثق به؛ فهو يعرف جيدًا كيف يتعامل مع ذلك الموتور، وبين الحين والآخر أجد أن بعض الأجزاء في حاجة إلى الاستبدال، إنها حزمة من الاحتياطات الوقائية لتجنب أي مخاطر محتملة في أثناء السفر؛ بمجرد أن يوصيني الميكانيكي الخاص بي بذلك، أُسرع لإصلاح أسطوانة الدبرياج قبل أن تحترق، وأستبدل الإطارات القديمة بأخرى جديدة قبل أن تتهالك تمامًا وتنفجر.

والآن، ربما نفد صبرك عزيزتي القارئة وعزيزي القارئ، وتسألني: ما علاقة النفس بموتور أو جسر؟

ما نوع الصيانة التي يجب أن نفكر فيها بذكر تلك الأمثلة؟

جميعنا على دراية بأن عند الحديث عن النفس، فنحن داخل مملكة شاسعة من الرمزية، وبصورة رمزية، يمكن مقاربة النفس من الجسر على الأقل لأنها تربط بين الجسد والروح، الظلمة والنور، الوعي واللا وعي، الإنساني والإلهي، إنها جسرٌ معلقٌ بلا نهاية، تفوق جسر موراندي العتيق في المجازفة والجموح.

من ناحية أخرى، تتحرك النفس في داخلها، تُحرك ذاتها، وتساند أنفاسها الحية وجودنا كبشرٍ، إنها «الموتور»؛ محرك وجودنا في ذلك العالم، حتى إنها تتألف من عدة مكونات تتفاعل فيما بينها: كل تلك «النزعات البشرية» التي جسدتها الشخصيات الأسطورية التي تحدثنا عنها سابقًا معًا.

ولاستكمال الاستعارة السابقة، نقول إن صيانة النفس تعني إبقاءها في حالة سليمة جيدة.

الأمر ليس بشفاءٍ أو علاج بسبب وجود أمراض نفسية في حالة أن الصلة بين الجسد والروح تكون قد انزلقت في مخاطر بالفعل. على سبيل المثال؛ لدينا قاتلٌ متسلسلٌ مصابٌ بالبارانويا، ويشعر بحاجة ملحة إلى ارتكاب أبشع الجرائم ليجني المتعة من ورائها بعد أن يكون قد نفَّذ العديد منها بالفعل، فهنا لن نستطيع الحديث عن صيانة النفس. ما إن يُقبض عليه حتى يُودَع في ورش أخرى، بدءًا من تلك الخاصة بالطب النفسي وحتى الخاصة بالتحليل النفسي، وورش تأهيلية بخطوات صيانة طويلة مضنية. بعد ذلك، وإن تطلب الأمر، يتم إرساله أيضًا إلى ورشة دينية مؤهلة لمنحه صيانة مجانية من خلال سر الاعتراف الكاثوليكي، فإذا لاحظ الكاهن بوادر توبة حقيقية، ففي إمكانه غفران ومحو كل ذنوبه مهما بلغت فظاعتها.

يجب أن تتم أعمال الصيانة أولًا: قبل أن يصبح المرء قاتلًا متسلسلًا، أن يصبح كل من تشارلز مانسن(105) أو جيفري دامر(106) أو دوناتو بيلانشا(107) أو أندرس بهرنغ بريفيك(108)، كان إنسانًا بريئًا، بل حتى هتلر كان بريئًا، وهذا ما شعرتُ به بعد أن رأيت له صورة نادرة لطفولته. تُرى، أي خلل، أو بوادر لقوى ظلامية، أو فتنة لعينة، تكون قد تغلغلت في أنفسهم ودفعتهم حتى أصبحوا على تلك الشاكلة؟ هل يكونون قد تعرفوا إلى صور ديونيسوس وتجاوزاته، أو بان ودوافعه العنيفة، أو أجاممنون وتوقه إلى التسلط والسيطرة؟ ربما سمحوا بخروج الشخصيات العالقة بالجزء الأكثر ظلمةً من نفوسهم، الوحوش التي تقبع داخلنا جميعًا، من دون وجود الوزن المنير المعادل للربات والآلهة الذين يجلبون الحكمة والأبطال الذين يقاتلون عنا ضد أولئك الوحوش.

(105) زعيم إجرامي وطائفي أمريكي، شكَّل ما أصبح يعرف باسم «عائلة مانسون»، ومقرها كاليفورنيا، ارتكب أتباعه سلسلة من تسع جرائم قتل في أربعة مواقع في يوليو وأغسطس 1969. وفقًا لمفوض لوس أنجلوس، تآمر مانسون لبدء حرب عرقية، على الرغم من أنه مشكوك في هذا الدافع.

(106) قاتل متسلسل أمريكي كان يقتل الذكور الشباب واليافعين بصرف النظر عن جنسيتهم، قتل معظم ضحاياه خنقًا ثم قام بتقطيع جثثهم وسلخ جلودهم والاحتفاظ بهياكلهم العظمية أو أجزاء منها، وفي بعض الأحيان كان يحتفظ بأجزاء كاملة من

الجثة ويأكلها.

(107) قاتل متسلسل إيطالي قتل سبعة عشر شخصًا، تسع نساء وثمانية رجال على الريفييرا الإيطالية في الفترة من أكتوبر 1997 إلى أبريل 1998، اتسم أسلوب عمل بيلانشا بصورة غير متسقة جعلت من الصعب التعرف إليه والإمساك به.

(108) يميني نرويجي ارتكب هجمات النرويج عام 2011 وهو من اليمين المتطرف كما أنه معادٍ للإسلام وأشير إلى أنه ماسوني. وصف نفسه بأنه فاشي، ونازي، ويُمارس الديانة الأودينية الوثنية الجديدة، ويستخدم الخطاب المعادي للجهاديين لدعم القوميين الإثنيين.

عندما سعى جيمس هيلمان(109) إلى تحليل شخصية الديكتاتور الألماني باستخدام أساليب غير مألوفة، أسهب كثيرًا في علاقته بالعديد من بعض الرموز: الجليد الذي وضعه دانتى في أقصى أعماق الجحيم حيث يقبع قايين ويهوذا ولوسيفر، والذي أكد هتلر أن داخل قلبه الكثير منه حتى اللحظات الأخيرة، النار التي أخمد منها الجزء الذي يبعث الدفء والنور والتحول، ولم يرَ بها سوى الجزء المدمِّر حتى النزع الأخير في فناء قبو الفوهرر(110)، وأخيرًا رمز الذئب، ذلك الحيوان الذي تطابق مع شعاره الوحشي حتى سمَّى نفسه إبَّان صباه هير وولف، وأطلق على شقيقته فراو وولف، والتفكير بأن اسمه نفسه؛ أدولف، مشتق من أدالوولف أي الذئب النبيل بالألمانية.

(109) عالم نفس أمريكي، درس في مدرسة C.G. أسس حركة نحو علم النفس الأصلي. بمعهد جونغ في زيورخ.

(110) (وتعني بالألمانية الزعيم Führer الذي كان يُلقَّب بالفوهرر) المقر الخاص والأخير لأدولف هتلر قائد الرايخ الثالث، وكان هذا الملجأ هو المقر المحصَّن للمستشارية وقيادة الجيش في الفترة الأخيرة قبل سقوط ألمانيا النازية في مايو 1945، ويقع هذا الملجأ بالقرب من مستشارية الرايخ في برلين، وقد أمر الزعيم النازي بحرق جثته وجثة زوجته إيفا براون، لأنه كان يخشى أن يتم شنقهما والتشفي بهما.

هل يمكننا القول إذن بأن صيانة النفس، مثلها مثل صيانة الجسر والموتور، لها طبيعة استباقية؟

أنت وحدك بمقدورك أن تجتهد بالعمل على نفسك، وربما يكون توازنك بحالة سليمة لكنه غير مستقرٍّ، كسائر الموازين الحية. إن نفسك مزدحمة، ويمكنك الشعور بالنزعات البشرية التي تنمو في جوانبها حتى تصبح بمنزلة أسيادك ما دمت لم تتعرف إليهم ولم تنعتهم بأسمائهم.

أمامك شخصيات الأسطورة اليونانية، والآن في إمكانك رؤيتها متجسدة في هيئة ربات وآلهة، بطلات وأبطال، ويمكنك أن ترى لوحة «تعدد النفس»(111)، وتبدأ في السلوك بصدده.

(111) استخدم المؤلف مصطلح تعدد الآلهة بالنسبة إلى النفس.

إن الغرض من الصيانة يتمثَّل في جعل الحياة أكثر وفرةً وغنى ووعيًا بحدودها وتطلعاتها إلى اللا نهائية، والتخفيف من وطأة الشعور بالفراغ، وتعزيز ذكرياتك، ووضع رغباتك في موضعها

السليم. تساعدك الصيانة على الاعتراف لذاتك بأحلامك، وخاصة أحلام يقظتك، الخيالات (حلم اليقظة في لغة فرويد)، وفهم تطلعاتك، وإلقاء الضوء على أسباب تعاستك وسعادتك.

بشكلٍ عامٍّ، لا يدرك البشر ذلك، بل تتأرجح حياتهم كالرقَّاص بين الألم والمتعة من دون أن يدركوا، أو يتساءلوا عن الأصول البعيدة لذلك التأرجح المستمر. أفصح جوته عن ذلك؛ إذ لخَّص في بيتٍ مبهرٍ التساؤل الأبدي حول جوهر ما نشعر به نحن البشر، والذي يؤهلنا على هذا النحو:

Was soll all der Schmerz und Lust?

(ما قيمة كل هذا الألم وكل هذه المتعة؟).

بعد ذلك بوقتٍ طويلٍ، هناك شاعرٌ بسيطٌ مغمورٌ من ليجوريا يُدعى كاميللو سباربارو، اتجه إلى نفسه ليكشف من جديد قطبي اللذة والمعاناة اللذين تقضي النفس حياتها الأساسية بينهما بلا أدنى مقاومة:

اصمت؛ فالنفس سئمت من المتعة والمعاناة.

(تارة تستسلم لإحداهما وتارة تستسلم للأخرى).

كما رأيت، عزيزتي القارئة وعزيزي القارئ، فإن الصيانة الجيدة بمنزلة عملية تتطلب الاهتمام وتتم على مراحل عدة.

هل نحن على يقين بأنه داخل صَدفة أنفسنا ما زالت تهب كل تلك الرياح العجيبة التي تحُدِّثنا عن بحر الأصول وطاقة الغموض؟ هل نحن على يقين من أن كل المشاعر التي تحدد ملامح الإنسان في ملء كيانه لا تزال تتحرك في داخلنا؟

في أحد كتبه الفذَّة يروي الشاعر روبرت بلاي، صديق ومعاون لجيمس هيلمان ومؤلف قصيدة غاية في الجمال ترجمتها منذ عدة سنوات بعنوان طوبى للراقصين، أن هناك ثقلًا أو كيسًا يحمله كل فرد منا على كاهله، كيسًا أو حقيبة كبيرة أو حقيبة سفر، موضوعة على ظهرنا من دون أن نتمكن من رؤيتها.

في الواقع، لا يُولد منا أحد وعلى كاهله أي شيء من هذا القبيل؛ إذ إن المولود الجديد يتمتع بحرية تتعدد أشكالها، من دون إشراط(112) أو قيود.

(112) يمكن إشراط الكائن الحي عن طريق المثيرات المحايدة التي تتم قبل حدوث الإشراط نفسه.

شيئًا فشيئًا، بعد مرور السنين، ينمو الطفل الصغير، ويظهر الكيس على كتفيه من خلفه، ويبدأ في الامتلاء تباعًا، يمتلئ بكل ما يرفضه حامله ويرميه من خلفه، وخصوصًا تلك القواعد التي تنصها الأسرة أولًا، ثم المدرسة، ثم المجتمع: الأب والأم، المعلمة والمعلم، وبعد ذلك مديرو الشركة التي يعمل بها، لتبدأ سلسلة من القواعد التي تقيده وترمي بثقلها على كاهله بدءًا من الطفولة المبكرة وحتى سن البلوغ. كلما امتلأ الكيس الموضوع على أكتافنا، فرغت نفوسنا من داخلها أكثر فأكثر، وتقلَّصت حريتنا، وبُهتت نزاعاتنا.

والآن يبدو أن الكيس أو الحقيبة الكبيرة أو حقيبة الظهر، فلتدعوها كما يحلو لكم، قد انتفخت بصورة واضحة، وإليكم كل ما اندثر داخلها تدريجيًّا: اللهو والعفوية والإحساس بالدهشة والمتعة والحرية الجنسية والعواطف النزيهة والفردية وعدم الانسياق والحماسة والجوع إلى الله والبحث عن الحقيقة والإيمان بما لا يُرى.

وهكذا، يطوف العديد من البشر الآن في مدنهم وبيوتهم حاملين كيسًا يتزايد حجمًا واتساعًا على كاهلهم، وقد أدمنوا وجوده، وأصبحوا ببساطة بيادق في لعبة اقتصادية وتكنولوجية لا يفقهون شيئًا عن قواعدها، وقد تماهت أشكالهم من دون اختلاف يُذكر، من دون بواطن روحية، وقد انطفأت نزعاتهم البشرية وخسرت هويتها.

تبدأ صيانة النفس السليمة من تلك اللحظة الأولى التي تكشف ما ألقيناه من خلفنا وما نحتفظ به داخلنا حتى الآن. إنها عملية إعادة تخصيص: أي إفراغ الكيس وملء النفس. ما يتلو ذلك أن النزعات البشرية والعواطف والدوافع والرغبات والأحلام والآلهة القديمة والبطلات والأبطال القدامى الذين تمت تنحيتهم جانبًا، يستردون مواضعهم داخلها بأصالتهم المعهودة من جديدٍ.

لا شك أن لسرد القصص أهمية بالغة، أتفق مع توماس مور، المقرب من هيلمان أيضًا مثل بلاي، المعلم الحاذق الذي قال: «إن سرد القصص يُعَد وسيلة رائعة للاعتناء بأنفسنا؛ إنها تساعدنا على رؤية الموضوعات المحيطة في حياتنا، والموضوعات العميقة التي تخبرنا عن أي أسطورة نعيش بين أحداثها».

على كل فرد منا أن يخلق لنفسه القصة الملائمة من خبرته الخاصة، من دون أحجبة أو من دون انتحال، على المرء إذن أن يتَّبع أسلوبًا مغايرًا تمامًا لمنشورات الفيس بوك، التي يلجأ من خلالها -عدا استثناءات نادرة جدًّا- إلى أن يتحدث عن نفسه بالطريقة التي يحب أن يراه الناس بها؛ أكثر جمالًا وسعادةً وعصريةً تجعله محسودًا في أعينهم.

كلا، يجب أن يتم الحكي عن أنفسنا بصورة صادقة بلا رتوش، علينا أن نجد الوقت والشجاعة لإتمام ذلك، إن الأمر ليس بكتابة يوميات، وليس بصورة ذاتية أيضًا، ليس بالأمر الهيِّن ولكنه شديد الأهمية.

على المرء أن يتعلم كيف يتحدث إلى نفسه، مع ذكرياته ورغباته، بهذه الطريقة فقط يمكن تحديد الأقطاب الفعالة التي يتم تهيئة وجودنا من حولها.

على المرء أن يفصل لحظات التعاسة ولحظات السعادة في نهاية كل يوم، ويتعلم كيف يعطي مساحة لتلك الأخيرة متذكرًا دعوة جوزيبّى أونجاريتّي «أيتها اللحظة الجميلة، ارجعي إليَّ سريعًا»، ويجعل منها لحظته الخاصة، وأن يُكنز له كل جميلٍ منحته إياه.

يظهر كل شيء عبر السرد؛ كل النزعات البشرية التي تحيا بأنفسنا، كائن حي بالغ التعقيد مليء بالكهوف المعتمة والقمم المتوهجة والغابات والأراضي المشمسة والصحاري والبحار الساكنة تارةً والهائجة تارةً أخرى. الآن، صرنا في حاجة إلى تحديد «أي أسطورة نعيشها»، وأقصد بتحديدها الاقتراب من الطاقة الأصيلة البدائية لأنفسنا، والقدرة على فحص أحوالها، وإدراك أي تعديلات في حاجة إليها، ولفهم ما المقصود بـ «عيش الأسطورة»، علينا أن نلجأ إلى بعض الأمثلة البسيطة.

أنتِ امرأة تبلغ الخامسة والأربعين من العمر، عمرٌ يمكن للنساء أن تبقي على روعة جمالها في هذا العصر، ولقد قضيتِ سنوات شبابكِ في دراسة متعمقة شغوفة بعلم الأحياء، وحصلتِ على درجة علمية، ودرجة الماجستير من الولايات المتحدة، وخبرات في معامل بحثية عديدة. قضيتِ أيامكِ بمفردكِ في شققٍ صغيرة مستأجرة تقع في مناطق راقية من مدينتكِ. أما في بعض عطلات نهاية الأسبوع فتذهبين للعيش في منزل والديكِ الريفي اللذين لا تتمكنين من رؤيتهما إلا في تلك المناسبات. تشعرين بمودةٍ نحوهما وخصوصًا حيال ابن شقيقتكِ الصغرى الأول، لم تفكري في الإنجاب من قبل، ولم تفكري في اقتناء أسرتكِ الخاصة، والآن أصبحتِ في مركز مرموق بشركة أدوية كبيرة متعددة الجنسيات. تمكنتِ من شراء شقة رحبة، بل وأنتِ من أشرفت على التجديدات بنفسكِ بانتباهٍ شديد للتفاصيل الصغيرة وكفاءة لا مثيل لها. في غرفة معيشتك تقضين أمسياتٍ هادئة برفقة كأس من النبيذ الأحمر ذي الماركة العالية والموسيقى الجيدة، تحبين الموسيقى الكلاسيكية، وصوت القيثارة والفلوت. كل طاقات حياتكِ تتم استثمارها في أنشطتكِ المهمة التي تجلب لكِ الرضا. تقتصر كل علاقات صداقاتكِ على مجال العمل فقط، ولديكِ بعض المعارف الذين

لا يتجاوزون حدود الزمالة وبروفيسور جامعي مرجعي طاعن في السن. لا تفكرين في شيء سوى حياتك المهنية وتكرسين حياتكِ للتقدم في معرفة مجالكِ الدراسي. تنشرين مقالات وتذهبين لحضور المؤتمرات، وتمتازين أيضًا بقدرتك الإستراتيجية على نسج العلاقات الوظيفية لعملكِ. تمتازين بتوازن وهدوء ونشاط، ويعد العقل بمنزلة مرشدكِ الأول؛ حينئذٍ يمكن أن يُقال عنكِ أنكِ تعيشين أسطورة أثينا.

أنت رجلٌ تبلغ خمسة وأربعين عامًا من العمر، ذلك العمر الذي يبدو ضمن مرحلة الشباب في وقتنا هذا، لكن على أي حال سيكون قد مرَّ نصف حياتك، قمتَ بدراسات تقنية لتعمل بعد ذلك كبائعٍ في متجرٍ لبيع الأدوات والمعدات في مدينتك. قرر المالك ترك المتجر بسبب التقدم في السن وتتولى أنت استئناف النشاط من بعده. احتاج الأمر إلى شجاعة ولكنك فضَّلت البقاء في موضعك من دون الحاجة إلى تغيير، وقد شعرت بعلاقة حميمية تربطك بذلك المتجر بعد أن قضيت عشرين عامًا أو أكثر كبائعٍ. تحاوطك الطمأنينة وأنت ترى العملاء نفسهم وتمزح معهم بالكلمات ذاتها، ولكن منزلك كان أكثر ما يطمأنك، ويقع على بعض مئات الأمتار من المتجر في شارع شبه عمومي. كنت لا تزال تدفع رهنًا عقاريًّا إزاءه في حين أنك اضطررت إلى أخذ رهنٍ آخر بعد تولي محل المالك. يبدو منزلك مريحًا وبسيطًا في أثاثه بلا صفاتٍ محددة، يروق لك على حالته هذه. تقوم بنفسك بإجراء العديد من التجديدات داخله، حتى تجعل منه مسكنًا آمنًا ببابٍ مصفح وعازل للصوت بالجدران. تعيش في المنزل ومعك زوجتك وابنك، وترتبط بهما ارتباطًا حميميًّا، وتبذل قصارى جهدك ليكونا بخيرٍ؛ فهما الشغل الشاغل لكل أفكارك. لم يعد العمل داخل المتجر كسابق عهده، وأصبحت المنافسة مع المتاجر الأخرى الكبيرة ملموسة بصورة واضحة، ورغم ذلك لن تفشل في إيجاد الراحة دائمًا في منزلك. ذلك الطريق الذي يبلغ طوله مئة وخمسين مترًا بين المنزل والمتجر ربما يُثقل كاهلك قليلًا، لم تتوقف قط لتناول القهوة، ولم ترَ شيئًا سوى الأسرة المجتمعة في غرفة المعيشة أمام التلفزيون، الزوجة والابن المراهق وأنت. لا شيء يروقك أو يمنحك السلام أكثر من ذلك. تتباهى دائمًا بإخلاصك لزوجتك وتسعى جاهدًا أن تُبقي ابنك بمنأى عن العالم الخارجي. ليس لديك أصدقاء، فالموقد يشعرك براحةٍ، ويمنحك مركزية ومعنى، حينئذٍ يمكن أن يُقال عنك إنك تعيش أسطورة هيستيا.

أنتِ لم تبلغي من العمر الثلاثين عامًا إلى الآن، ولقد قضيتي حياة قصيرة كصبية غريبة الأطوار في شقة تبلغ مساحتها خمسة وعشرين مترًا في إحدى العواصم، وانغلقتِ على نفسكِ

أمام الحاسوب، وألعاب الفيديو، غارقةً في الظلام، وتاركةً العالم الخارجي برمته. تتحلين بالبيرسينج(113) في حاجبيكِ، وترتدين ملابس الذكور، من دون أي مساحيق تجميل، وتتركين شعركِ طويلًا منسدلًا على كتفيكِ أو معقودًا خلف العنق. تحين نقطة التحول؛ إذ يخبركِ والداكِ اللذان يساورهما القلق بعد مرور أسابيع دون رؤيتكِ، بأنه حسب وصية جدتك في أملاكها، تركت لكِ منزلًا ريفيًّا صغيرًا معزولًا في قلب وادٍ بكر تحدُّه أرضٌ من حوله تحيطها غابة من أشجار البلوط والكستناء والتنوب. هكذا، ومن دون معرفة السبب، تتركين حياتك المنعزلة في المدينة بغتة، وتمضين إلى العيش بمفردكِ في بيت ريفي صغير ورثته عن جدتكِ. من عزلةٍ بين أسوار الجدران الأربعة، صرتِ تمضين عزلتكِ وسط الخُضرة وفي الغابة.

(113) محاولة لتعديل شكل الجسد وتزيينه، وهو عبارة عن أداء ثقب أو قطع في أحد أجزاء الجسد.

الآن لا تتنسمين سوى هواء الخُضرة، وتُغرمين بحياة الحيوانات. كانت جدتكِ تمتلك حصانًا وأصبحتِ تتعلَّمين كيف تمتطينه في جولاتٍ قصيرة حول المنزل أولًا، لتطلقي عنانه بعد ذلك وسط الأراضي المعشوشبة وفوق التلال. تنفصلين أكثر فأكثر عن ائتلافات البشر، وترتدين أبسط الملابس عن ذي قبل، وأصبحت سعادتك تتمثَّل في الجري تحت المطر حيث تفوح رائحة العشب الرطب في الأجواء، والتجول في الغابات في الليالي الصيفية، واستماع نعيق البومة، والتطلع إلى انعكاسات القمر بين فروع الأشجار. لا تريدين أن يمسسك رجلٌ أبدًا، وتكتفين بذاتكِ، وتقبلين في بعض الأحيان صحبة بعض الصديقات ما دامت تجمعكن بعض الصفات معًا، حينئذٍ يمكن أن يُقال عنكِ إنكِ تعيشين أسطورة أرتميس.

أنت شابٌّ يحب الرياضة والدراسة على قدم المساواة، ربما الرقص أيضًا. شاب رجعي بعض الشيء تظهر حاجة في داخله إلى اتزان يدفعه إلى ارتداء لباسه بطريقة تقليدية، بنطالًا ذا الكُسر وسترة زرقاء ويضع الكرافتة المخططة بالأزرق والقرمزي حول عنقه. تقبل أن يُقال عنك، دون أن تُفاجأ، أنك خارج الزمان أو ربما مثلي الجنس؛ ربما هذه حقيقتك في أعماقك. تنظر إلى جموع الجماهير التي تتبع الموضة بنظرة بها القليل من الازدراء. تسعى إلى التميز في الوثب العالي، والركض مئة متر، ورمي القرص بصورة خاصة حيث دائمًا ما حققت أفضل المراكز في سباقات الألعاب الأولمبية في مدرستك. تعتني بجسدك، وتريده متسقًا وقويًّا دائمًا، وجميل المظهر قبل أي شيء. كنت على علاقة عابرة بفتاةٍ دون أن تلتزم معها بأي رباطات عاطفية، وأبقيت نفسك أبعد من أي تورط عاطفي جامح. تحب التوازن وتبحث عنه وتؤسسه بنفسك. تحب

الموسيقى غير الصاخبة، وأمام الملايين من أقرانك الذين يبحثون عن فيديوهات مطربي الراب على اليوتيوب، تبحث أنت عن أغانٍ ذات رتم مُلحّن بنظامٍ دقيق، بين كول بورتر(114) وجورج جيرشوين(115)، التي ربما لم تنل القدر الكافي من المشاهدات. من ثَمَّ، وسط ذلك المجتمع الذي جرفته تيارات ديونيسوس التافهة التي تدفع جموع الشباب إلى انتهاك المُثل والجموح والانجراف نحو اللا هدف، تصبح أنت بين قلة قليلة تعيش أسطورة أبوللو، الإله البعيد المتأمل الأرستقراطي المختلف عن أثينا العطوف المؤثرة الحريصة على القرب من البشر دائمًا.

(114) ملحن ومؤلف أغانٍ أمريكي.

(115) مؤلف موسيقي أمريكي نجح في مزج موسيقى الجاز مع الموسيقى الرومانسية الكلاسيكية.

لا يوجد أي تفرقة حسب النوع في الأسطورة؛ فأثينا وهيستيا وأرتميس الربات الإناث، وأبوللو الرب الذكر، يحيون داخل نفس الرجل أو المرأة أو المخنث أو المتحول جنسيًّا بلا أي تمييزٍ.

بمجرد أن نحدد الأسطورة المهيمنة على حياتنا علينا أن نغربلها في مُنخُل بلا رأفة: هل تجعلنا نشعر بسعادةٍ؟ هل نشعر بملء الحياة داخلنا بفضلها؟

ربما تكشف لنا الصيانة السليمة أننا نخطئ إذا ما ضحينا ببقية الأساطير الأخرى في مقابل الأسطورة الوحيدة التي نعيشها. إن تحدث إله واحد داخلك، تيار واحد من الطاقة الروحانية، ربما تصبح بمرور الزمن أحد تلك الأنواع البشرية المصمتة الجامدة، من دون أي هواجس صحية من الشك، من دون العطف الذي يدفعك إلى التحدث إلى نفسك، تهيمن عليك الأفكار التي ربما تغمرك في الهوس والهوس الأحادي، في النهاية تستعبدك أسطورتك الوحيدة المرجعية الخاصة بك.

على أولئك الذين تتردد أصوات أثينا وهيستيا داخلهم أن يخشوا ويتجنبوا أن تصبح المعرفة أو الالتصاق بالموقد ساترًا يحجب عنهم كل ما يوجد من خلفه وكل حياة في العالم الخارجي. ربما الاكتفاء بالمعرفة لتلك الباحثة في علم الأحياء ذات الخمسة وأربعين عامًا تخفي في باطنها استياءً مخزيًا: أنها لم تفلح في الحصول على الدفء المنشود من علاقة حميمية، وأنها لم تغامر بخروج ذاتها قط خارج حدود عملها بحثًا عن المتعة، كما لم تثرثر أو تضحك مع هرمس؛ الإله المُغازل الذي يتمتع بروح الدعابة.

أما بخصوص البائع ثم مالك متجر الأدوات والمعدات الذي ذكرناه آنفًا، المرتبط بشدة بعبادة زوجته وابنه، ربما لم يفكر قط بأن لا زوجته ولا ابنه مثل ذلك المحل الذي يتولى أمره ويملكه ويديره. ينغلق في عبادته من دون أن يقوم بأي شيء يمكّنه من معرفة موضوع حياته. لا شيء يكفي، الزوجة التي سئمت من تلك الحياة، الابن الذي يطالب بالذهاب إلى الدراسة بالخارج، ليبدأ توازنه في التداعي. إن اكتشف أن زوجته، وسط إخلاصه المشهود، تربطها علاقة برجلٍ آخر وتنوي أن تنفصل عنه، ستتهاوى كل قلعته اليقينية بصورة كارثية، وربما تصل إلى حد دفعه نحو الجريمة. هل سبق لك أن رأيت أن أغلب الحالات الإجرامية تحدث في بيئات أسرية منغلقة؟ بل نادرًا ما يقتل المرء بدافع الغيرة أو بسبب التخلي عن صبي مستهتر رغم وجود حالات مشابهة إلى الآن.

أما عن الفتاة المكرسة لعبادة أرتميس، فيجب أن تخشى من أن تحتدَّ طبيعتها البرية إلى درجة المسنثروبيا(116) أي بغض البشر، والإعجاب بعزلتها المطلقة. إنها لا ترغب في موقدٍ وإن كان في بيتها مدفأة جميلة حيث تحرق جذوع الأشجار التي تقطعها بالبلطة بنفسها، بصورة ممشوقة مثلها. إنها تكون في منأى عن أثينا، لا تدرس، ولا تبحث عن عمل، ولا تفكر في استغلال المزرعة بصورة مثلى. بمرور السنين، تتعرض لمخاطر الوحشية والعوز. وماذا يحدث عندما لم تعُد تقوى على ركوب الخيل؟ وماذا عندما يُحجم صديقاتها القليلات عن القدوم لزيارتها ولم تعد تنعم بمساعدة والديها من بعيد؟

(116) توجه فكري أو حالة نفسية تتمثَّل في كراهية ومعاداة وانعدام الثقة بالكائن البشري (أو البشرية) إما بسبب قناعة فلسفية وإما اختلال نفسي، الشخص الذي يتصف بهذه الصفة يسمى «باغض الإنسان».

على الفتى الذي يعيش أسطورة أبوللو أن يعرف أن حاجته إلى التوازن ربما تجلب له ظمأ ويبوسة وعجزًا على البدء من جديدٍ. ربما تصبح له العناية بجسده مجرد وضعية دائمة؛ إذ لديه كتفان مصقولتان بصورة بارعة وخصر ممشوق وعضلات بطن بارزة، وماذا إذن؟ ربما تتلاشى حاجته المستمرة إلى الجمال من دون لقاء كائن آخر، ذكرًا كان أو أنثى. ربما يصبح منهجه الأرستقراطي نحو الأمور أكثر سولبسيةً(117) وانغلاقًا وهوسًا. إن لم يكن ديونيسوس هو مَن يتربص فسيكون بان على أقل تقدير. يبدو بصورة مشوهة، بقرني وحافري ماعز، يغرس الرغبات ويحيا الملذات الحسية التي لا يمكن للكائنات الكاملة المستنيرة أن تحلم بها.

(117) حدة الأنا كما تُعرف باسم الذاتوية (أو السولبسية وفق الترجمة الحرفية، إذ إن الاسم مشتق من الكلمة اللاتينية solus بمعنى «منفرد» و ipse بمعنى «ذات») وهي فكرة فلسفية تقول بأنه لا وجود لشيء غير الذات أو غير الأنا أو لا وجود حقيقي

إلا لعقل الفرد.

صحيح أن أثينا وهيستيا وأرتميس يمِلن إلى الوقوف في صفوف أعداء أفروديت، فهناك شيء عذري في كل منهن، الأمر يجعل ربة الجمال والحب توجه اللوم وتشعر بالانزعاج حيالهن، تلك التي تتراءى في صورة جسدية كاملة.

إن التناقض بين أثينا التي يدعوها الرومان منيرفا، وأفروديت التي يدعوها الرومان فينوس، ظهر بصورة دقيقة في لوحة أندريا مانتينيا(118) المسماة انتصار الفضيلة أو منيرفا تطرد الرذائل من حديقة الفضائل المرسومة في عام 1502. داخل حديقة مزدحمة مرسوم في خلفيتها أقواس داكنة أسفل سماء تسير بها سحب قاتمة وجرف صخري، تقف فينوس في المنتصف، شقراء، ذات بشرة بيضاء، وجسد ناعم الملمس، وبالكاد تغطي جزءًا من جسمها بحجابٍ صغير يمر فوق عانتها يبرز عريها، وتبتسم ابتسامة خبيثة وفاترة في الوقت نفسه، ومفعمة بالإثارة المتغزلة، أو ربما مفعمة بالسخرية. يقف أمامها بخضوعٍ قنطورٌ؛ شعار الشهوة القديم. على يسارها تظهر امرأتان شابتان متحدتان يركضان نحو فينوس، يرتديان ملابس لا تكشف سوى أذرعهما، وأقدامهما مرتفعة عن الأرض تقريبًا، وربما تمثل إحداهما ديانا والأخرى العفة. لكن الشخصية البارزة بين الجميع كانت أثينا، ترتدي صدرية فولاذية وتعتمر خوذة وتمسك برمحٍ وقوسٍ، وتعلو هيئتها تعبيرات محارب، حازمة، حاكمة، بفمٍ نصف مفتوح، كما لو كانت تصدر صيحةً، وتطارد سربًا صغيرًا من الكيوبيد. في زاوية اللوحة، تظهر الحورية دافنى، ذات القسمات الخشبية، نحيفة وطويلة القامة للغاية، والتي قد تحوَّلت إلى تلك الهيئة لتحافظ على طهارتها من غارات أبوللو الشهوانية. أصبحت الحديقة أشبه بمستنقعٍ، تفيض برموز الرذائل الكثيرة، وترفرف أسراب كيوبيد حولها مثل دبابير طنانة مزعجة. تظهر فينوس غير مبالية بكل هذا. تأتي منيرفا للقتال، متأهبة بمعدات الحرب الكاملة، لتقضي على كل الفوضى التي تسود الأرجاء.

(118) رسام إيطالي وُلد في إيزولا دي كارتورا ويعدّ الأول في شمال إيطاليا من حيث انتماؤه بالكامل إلى فن عصر النهضة.

لنأخذ الحديقة كرمزٍ لأنفسنا: لا يمكن الجمع والتوفيق بين القوى الإلهية بصورة مثالية، والصراع الأبدي بين التخلي العاطفي لفينوس، والنشاط المحارب لمنيرفا، وهما اللتان في الواقع يتصارعان في ميدان معركة -مستنقعي وغائم- داخل أنفسنا دائمًا.

تصور تلك الشخصيات الإلهية المتنوعة نزعات بشرية تنمو داخلنا بصورة حاضرة قوية. داخل أنفسنا، يتقاتل الآلهة والأبطال بصورة أشد بأسًا من الإلياذة نفسها. يجسِّدون الصراعات الكامنة داخلنا التي علينا فهمها وكشف ملامحها. لا شيء دائم إلى الأبد، وكل شيء يظل في حركة دائمة، داخل أنفسنا. نتحرك دائمًا بين قطبين متعاكسين؛ البحث عن المعرفة والتخلي عن الإيروس، الحب والتسلط، العفة والانحراف، السكون والحاجة إلى السفر، الخفة والثقل، النور والظلمة، الوحشية والشهامة البطولية، الدافع إلى الموت والرغبة في ولادة جديدة.

تساعدنا شخصيات الأسطورة على تمييز كل هذه التناقضات، وإيضاح كيفية إدراكها في مجال النفس الواقعي المراوغ والمتحول.

يبدو أن الفردية المطلقة للشغف والعاطفة لا تكون منطقيةً إلا في مجال الفنون؛ إذ لا يُخلق الفنان مرة أخرى، فلن يصبح أي فنان دانتى أو مايكل أنجلو أو بيتهوفن إن لم يكرسوا أنفسهم بتفانٍ مطلقٍ مهووسٍ لعملهم الفني. لكن الفنانين ذاتهم يوفقون بين النزعات البشرية المختلفة في ذواتهم، بدءًا من دانتى، الأعظم والأقوى بينهم، الذي يحوي داخله عوالم كثيرة متنوعة، والذي أخذنا عنه مصطلح «النزعات البشرية» ليعبر عن المشاعر والمحفزات والعواطف.

عاش دانتى أسطورة هرمس وإيروس معًا إبَّان رغبته الشبابية للسفر بحرية عبر البحر على متن سفينة مسحورة استعارها من الساحر مرلين برفقة صديقيه الحميمين جويدو ولابو والنسوة اللواتي يتطابقن في مقدار حبه. وخلال شغفه المتفاقم الجسدي المشتعل الذي أبرزه في أغنية لـ «مادونا بيترا»، عندما توجه بسؤالٍ إلى المرأة لماذا لا تعوي معه مثل عاهرة في خندق شهواته المشتعلة، عاش حينها أسطورة بان بقوة ضارية.

في رحلته كرحَّالة سماوي بصير، يشهد ذلك الجوع المقاوم الملموس نحو المعرفة، كأنه يعيش في ملء أسطورة أثينا، حامية أوليس، التي لم يكن من الصدفة أن يكلِّفها دانتى بواجب تمجيد مبادئ الشجاعة والمعرفة بعيدًا عن أعمدة هرقل كمشروعٍ مجنونٍ. لكن الحب انتصر على كل شيء، على المنطق والمعرفة المتجسدين في فيرجل، حيث انتصرت بياتريتشى رمز الحب الذي يقود إلى معرفة الله ورؤيته.

في أثناء صيانة النفس، بات من الضروري تحديد الشخصيات التي تجلب داخلها الإبادة والعنف والغضب والإفراط والشهوة والوحشية. لا يصح التظاهر بعدم وجودهم. سيكون من المريح، والذي يدعو إلى الهلاك أيضًا، إنكار النزعات البشرية التي يمكن أن تؤدي إلى الهاوية،

وإلى انهيار التوازن الذي يقوم عليه أساس حياتنا، مما يعني المخاطرة بسقوطنا تحت وطأة سلطانهم بين لحظة وأخرى.

علينا أن نتيقن من أن هاديس بمقدوره أن يسحبنا من أقدامنا ويُسقطنا في الشعور بأن العدم هو المسيطر الأوحد على وجودنا. لأن الشيطان في حالة انتصابٍ دائمٍ، فإن أريس يمكنه أن يُطلق العنان -حتى في أكثر لحظات السلام- للحظات العنف وبوادر الشجار والعدوان وإراقة الدماء. أما بوسيدون الذي يزلزل الأرض برمحه الثلاثي الرؤوس، فيمكنه بالطريقة نفسها أن يزلزل أنفسنا ويثير موجات الغضب الساحقة في جوانبها. في إمكان ديونيسوس أن يغمرنا في ملذاته، نحو رغبته للخروج من أنفسنا عبر الكحول والمخدرات، بصورة مفرطة حيث يسهل ارتكاب أعمالٍ إجرامية طاغية مروعة. أما بان، الراقص الشهواني، فربما يدعونا إلى شهوة جامحة بلا توقف. حتى الوحوش المخبأة في الجزء الأعمق والسري داخلنا، في إمكانهم مداهمتنا بغتةً ما دام الحراس انبطحوا أمامهم، وسقط صائدو الوحوش، بدءًا من بيرسيوس العظيم الشجاع وحتى أوديب الصارم المنكوب، في سباتٍ عميقٍ.

تضمن الصيانة السليمة قبول كل تلك الدوافع من دون استثناء أو تجاهل أي منها، بل تعمل على دراستها وتضعها في إطار شكلٍ من أشكال «التسكين»؛ أي يتم تلطيفها وصقلها وإبقاؤها في ظلمتها تحت سيطرة طاقات أقوى؛ تلك التي تحملها نحو النور.

يعد التنوع المهول في الدوافع والمحفزات والمشاعر والنزعات الإنسانية بمنزلة الجزء الشعوري من ذواتنا، ومع هذه العشوائية المتزايدة وعدم الاستقرار يمكننا، عزيزتي القارئة، عزيزي القارئ، أن نسميه: «تعددية النفس». لكن داخلنا أيضًا هناك العقل، الواحد الفريد الذي يدفعنا إلى تسكين ذلك المارماجنم؛ البحر العظيم، وإلى اختيار ما نريد أن نكونه بحرية، ويمكننا تسميته: «توحيد العقل والإرادة».

ليس هناك أي تعارض بينهما، وإنما تعايش. أخطأتُ منذ عدة سنوات عندما كنت أعارض بين أثينا وأورشليم، عدتُ مرارًا وتكرارًا لزيارة البارثينون، هناك في نورها المطلق العمودي، لأتوه بعد ذلك في ظلمة بلاكا المريبة بعض الشيء. وفي بعض الأحيان كنت أرفض بحماقة استفزازية مقيتة أن أذهب إلى رؤية تل صهيون، ولكني ذهبتُ بعد ذلك. زرت أورشليم وبيت لحم وخربة قمران والبحر الميت، وبين القبر المقدس وحائط المبكى والقبة الذهبية(119)؛ في مهد الديانات

التوحيدية الثلاث، وجدتُ نفسي أتعامل مع التقاليد الدينية التي وُلدت بينها والتي كنت أزعم أنني ابتعدتُ عنها بشدة.

مسجد قبة الصخرة. (119)

أدركتُ أنني أستطيع عبادة الإله الواحد والإصغاء إلى تعاليم موسى والمسيح ومحمد الأخلاقية، تبارك أسماءهم. مع ذلك أشعر أن نفسي تحوي مجموعة متنوعة من النزعات البشرية التي يجب أن أعرفها وأغربلها قبل أن أجهز عليها بمُدية القانون وأضعها تحت حكم الإدانة.

لم يُمنَح أي مخلوق من بين سائر كائنات الخليقة حرية الاختيار سوى الإنسان فحسب، أُعطي الإرادة أيضًا التي تُعَد بمنزلة نفخة القدر داخل نفوسنا. ليس بمقدور أي حجر الاختيار وهو قابع بلا حراكٍ في مكانه يتآكل بفعل الأمطار والرياح، ليس بمقدور أي شجرة الاختيار، التي تنحصر حياتها بين الجذوع التي يعانق بعضها بعضًا في الظُلمة، والأغصان المورقة التي تتجه نحو السماء في رحلة فقدان بعض من أوراقها وإنبات البعض الآخر. ليس بمقدور سمكة السلمون الاختيار رغم قدرتها على الحركة، لكنها يتعيَّن عليها أن تعبر المحيطات للبحث عن مصدر النهر الذي انحدرت منه سابقًا حيث تضع بيضها وتجدد نسلها مرة أخرى. حتى طائر النورس ليس بمقدوره الاختيار، فعندما يهبط بجناحيه على أحد صناديق القمامة لا يعني هذا أنه قرر ذلك بمحض إرادته، وإنما يتبع غريزته فقط التي تدفعه بدورها للبحث عن الطعام أينما كان حتى وإن بدا الموضع مستحيلًا. أما القط، هذا الحيوان المُبرمج القزحي اللون، يبقى في داخل نفسه كما هو، لا يحمل أي خططٍ لنفسه سوى البقاء في المنزل إن كان دافئًا، أو الخروج منه عندما تشرق الشمس.

حتى الروبوت ليس بمقدوره الاختيار، ربما يمكنه أن يتعطَّل، مما يعطي الانطباع بأنه لا ينصاع لأوامر سيده، لكن في نهاية الأمر لن يكون صاحب القرار، فسيده هو مَن سيقرر بقاءه من عدمه. حتى إله التوحيد لا يمكنه الاختيار ككائنٍ كامل الخواص في ذاته، كامل وخال من أي تناقضات داخلية. في نهاية الأمر فإن «المخلوق الوحيد الذي بمقدوره اختيار مصيره» هو الإنسان الذي يستطيع أن يموت على أن يستسلم، يستطيع أن يتفاعل ويشعر ويسافر ويصارع ويحب ويكره ويعيش في ملء قوة النزعات البشرية، لهذا السبب يصبح الاختيار لحظةً رفيعة في خبرته، حيث يتحكم بكل شيء، ويؤكد مقدار جوهره وحريته.

.عندما يواجه المرء مفترق طرق، عليه أن يقرر في الحال أي اتجاه يجب أن يسلك

ربما يتردد في بعض الأوقات، لكنه تردد لن يدوم؛ إذ تصبح الفروقات واضحة بصورة بيِّنة. هذا طريقٌ يؤدي إلى الظلمة، وهذا آخر يحمله نحو النور. هذا الباب يؤدي به إلى الرحمة، وذاك يحمله إلى الانتقام، باب آخر يقتاده إلى البطولية وآخر إلى الجُبن. في النهاية، الاختيار متروك لنا فحسب. يبدو أن فعل الصيانة النهائي يتمثل في: اختيار مَن وأي شيء يحملنا إلى الحياة، .وضد مَن وأي شيء يؤدي بنا الموت

الحياة في مقابل الموت

الحياة في مقابل الموت هو اسم الكتاب الذي ألَّفه نورمان أو براون عام 1959 الذي أثَّر نوعًا ما في الحركة التحررية التي نهضت في الأعوام التي تلت تاريخ صدوره في العالم الغربي بأسره. تجلى ذلك في حركة الهيبيز التي لم تعرها الثقافة الأوروبية أهمية على الإطلاق، في حين أن بعض رعاة الكنيسة الكاثوليكية أشاروا إلى علامات نهاية العالم التي تحملها النسوية وجيل بيت(120) ومن رواده ألين جينسبرج وجاك كيروك ووليام بوروز ولورانس فيرلنجيتّي وديانا من قبل. أراد القدر في حياتي كرحَّالٍ أن أقابل جميعهم عدا كيروك، ذلك الذي ربما لكنت أحببته بصورة كبيرة. رأيت جينسبرج في قراءات شعرية مختلفة في إيطاليا، وقابلت بوروز عصر يوم أحد في قصرٍ بشارع بوري في مانهاتن. نزلتُ الدرج بصحبة جون جورنو الذي كنت قد زرته للتوِّ، وعند نقطة معينة على جانب الدرج تناهت إلى مسمعي أصوات أحد البرامج التلفزيونية الصاخبة، فسألت جون وقلت: «من بالداخل؟»، أجاب لي بهدوءٍ وقال: «ممم.. إنه بوروز»، تعرضتُ على إثرها لرعشة من الذهول المُثير لم أشعر بها في حياتي من قبل؛ هل من المعقول أن مؤلف الغداء العاري، الكاتب الملعون، المغتصب العظيم، يقضي أمسياته أيام الأحد بمفرده في منزله أمام التلفزيون مثل أمي؟ أما الكاتبان الأخيران فلقد حالفني حظ رؤيتهما في سان فرانسيسكو لأستلم تصميمًا يوضح موضوع كتاب المحيط والصبي، وكان مقدمة للنسخة .الأمريكية من كتاب آخر لي

(120 حركة أدبية أُنتِجَت من مجموعة من الكُتَّاب الأمريكيين، أثَّرت كتاباتهم بالثقافة في الولايات المتحدة الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية. تمحورت ثقافة «البيت» على تجربة العقارات، أشكال جديدة للجنس، اهتمام بالديانات الشرقية، رفض .الاقتصاد المادي، رفض التمجيد وغيرها من وسائل التعبير المعاصر

جميعهم، وأود أيضًا الإشارة إلى هربرت ماركيوز وكتابه « إيروس والحضارة والإنسان ذو البُعد الأوحد»، الذي نُسي تمامًا الآن رغم تأثيره الواضح بقوة في جيلي؛ إذ تسبب في حدوث الاضطرابات والفوضى داخل نظامه العقلي، وتقويض الهيمنة الأبوية والذكورية، والتشكيك في كل سلطة قائمة، والإشارة إلى لمحاتٍ من الحرية الجديدة، وأخيرًا، تحرير إيروس من الأقنعة القاتلة التي شكَّلتها الحضارة لإخفائه.

إن كانت صيانة النفس ممكنة في يومنا هذا، فذلك يرجع إلى النسائم التحررية التي باغتت جيلي في أثناء انشغاله برسم وجوده وكينونته في هذا العالم. سيتجلَّى مفعول الصيانة الصحيحة في إعادة هيكلة الحرية الداخلية والوعي الذاتي لأحلام المرء، وكرامة جسده، ونطاق الحب الخلَّاق، وباختصارٍ: في إعادة هيكلة الحياة ضد الموت.

إن الاختيار بين العيش في أسطورة هاديس أو تلك الخاصة ببيرسيفون، حتى وإن تتقاطع طرقهما معًا، والانحدار نحو الظلام والصعود نحو النور مرة أخرى، يُعَد جزءًا لا يتجزَّأ من مغامرة وجودنا ذاتها، وضمن أحد الاختيارات الضرورية لضمان إصلاح النفس بصورة سليمة.

أنت شاب في العشرينيات من العمر، عاطل عن العمل، ولم تجد أمامك سوى وظائف مؤقتة وزهيدة الأجر، لم تفدك دراستك بشيء، وكانت في إحدى الجامعات من دون أدنى شغفٍ من جانبك بالانضمام إلى أي دورات دراسية تتلوها. في أسرتك، لا تتواصل مع أبيك وأمك كثيرًا، ويحيا شقيقك الأكبر بمفرده. تقضي أيامك في التوقف دائمًا أمام البار نفسه، والصالة الرياضية نفسها، وفي بعض الأحيان تتجول في شارع المدينة الرئيس المليء بواجهات المحلات المضيئة التي تفيض بأشياء لن تتمكَّن من شرائها أبدًا. يراودك شعورٌ أن تكسرها وتهشمها إلى ألف قطعة. تشعر بالملل، لم تحب، ولم تنعم إلا ببعض الممارسات الجنسية العابرة العشوائية الفاترة، من دون قناعة من جانبك، وببعض اللذة القليلة. تعرف أنك ستجد في منزلك السرير والوجبة الدافئة أحيانًا التي تحتاج إلى تسخين في أحيانٍ أخرى، والدش الذي يعمل بصورة متقطعة. تشعر بإهانة، يهينك أبوك وأمك وحدهما وهما يشاهدان التلفزيون بعد أن أنهيا للتوِّ شجارهما المفتعل من دون أدنى سبب. ليست الصعوبات المادية وحدها التي تثقل كاهليك، هناك شيء آخر. يُشعرك ذلك الروتين بنوعٍ من الاشمئزاز. هذا السجن الذي لا يحتوي على أي نافذة. الشعور بأن لا شيء ذو قيمة، لا شيء ذو معنى، كل شيء صار رمادًا، وغابت أي احتمالية للخروج أو التعافي. تدخن بعض الحشائش، وتتعاطى بعض الحبوب. العالم الوحيد الذي بمقدورك سُكناه يبدو أمامك عالمًا

رماديًّا، مليء بالظلام، كمقبرة تائهة وسط الضباب. لا يُشعرك أي شيء بتحسُّن، لا تجد موطئًا لقدمك وسط مجتمع لا يقدم لحظات كثيرة من الحياة الاجتماعية، بل خسر معظم وقته بعد أن هيمن عليه الوباء، وصرت تعيش في عزلة قسرية، محبوسًا في منزلٍ حيث لم تعتد الجلوس داخله إلا في أثناء مواقيت الوجبات، وتنحني أمام الكمبيوتر أو الهاتف المحمول، وتتجول بعشوائيةٍ عبر فضاءٍ إلكتروني يتزايد ازدحامًا ودناءة بصورة مطَّردة، حينها، كان هاديس هو الجالس بجانبك.

بعد ذلك، في أحد الأيام، وأنت تتصفح المواقع الإباحية كعادتك، يتسلل شعاع ضوء مباغت من نافذتك حتى انعكس على شاشة الكمبيوتر، ويشوش على رؤيتك، تنهض حانقًا، تسب وتلعن، وتذهب لإغلاقها. من تلك النافذة نفسها، لم تلحظ من قبل تلك الحديقة الصغيرة التي ترتفع داخلها شجرة عملاقة تجهل اسمها، ذات جذع متين وأغصان مورقة بأوراق خفيفة، تكفي نسمة خافتة من الهواء لتهزَّها. أوراق شجرية ورياح، لم تعد تتذكر وجودهم من الأساس. تقرر الخروج من المنزل، وترتدي الكمامة الطبية، وتمضي في إحدى الطُّرق التي لم تسلكها من قبل. في أثناء مسيرتك، يرن الهاتف، فتتوقف للرد، فإذا بشقيقك يتصل بك أخيرًا، الأمر الذي لم يفعله منذ زمن بعيد، ويسألك عن أحوال أبيك وأمك، فتضحكان معًا وأنتما تثرثران بشأن شجارهما. تنهي المكالمة والابتسامة لا تزال تعلو وجهك، وإذ بفتاة تمرُّ بجانبك لم تفلح الكمامة في إخفاء ملامحها الفاتنة. حانت اللحظة الحاسمة، النور المنبعث من الأعين، أصابت ضحكتك وجدانها، فتتوقف، وتتطلع نحوك، وتتحول كلمتان صغيرتان إلى نهرٍ من الكلمات في ظهيرة أحد أيام الربيع المبكر المشمسة. تحب الحديث عن نفسها؛ فتخبرك أنها عاطلة عن العمل أيضًا، ولديها أسرة رتيبة هي الأخرى. تحب الذهاب إلى صالات الألعاب الرياضية، ويمكن استبصار ذلك من رسمة ذراعيها المتناغمتين، وتعرب لك عن انزعاجها آنذاك من حالة العزلة القسرية، ولم تعُد تشعر برغبة في الخروج أيضًا. نظرًا إلى مكوثها بين جدران المنزل الأربعة، قد انهمكت في القراءة، وها هي تضع كتابًا بالفعل تحت ذراعها، أظهرته لك، وجذب اهتمامك. أصبحت الآن أمامك بصورة أقرب، أعربت لك أنها لا تكف عن الأمل، وإذا ما تحدثت معها عن عالم العدم الذي تحياه تهزُّ كتفيها في لا مبالاة. وإن حدَّثتها عن الهراء الذي يحيط بك، فستشير لك لتنظر ناحية الزهور الحمراء النابتة على جانبي الطريق. ما المعنى الذي يخبئونه؟ بل ما مدى الروعة في

النظر إليهم! تتفق معك على موعد آخر لتتقابلا في اليوم التالي. تقضي ليلتك في التفكير فيها، وتتساءل متى وكيف يمكنك تقبيلها، حينها كانت بيرسيفون هي مَن تهاتفك.

في إمكان أي فرد مهما كان مقفرًا أو مسكينًا أو تعيسًا الخروج وإيجاد روح الربيع، وأن يعيش أسطورة بيرسيفون، وأن يضعها في المرتبة الأولى أمام ظلمات هاديس الخريفية، أمام مناخ الجحيم الرمادي، حتى يجتاز نزعات الموت ويخرج من بينها سالمًا. إن بيرسيفون، حليفة أفروديت، مستعدة دائمًا لإعطاء مساحة لولادة جديدة، للنور وللحياة. أما عن المجتمع الذي نحيا بين جوانبه في تلك الحقبة من التاريخ، وأمام الطريقة التي بُني بها، والظروف والقوانين التي يخضع لها، فنرى أن الولادة الجديدة تُعَد ضربًا من المستحيل. يهيمن مجال التكنولوجيا والاقتصاد والنفعية بصورة مطلقة، لم يعد هناك -ولا حتى في صورة فكرة- لحظات لحماسة حيوية أو زخم نزيه أو تنفيس مثالي أو حلم مشترك. تعاني أوروبا الجَدب والصمت. ألم تدفع إلى الآن ثمن أخطائها المنصرمة الاستعمارية والإمبريالية والعنصرية؟ ألم تتوقف دماء الشعوب التي دمرتها مثل (الآزتك(121) والإنكا(122)) التي استعبدتها لهم كشعوب (الولوف الإفريقي(123) واليوروبا(124) والآشانتي(125)) عن أن تنسكب عليها من جديد؟

(121) من الشعوب الأصلية في الأمريكتين، أطلقوا على أنفسهم مكسيكا، أو تينوشكا. يُشتق اسم آزتك من مصطلح «Aztlán»، الدولة الأسطورية للمكسيكا.

(122) إمبراطورية قديمة بنتها شعوب من الهنود الحمر في منطقة أمريكا الجنوبية، كانت أكبر الإمبراطوريات في أمريكا الجنوبية في العصر قبل الكولومبي، وهي ذات حضارة ضاربة في القدم وتشمل أرض الأنكا بوليفيا والبيرو والإكوادور وجزءًا من تشيلي والأرجنتين.

(123) مجموعة عرقية تتواجد في غرب إفريقيا في كل من السنغال وموريتانيا وجامبيا وهم في غالبيتهم مسلمون بنسبة 90 % ويتكلمون اللغة الولفية.

(124) أكبر المجموعات العرقية في نيجيريا، ويمثلون 16% من سكانها. يوجد نحو 30 مليون يوروبي في غرب إفريقيا، غالبيتهم يعيشون في نيجيريا، والبقية متوزعون في بنين، وتوجو، وسيراليون، وكوبا، والبرازيل.

(125) مجموعة فرعية من الآكانيين، وهو الشعب الأقوى والمجهز بدرجة عالية من العسكرية والانضباطية في غرب إفريقيا. وأسست قواتهم العسكرية، التي جاءت نتيجة إستراتيجية فعالة إضافة إلى الاعتماد المبكر على الأسلحة النارية الأوروبية.

منذ عدة قرون ماضية، تنبَّأ بذلك شاعر التنوير المسيحي العظيم جوزيبّى باريني؛ أحد الذين لم يقرأ أحدٌ أعمالهم. صارت أوروبا الآن مثل حمل ضعيف في وسط الذئاب والأسود الذين يمكنهم تمزيقه إربًا في أي لحظة. لا أحد يهتم بها، بروحها، رغم حديثهم الذي لا ينقطع عن تأييدهم لها، لم يعُد يحبها أحدٌ، وكسائر الأشياء غير المحبوبة، فإنها ذبلت وشاخت قبل أوانها.

في أوروبا، اعتُبِر تمجيد الربيع كخيارٍ سياسي وأيديولوجي، ينتمي إلى الفاشية بصورة جلية، مثل عبادة الشباب والجمال المظهرية. كان هناك أيضًا ما يسمى بـ «الربيع الأحمر» الذي كان ينطوي على العكس على أسس أعراف المقاومة والاشتراكية: («حالما نقهر الربيع الأحمر/ تشرق شمس المستقبل الوشيك»؛ هذا ما كتبه الزعيم الليغوري المناضل فيليتشى كاشونى في إحدى أنشوداته، زميل أمي في شبابها، الذي قُتل على يد الفاشيين النازيين عام 1944).

نقول إن ولادة جديدة متجذرة لأوروبا، تعيد إليها قوة الإيمان والإبداع، ومُثل العدالة العالمية، وأولوية أخلاقية للعمل والروح، وتوازن جديد يضم كل طاقات كوكبنا الأرض، وإحساس متجدد بعظمتها، وتسديد ديون أخطائها، لا تبدو على الأبواب بحقٍّ خاصةً وإن أمعن المرء النظر في تدني الطبقة السياسية وخور الطبقة المثقفة. ربما ستحظى بولادة جديدة لاحقًا، حتى وإن لم نكن لنتمكن من رؤيتها الآن، تمامًا كما لم ينعم موسى برؤية أرض الموعد.

بالنسبة إلى النفس المنفردة، فلا تزال بيرسيفون هنا، تعبر عن وجودها الخلاصي. نحيا فيها حاجتنا إلى النور بعد ظلمة، ورغبتنا في السعادة بعد كل صنوف الجحيم التي أخرجت وجودنا من أعماقها. سنفهم معها أن صراع الحياة ضد الموت هو الصراع الأبدي للنور ضد الظلمة.

يركض بان برفقة بلاطه من الحوريات والساتير والسيلين في جوانب أنفسنا كما لو كان يركض على أراض معشوشبة، ويختبئ كما لو كانت غابةً، ويصيح كما لو أن أحدًا أزعجه في قيلولة الظهيرة.

يدعونا إلى التلذذ بكل ملذات الجسد بما تحمله من فوضى عارمة. يثير فينا أكثر الغرائز انحطاطًا وعارًا، وأشد الدوافع قتامةً. في بان، وداخل بلاطه، تصبح نزعات بشريتنا أكثر حيوانيةً وجموحًا وعنفًا.

ولكونه الإله الوحيد الذي أُعلِن عن موته، انصرف بان للاختباء في أكثر المواضع النائية، المغائر الكامنة في نفوسنا. لم يعُد له حق الوجود في الغرب، وهكذا مضى ليحيا لدى شعوب ننعتها بالبدائية، لكنها في الحقيقة لا تزال قريبة من روح الطبيعة.

من يعيش أسطورة بان، يُدفع إلى كل تجاوز جسداني، ليس له أي دور يفعله مع الافتتان والحب؛ فالإحساس بالنسبة إليه شيء حضاري للغاية. يتسم بالخمول والضعف، ولديه ما يفعله

تجاه الشهوة الطبيعية، الطاقة الجنسية. كم من امرئ لديه الشجاعة الكافية للاعتراف بكمونه داخله؟

كل من يحيا في مدار بان يكون في حالة تأهب للاختباء، ويعمل في الخفاء، ويتظاهر بكونه آخر، لكن في الحقيقة فهو يتبع اللذة أينما وجدها، يتعامل معها كلعبةٍ، ويمارس طقوسها بحماسة جارفة. ولكونه يحيا في جنبات النفس الدفينة المظلمة، ويبقى في حالة ضغط دائمة، فهو لا ينبت في سكون وإنما يندلع بصورة مباغتة. ينطلق نحو الخارج في صورة انفجار لا يقاوم، مصوبًا وجهته نحو إشباع الرغبات الفوري.

إن بسط سيطرته على نفس وأصبح لها قوتها الرئيسة الإلهية فسيكون لتلك النفس أعمال مشينة مدمرة لأنها لن تكتفي بتحفيز ممارسة العادة السرية (التي في الحقيقة لم تؤذِ أي إنسان قطُّ) وإنما ستندفع أيضًا إلى ملاحقة الحوريات والساتير، وإلى الاقتحام العنيف وصولًا إلى الاغتصاب (الذي بمرور العصور أصبح، وهذا حق، عملًا إجراميًّا، وشرًّا مطلقًا).

تكشف لنا سجلات التاريخ سلسلة لا تنتهي من الغرائز القاتمة المتجددة التي يصعب السيطرة عليها: يمكن للمرء أن يكون عضوًا ضمن أعظم سلالة صناعية إيطالية، وينتهي به الحال في غيبوبة على سرير المساكين المتحولين جنسيًّا، وسينجو بفضلهم بواسطة خيط صغير، ويمكن أن يكون المرء رئيسًا لمنظمة اقتصادية رفيعة عالية الشأن، على بُعد خطوة واحدة من أن يصبح رئيسًا لإحدى الدول العظيمة التي تلعب دورًا مهمًّا في مسرح الأحداث العالمي، ولكن في صباح أحد الأيام، تأتي خادمة بأحد الفنادق لتنظف غرفته، لتثير داخله رغبة جارفة لا يستطيع الوقوف أمامها أو إزاحتها بعيدًا.

ربما تكون أحد منتجي هوليوود الكبار، ممولًا عظيمًا، أو ربما تكون أميرًا تسري دماء الملوكية في داخلك: لا يمنحك بان شيئًا مجانيًّا، ولن ينظر في وجه أي أحد، من يحيا أسطورته من دون أن يتحلى بالوعي، يدخل في حالة من الثمالة المهينة التي تجعل منه آلة مخصصة للمتعة الجنسية فحسب.

إن العمل على بان لهو لحظة غاية في الأهمية إبَّان إجراء صيانة النفس، ليس على المرء أن يُحيل أنظاره من أمامه أو يعلن نفوره منه أو يتخذ بضع الخطوات في منأى عنه فقط؛ فكل هذا غير كافٍ.

على المرء أن يواجه بان. كتب جيمس هيلمان عن بان كتيبًا عظيمًا كان بمنزلة سببٍ محوري في حياتي للتحول إلى الأسطورة منذ عدة سنوات. يجب على المرء أن يعرف كل شيء عن ذلك الإله البري العتيق، ولا يجب أن ينتزعه من داخله أو يخشى منه. عليه أن ينتزعه من بين براثن الشيطان الذي بالفعل أعاره قرنيه وقدمه الماعزية وهيئته كشيطانٍ.

لم يكن بان ليلاحق الحوريات ويغتصبهن فقط، على المرء أن يعي ذلك ويميزه بصورة سليمة. إن أحد أهم جوانبه هو الرفض والإدانة: تلك المغامرات المفترسة الشهوانية العنيفة؛ الموت ضد الحياة. لكنَّ هناك جانبًا آخر في شخصيته؛ ذلك الجانب العتيق، الكوني، كإله الطبيعة العظيم، العظيم بان، الإله الذي يتصل بالعشب والأشجار، الرياح والشمس، مخلوقات الأرض والسماء. إلى الآن ونحن نشعر ببان المثمر في حيواتنا، يملؤها بزخم المواد السماوية، ويشحنها بطاقات جديدة، ويجعل الجسد يتجاوز بعيدًا عن حدود نفسه، من دون أن يبغض نفسه، ليميل دائمًا نحو لذة واسعة المدى، جماعية، تحمل الفرحة في داخلها: الحياة في مقابل الموت.

أنتيجون في مقابل ميديا

مَن يعيش أسطورة أنتيجون يضع روابط الدم الأسرية في المقام الأول، وعلى رأسها الروابط الأخوية. لا أعرف مرثية للحب الأخوي أسمى من تلك التي نُسجت لأنتيجون في واحدة من أعظم التراجيديات التي كتبها شقيقها سوفوكليس من أجلها عندما أكد أن ما فعلته من أجل شقيقها بولونيسيس الذي كرَّمته ومنحته الدفن المستحق الذي حرمته قوانين كريون بعد أن حكم عليه بالإعدام، الأمر الذي لم تكن لتفعله من أجل أي أحد آخر في العالم، لا من أجل زوج أو أب أو أم.

تدفع أنتيجون المرء إلى القتال مثل نمر يدافع عن حق أحد أقاربه بالدم ضد قانون الدولة حتى تصبح فعلته غالبًا، كما يقول جوته، جريمة بحق الدولة ذاتها. للنضال من أجل عدالة يفوق سموها عدالة قوانين أي دولة كانت، العدالة التي نحملها في داخلنا كحاجة أساسية، نجد أنفسنا على استعدادٍ للقتال من أجلها بلا هوادة.

لقد وضعتنا الأخبار الحديثة أمام عدد لا بأس به من شخصيات سكنها روح أنتيجون بصورة حاسمة.

أتذكر إيلاريا كوكّي، امرأة شابة أخذت على عاقتها الدفاع عن جسد شقيقها الشهيد وعن ذكراه بإصرارٍ وتواترٍ حتى تفي بمهمتها. في كل مرة كنت أُذهل أمام هذا الصمود والتفاني اللذين

لم أرَ مثلهما، كانت تتحلى بشجاعة الذهاب إلى كريون الدولة آنذاك، وفي ذلك الوقت جسدته قوات الدرك الوطني الإيطالية -الكارابينييري- ووقفت ضد داعميه القليلين لحسن الحظ، الذين كانوا يحتدمون على شقيقها المسجون بكل صور العنف، لتؤكد حقها في القتال من أجل عدالة ذات قرابة دموية منشودة حتى وإن بعد الموت. لاح بملامحها وهي تُظهر أمام العامة صورة كبيرة لوجه شقيقها، ستيفانو كيكّي، الهزيل المعذب، شيء قتالي وحازم وتراجيدي. طرحت حكايته أمام السياسيين والأخبار لإيصالها إلى حدود الزمان والمكان الرمزية، أضفت على مهمتها وواجبها بعدًا يسمو عن الفردية كناشطة حقوقية لا تسعى لاحترام حقوق الإنسان فحسب بل لاحترام وإعلاء الرحمة نفسها. مَن يدري كم من فتيان لقوا حتفهم في ظروف مشابهة لتلك التي تعرض لها شقيق إيلاريا كوكّي المسكين. لقد نجحت في إحداث الفارق: ليس على المرء أن يشاركها مكانتها السياسية ليشعر بإعجابٍ وتقديرٍ نحوها، ذلك التقدير الذي دفع أحد رجال قوات الكارابينييري تقبيل يدها بصورة ربما كانت مفاجئة وغير محتملة ومحرجة لكنها كانت غاية في الجمال.

أتذكر كارولا راكيتى، ناشطة حقوقية أيضًا، ضمن دعاة حماة البيئة، وُلدت وترعرعت في سياقٍ مختلفٍ تمامًا، إذ إن الأب جندي ألماني رفيع المرتبة، خبرة عالمية، وتخصصت في دراسة علوم الملاحة والنقل البحري، وأتقنت دراستها في إنجلترا. كانت تتحدث أربع لغات، ولديها خبرة في الملاحة كأول ضابط على سفينة بحث بحرية قطبية. في يونيو عام 2019، تولَّت قيادة سفينة سي ووتش 3، سفينة تزن حمولتها 645 طنًّا، ذات طاقم أغلبه من الألمان رغم أنهم يرفعون علم هولندا. قبالة السواحل الليبية، نزح ما يقارب من ثلاثة وخمسين مهاجرًا يلتمسون السماح لهم بأن يرسو في مارسيليا. لم يكن لديها التصريح بذلك وقررت أن تتوجه إلى أكثر الموانى الأوروبية أمانًا ويُدعى ميناء لامبيدوسا. بدءًا من الرابع عشر من يونيو، أُغلقت كل الموانى الإيطالية ولم تتمكَّن سفينة سي ووتش 3 من إيجاد مرسى لها. انتظر القبطان كارولا روكيتى حتى التاسع والعشرين من يونيو. على الرغم من إنزال عشرات المهاجرين والأطفال والمرضى والنساء الحوامل من على السفينة لكن الأوضاع على متنها كانت تتفاقم وتزداد صعوبة. حينها تتخذ كارولا مبادرة شجاعة مطلقة: فباسم الإنسانية المتألمة، وحقوقها التي لا تُباع أو تُشترى، تحدَّت قانون كريون، وتجرَّأت على كسر الحصار الساري في ميناء لامبيدوسا. امرأة شابة، وحيدة، حاسمة في مبادئها، تقف على سفينة صغيرة لتتحدى بكامل إرادتها قوات

البحرية الإيطالية، الأمر الذي يمكن الاختلاف حوله من الناحية القانونية، لكن لا يدع مجالًا للشك والحديث بشأن شجاعتها وبأنها قد أضفت على صنيعها بُعدًا بطوليًّا وأسطوريًّا. الشجاعة والرحمة؛ خليطٌ حارقٌ في عالم هشٍّ لا يرحم. إبَّان رسوها، اصطدمت بزورق تابع لخفر السواحل يحاول اعتراضها. انتصرت في معركتها، ونجت جموع المهاجرين الذين وضعوا بها كامل ثقتهم. ما إن وطأت بقدميها اليابسة حتى قُبض عليها بتهمة المساعدة والتحريض على الهجرة غير الشرعية ومقاومة السفن الحربية. اتُهمت بارتكاب جرم حربي: تخيل عزيزي القارئ؛ امرأة ذات ثلاثين عامًا تقف منفردةً أمام القوة الصناعية السابعة لهذا الكوكب، إن كانت كذلك حتى الآن. في الواقع، وبغض النظر عن أي عواطف أو ميول سياسية، كان يجب التحدث عن صنيع رحمة ذي طابع بدائي بالعدالة، عن بطلة أسطورية حقيقية. بعد ذلك بوقتٍ قصيرٍ، رأيناها تندد في بلدها بقطع الغابات؛ سبب عادل آخر، ومظهر جديد من مظاهر الرحمة إزاء الكوكب.

وأخيرًا، أكتب عن جريتا تونبرج، وحدث لي أن دافعتُ عنها سابقًا في مواجهة الهجمات الساخرة للسياسة الإيطالية القديمة. كتبتُ: أنقذوا الجندي جريتا. أنقذوها من البغضة، وخيبة الأمل، والسخرية. منذ سبعينيات القرن الماضي وأنا منهمك في قضايا الحفاظ على الطبيعة، ولهذا، فأنا على دراية تامة بأن جريتا تونبرج لم تبتكر أي شيء. مرة أخرى، فإن ما يهمني ويدهشني هو المشهد الرمزي الذي مثَّلته الصبية السويدية من خلال عملها. ها هي تقف بضفائرها المجدولة بطريقة كلاسيكية وبوجه يخلو من التعبيرات تقريبًا، ربما علامة على إصابتها بمتلازمة أسبرجر(126) في الثالثة عشرة من عمرها، منفردة في الميدان أمام مبنى البرلمان السويدي، وتحمل لافتة مكتوبة بخط اليد كُتب بها ببساطةٍ: «إضراب مدرسي من أجل المناخ». عكفت على الذهاب إلى هناك كل جمعة من كل أسبوع بلا انقطاعٍ، عازمة ومستعدة على تحدي ليس البرلمان فحسب وإنما الرأي العام المتهكم المشتت الذهن. بفضل مثابرتها، وصلت أصداء قضيتها في مكافحة التغييرات المناخية حتى بلغت المسرح العالمي وخصوصًا لدى عموم الشباب. أثر التزامها البيئي في سلوك حياتها اليومية أيضًا؛ فهي نباتية، وفرضت خيارها على أسرتها، وقررت عدم ركوب أي طائرة لكونها من أكثر مصادر التلوث جسامةً، حتى إنها سافرت إلى أمريكا عبر البحر على متن قارب شراعي. بعد أن أصبحت شخصية أيقونية، سنحت لها فرصة التحدث في محافل دولية كالأمم المتحدة، وكانت تنطق بكلمات نارية لإلقاء المسؤولية

على حكام العالم، واتهمتهم أمام تلك الكارثة البيئية التي ستتفاقم بصورة متسارعة إن لم تغير حضارتنا مسارها. تقوم بطولتها بوجه خاص على أساس إنكار ذاتها الذي طرحت بواسطته كل ما يتعلق بمراهقتها حتى تتمكن من تكريس معركتها العادلة حسبما ترى، وحقًّا إنها عادلة، بل وحاسمة لمصير الكوكب برمته.

(126) أحد اضطرابات طيف التوحد، ويُظهر المصابون بهذه المتلازمة صعوبات كبيرة في تفاعلهم الاجتماعي مع الآخرين، مع رغبات وأنماط سلوكية مقيدة ومكررة. وهذه المتلازمة تختلف عن غيرها من اضطرابات طيف التوحد من ناحية الحفاظ النسبي على استمرارية تطوير الجوانب اللغوية والإدراكية لدى المريض. وغالبًا ما يرد وجود ضعف المهارات الحركية واستخدام لغة غير نمطية في التشخيص، على الرغم من أن التشخيص لا يشترط وجودها.

ثلاثةٌ من الشباب والنساء، كما لو أن هذه الدعوة إلى عدالة ما قبل - سياسية، تضرب بجذورها في الرحمة من أجل شقيق أو مهاجرين أو الكوكب ذاته، أصبحت بمنزلة نصيبهم الأوحد الذي لم يتزعزع منذ زمن أنتيجون.

تتوالى بصورة متسارعة، مع الأسف، الأحداث الإخبارية لأسطورة ميديا التي يعيش فيها المرء. بينما لا تزال أنتيجون تُلهم المرء أنماطًا مبتكرة من البطولة والنضال، نجد ميديا على الجانب الآخر تلهمه بجرائم لا علاقة لها بالبطولة بأي شكلٍ، وتتجسد في كائنات غالبًا ما تكون عاديةً، منطفأةً، تافهة، لكن لها القدرة على تحويلهم بقدرتها كساحرة لأبطال للشر المطلق.

بعد أن تمت خيانتها، قتلت ميديا أطفالها ليعاني والدهم؛ دائمًا ما يكون الصغار ضحايا هذه الطريقة المنحرفة لفهم الحب والانتقام، بعد أن يُنظر إليهم على أنهم صورة لذلك الأب ولذلك العاشق الخائن. يعد قتلهم بمنزلة معاقبة نفسها، وبالأحرى معاقبة الآخر بعد أن تُلحقه بألمٍ لا يداويه الزمن، وتُهلك الخير الوحيد الذي لا يزال يربط بينهما؛ دم أطفالهما.

كم هو مثير للإعجاب اليوم أن نشهد هذا الدافع المنحرف يطغى على أنفس البشر ويحيلهم رجالًا ونساءً إلى صورة طبيعية من مرتكبي ومرتكبات الجرائم المروعة، كم من عدد الأبرياء الذين قُتلوا بيد أحد والديهم مدفوعًا بالكراهية للطرف الآخر!

غالبًا ما يكون الذكور هم الذين يعيشون أسطورة ميديا، رجل لا يملك حتى في أضعف جوانبه قوة ساحرة كولخيس المأساوية، وآخر ضعيف بالفعل، يخاف من تماسك المرأة واستقلاليتها.

ثمة حالة خاصة شريرة ذات قيمة رمزية لأب يبلغ من العمر خمسة وأربعين عامًا، رجل اتفق الجميع على كونه لطيفًا ومنضبطًا، يقضي حياته بين العمل والعائلة والأوراتوريو(127) وكرة القدم. لكن عندما اقتربت جلسة الاستماع الأولى الخاصة بالانفصال عن زوجته، أخذ يتصور في

مخيلته خطةً مليئة بالرعب. يأخذ طفليه، توأمين في الثانية عشرة من عمرهما، طفلًا وطفلة، إلى منزله الريفي الكائن في أعماق فالساسّينا، ليعيش ثلاثتهم بمفردهم ويقضون أيامهم في سعادة مظهرية، لكن الرجل يكنز في قلبه كراهية بغيضة لزوجته التي انفصلت عنه؛ فهو يراها خائنة، سببًا جلب الفوضى إلى ذلك النظام الدقيق، إلى حد الهوس، الذي أسسه. رأى فيها المرسوم الذي قوَّض ركائز حياته برمتها. انهارت الأرض تحت قدميه، ورأى أن الثأر يجب أن يكون كاملًا، منحرفًا، مراوغًا، على غرار المصير الذي حاق به؛ لا يمكن التنبؤ به على الإطلاق. في الصباح، يأخذ ابنيه في رحلة إلى الجبال الشاهقة، وهو ما يعشقه بشدة، ثم في المساء، بعد أن يعِد لهما العشاء وهما يلعبان في حديقة المنزل، يناديهما لتناول الطعام، وربما يكون قد مزج لهم الماء بأحد أنواع المسكنات، وبمجرد ما يغرقان في النوم ويستلقيان وهما لا يزالان يرتديان السراويل والقميص، يكتم الأب أنفاسهما بوسادة، وينهي حياتهما. لساعاتٍ لم ينفك عن مراقبتهما. وحده الرب مَن يعرف بماذا كان يشعر في تلك الفترة الزمنية اللا نهائية التعيسة في مواجهة الموت والجريمة والبراءة والذنب. الله وحده من يعرف إن كان طلب الغفران لما فعله من عدمه. كل ما أحسَّه هو الحاجة الماسَّة إلى إزاحة وجههما بعيدًا عن الجانب الذي يقف به حتى لا يتمكن من رؤيتهما. بحلول الفجر، بعث برسالة نصية إلى زوجته كتب فيها: «ستبقين بمفردك إلى الأبد»، كان حكمًا بالنسبة إليها أبشع من حكم الإعدام، في النهاية، يستقل سيارته، ويصل إلى أحد الجسور، ويلقي بنفسه من على ارتفاع تسعين مترًا، وينتهي كل شيء.

(127) صنف من التآليف الموسيقية الغربية، يشابه الأوبرا من حيث الطبيعة الدرامية للموسيقى، إلا أن موضوعاته دينية، ومن أهم عناصره الإلقاء، الألحان، الخورس والأوركسترا.

عاش بطل هذه الجريمة في ملء أسطورة ميديا في خاتمة حياته، لكنه أولًا وقع اختياره على هيستيا كقدوةٍ له -الموقد والعائلة- برتابة يشوبها شيء من التشويه بكل تأكيد. بعد ذلك استمع إلى نداء هاديس شديد القوة: تلك الرحلة في الفراغ، الاتصال بالأرض كما لو أن بمقدورها أن تنفتح وتودي بحياته مباشرةً في أعماق الجحيم، يهشم جسده ويمحوه إلى الأبد.

هل كان الأمر بمنزلة محاولة أخيرة لإثقال كاهلي زوجته بالذنوب؟ أم طلبًا لنوعٍ من النسيان الكلي؟ أم نداء مستحيلًا من أجل الرحمة؟

منحته ميديا الكراهية والانتقام، بل وفكرة أن الانتقام العرضي لهي الأكثر شراهةً وشراسةً. أما هو، القاتل، والضحية من جانب آخر، لم يكن ليعرف أي شيء عن ذلك، لم تكن داخله أي

معايير تمكِّنه من فهم ما يجري في أعماق وجدانه.

كان دائم التردد على الكنيسة والأوراتوريو. مما لا شك فيه أن التعليمات الدينية، المظهرية من جانبٍ، والاعتيادية من جانبٍ آخر -المرأة التي تركته كانت آثمة- لم تكن كافية للكشف عن تلك التوليفة المتشابكة الكامنة في نفسه. إن كان مرتبطًا بشدة هكذا بأسرته، وإن كان يعيش أسطورة هيستيا وتقديسها للموقد ولم يستطع أن يتجنب انفصال زوجته عنه، فالعائلة وهيستيا في هذه الحالة لا قيمة لهما. كانت الزوجة هي مَن أذنبت، وإليها يرجع السبب في تدنيس وهدم تلك العبادة. من ثَمَّ، يمكن لكل شيء أن ينقلب رأسًا على عقب، لتتجلى ميديا سوداء كعتمة الليل.

كيف يمكن أن يتجلى دور الصيانة السليمة للنفس لتجنب ما لم تفلح حتى المبادئ الدينية الثابتة في تجنبه؟ تلجأ ميديا إلى السحر، والتمزيق، والسموم. إنها المحرضة الأساسية نحو الموت. على أي شخص يدرك أو حتى يزعم أنه يحيا أسطورتها أن يتساءل على الفور أين يريد أن تكون وجهته، أن يتوقف في الوقت المناسب، أن يعمل حتى يصل أبوللو إلى نفسه بتوازنه المنشود ونوره المعهود، وتنطلق أثينا لتمارس وظيفتها في قهقرة وردع دوافعنا عندما تخاطر بالخروج عن السيطرة وتحملنا نحو طريق الهلاك.

إن صيانة النفس تتجسَّد في النقطة التالية أيضًا: أننا لا يمكننا أن نمحو الشر، لكن في إمكاننا أن نتعرف إليه في مهده، أن نمنحه اسمًا، ونحاول إعادة توجيهه، ونُسخِّره تحت النور.

فضل ثيريستيس الكبير

هل هناك من يعيش أسطورة أخيل إلى الآن؟ كان أوليس هو الفائز بالسباق الذي انعقد بينهما، ليخلد ذكراه في مخيلة الرجال، لكن كلا من البطلين لم يشعر بأي تناقضٍ، بل هما يتعايشان معًا دون صدام في الإلياذة، وعلى الرغم من تناقضهما الواضح فإن ثمة عدوًّا مشتركًا كان لكليهما: ثيريستيس.

يصفه هوميروس بالعديد من الصفات الجسدية حتى يُظهر مدى قبحه، كان الأبشع بين اليونانيين؛ معوج القدمين، ومنحني الكتفين، يعرج على قدم واحدة، محدّب الرأس المكسو بشعرٍ طفيفٍ.

هو أيضًا ضمن مقاتلي طروادة، نبيل السلالة، من دون أن يكون نبيل القلب، يتفوَّه بكلماتٍ كثيرة لكنها مشوشة، لا يكف عن النعيق والعداوة وكيل الأبطال بكل أنواع السباب، وإطلاق

الشعارات الانهزامية.

لم ينفك عن دعوة قبيلة أخيون ويحثهم على الرجوع إلى منازلهم، ويترك الفرصة لأجاممنون ليستمتع بالتكريم بمفرده ويتلذذ بالفتيات الأسرى اللواتي يأتي بهن رجاله إليه ليمارس الحب معهن. كان يعلق على الخلاف الدائر بين أخيل وأجاممنون ويقول إن الأول لا يتمتع بأدنى شجاعة وشخص خانع: أخيل، كما تعرفون، الأشجع بين الأغارقة، يصير شخصًا جبانًا في خطاب ثيريستيس المراوِغ الذي لا يحترم أحدًا، ولا يهدف إلا إلى الوصول إلى إضحاك جميع المارة كالأشخاص البغيضين في عصرنا هذا الذين يهدفون إلى جني المزيد من اللايكات، لكن في هذه المرة كان قد تجاوز العلامة الحمراء.

يقرر أوديسيوس أن يُخرسه، ويهدده بأنه إن باغته في أي مرة ورآه يتفوه بالإهانات ويتحدث بشأن الرجوع إلى المنزل فسيطرحه أرضًا، ويجرده من ملابسه تمامًا، تاركًا قضيبه وخصيتيه عاريتين، وبعد أن يفرغ من ضربه، سيرسله باكيًا بالدموع إلى جموع السفن الراسية.

تبعت كلماته ضربة من صولجانه على كتفيه المنحنيين. يبدأ ثيريستيس في التلوي وتسقط منه دمعة كبيرة، فينتفخ تورم دموي من خلف ظهره، ويجلس متألمًا، وأنظاره مفعمة بالذهول، من بين ضحكات المحاربين قبيلة أخيون الساخرة.

في وقتٍ لاحقٍ، ينقلب ثيريستيس على أخيل، ويجلب الخراب على نفسه. عرفنا من قبل كيف سارت الأمور، قُتل بعد أن دنَّس جسد بنتسيليا، واقتلع عينيها وسط الضحكات الساخرة والبذاءة. كان أخيل قد استولى عليها بعد أن أحبها بجنون دفعه إلى تتبع زوبعة الحياة إلى ما وراء سكون الموت.

يقول مثل صيني قديم: لا جدوى من التحدث إلى الضفادع عن المحيط. كان أخيل بمنزلة المحيط، العميق، القاتم، المتوهج، المُخجل، القادر على ارتكاب الأعمال المشينة ومنح الثروات الثمينة، أما ثيريستيس، فكان الضفدع الذي لم يستطع مجرد تصور العظمة واللا محدودية.

نقرأ من فيتوريو ألفييري؛ أحد شعرائنا المنسيين -ليس من قبيل المصادفة لأنه يؤمن بالبطولة والقدر- هذا البيت من سونيتّو[128] مصور كلوحة شخصية:

[128] تكوين شعري كلاسيكي ذو طابع غنائي أو هزلي أو ساخر، ويتألف من أربعة عشر سطرًا، عادةً ما تكون عبارة عن مقاطع صوتية متداخلة وموزعة في رباعيتين أو ثلاثة.

تارة يجسِّدنى أخيل، وتارة ثيريستيس.

داخل النفس البشرية، في هذه الهوة التي لا نهاية لها، يمكن أن يتعايش معًا البطل والجبان، مكرس للشرف والشجاعة والعظمة إلى جانب ذلك الذي يقتات السخرية والغيبة والخسة.

إن شعر رجل مثل فيتوريو ألفييري بالتناقض داخله بين أخيل وثيريستيس، ذلك الرجل الأرستقراطي شديد الثراء الذي اختار جانب الأديب والشاعر المأساوي بإرادة حديدية، بل وكان خبيرًا رفيعًا بعالم الخيول، وجاب أوروبا من روسيا حتى إنجلترا، وهناك، في إنجلترا، تحدَّى اللورد بيتّ في مبارزة، زوج بينيلوبي، عشيقته، (العشيقة، من باب الصدفة، كانت سليلةً للمرأة الإنجليزية الرومانسية، حتى لعامل الإسطبل)، ناهيك بنا نحن الشياطين المساكين في عصر يُستهزء بنُبل النفس ويُنظر إليها بارتيابٍ، حيث تسحب وراءها كل عظمة إلى الوحل، لتبدو فكرة العظمة مخطئة في حد ذاتها.

الكثير من البشر يعيشون في أسطورة ثيريستيس المدنّس، الشتَّام، الكلب الأجرب المستعد للنباح وتقيؤ الإهانات في أي وقت، ليجهش بالبكاء ويولول عند رد الفعل الأول كما لو كان يعاني جميع البشر.

يبدو رائعًا إن حاول أي أحد النظر إليه بأعين جديدة. في خضم خطابته كمفوّه يعارض الملوك والأبطال العظام، يجسِّد ثيريستيس صورة ضد البطل (لم نعد نحتمل المزيد من الخطابات المناهضة للأبطال) ليصبح متحدثًا رسميًّا للطبقات الدُنيا ضد سادتهم. سيصبح على وجه الخصوص المتحدث الرسمي باسم تلك المعركة ضد مفهوم الشرف الذي لم يفرغ العديد من المفكرين الصراع بشأنه بهدوءٍ إلى الآن، وهم يفضلون كل ما هو خسيس وجبان.

هل هو زعيم للشعب؟ أم نقابي سابق لعصره؟ أم ثائر؟

فضل كبير يرجع إلى ثيريستيس.

لا شيء من كل ما سبق، إذا ما نسبنا إليه أي دور من الأدوار السابقة ستعد إهانة لزعماء الشعب الحقيقيين مثل كولا دي رينزو وماسانيللو، إهانة لكبار ممثلي النقابات العمالية مثل دي فيتتوريو، إهانة لقنصل الكامالّلي باريد باتيني، وفي حق كل الثوار في العالم بأسره، بدءًا من روبيسبير وحتى فيدل كاسترو، ومن تشي جيفارا وحتى بوبي ساندس.

كان ثيريستيس ولا يزال أيقونة للجُبن والدنس والثرثرة في الهواء، كان ابنًا لأحد الملوك في الإلياذة أيضًا، لكنه يصر على استهداف الملوك، ويسعى دائمًا إلى الحصول على موافقة الجنود

وليس فديتهم. أما اليوم، سيظهر بلا شكٍّ كارهًا متعطشًا متسلسلًا على شبكات الإنترنت، ينشر القاذورات والشتائم والأخبار الكاذبة ضد الأهداف العُزَّل. يجسِّد نزعة للنفس تميل بها نحو الهاوية، مدمرة، لا تتفق مبادئها مع أخلاق هوميروس، إلا أنها متناسقة تقريبًا مع أفكارنا في هذه الأيام البائسة.

هل نجسِّد جميعنا صورة ثيريستيس بعض الشيء؟ لننظر داخل نفوسنا، إلى الجانب المتقيح اللزج الكامن بها. مَن منا لم يلجأ ولو لمرة واحدة في حياته إلى الخبث والغيبة حيال أي أحدٍ؟ هناك بيئات تحاوطنا لا يقوم الإنسان بشيء إلا بتلك الأفعال المشينة السابقة طوال اليوم. مَن منا لم يجد الشتائم الأكثر باروكّية وإهانةً للخصم؟ من الطبيعي أيضًا أن جميعنا تلاعب بالكلمات من قبل، ويخلط بينها ليمرر الحقيقة بين الأكاذيب والعكس، جميعنا نفعل هذا، حتى الأفضل بيننا.

كثيرون يكرهون العظمة، يتفانون في محاولات التقليل من شأن أي شخص يفعل شيئًا نبيلًا، ويهزأ بأي شخص يبحث عن الخير، ويُخفّض إلى مستواه أي شخص يريد التحليق نحو الأعلى: كثيرون جدًّا يعيشون حياتهم البائسة بهذه الصورة.

لا يعني هذا أن جميعنا جبناء، وأن ثيريستيس لديه الحق في التحدث بصوته الفظيع داخل نفوسنا أكثر من المعتاد. إن بقي ثيريستيس الصغير داخل نفوسنا، فهناك واجب على عاتقنا إبّان صيانة النفس؛ أن نُخرسه ونرده إلى موضعه، عن طريق أنظمة أوديسيوس وأخيل.

إن الجُبن الخام لا قيمة له. لا يوجد أي حديث قديم بشأن ضد البطل الذي يشير إليه. لن يتمكن أي منا أن يعيش أسطورة أخيل، أو حتى نصل إلى مرتبته حتى في تحفة جويس أوليس الرائعة الخالدة في ليوبولد بلووم. رغم ذلك، ومن خلال الحلم على صفحات هوميروس، فيمكن أن نجعل منه زميل المدرسة الذي تمنيناه، الأول في سباق المئة متر وفي رمي القرص، المتمرد على كل صنوف الظلم، أول مَن يتحدى القدر على دراجة نارية أو ممسكًا بمقود السيارة، أول مَن يقرأ لبودلير. يكون بمنزلة بطلنا الخارق الذي يواجه الخسة والغطرسة والغرور ويرفع جبهته ويقول: لا! أما إن هُزم، فإنه لا يحجم عن البكاء، ويذهب راكضًا على الرمال بمحاذاة الشاطئ حيث تفيض الشمس بأشعتها ونورها، ويبحث عن أعز ما يمكن أن يمتلكه: الحرية.

لم نعد نحلم بقوة بروميثيوس

توجد ثمة مساحة داخل أنفسنا لشخصيات الأسطورة التي تدفعنا لنحيا الطبيعة إلى جانب تلك التي تدفعنا -على العكس- لمعارضتها.

أرتميس وديميتر وبيرسيفون وبان: نعيش أساطيرهم، ونغمر ذواتنا في طبيعة كل منهم، وحشية الغابة المُنيرة بضوء القمر، وذهبية حقل القمح حيث تنضج سنابله، وزهور الربيع الخفيفة ذات الألوان الزاهية الرقيقة، وقوة الجاذبية الجنسية ورقصة الحياة التي تُثير الأجساد والأشجار والأنهار والحيوانات والريح والمطر.

أما إن كنا نعيش أساطير هرقل وبروميثيوس، فسنجد أننا حصلنا على مفهومٍ مختلفٍ تمامًا عن الطبيعة. هرقل، البطل المتميز، يتولى بامتيازٍ مهمة تطهير واستعادة النظام إلى طبيعة تسكنها الوحوش والعجائب. إن مهامه الاثنتي عشرة تُعَد بمنزلة معركة ضارية مع الطبيعة ضد الوحشية والتجاوز والتنافر، حتى وإن لم تكن تتعلق بهذه الأرض، بل وينحدر حتى أعماق الجحيم ليقبض على سيربيروس، الكلب ذي الرؤوس الثلاثة، حارس هاديس.

نبتت في داخله جذور البنَّاء ورجل المساحة، ينظف الإسطبلات الهائلة المليئة بروث ملك أوجياس، وأول مَن يحوّل مجرى الأنهار (كان ولا يزال أمرًا مدمرًا على مرِّ التاريخ)، وقد وضع -بأعمدة تحمل اسمه بين أوروبا وإفريقيا بطول المحيط- حدًّا لن يتسنى لأي إنسان أن يعبره.

إن بروميثيوس، التيتان، لهو بنَّاء بامتيازٍ، يسرق النار من الآلهة ليهديها إلى البشر ليبدأ من هذه المبادرة عملية تحضُّر أدت إلى صهر المعادن ومن ثَمَّ صناعة كل المعدات والأدوات التي تُمكِّن الإنسان من الهيمنة على الطبيعة نفسها.

لقد نعتُّ جسر موراندي بصفة التيتانيّ، البروميثيوسيّ، ذلك الجسر الذي انهارت قواعده في جنوة. بالطريقة نفسها، يمكنني تسمية ناطحات السحاب التي يمتد ارتفاعها اليوم إلى ثمانمائة متر فوق سطح الأرض، حتى إن باني برج بابل المذكور في التوراة لن يتمكن من تخيله. هناك أيضًا الإيرباصات الجوية والجامبو التي تحلق في أعالي السماء وتحمل مئات ومئات من البشر فوق الغيوم، وحاملات الطائرات الضخمة التي تحرس البحار، ومراكز النفط بحفاراتها، والرافعات التي تخيم على الموانى بظلالها من التنانين الميكانيكية.

لا نستطيع القول إلا أن الحضارة التي نشأت من الحضارة الصناعية تمركزت قاعدتها على أساس بروميثيوس. لم يكن بروميثيوس القديس الأول في التقويم الشيوعي فحسب، وإنما ترأس

.التقويم الرأس المالي، مما دفع الإنسان إلى الجرأة دائمًا لغزو العالم لصالح قلة قليلة من البشر

يعكس سلوك النفس المتباين حيال الطبيعة موقفًا متناقضًا عميقًا يكمن في أغوار الطبيعة نفسها. يبدو أن مصدر الحياة الوحيد، مشهد الجمال الذي لا يضاهى؛ الطبيعة، تحوي أيضًا في نفسها مبدأ العنف الداخلي الذي لا يمكنها سوى جذب أنظار أي إنسان حضري: في البحر، يأكل السمك الكبير السمك الأصغر، ويتخم السلمون بالقريدس حتى إن جسده يتلوَّن بذلك اللون الوردي الرقيق. حدث وأن رأيت ذات مرة ما داخل مظلة قنديل البحر الشفافة، الذي يمكن أن .نقول إنه أضعف المخلوقات البحرية، يحتجز سمكة حديثة الولادة

على اليابسة، يطارد الأسد الغزال حتى يلتهمه. يمكن أن يهاجم الإنسان أيضًا؛ وصلتُ إلى حديقة حيوانات مفتوحة في جنوب إفريقيا في فترة لم يكن قد انطفأ صدى حادث قاس بعد منذ اليوم السابق: فتكت لبؤة بشخصٍ طائشٍ خالف إحدى القواعد التي يرددونها آلاف المرات لكل زوار الحديقة، بعد أن فتح نافذة سيارته وأخرج مرفقه ربما لكي يلتقط صورًا بشكلٍ أفضل. أما في السماء، يمكن أن يحدث أن يقتنص طائر جارح أحد الطيور العُزَّل ويجعل منه وجبته. لم يُذهلني شيء قدر رؤيتي إحدى الحمامات البيضاء التي أطلقها البابا من نافذة كاتدرائية القديس بطرس ليلتقطها من الهواء منقار طائر النورس ويحملها إلى مكان مجهول، لتُمزَّق وتؤكل في .هدوءٍ

لا يكمن أي شر في كل هذا، إنها الغريزة والحاجة إلى البقاء، مستوى الوجود البدائي الذي انحدر منه جميع البشر ببطءٍ شديد. حتى وإن لم تنكسر السلسلة؛ ها أنا مستهلك عتيد للسلمون، ولذا فآكل في السلمون، الذي قتله الصيادون من أجلي، الجمبري الذي قتله السلمون لأجل نفسه، الذي تغذى بدوره على الرخويات والحشرات والأعشاب البحرية وحتى المواد المتحللة. في النهاية، نجد أنفسنا أمام مذبحة حتى يصل إلى مائدتي المتحضرة طبقٌ مُعد بزيت الزيتون .والليمون

؛ منظمة أناركية ليغورية، ويدعى إنريكو أدلير، مفكر كريمOAL ذات مرة، إحدى مؤسسو الـ النفس، شارك في العديد من القضايا الإنسانية، تعرفتُ إليه لأنني في عيد العمال كنت أفضِّل السير في موكبه عن بقية المجموعات الأخرى -في ذلك الوقت كان من الطبيعي أن يسير الشاب في مواكب عامة أفضل من التسكع في مراكز التسوق- وسألني إن كان بمقدوري أن أحقن أسدًا .بمادة تحدُّ من عدوانيته

من المفارقة أنني أتذكر السؤال، كان مثيرًا للاهتمام ومباغتًا، لكن الإجابة لم تكن كذلك، ربما أنني أجبتُ بالنفي؛ هذه هي طبيعة الأسد، يتعلق الأمر بمعرفة طبيعته جيدًا واتخاذ الاحتياطات اللازمة. يجب أن نفعل الأمر نفسه أمام كل أشكال العنف؛ إذ إننا لن نتمكن من محوها أبدًا. من غير الطبيعي أن نقتلع اليوتوبيا من جذورها من العالم، يمكن أن نصارعها. وداخل نفسك، بمقدورك أن تبقى بمنأى عنها، مثلما يوصى أي شخص يذهب إلى حديقة الحيوانات المفتوحة الإفريقية بضرورة عدم فتح نافذة السيارة مهما كان السبب، يجب التوصية أيضًا، إبَّان إجراء عملية الصيانة السليمة، بعدم فتح أي باب من أبواب نفسك أمام العنف.

حتى يعتق نفسه من عنف الطبيعة، بدأ الإنسان يمارس أحد أشكالها وإن كانت بعلامة معاكسة وبقوة أكبر ضد الطبيعة ذاتها. لقد محا بصورة ممنهجة كل ما له علاقة بالبرية، فقطع الغابات ولم يُبق منها إلا القليل، في وقت قرأنا عن أوروبا القرن الثامن عشر ذاتها أن البارون المتفشي كان من الممكن أن يصل من الريفييرا وصولًا إلى بولندا، وهو يمر من شجرة إلى أخرى، وفرع تلو الآخر، من دون أن تطأ قدمه على الأرض. سخَّر الإنسان الأنهار، كما علَّمه هرقل، سمَّم الهواء بمداخنه، تسبَّب في ظهور جزر من النفايات البلاستيكية في البحر، تلك الجزر التي اتخذت لها الآن أبعادًا هائلة وأصبحت مقابر وسجونًا للأسماك والطيور البحرية. حفر قاع البحار بحثًا عن الغاز والنفط، ولم ينفك عن استخراج طاقات لن يتمكن من تجديدها. في النهاية، اكتشف الطاقة الذرية التي تصل قدرتها التدميرية إلى حد التأثير في التوازن الداخلي للخلية، والتي لم تجلب الخراب فحسب، وإنما جاءت أيضًا بالتشوهات والأمراض المستعصية.

هل هذا ما كان يحلم به بروميثيسوس عندما سرق النار من زيوس ومنحها إلى البشرية؟ ربما لا.

ثمة شيء تبدَّل في نفس إنسان القرن الحادي والعشرين، ولم يعد كثيرون يحلمون بالقوة البروميثيوسية. لم تعد الطبيعة تحكمنا، وأما عن مهاجمتها لنا الآن، فهذا يرجع إلى اعتداءاتنا المتكررة بصورة متزايدة. هناك عرام العواصف المدمرة التي حدثت في أكتوبر عام 2018 على سواحل ليجوريا، وتسونامي والأعاصير والتغيرات المناخية والحرائق والانهيارات الأرضية والجفاف؛ ينوهنا كل هذا بأنه رغم كل شيء ستفوق الطبيعة في قوتها قوة الإنسان، إنها الأرض الأم التي ولدتنا، وفي إمكانها إفناؤنا أيضًا؛ لذا دائمًا ما تذكرنا.

رويدًا رويدًا تشعر النفس بذلك؛ فمنذ آلاف السنين، كانت الغابة رمزًا للشر، للبرية المظلمة، للضياع. أما اليوم، فالغابات العملاقة الأخيرة المتبقية في الأمازون وسيبيريا وأستراليا تمثِّل رئتي الأكسجين بالنسبة إلينا جميعًا، والتي في ظل تجريفها إثر الحرائق المروعة تظل رمزًا لثروة مهددة بالانقراض علينا حمايتها من أجل الحفاظ على بقائنا عينه. لقد كان الذئب رمزًا للشر والكمين والخطر المميت في كل قصص العالم. حدثتنا الأسطورة الإغريقية عن معصية ليكاون، ملك أركاديا، الذي طبَّق مبادئ التضحيات البشرية، وأحاله زيوس إلى ذئبٍ كعقابٍ، ذلك النوع الشمالي من ذئب فنرير، الذي سيتحرك في نهاية الأزمنة لمهاجمة والهالا برفقة قوى الفوضى والظلام.

أزعم أنه لا يوجد أي طفل في العالم الآن يرى أي خطورة تكمن في الغابات، أو سيشعر بسعادة إذا ما رأى ذئبًا يُقتل ببندقية.

توصينا صيانة النفس بأن نضع ذواتنا على معيار أرتميس وبان، وبالقدر نفسه على معيار هرقل وبروميثيوس، الموجود داخلنا. ثمة صدام يلوح في الأفق إذن داخلنا وبيننا. إن علماء البيئة، الحقيقيين منهم، والعدد المتنامي من النباتيين، ونشطاء حقوق الحيوان الحقيقيين، ونشطاء منظمة السلام الأخضر، كل هؤلاء يعيشون فقط أسطورة بان كإله للطبيعة غير الملوثة. أما رجال الصناعة ورجال الأعمال والبناؤون والجنود والمصرفيون فيعيشون أيضًا -وإن كانت بصورة ليست صارخة- أسطورة بروميثيوس، في غزو الطبيعة، أو ينخرطون في التمويل العالمي، التابع لهرمس، والتقلبات غير المادية، والظروف التي تهيمن على البورصات وتتسبب في إحداث تشققات جذرية أو ثروات مفاجئة غير محدودة.

بمجرد ما يتعيَّن على المرء اتخاذ قرار ما، فحينها عليه أن يطبِّق المعايير الأخلاقية. ما الذي يبدو أخلاقيًّا اليوم؟ هل استغلال موارد الكوكب واستنزافها؟ أم البحث عن أصول اقتصادية وسياسية تسمح بالحفاظ على الحضارة وتترك الأرض الأم تتنفس في سلامٍ؟ هل ننعته بالأخلاقي ذلك الموقف للملياردير الأمريكي الذي أراد أن ينتج المزيد والمزيد حتى على حساب تقويض الجبال المقدسة؟ أم موقف الأمريكيين الأصليين وزعيمهم سيوكس الذي دافع عن الجبل المقدس غير مبالٍ بأي ذهبٍ كان إلا إن كان ذهب الروح؟

بالنسبة إليَّ، لقد اتخذتُ قراري بالفعل منذ عقود، ربما تسمح لك صيانة النفس، عزيزتي القارئة وعزيزي القارئ، باتخاذ قرار أنت أيضًا.

تأثير أفروديت

كانت قصة ربة الجمال والحب القصة الأولى التي كتبناها في مستهل هذا الكتاب، وها نحن نعود إليها لنختمه أيضًا.

في الأسطورة اليونانية، كان هيروس، الحب، أصل كل شيء، هكذا، يقول هسيودوس في ترجمة تشيزارى بافيزى:

في البدء كانت الفوضى بحقٍّ، ولكن

بعد ذلك جاءت جايا ذات الصدر العريض

[...] كملاذٍ ثابت للجميع

ثم كان إيروس، الأجمل بين الآلهة

[...] الخالدة ذات الأطراف المتحللة

وُلدت أفروديت أيضًا منذ نشأة الكون، وصوَّرتها نسخ الأسطورة الأخرى بأنها أم إيروس؛ أما الآن فهي تنعم بموضعها في قصر الأولمب، ربة أقدم من زيوس وهيرا، ابنة بريئة لجريمة كونية ولزَبد البحر.

تُعَد أفروديت، بين كل الربات والآلهة، أصل الطاقة الصافية والخلَّاقة للطبيعة. في مستهل كتاب «في طبيعة الأشياء»، يخاطبها الشاعر اللاتيني لوكريتيوس فينوس، كقوة عظمى، متعة البشر والآلهة، تفيض بالحياة في البحر الغني بالسفن والأراضي الغنية بالمحاصيل، فهي أصل كل خليقة حية التي تعطيها جسدًا وتُريها أشعة الشمس. أمامها تصمت الريح، تتبدد الغيوم، وعند قدومها تنبت الأرض الكادحة بالزهور في كل مكان، وتضحك الأمواج، وتهدئ السماء بنورها المنتشر بالأرجاء. حالما ينقشع الضباب ويحلُّ الربيع، ترفرف الأجنحة من أعماق قوتها، وتقفز القطعان عبر الوديان الوفرة، وتجري تيارات المياه السابحة، مفتونة بأسر جمالها، ويتبعونها بشغفٍ أينما تريد أن تحملهم. في البحار والجبال والأنهار الجامحة، وفي أعشاش الطيور المورقة، والحقول الخضراء، لتغرس فينوس في صدور الجميع حبًّا لطيفًا، مداعبًا، حريريًّا، حبًّا يُذيب كل شيء ويرجع إليه الفضل في خلود السلالات كافةً؛ وحدها من تحكم طبيعة الأشياء.

ما قاله لوكريتيوس، إلى جانب كونه شعرًا عظيمًا، لهو شاهد منقطع النظير عن طبيعة أفروديت الكونية، وكونها ذات علاقة بالنور والولادة وبذرة كل إنجاب والربيع والمتعة واستمرارية حياة الكون.

من يعيش أسطورة أفروديت، يعرف أنه بصدد العيش في أسطورة غريبة وبدائية وسعيدة وشاقة. لا شك أنه سيكون الوحيد الذي تجعله يحيا إلى الآن بجانب الميلاد الجديد والجمال والربيع والشمس والبحر وكل ما يتحرك ويلمع، الشخص الوحيد الذي سترشده، مداعبةً إياه، نحو طريق المتعة حيث تذوب الأجساد وتتواءم معًا، الأمر الذي يؤكد لنا بيقينٍ مطلقٍ أننا جزء لعالم يتجلى مصيره في استمرارية التوسع في الحياة.

تعتمد سعادة وتعاسة كل مخلوق حي على أفروديت بصورة كبيرة. إنها تسكن السماء والأرض، وتسكن أبعد المجرَّات وأنفسنا أيضًا. يمكنها أن تكون سماوية أو أرضية، لكنها دائمًا ما تكون هي بذاتها. مَن يُحب، يعرف جيدًا أن في أعماق حبه يكمن كل شيء؛ حلاوة الفجر ورجفة الجسد والعاطفة الجامحة والضياع الناعم والمتعة والشهوة والتواطؤ والشعور بملء الحياة، كل ذلك يتحقق ولو للحظةٍ وحيدة.

نميل اليوم إلى الحديث عن الحب في صورة مختزلة بائسة، حتى إننا نراه كشعورٍ خاص وسطحي، إن لم يكن أخرق وخاويًا. في الحقيقة، ما زال الحب معلقًا بين الكهوف العميقة والقمم النورانية، بين فوران الخمر وتقطّر الدم، بين الورد والقُبح، واللهو والتعب، والإخلاص والخيانة، والعذوبة والسُّكر، والرضا والهياج، والطبيعة والجمال.

تكشف لنا صيانة النفس الحقيقية أن الحب يكمن في وحدة الأنا ومركزيتها لدى نركسوس، وفي وحشية باسيفاي، وجنون فايدرا، وهروب هيلين من زوجها وأبنائها خلف شاب وسيم مثل باريس. كم من مرة تتكرر هذه القصص الأسطورية الآن؟ حيث لم تكن بطلتها أجمل امرأة في العالم، بل ربة منزل عادية، ولم يكن بطلها أميرًا غندورًا، وإنما ربما كان سائق شاحنة قوي البنية.

لا شك أن هناك طاقة مظلمة في الحب؛ تجعله لا يهتم بأي شيء سواه، وتميل إلى محو كل شيء أو تفقده قيمته، حتى يصبح كل شيء يبعث على الملل، وفي بعض الأحيان يصل بها الأمر إلى حد رفضه تمامًا. يقبض الحب بالجسد البشري، وهو القوي، ولا يدعه يلتقط أنفاسه، لكن هناك نورًا يكمن في الحب أيضًا؛ ذلك النور الذي ترشدنا هي بنفسها إليه في نهاية المطاف:

أفروديت، حيث الشعور بوجود ذلك المخرج الذي يعتقنا من معاناة الحياة، ومن فخاخ ظلمات الجحيم التي تحيق بنا وتخنقنا.

إبَّان مراهقتي، كتبتُ أنني جازفت بعيش أسطورة أثينا بصورة مهووسة، وأنني أحببت الدراسة والمعرفة فوق أي شيء. إن لم تخنِّي الذاكرة، أتذكر أنني عشت بعض الوقت أسطورة أبوللو، فشعرتُ باشمئزازٍ غريزي ناحية الجسد، والابتذال، والجموح، مما دفعني إلى التقوقع في نموذج أرستقراطي سخيف حطمته، لحسن الحظ، أفروديت باقتحامها المباغت بعد أن تجسَّدت في وجوه بعض الفتيات الإنجليزيات الفاتنات المتحررات.

حدث المزيد أيضًا. قرابة العشرينيات من العمر، وذلك في أعقاب حادث الوفاة الأول في حياتي لأحد أصدقائي في المدرسة، بوتشي لافيتساري، الطويل القامة، الرياضي، الطيب، المقرب إليَّ بصورة فائقة. عقب زيارتي المؤلمة إلى المشرحة حيث ترقد جثته، قبض هاديس على أنفاسي لأعيش أسطورته للانحدار إلى العالم السفلي، تهاويتُ في انهيار عصبي حقيقي. تجسَّد القلق والألم واكتشاف الموت في صورة آلام جسدية شديدة في الرقبة وفقدان تدريجي للتوازن، وصعوبة مروعة في البلع، وأحلام وحشية: إبرة طويلة معقوفة تنتزع عقلي وتخرجه من أنفي. باختصارٍ، لم أعد أقوى على الخروج من المنزل بمفردي، وقد فارقتني القوة للقراءة والدراسة.

تطلَّب اضطراب الجسدنة[129] العلاج. الطبيب النفسي من جنوة، الدكتور جاريلّو الذي أتذكره دائمًا بإجلال، ذلك الرجل الهادئ، المثقف، وكنا نتحدث معًا عن سورين كيركغور وسارتر، ومكَّنني من العودة إلى المدرسة واجتياز امتحانات التخرج، كان صائبًا في استخدم الأدوية بصورة جيدة. كنت من بين الأوائل الذين استخدموا الليبريوم، ذلك الدواء الذي في إمكانه أن يُسقط المرء في سبات عميق. لم يكن قد اكتُشِف عدم توافقه مع تناول الجبن، ولقد تسبب في ألم رهيب في رأسي لم أشعر بمثيله طيلة حياتي.

129) أحد الأمراض النفسية التي يعاني فيها المريض حالة نفسية تجعله يُركز بشكل غير طبيعي على الأعراض الجسدية التي يشعر بها.

إن ادَّعيتُ وقلت إن كل الفضل يرجع إلى الطب أقول نصف الحقيقة فحسب. تحديدًا في تلك الأشهر، ما إن استعدتُ قدرتي للخروج من المنزل، ولمواجهة الحياة بعد التيه في الجحيم الذي أرسلني هاديس إليه، قابلتُ بمحض الصدفة، أو العبث، فتاة رقيقة المحيا، نحيفة جدًّا، ذات عينين مشرقتين ووجه جميل يكسوه النمش. بدأت قصة حب بيننا، قصة شاعرية لا أدري كيف

استمرت إلى الآن؛ كانت أفروديت هي مَن أنقذتني مرة أخرى، وقد تحالفت مع بيرسيفون، التي تعرف طريق الخروج من عالم الظلمات أشد المعرفة، كان ربيعًا. دائمًا ما تتسم بداية الحب بشيء يأتي من بعيد، من أصل الكون. ابتدأ الأمر بنزهات وقبلات، ثم جاذبية سرعان ما صارت مصدرًا للعذاب، تنذر بمصير وشيك.

أحببتُ، وشعرتُ بالحب، وأحسستُ بتيار غامض من طاقة كيميائية يتدفق بيني وبين مخلوق آخر لم يكن ليربطني به أي شيء سابقًا، بل يكاد يكون غير مفهوم وبعيد المنال بالنسبة إليَّ إلا من خلال الحواس والشهوانية. كل هذا أعاد إليَّ النور من جديدٍ، والشعور بأن هناك شكلًا، وإن كان عابرًا، للسعادة؛ كان هذا، ولا يزال، تأثير أفروديت.

منذ ذلك الحين، لم يتوقف ذلك الشعور بداخلي. أخشى من فكرة أن يتلاشى ذات يوم، أن تفرض آلهة أخرى، ونزعات بشرية أخرى، بنفسها على ذاتي. أريد أن أستمر في حب كل شيء، أريد أن أحب دائمًا، أريد أن أحب الحب دائمًا وأبدًا. لن أتوقف عن الزعم بأن أهم ما يمكن أي إنسان أن يفعله هو عمل المحبة، ذلك، لأن المُحب، «من يحب»، كما نقرأ في ندوة أفلاطون: «شيء أكثر ألوهة من الشخص موضوع الحب، لأنه يصبح مليئًا بالإله».

أن تكون موضوعًا نشيطًا وكريمًا وناشرًا للحب، من دون أن تربطه أبدًا بالتملّك، فهذا أمر ضروري. إن كنت تقوم بعمل المحبة؛ فـ «أنت مليء بالإله»، بغض النظر عن الإله الذي تعبد. من ثم، فإن الخطوة الأخيرة نحو صيانة صحيحة للنفس تتمثل في اختيار عيش أسطورة أفروديت، في طرح الأسئلة المتعلقة بوجودها.

كيف حالك عندما تحب؟ ما علاقتك واستيقاظ الطبيعة إبَّان الربيع؟ هل ما زلت قادرًا على رفع عينيك نحو كوكبة النجوم ونجم المساء؟ ما حجم الطاقة والجمال داخلك؟ كيف يتسنى لك أن تحافظ على وحدة جسدك وروحك بلا افتراق أبدًا؟ هل تخشى من أن تحلم بألعاب إيروس؟ كيف حالك مع شريكك أو شريكتك (حتى وإن كنتما من جنسين مختلفين أو مثليي الجنس لا فارق)؟ هل بنيتما معًا شيئًا بعيدًا عن أي قواعد مادية أو اقتصادية؟ هل شعرتهما من قبل بملامسة مصير الحب؟

يعد الحب مثل أحجية جميلة، عندما يختار بعضنا بعضًا، ويحب بعضنا بعضًا، ونقرر البقاء معًا، أو يفترق كل منا عن الآخر، فكل ذلك جزء من سر الحياة العظيم، الذي نكنُّ له الاحترام والتقدير الأسمى. من ثَمَّ، من الأفضل اتِّباع أفروديت. إبَّان صيانتنا للنفس، يوصى دائمًا بأن نلجأ

إليها أكثر من أي إلهة أو إله آخر نتبعه، بعد أن نعي أن نطاق عملها أقدم وأوسع من نطاق أثينا وهيستيا وأرتميس، عدواتها بلا جدوى.

تكشف لنا أفروديت عن رغبة الحياة للكون، وتبلغنا بأننا جزءٌ لا يتجزَّأ منه، بالتالي، فأن يعيش المرء أسطورة أفروديت فهذا لا يُعَد ضربًا من ضروب التحرر والفساد كما يظن البعض، ولا يزعم أن الصفة من وراء اسمها (أفرودسياكو) يقصد به فقط أي طعام أو كوكتيل ذي خصائص مثيرة جنسيًّا كما شاع القول في اللغة المعاصرة. أما الأسوأ من ذلك نجده في لقب فينوس الذي يُجمع في صورة veneri؛ ويوحي بالنعمة والجمال، وتحولت الصفة من ذلك الاسم لتشير إلى كل ما هو «تناسلي»، وكثيرًا ما يُراد به أي أمراض تُصيب الجهاز التناسلي.

إن عيش أسطورة أفروديت يسمح للنفس بالاسترشاد بمَن وما يخلق الحياة: الشمس والريح والنحل والمطر والبذرة، بكل ما يولد، ليموت، ويولد من جديد، بجمال دائم الحركة، بطاقة حيوية نقية لا تخضع لتشريعات، ولا تُباع أو تُشترى، وأخيرًا، بالدرب المؤدي إلى النور، بعد أن يدعو المرء نفسه إلى الحرية، دائمًا، إلى الحرية بشتى أشكالها.

ستكشف لنا صيانة النفس أن الهبوط في موضع النور بمنزلة هدفها الرئيس، بتعقيدات النفس المألوفة، ومع وجود كثير من الربات والآلهة والبطلات والأبطال وحتى الوحوش التي تثور داخلها، تسعى النفس لتكون في «حالة جيدة»، لتسلك بصورة حميدة، ولتضمن الملء في الحياة بجرعةٍ، ولو قليلة، من السعادة، ومن ثم يتعين عليها أن تحيلهم جميعًا ناحية جانبهم المنير.

دعونا ألا ننسى أنه في البدء كانت الفوضى، وأن، كما يكتب فيكتور هوجو: «مَن يريد خلق العالم عليه بالفوضى». يعتمد تكوين العالم على الخروج من الظلام بعد أن يتَّبع، أو يُعد المسارات المنيرة بالفعل. يعد الحب بمنزلة المسار الأكثر أمانًا.

يمكن لجميع النزعات البشرية أن تبقى تحت حماية الحب. وحده الحب سيتمكَّن من ردعهم إن انحرفوا ناحية الكراهية أو الدمار، ويشجعهم عندما يسيرون في اتجاهه نفسه، في اتجاه أولئك الخالقين الذين يمنحون الحياة ويسمحون لها بالاستمرار.

لن يضل طريقه أبدًا مَن يتبع أفروديت، عندما تتجه النفس -التي لن تكف عن الحركة- بأنظارها ناحية الجمال، فهي بذلك تؤكد أصالتها الإلهية غير الفانية كما كتب أفلاطون في فيدروس. حينئذٍ تشبه رحلتها ما قاله أعظم شاعر عرفته البشرية؛ دانتي، في قصيدته: إذ كان قد

انطلق بنفسه من الظلمة الحالكة، من داخل النيران، والطين، وجليد الجحيم، حتى بلغ نور الفردوس المبهر، وسر الله.

تجوز النفس صنوف الجحيم اليومية من الألم والوحدة والعمى والفتور والفقر والشر وسوء النية والنفي. خلال هذا الوقت الذي أكتب فيه، يناير 2021 بعد الميلاد، تلك الفترة التي اجتاحتها رياح الوباء المروعة، حيث ساد الانقسام والشك والإغلاق والغضب والنضوب وانعدام الإيمان بالمستقبل، واحتدَّ خوف النفس وتفاقمت معاناتها. لكنها لن تستسلم أو تتوقف، بل تنطلق نحو الأمام تمامًا كما يتوجب عليك أن تفعل عندما تباغت سيارتك قنبلة مائية من السماء؛ حيث يكون أمامك بضعة كيلومترات لتبقى في أمان إن تحركت، أو يتسبب الماء المنهمر في أن يغمرك في نهاية الأمر حال وقوفك.

تواصل النفس رحلتها، وتخرج من موضع ظلمتها، تترك من خلفها العاصفة الممطرة وتجمُّعات الظلام الكثيف. إن كانت على دراية بالأساطير التي تعيشها فيمكننا القول بأنها في مأمنٍ عن أي خطر يقوِّض أساساتها.

هذا ما يمكن أن تفعله صيانة سليمة للنفس، ليست معجزات طبية، فهذا ليس من شأنها. يمكن أن تحملك، عزيزتي القارئة وعزيزي القارئ، حيث يوجد النور بكثافة، وحيث يمكنك أن تقابل الحب الذي هو الله، والذي بقدر الحب الكامن داخله يحرك كل شيء، إنه «موتور» لكل شيء: أنت والريح والبحر والسماء والمجرات.

الجزء الرابع

كُتيِّب لصيانة يومية للنفس

الصباح

لا تنس أبدًا أن الإغريق كانوا يؤلهون الشفق؛ إذ أطلقوا عليه اسم إيبيوس، ابنة تيتان وتيتانة، شقيقة الشمس، المتعطشة إلى الحياة والحب.

في كل صباح، بمجرد أن تستيقظ، احك لنفسك بإيجازٍ (لنفسك فقط) ما تتذكره من أحلامك.

تضم الأحلام في نفسها المحيط والشمس، الماء والنار، الظلمة السحيقة والنور المبهر، أقدم القوى الإلهية؛ إنهم هم الذين يتذكرونك.

في بعض الأحيان، بعد حلم عابر بقبلة أهدتها إلى شخص لم تُقبِّله قطُّ، تستيقظ وأنت ما زلت تشعر بتلك القبلة على شفتيك.

في كل صباح، بمجرد أن تستيقظ، صوِّب عينيك ناحية النور، قدِّم الشكر لروح الحياة أنك ما زلت على قيدها، وأن النور قد عاد.

في كل صباح صلِّ لروح الحياة (يسميها البعض الله) من أجل الذين تحبهم، من أجل الذين يعانون، من أجل الحياة نفسها.

ليس هناك شيء صحي في الصباح أكثر من أن تدع الموسيقى تأخذك حيثما تريد، أن تقوم ببعض الحركات الراقصة، حتى وإن كانت خرقاء وموجزة، فلا يهم.

وإن لم يقو الجسد على الرقص، ففي إمكان النفس أن تفعل ذلك.

كيف لك أن تؤمن بالمرئيات، وتصل بك الثقة إلى درجة أنك لا تؤمن بوجود نقيضها؛ اللا مرئيات؟

بارك الرشفة الأولى التي ترتشفها. عندما تفتح الصنبور وترى المياه المتدفقة، تذكر ما بها من أنهار وينابيع وسحب وأمطار حتى تتجمع هناك، في كأسك الخاص.

بارك أول قضمة تأكلها، قدِّم الشكر لذلك أيضًا، لا تبدأ يومك بالتشتت أو اللا مبالاة.

ليس من شيء بلا قيمة في حياتك؛ كل حركة لها معنى حتى وإن كنت تجهلها.

حِب ما تعمل، فلا توجد وظائف وضيعة، غالبًا ما أقابل إسكافيًّا تعلو وجهه ابتسامة مشرقة سعيدة لم أرَ مثلها قط على وجه موظف بأحد البنوك.

لا تكف عن البحث عن نقطة اللقاء المحتملة بين رغباتك ووظيفتك.

ليس من دور النفس أن تصبح نجم روك شهيرًا، وإنما كل ما عليها أن تكون سعيدة فحسب.

طالب باحترام كل حقوقك المدنية، من دون أن تغفل عن المطالبة بحزمٍ باحترام حقوق النفس؛ من سعادة وجمال وسحر ودهشة ومعرفة وحب؛

لن يصل المرء إلى كمال إنسانيته إن لم يكتشف بُعده الإلهي.

ضع في أولويات دراستك المعرفة ذاتها، أن تعرف نفسك، وأن تصل إلى ملء الإنسانية، حتى تنجح في ممارسة أي مهنة يكفيك ممارستها فحسب.

مَن ادَّعى بأن الرؤية الميتافيزيقية للحياة تُحد من الحرية أو تنكر وجودها؟ بل إن الحرية نفسها تزداد قوةً بعد تكريسها للغموض.

فكر دائمًا بكونك لغزًا في ذاتك، تسير في اتجاه لغز الحياة والكون.

تكمن الحرية الحقيقية في الخضوع لمبدأ الألوهة، وليس أي شيء آخر.

لا تقايض حرية نفسك وإن كان في مقابل قوة العالم وثروته كلها، علم المسيح بهذا سابقًا، عندما وقف أمام الشيطان وتقدماته.

إن حققتَ ثروة، استمتع بها، شاركها مع الآخرين، قدِّمها لهم، لا شر يُذكر من أن نكون أغنياء، وإنما يكمن الشر في أولئك الذين يستغلون الثراء ويجعلون منه مصدرًا صامتًا للسلطة، ويقهرون الآخرين بواسطته ويقمعونهم.

إن سنحت لك فرصة تولي مسؤولية ما، ففكر أولًا إن كنت ستمتثل للأمر الذي تصدره.

تعلَّم كيف تحيا برباطٍ وثيق مع فكرتك عن السعادة.

اسع لأن تبتكر وجهة نظر شخصية لأي موضوع يواجهك، لا تسمح بقولبة نفسك، ولا تقبل أبدًا الأحكام المسبقة أو الأفكار المُعلَّبة من الآخرين.

لا تخف من التفكير ضد التيار، من أن يراك الآخرون غريب الأطوار أو تائهًا، إن معيار الأغلبية السائدة الذي ربما يصلح في مجال الديمقراطية السياسية، لا يصلح أبدًا في مجال الفكر: «في مجال الفكر، دائمًا ما تكون الأغلبية على خطأ» (جوزيف كامبل).

عليك باحتواء رغباتك، لا تقمعها أبدًا، تعلَّم كيف تتسيَّدها دائمًا.

أي قمع أو كبت ينجم عنه اضطرابات عمياء، وانفجارات غاضبة، وطاقة تبقى سلبية ما لم تُسخَّر نحو تمرد فردي أو ثورة اجتماعية.

أفضل لك أن تكون متمردًا مهزومًا من أن تصبح حقيرًا منتصرًا.

قل الحقيقة دائمًا، ولا تنس أن تعلنها لنفسك أولًا.

إن شعرت بحاجتك إلى الكراهية، فلتكره، ولكن تحرر منها في الحال كما تتخلص من بلغمٍ جاثم في حلقك؛ تبصقه وتحتقره وتعود مبتسمًا كما كنت.

إن العيش في جوانب الكراهية لهو سفسطة، تنتج الكراهية الموت وتنشره في الأفراد والمجتمعات والتاريخ.

شرٌّ هو الشعور بالانتقام، لكنَّ الانتقام دافع بدائي لن يُمحى، وإن لم يكن، فهناك الاستسلام والمغفرة؛ وحدها المغفرة يمكن أن ترفعنا إلى مستوى آخر، لا يمكن اعتبار المغفرة نزعة بدائية وإنما انتصار شاق على الضمير الأخلاقي.

من الأسهل التعرف إلى نفوسنا عبر إدموند دانتس؛ المنتقم في الكونت دي مونت كريستو، مقارنةً بجان فالجان، المضطهد الأبدي في البؤساء، ورغم ذلك، ففي رواية فيكتور هوجو يصبح البطل الحقيقي هو اللا نهائية.

أحِبَّ نفسك من دون مغالاة، لا تفعل مثلما فعل نركسوس، احكم عليها، ضعها تحت المراقبة، افحص ما لا «يعمل» بصورة جيدة داخلك.

عليك أن تقبل لمرة واحدة وإلى الأبد أن الحب يعني تمنِّي الخير لأولئك الذين لا ينتمون إلينا، يعني العمل من أجل إسعاد كائن آخر.

هل تحبني؟ إذن تمنَّ لي السعادة، قبل سعادتك، وقبل أي شيء.

إن اتَّبعت آثار أفروديت فلن تخطئ أبدًا.

لا شيء أغلى بالنسبة إليك من الطبيعة المُحبَّة والأزهار والأحجار الكريمة المتدلية من أغصان الأشجار والأنهار المتدفقة والبحر الذي يرفع الأمواج والريح والنحل الذي ينثر لقاحه.

انثر البذرة بكل سرورٍ وتقديرٍ.

لا تخف من بان أبدًا، أو من الساتير والحوريات، دعهم يظهرون ويلعبون أمامك؛ إن الشهوة والرغبة الجنسية جزءٌ لا يتجزأ من الحياة.

عوِّد نفسك على رؤية آثار الألوهة التي لن تُمحى في الطبيعة (وفي نفسك كجزءٍ منها).

ربما تكون حكمتك كحكمة بالاس أثينا؛ تحارب بصرامة إستراتيجية، قادرة على ترويض وإلحاق الهزيمة بجبابرة الفوضى البدائية، وتخطط لمدينتها ولمدينتك أسس الديمقراطية الحقيقية.

أحِبَّ الشمس بكثرة، فعلها جوته من قبلك عندما قال وهو يحاور يوهان بيتر إيكرمان: «إن سألتني إن كان عشق الشمس جزءًا من طبيعتي فسأجيب قطعًا بنعم، ذلك لكونها تجلّيًا من العلاء، وفي الحقيقة إنها أقوى ما استطعنا إدراكه، نحن أبناء الأرض. أعشق فيها نور الله وقوته الخلَّاقة، التي بفضلها نحيا ونتحرك ونوجد، وترافقنا في ذلك كل أنواع النباتات والحيوانات». هذا جوته، لذا، اعشق الشمس أنت أيضًا، وإن سخرت منك حفنة المثقفين المعاصرين، فاسخر منهم أيضًا.

لا يكفي أن تحترم الطبيعة، بل أحبَّها، لا يكفي زراعة الأشجار، بل علينا معانقتها، عانِق شجرة لمرة واحدة وستشعر بتيار من الطاقة ينتقل إليك ويصعد من قدميك حتى هامتك، من الأرض إلى السماء.

التهكُّم مرضٌ ممتعٌ، خَرَف، وربما أنيق، تحلَّ بالحماسة والبراءة، كن شابًّا.

ينمو الجنون بنمو العمر، ويقول فرانسوا دو لاروشفوكو: «المجانين العجائز أكثر جنونًا من الشباب».

عندما يجتاحك الغضب، حاول أن تشعر بوجود بوسيدون داخلك، يرفع الأمواج ويهيِّج البحر برمحه الثلاثي، هكذا ستهدأ؛ كما يفعل البحر دائمًا بعد تبدد العاصفة.

لا تخشَ أن تتغير، كن مثل بروتوس؛ بعيد المنال عن أعين الآخرين وأيديهم.

لا تخف من أن تناقض نفسك أبدًا، كن كالشيء ونقيضه، ولا تقبل أبدًا أن تضحي بشيء احترامًا لمبدأ عدم التناقض داخلك.

هناك زحامٌ عظيم داخل نفسك، يبدو كازدحام صالة سينمائية، تفيض بجموع الناس، ويدخن الجميع في جوانبها.

لا تؤمن بشيء واحد فقط، بل آمن بالإيمان نفسه، بطاقة الحياة المُحيية، بالقيامة.

أن تحدد مركزًا في نفسك أكثر صعوبة من تسكين البحر أو إيقاف الريح، إن مركز النفس هو ينبوع تدفقها.

احذر ممن يقولون لك: «الحقيقة غير موجودة»، إنهم الكاذبون الأولون، ويسعون أن تشاركهم رأيهم.

يقولون في العقود الأخيرة إن ضوء الشمس في المدن الصناعية قد تناقص بنسبة عشرين في المائة، لم يتعرض بصرنا لمخاطر أشد خطورة، بل نفوسنا.

درِّب ذاكرتك على هذا النحو: قدر ما استطعت فلتُعد بناء الصور الأولى التي تتذكرها في ذهنك، حيثما كنت، وبرفقة مَن. أعِد بناء اللحظات الحاسمة من ماضيك، لحظة تلو الأخرى تُرتِّبها حسب أهميتها، والكلمات الأكثر جمالًا سواء قلتها أو سمعتها، ووجوه كل مَن أحببتهم.

تحيا النفس بين رغبات المستقبل وذكريات الماضي، إذا نظرت إلى وجه الساعة، فإن الحاضر يدوم دقة واحدة، أي «ألف وثلاثة» من الثانية.

ليس هناك أي رغبة مجنونة وفاحشة تدفعك إلى الخجل من نفسك، تسيَّد عليها، واضبطها، وعزز جزءًا منها في النور.

كرِّس نفسك لهرمس، لا تخف إن اندلعت من جانبك أي وقاحة، إن عظَّمتك سرقة الحب، إن وجدت تسلية في أولئك المحتالين، إن راقت لك السرعة والمساومة والصمت المفاجئ: فكِّر بأن هناك إلهًا يحمي كل هذا.

تحاور مع الآخرة، توجَّه إلى اللار(130) المنزلي الخاص بك، وتذكر لمرة واحدة في اليوم على الأقل مَن هو الآن في بُعدٍ آخر من الوجود.

(130) لار هي آلهة الحماية عند شعب روما القديمة، أصلهم غير محدد، ومع حلول حقبة الجمهورية، تم تبجيلهم على هيئة تماثيل. في العصر الروماني القديم، كان في كل منزل تقريبًا تمثالٌ واحدٌ أو أكثر للار، اعتقادًا من الشعب بأن اللار يعطي الحماية للأسرة والمنزل.

الظهيرة

في الغداء، فكِّر بأن كل ما يوضع أمامك على المائدة كان حيًّا من قبل، وكان يجب التضحية به أو قتله أو صيده أو قطعه أو إخراجه من الأرض أو قطفه من أحد فروع الأشجار ليبقيك حيًّا.

عجلٌ في أحد المروج، أو سلمون في المحيط، أو ربطة من الخس في البستان، أو خوخة منسدلة من شجرة الخوخ: فاحترم ما يوضع على مائدتك من خليقةٍ.

قدِّس محيط وجودك، الطبيعة مقدسة، ومنزلك مقدس، وأنت مقدس، والإيروس مقدس: «مقدسٌ هو كل ما يحيا» (وليام بليك).

«اعرف نفسك» لا يُعني فقط العودة إلى داخلها، وإنما أيضًا الخروج منها في صورة عشق نحو الكون.

«اعرف نفسك»، تعرَّف إلى الشمس الكامنة داخلها.

تأمَّل في العلاقة بين النور والروح: «فالأول هو المحرك في المجال الفيزيائي، والثاني في المجال الأخلاقي، هما أعلى الطاقات التي يمكن إدراكها». (يوهان فولفجانج جوته).

كثير التحدث عن الذنب، مذنب هو.

لا تدع نفسك تنجرف وراء الحديث عن «المختلف»، والآخر». «المختلف» هو أنت، وأما بشأن «الآخر» فهو أنت أيضًا.

لا تخف من الخيالات الجنسية الجامحة وغير المعقولة، لا تخجل منها؛ إن بان وهرمس وإيروس يقفون بجانبك. توخَّ الحذر دائمًا من أن هدفهم ينصبُّ دائمًا نحو المتعة المشتركة. عليك ردعهم إن انحرفوا ناحية العنف والقمع، وامحهم تمامًا في الحال.

لا يُقصد بالجماع امتلاك جسد الآخر، بل يراد به تماهي جسد المرء في جسد الآخر، كالقهوة سريعة الذوبان في الماء المغلي، اذهب وشاركهم إذن.

إن أي وحشية تعد بمنزلة ابنة التملُّك، هل كان أجاممنون يعرف ذلك على الأقل؟

اتقن قوة المداعبة المثيرة، إنها تشبه تلك التي يفعلها الريح على بتلات شقائق النعمان.

مَن يقول: هذه المرأة لي، فهو يقتلها بدءًا من تلك اللحظة.

لا يمكن أن تبقى ذاتك كما هي وأنت تحب، يجب أن تتبدَّل، وتتكيف، إلى أن تتوافق نفسك مع الآخر، حتى زيوس، سيد الآلهة، كان يفعل ذلك.

عندما يختلجك الحسد فهذا لأنك تشعر بالنقص في داخلك، أما عندما تراودك الغطرسة، فهذا لأنك تحسُّ بالعظمة في داخلك. حاول أن تشعر بقيمة ذاتك في سجيتها الحقيقية، فأنت لست في حاجة إلى التطلع نحو الأعلى أو نحو الأسفل؛ فالأفق سيكون أمامك، لك فحسب.

من الصعب، بل ومن المستحيل، إدراك ملء الحياة؛ ربما يعني هذا أنك عثرت على الكأس المقدسة، والتي يعلم الجميع حقيقة وجودها ما دام يُبحث عنها، ما دام الوقت لا يزال قبل الأبدية.

طوبى لبلدٍ ليست في حاجة إلى مناهضي البطل.

لا تكف عن البحث أبدًا؛ عن الكأس المقدسة، الصوف الذهبي، المعرفة، المتعة، الجمال، الدهشة، الإيمان، الحقيقة، الحب. لن تحصل إلا على جزءٍ زهيد من كل ما كنت تبحث عنه. البحث يحمل الرضا في براثنه، يضفي منطقًا على حياتك، وتوجيهًا لنفسك.

لا تكف عن التمنِّي أبدًا، ليس هناك مَن يكون صغيرًا جدًّا، أو عجوزًا جدًّا، أمام الرغبة.

عندما تفكر في ماهية المثلية الجنسية، تذكر هرقل، العظيم بين الأبطال، الذي أُغرم بهيلاس، الفتى الوسيم، حتى إنه تخلى عن البحث عن الصوف الذهبي ليبحث عنه.

أي حب أو عاطفة تفوق قيمتها ثراء أو سلطة، بل وتجعل البطولة، في النهاية، عديمة الفائدة.

عندما أتساءل عن سبب كوني مغاير الجنس، أجيب وأقول: بالصدفة البحتة.

رهاب المثلية هو ضد الطبيعة.

يسكن تيريسياس في أنفسنا جميعًا، إلى جانب هرمافروديتس، إن مبدأ الذكورة ومبدأ الأنوثة لهما متلازمان، لا ينفصلان.

عندما تشعر أن غريزة ما، عنيفة ومدمرة، تطغى عليك، ستشعر أن أثينا تقف خلفك وتسحبك من شعرك مثل أخيل، تطرحك أرضًا وتهزمك مثلما فعلت مع جبابرة فوضى ما قبل التاريخ، دعها تتدخل، واذعن لها.

كم من ضرر جلبنه إلى المسيحية تلك العجائز المتعصبات التقيات اللواتي يقضين حياتهن في الكنيسة يثرثرن ويغتبن بعضًا؟ إن كل الأشرار والبغايا والزانيات والشواذ كانوا أشخاصًا يتعامل معهم المسيح كصديقٍ، ويغفر لهم، ولم يتفوَّه بكلمة سيئة واحدة قط في حق أي منهم. أكرر أيضًا أن الحب الجنسي ليس شرًّا في ذاته، الشر هو أن تحكم وتدين من أعالي غطرستك الأخلاقية المزعومة، وتحيا بين فتور القلب والكراهية، وتزعم أن كل فعلٍ يجب أن يكون هدفه الكسب والربح، وترفض بعنفٍ كل ما يختلف عنك، وتستغل البشر حتى تُشيِّئهم، وتستغل أمنا الأرض حتى تتسبب في انهيارها وفنائها.

إن الشر المطلق، الشيطان، يكمن في نقصان الحب والرحمة والعدل، اسع لأن تنأى بنفسك عمَّن لا يعرف الحب أو الرحمة أو العدل.

إبَّان النهار، كلما تناهى إلى مسمعك صافرة الإسعاف، صلِّ من أجل المتعبين في تلك اللحظة، ربما يكون صديقك أو عدوك، صلِّ فحسب.

اذهب وواجه أعداءك وجهًا إلى وجه، لا تخشَ الكراهية أو العنف، واجه بوفاءٍ واحترم قواعد الشرف والأخلاق.

لأكثر من نصف قرن، ظلَّت السخرية من مفهوم الشرف (باعتباره «يمينيًّا») صفقة رابحة. النتائج تُرى بالعيان. تفشَّت الدناءة والازدواجية والتراخي والجبن إلى اليسار واليمين، حتى أوحلت بها النفس.

لا تنتظر الامتنان من أحدٍ، فإن عزمت على فعل الخير، فهذا شأنك وحدك.

لم تُدرج النفس بين أسهم البورصة، لا تُملي تقلباتها عليها البيع والشراء، لا سوق للنفس، وهذا لا يعني أنها تهبط تارةً وتصعد تارةً نحو الأعلى. لها الدببة والثيران خاصتها، تنحدر النفس غارقةً مع هاديس، لتزدهر مرة أخرى مع بيرسيفون؛ إذ تنعم بأسهمٍ إلهية.

لا تشعر أنك متروكٌ؛ هرمس هنا، حتى وإن لم تره أو تعرفه هو موجود، مثل رسول أو ملاك.

كل مَن يسعى إلى إنهاء علاقة بطريقة تراجيدية (خصوصًا الذكور)، هو شخص أمي قبل كل شيء، شخص لا يعرف مبادئ الحب الأولية: العطاء، لا الامتلاك، والبدء من جديد.

لبناء علاقة بين طرفين، يجب أن يؤمن بها كلاهما، يسعيان إليها، ويعملان باستمرارٍ لإبقائها حيةً، ويتجنبان أي زعزعة، ويتحققان من استقرارها، تتطلب العلاقة بين طرفين أقصى درجات الصيانة.

يُنشئ إيروس العلاقات، لكن بالاعتماد عليه فقط لن تدوم أي علاقة، يتولى زمام الأمور من بعده هيستيا وهيرا وأثينا وأبوللو. تظهر سبيس أيضًا، إلهة الرومان التي تجسِّد توقُّع الأحداث المواتية، وتُصور وهي تمسك بزهرة بيدها اليمنى.

أما بان وهرمس وديونيسوس هم آلهة العلاقات العابرة والمخطوفة والشهوانية، بين طرفين أو ثلاثة، تلك العلاقات الأقرب إلى الفرحة المطلقة، والزوال المطلق.

أما ربات الموقد والزواج، هيستيا وهيرا، فيبدو واضحًا أن أحدًا لم يقتفِ أثرهما من قبل، رغم ذلك أنهما ربات ذات قوة شاسعة ومظلمة، فلا تنسهم.

حتى بعد أن تتناول وجبة خفيفة، دع نفسك تنعم ببعض الراحة. حتى إن كنت تجلس أو تجلسين على طاولة إحدى الحانات أو مقعد في حديقة، تخلص لبعض دقائق من كل الأفكار، أطلق لخيالك العنان، صلِّ، لا تدع دوامة الانشغالات اليومية تحيط بك حتى تغمرك.

المساء

ببلوغك المساء، عليك أن تروي لنفسك تفاصيل يومك. قيِّم كل الخير أو الشر الذي فعلته والذي فعله الآخرون بك. أعد التفكير بكل الأشخاص الذين قابلتهم، سواء وجهًا إلى وجه أو قابلته عبر شاشة الكمبيوتر. أعد صياغة ما تحدثتما بشأنه، أعد رؤية أي لحظة كانت ممتعة، اشعر بمذاقها اللذيذ من جديدٍ، وتذكر سببًا أضحكك، وعاود الضحك مرة أخرى، تحدث إلى نفسك بلا خيالٍ ومن دون رقابة، إن ذلك بمنزلة تمرين جيد للنفس.

إن استطعت، فراقِب الشمس إبَّان غروبها، هيِّئ نفسك لقدوم الظلمة.

أشعل ضوء المصباح بأسرع ما يمكن «حتى وإن لم يره أحد، فالله يفعل» (خورخي لويس بورخيس).

من حقك أن تعمل، طالِب بذلك الحق بكل ما تملك من قوة، لا ينتمي التسكع والتراخي إلى الحقوق، بل إنهما بمنزلة خيارين فقط يمكن أن يكون لهما جانب إبداعي وآخر مدمر، تعرف النفس ذلك جيدًا.

الاستهلاك لا يندرج تحت الحقوق، بل إنه ضرورة، تعرف النفس تقييم ما ينقصها وما يمنحها المتعة بحقٍّ. أولئك الذين يدعون أنفسهم للإغواء والاستدراج للموجات الاستهلاكية عبر الإعلانات وإنفلونسر الشبكات الاجتماعية، نفوسهم متأرجحة، هشة، ومعرضة للخطر.

يخلق الخيال الخيالات؛ احظَ ببعض منه، اصنع خيالك الخاص، انظر إلى نفسك كإلهٍ أو بطل إغريقي وفكِّر في بطولات بمقدروك إنجازها. يبدو الأمر مثيرًا أكثر من ألعاب الفيديو.

إن كنت لا تستطيع رؤية اللا مرئيات، فارتدِ نظارة الأسطورة.

من فضلكن أيتها الأمهات، في البداية أخبرن أطفالكن بشرور العالم، بالوحوش المتجولة من حولهم، بألا يثقوا تمامًا بأي أحد، لكن بعد ذلك أظهرن لهم بواسطة محبتكن روعة العالم،

والملائكة الساكنة في جوانبه، والجمال في الانفتاح على الآخرين عبر الابتسامة.

كل امرئ في حاجة إلى أم، بما في ذلك الله نفسه.

أعرف نساءً ورجالًا لا يحتملون مشاهدة ذلك النوع من الأفلام حيث يعرضون مشاهد العنف القاسية، لم أفهم السبب قطُّ، عبثًا ننكر أن العنف والقسوة والانحراف والمعصية وزنا المحارم والخيانة لا تسكن النفس البشرية. تبرز الأسطورة والتراجيديا اليونانية وجود الفظائع الأكثر وحشيةً، رغم كل ذلك فإنهم يجلبون إحساسًا بالتهدئة والتطهير، كانوا يطلقون عليها «التنفيس»(131)، عملية لا غنى عنها للنفس.

(131) طقوس التطهير السحرية في ديانة اليونان الكلاسيكية تهدف إلى تطهير الجسد والروح من كل ذنب.

إن كنت أبًا، فلا تتسيَّد أبناءك، ولا تفرط أيضًا في صداقتهم، كن أبًا فحسب؛ فهذا ليس بالأمر الهين.

إن كنتِ أمًّا، فلا تضعي كل ما تملكين في أبنائك، الحب الغزير لا يعوَّض عنه المرء أبدًا، امنحي حبكِ وكفى. يحمل حب الأم في طياته طاقة هائلة، تحكَّمي بها، وتذكري دائمًا أن تحتفظي ببعض الحب لنفسكِ فحسب.

حسب حكمة الهندوس، فإن حب الزوجين يأتي في المرتبة الرابعة من حيث الشدة والأهمية. أما في المرتبة الخامسة، الأعلى، فهناك ما لن نتوقعه أبدًا: الحب المنتهك، المخالف للعرف، الشهواني، ذلك الذي يربط كريشنا ورادها، حب الظلمة الروحاني الذي لا يستطيع مقاومة جاذبية اللهيب المتقد على الشمعة.

إن كان الله قد شعر بحاجة إلى أن ينبهنا بواسطة موسى، بأحرف من نار، بضرورة تكريم المرء لأبيه وأمه، فذلك لأنه كان يعرف مسبقًا كثرة الأبناء الذين لن يفعلوا ذلك.

يبدو أمرًا عسيرًا، لكن ما زال بمقدور الابن أن يكرِّم أمه ويحبها إلى النهاية، ويشعر بالارتباط ناحيتها عبر الروح والجسد؛ أي في الأعماق السحيقة للنفس.

كل مَن لديه نفس، لديه قدر، توخَ الحذر من أولئك الذين يجرؤون على الاستهزاء بالقدر.

إن الأزواج السعداء، قد ينتهي بهم الأمر بتكسير الأطباق على رؤوسهم وتوجيه بعضهم أبشع الإهانات إلى بعض، مثل زيوس وهيرا، ولكن رغم كل ذلك يستمرون في الحب، دون سبب واضح، كما لو أن قدرهم يدفعهم إلى ذلك.

قبل أن تشكك في جوهر نفسك الإلهي، فكر في شيفا وزيوس وأفروديت وديونيسوس وهرمس، تلك الآلهة التي تسعى إلى الرقص والخيانة والحب والثمالة والسفر بين المرئي واللا مرئي؛ كما تفعل نفسك دائمًا.

لا تلزم نفسك بفعل أشياء لا تحبها؛ اسعَ لمعرفة سبب عدم حبك لها ثم بدِّلها كما تشاء.

حتى المشكلة الأكثر تعقيدًا التي تواجهك، عندما تحلها سرعان ما تسقط على الأرض وتموت مثلما حدث لسفنكس أمام إجابة أوديب.

حتى نطارد الوحش الجاثم في الجزء السفلي العميق الغامض من أنفسنا، الذي يحاول أن يُحجِّرنا، ويُفقدنا الإحساس، ويمحو هويتنا، علينا أن نتحلى بالشجاعة والتهور والشعور بالتحدي والاستعداد والمثابرة والذكاء والقوة والحظ؛ تذكر بيرسيوس وهو يطارد ميدوسا.

الشكل الوحيد الذي يلزم أن تعهد إليه بالحداد هيفستوس لتركيز كل جهودك، هو «الأسلوب»، إن كنت مبدعًا في أي مجال كان. في أثناء الحب والصداقة والحياة الاجتماعية والعمل يجب أن يكون مهرب الخروج متاحًا دائمًا، ثق بهرمس. نصحني أحد أساتذتي المرموقين عندما كنت طالبًا: «ابق بقدمٍ في الميدان، وابق بالأخرى في المحطة».

الخلق والمعرفة والحب، إن كان الله الواحد الثالوث هو كل هذا، فهذا يمكن أن يكون كافيًا للنفس.

سافر بأكثر من استطاعتك، وحالما تستطيع، ليس لديك أي عذر، لن يكلفك الكثير، ولا يتسم بأي خطورةٍ -على الأقل حتى وقت قريب- ويمكنك أن تفعل ذلك برفقة آخرين أو بمفردك، ستجد لديك متسعًا من الوقت دائمًا للقيام بذلك، تحرَّكن وإبَّان حركتك ستحب دائمًا نقطة الوصول أكثر من نقطة الرحيل، كن «تابعًا للبربرية».

ثق بأن الأفضل سيأتي عاجلًا أم آجلًا.

عندما تكون في بلد أجنبي، عليك بتبني عاداتها وتقاليدها وطعامها وأفكارها عن الجمال وعن آلهتها؛ ستخرج منها بقوة أعظم عندما تعود إلى بلدك الأصلي.

في الحقيقة، الكون هو بلدك الأصلي.

إن كنت تشعر بحميمية نحو الاسترخاء في المنزل، فلا تقلق، بمقدورك أن تسافر بين زهور الحديقة، بين الكتب في منزلك، بين الأفلام والموسيقى، لكن في هذا الوضع يلزم أن يرافقك قط

.أو قطة، لا يصح أن تحب الاسترخاء في المنزل وتستغنى عن أي منهم

الليل

خصِّص ساعةً من نهارك للموسيقى أو السينما أو القراءة، يمكنك اقتناص ساعة أو نصف ساعة، يمكن الحصول عليها في خضم فوضى الأحداث اليومية. اركض، من دون سرعة، اذهب إلى صالة الجيم ولكن من دون إفراط (وأهم شيء أن تستثمر وقتك ولا تهدره في متابعة النقاشات السياسية على التلفزيون). تسعى النفس إلى تحقيق التوازن بين الجسد والروح، حاول .أن تُطعمهما بالقدر نفسه

.إن قلت إن كل الأديان الأخرى ليست على حقٍّ، فبذلك تجحد ديانتك أيضًا

يتساءل البعض: «هل تؤمن بالله(132) بالفعل؟». تمامًا كما يتفاجأ إيطالي أن الإنجليزي يؤمن بالله(133)، يا إلهي!(134) الله بالعربية نجد مثيلتها في الإيطالية «ديو»، وهو الإله ذاته لإبراهيم .وإسحق ويعقوب

132) وردت Allah.

133) وردت God .

134) وردت Oh my God!

لا تزعم بأن جذورك تنبع من أرضك فحسب، تنبع جذورك من الأرض كلها، كسائر الكائنات .الحية؛ هذا هو الوعي الكوني المهم الآن في عصرنا، في القرن الحادي والعشرين

لا تعبأ بالمناظر الطبيعية فقط، فهي اختراعات ثقافية ببساطة متناهية، انظر بالحري إلى ما وراء التل والبحيرة والجبل وحقل عباد الشمس، أحبَّ تيار الطاقة الإلهية المار في جوانب .الطبيعة، أحبَّها بك وخارجك

إن نفس الأرض ونفس الشمس مثل نفسك؛ ثمة علاقة بينهم، إنهم يرتبطون مثل ثلاث حلقات بسلسلة واحدة، إن انكسرت حلقة واحدة منهم، يتعرض توازنك وتوازن الكون برمته لخطر .جسيم

طالب بإنشاء الكثير من الحدائق في المدن، إنه حق من حقوق النفس. طالب بذلك في مواجهة الذين لا يسعون إلا لتشييد البنايات الخرسانية الزجاجية الصلبة المتشابهة تمامًا، ومراكز التسوق التي لا يختلف أي منها عن البعض الآخر. تنعكس النفس داخل الحديقة في ازدهارها

وذبولها، وتعدد ألوانها، ومظهرها المزروع والمُقفر. أتينا جميعًا من حديقة منذ أيام آدم، وقد أصبحت الحديقة بمنزلة الوجهة التي ترنو إليها أنفسنا في رحلتها.

من أجل حماية الكوكب، عليك أن ،(Save Our Souls) إن كنت تريد إطلاق حملة س وس؛ تخلص بنفسك أولًا.

أعد بوسيدون إلى البحر، وزيوس إلى السماء، وأفروديت إلى الربيع، وأرتميس إلى القمر، وبان إلى الغابات، والحوريات والساتير إلى الأشجار والينابيع والجبال، هكذا فقط ستنقذ الطبيعة. وإنني على قناعة بأن الإله الوحيد للمسيحيين واليهود والمسلمين، ذلك الإله الذي تعشق روح الألوهة داخله، لن يطالبك بأكثر من هذا.

فكِّر بأن كل ركن من أركان نفسك لهو ركن مقدس، بما في ذلك الجوانب المظلمة والمتقيحة والكهفية التي تحاول تسليط الضوء عليها وأنت تتم صيانتك.

نجهل سبب وجودنا، نحن البشر، على سطح هذه الأرض، ربما تحمل مغامرتنا في الكون قيمةً في باطنها، وأيًّا كانت تلك القيمة فنحن نشعر أن «ثمة روحًا كامنة في عمق الإنسان تكافح ضد العدم والانحلال» (بيرسي بيش شيلي)، ربما يكمن المعنى هنا تحديدًا: أن نقاتل، وننشر النور.

ليس من اسمٍ مطمئن وأجمل من الـ «أخت» والـ «أخ»، ليست صدفة أن يتم المناداة بأي منهما بين الرجال أو النساء المكرسين لخدمة الله، أو يتم استخدامهما للإيحاء بعملٍ عظيمٍ رهيبٍ مشتركٍ: «من أي فيلق أنتم/ أشقاء» (جوزيبّى أونجاريتّي).

النفس شقيقة الروح، ويجمعهما معًا مبدأ الألوهة.

يرى القديس فرنسيس أن الأخ بمنزلة الشمس، والإخوة هم الريح والنار، والأخوات القمر والنجوم والهواء والماء والأرض، فالإخوة والأخوات هم كل شيء، بغض النظر عن المملكة التي ينتمون إليها، هذا ما تشعر به النفس إذا كانت طاهرة.

عندما تتسلل إليك ملامح الكرب والذعر، ولسوف تتسلل لا محالة، فنادِ أبوللو وأثينا وهرمس وبيرسيفون الذين ينجحون في إبعاد بان؛ رب الذعر وسيده.

لا تدع طغيان العلم والتكنولوجيا والاقتصاد يمحو طبيعة الأشياء الرائعة،

تتوق النفس وتجوع إلى الروعة والسحر والغابات مثل غابات بروسيلياند والقلاع مثل قلعة تينتاجيل حيث كان يعيش الساحر مرلين وينشر تعاويذه.

في بعض الحفلات الماجنة، يعلنون عشقهم لديونيسوس بصورة مبتذلة، بمحاكاة ساخرة له، إن ديونيسوس الحقيقي يمقت تمامًا أن يُعبد بهذه الطريقة.

يشارك ديونيسوس في أي مونولوج مسرحي كبير أو عرض موسيقي يأسر القلوب، يتجلى باخوس في كأس من النبيذ، حتى أرخص الأنواع، الذي يدفعنا إلى التعزية والنسيان.

للنبيذ نفسٌ ومجد لا يعرفه إلا القليل من شاربيه.

تحلَّ بالحكمة، واشرب واستمتع بعطر زهرة الربيع.

إن كنت تشعر بالحزن والخواء ففكر في جمال الاستيقاظ في صباح اليوم التالي، والفرحة البسيطة لفنجان قهوة الصباح الأول.

إن استطعت، فاذهب إلى مشاهدة بزوغ القمر، تتأهب النفس للترحيب بأرتميس ذي النور الخافت الفضي، وحشية الليل.

قبل أن تخلد إلى النوم اشكر روح الحياة (يمكنك تسميتها الله) التي أبقتك على قيد الحياة، أي صلاة ستكون لائقة، صلِّ للأب والأم، تحاور مع اللار المنزلي الخاص بك، لا تبخل بتحيتهم.

تحب النفس القصص.

كان هيبنوس بمنزلة إله النوم لدى اليونانيين، كان توأم ثاناتوس، رب الموت، لكنه كان شقيقًا صالحًا يأتي ومعه الراحة والاطمئنان والنسيان، حاول أن تفكر مرة أخرى بأن نومك شيئًا إلهيًّا.

إن تأخرت في نومك، فاترك لخيالك العنان، اجمع كل الأشياء التي تريدها النفس، ثم اكتبها وامنحها المساحة المطلوبة.

تفوق الأحلام التي تحلمها مفتوح العينين أو بعينٍ نصف مغلقة، أهمية الأحلام الليلية بالنسبة إلى النفس، إذ لا يكون الضمير قد انطفأ بعد ولا تكون الرغبات العميقة قد طفت بالأعلى.

بالنسبة إلى الإغريق، كل شيء يتسم بالألوهية، حتى الظلمة والألم، لكن كل شيء يميل نحو النور، حتى الليل يبلغ ذروته في صورة إيبوس «ذي الأصابع الوردية» إبَّان السحَر.